نفحات الرحمن

في

رياض القرآن

تأليف الشيخ

محمد بن ابراهيم سعيد كعباش

الجزء العاشر

نشر جمعية النهضة

العطف - غرداية - الجزائر

نفحات الرحمن

في رياض القرآن

تأليف فضيلة الشيخ

محمد بن إبراهيم سعيد كعباش

الجزء العاشر

نشر جمعية النهضة

العطف– غرداية– الجزائر

المطبعة العربية 11 نهج طالبي احمد غرداية

تخريج الأحاديث، الفهرسة والتنسيق الفني:

أ. قاسم بن عمر حاج امحمد

أ. عبد الله بن موسى ابن عيسى

حقوق الطبع محفوظة

1431هـ /2010م

طبع: المطبعة العربية 11 نهج طالبي أحمد - غرداية

الهاتف / فاكس: 53 .36 .88 (029)
الشبكة المباشرة: 34 .34 .87 (029)

الإيداع القانوني رقم 1042 /2010
ردمك: I.S.B.N: 978-9947-845-31-8

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا
آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

(سورة ص: آية 29)

صدق الله العظيم

سورة الشّعراء مكيّة، وآياتها ٢٢٧

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بـ"الشّعراء" لأنّها تفرّدت بذكر هذه الكلمة في أواخرها بقوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الآية:٢٢٤). وقد قارن الله بين الشّعراء المؤمنين كحسان بن ثابت وابن رواحة وبين الشّعراء الضّالين الذي كانوا يهجون رسول الله والمؤمنين معه، كأمثال النضر بن الحارث والعوراء بنت حرب زوج أبي لهب، وردّ الله على المشركين زعمهم بأنّ رسول الله شاعر.

وهي السّورة السّابعة والأربعون في عداد نزول السّور، وهي السّادسة والعشرون في ترتيب السّور بالمصحف الشّريف، وهي مكّية في مجموعها إلاّ ما ذكره ابن عباس من أنّ الآيات من قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ إلى آخر السّورة هي مدنية، وعدد آياتها مائتان وسبع وعشرون آية، وفي فضلها روى البراء بن عازب أنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ الله أعطاني السّبع الطّوال مكان التوراة، وأعطاني المبين مكان الإنجيل، وأعطاني الطواسين مكان الزّبور، وفضّلني بالحواميم والمفصّل، ما قرأهن نبيّ قبلي**».[1]

وسورة الشّعراء من الطّواسين، أمّا مناسبتها لما قبلها فأورد لذلك ما ذكره الإمام المراغي في تفسيره إذ قال باختصار: "ومناسبتها لما قبلها من وجوه:

أ)- إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر في موضوعات سالفتها كقصص الأنبياء.

ب)- إنّ كلتيهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم.

١- أخرجه ابن نصر في "قيام الليل"، من حديث الحسن عن أنس مرفوعاً، ص ٦٩.

ج)- إن كلتيهما ختمت بإبعاد المكذّبين".(١)

ونظرا لإلحاح المشركين في طلبهم لآية مادية تبهرهم وتحملهم يصدّقون رسول الله، فقد تكرّر قوله تعالى في هذه السّورة ردًّا على ذلك الطلب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

تكررت هاتان الآيتان ثمان مرات، وفي فائدة تلك التكرار يقول الإمام الزمخشري: "ولأنّ في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور...، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأنّ هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذناً أو يفتق ذهناً".(٢)

ب)- المحاور الأساسية للسورة:

أ)- التنويه بشأن القرآن العظيم وأنه تنزيل من ربّ العالمين، معجز في مبناه ومعناه، عجز المشركون عن معارضته، وعجزت الشياطين عن تشويش تنزيله.

ب)- تسلية رسول الله على ما كان يلاقيه من أذى قومه، وبيان أنّ الصّدود والإعراض وتكذيب الرّسل كان من شأن الأمم الخوالي، وضرب الأمثال بما حلّ من العذاب بالمكذبين، وأنّ الله قادر على أن ينزّل آية تخضعهم إلى الإيمان بالله، ولكن اقتضت حكمته أن يرتكز الإيمان في أمة الرّسول بالحجّة والإقناع.

ج)- الاستدلال على وجود الله ووحدانيته بما تنبت الأرض من كلّ زوج بهيج.

١- تفسير المراغي: ٧/١٩ج.

٢- الزمخشري، الكشاف: ٥/٤٢.

د)- إرشادات لرسول الله في البدء بعشيرته الأقربين في الإنـــذار، ومعاملـــة المؤمنين باللّين والتواضع، ونفي الشاعرية والكهانة عنه.

و)- ما يتخلل ذلك في ثنايا السّورة من التهديد والوعيد للمكـــذّبين، وأنّ لهم من الأمم الخوالي عبرة لو كانوا يعقلون.

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ
الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ
مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ
إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: القرآن كله، أو آيـــات هذه السّورة، و﴿الْمُبِين﴾: أي الظّاهر في إعجازه ووضوح معانيه، أو مـــبين مـــن "أبان" المتعدي، يبين معاني الحق. ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾: ﴿لعلّ﴾: للترجّي الذي يراد به الإشفاق من الشّيء المخوف. ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ﴾: أي مهلكها مـــن شـــدة الحزن، وأصل البخع المبالغة في الذّبح، يقال: بخع الشّاة، بلغ بالسّـــكين البخـــاع -بكسر الباء- وهو عرق مستبطن فقر الرّقبة. ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾: الجملـــة في موضع النصب على نزع الخافض بعد ﴿أنْ﴾، والتقدير: لأن لا يكونوا مـــؤمنين. ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾: ﴿ظلّت﴾: فعل ماض بمعنى المضارع، أي تظـــل

وتدوم. ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾: جمع: عنق، أي الرقبة، أسند الخضوع إليها لأنها مظهر الخضوع عندما تنكس الرؤوس تذللا، ووصفت بصفة العقلاء على تقدير الإسناد إلى أصحابها. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾: أي القرآن، لما فيه من المواعظ والإرشادات، وصيغة للمضارع تفيد التجدد والاستمرار، ﴿مُحْدَثٍ﴾: أي الجديد في الإنزال وذلك لتوالي الآيات في النزول لتكرار التذكير. ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾: الأنباء جمع نبأ، وهو الإخبار عن حدث عظيم، وهو ما توعدهم به القرآن من العذاب الدنيوي والأخروي. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: استفهام للإنكار والتوبيخ على عدم رؤيتهم، ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾: "كَمْ" تدل على الكثرة، والزوج: النوع من كل صنف من النبات.

ج)- أوجه القراءة:

﴿طسم﴾: قرأ الجمهور: ﴿طسم﴾: كلمة واحدة وادغموا النون من سين في الميم، وقرأ حمزة بإظهار النون، وقرأ جعفر: حروفا مفككة، قالوا: هي كذلك مرسومة في المصحف. ﴿نُنَزِّلْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿نُنَزِّلْ﴾ بالتشديد في الزاي وفتح النون الثانية، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بضم النون الأولى وسكون الثانية وتخفيف الزاي أي من فعل: أنزل. ﴿مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً﴾: أبدل الهمزة الثانية ياء كل من نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس، وقرأها باقي القراء همزة محققة.

د)- البيان والتفسير:

﴿طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: بُدئت سورة الشعراء بثلاثة حروف مقطعة: الطاء والسين والميم، وهي تندرج في عداد السور المبدوءة بتلك الحروف، وعددها في القرآن كله تسع وعشرون سورة، بينما تمثل تلك الحروف

المقطعة نصف حروف الهجاء -أي أربعة عشر حرفا-، وقد اختلف المفسّرون في اجتهاداتهم لبيان المراد منها بما لا يمكن أن نجزم بحقيقته إذ لم يصح عن رسول الله شيء من ذلك، وبالتالي ليس لنا إلاّ أن نفوّض فيها الأمر إلى الله وهو أعلم بمراده، وإن جاز للعلماء أن يحاولوا فكّ لغزها متى شاء الله ذلك.

فلا يسعنا إلاّ أن نذكر في بيانها ما ذكرناه في مثيلاتها من الحروف السّابقة، من أن المراد بها -والله أعلم- هو التحدّي لمنكري القرآن أن يأتوا ولو بسورة من مثله في بلاغته وفصاحته، وهو المنزّل بلغتهم، وتلك حروفهم وكلماتهم التي يستعملونها، أما وقد عجزوا عن الإتيان بمثله، فإنّ ذلك دليل على أنّه ليس بكلام بشر كما يزعمون.

ولعلّ ذكر القرآن وآياته بعد تلك الحروف في أغلب السّور المبدوءة بها، ممّا يؤيّد هذا التوجيه، مثل ما ورد في هذه السّورة إذ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾، الإشارة إلى القرآن، والتنصيص على الآيات مضافة إلى الكتاب، هو للمبالغة في التحدّي بالإتيان بجزء منه؛ لأن كل آية فيه لها من خصائص الإعجاز ما في الكتاب كلّه، كما أنّ الإشارة إليه بـ"تلك" للدّلالة على علوّ منزلته وسموّ قدره، أمّا كونه كتابا مبينا فمعناه أنّه ظاهر واضح في دلالته، ميسّر للتدبّر شامل لمعاني الهدى والرّشاد؛ لأنّه من عند الله، حتى لكأن آياته ناطقة تفصح عن مرادها، فيعيها كل متدبّر سميع.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: يتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بعد تلك المقدمة التي نوّهت بشأن القرآن الكريم في بالغ إعجازه وظهور معانيه، وعلى ذلك لا يزال المشركون من قومه غير مصدّقين به، مما يدخل الهمّ والحزن في نفس الرّسول، فأعقب الله تلك المقدمة بهذه التّسلية لتـزيل ما في قلبه من همّ وحسرة بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾، و"لعلّ" للترجّي، وهي مستعملة هنا لمعنى الإشفاق، و"البخع" هو بمعنى الذّبح البالغ فيه حتى نخاع الرّقبة؛ وهو

مستعمل هنا بمعنى الهلاك، أي أنّ الرّسول قد تملّكه الحزن من كون النّاس لا يصدّقون دعوته سيما أولئك النّفر من قومه وعشيرته.

وقوله: ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي إنّك تحزن لانتفاء إيمانهم في المستقبل، وجاء نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦). ويستروح من هذا الخطاب معنى اللّوم اللّطيف لرسول الله أن يحث نفسه بقوم لا يشفقون على أنفسهم من عذاب الله، ولكنها الطّبيعة البشرية التي فطرت على الاهتمام بأقرب النّاس إليها، سيما وقد أمره مولاه بأن يبدأ بهم في دعوته فقال له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤). وقال له أيضا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى:٧).

ولا أقسى على النّفس الحرّة الأبيّة من ظلم ذوي القربى، وهي لا تريد لهم إلا الخير والصّلاح، وقديما قال طرفة بن العبد:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنّد

ولشدة حرص الرّسول على إيمان قومه كان يتطلع إلى أيّ سبب يحملهم إلى الإيمان به، مما كانوا يطالبون به، فجاء قوله تعالى: **﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾**

أي إنّ الله قادر على أن ينزّل عليهم آية خارقة ترغمهم على الإيمان فيدخلون في حظيرته خاضعين لو شاء ذلك، ولكن حكمته البالغة اقتضت أن يكون الإيمان بالاقتناع الذّاتي والاختيار الحرّ، ففي القرآن وبلاغته وإعجازه ما يكفي من الدّعوة والتّحريض لأولئك الطّغاة لو أنّ الله تعالى هداهم للإيمان، ثم إنّه تعالى يعلم ما بلغه العقل البشري من النّضج والتّضج بحيث لا تبهره تلك المعجزات المادية، فجعل معجزة رسوله الخاتم قرآنا يتلى وجعله تبيانا لكلّ شيء وضمّنه

أسرارا لا تنكشف لخلقه إلاّ بعد أمد طويل وجهد كبير. وقد تردّد كثيرا في القرآن مثل هذا العتاب اللّطيف لرسول الله على تلك العاطفة الصّادقة في حرصه على إيمان قومه إشفاقا عليهم من عذاب الله إن هم أصرّوا على الكفر وذلك من مثل قوله تعالى له:

أ- ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

ب- ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨).

جاء التّعبير بالأعناق لأنها مظهر الخضوع في أجزاء الجسم إذ تلتوي عند تنكيس الرّأس خضوعا وذلّة، والمقصود هم أصحاب الأعناق إذ جاء الوصف: ﴿خَاضِعِينَ﴾ للعقلاء.

وإذ طبع هؤلاء على العناد واللّجاج، والقرآن تتوالى عليهم آياته تنزيلا وتذكيرا، ولكنهم كيف كانوا يتلقونه؟، قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾.

لم ينزل القرآن جملة واحدة كما رغبوا في ذلك، بل كانت آياته تتوالى في النّزول على مدى ثلاث وعشرين سنة لمتابعة تذكيرهم وإرشادهم بكلّ ما هو محدث جديد قويّ في إعجازه وتأثيره، وذلك تقتضي رحمة الله بهم واستئناسهم على مهل؛ لأنّ التذكير بما هو جديد أوقع في النّفس من القديم المألوف، ولكنهم لا يزدادون إلاّ نفورا وإعراضا، حتى أصبح الإعراض عن الحقّ ملازما لهم وشأنا من شؤونهم علوّا واستكبارا، وكان من نتيجة ذلك أن يكون التّكذيب بما ينزل عليك هو موقفهم العنيد: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

العطف بالفاء في الجملتين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾، ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ تفيد كلّ منهما ترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي ترتّب على إعراضهم التّكذيب بما أخبر به القرآن في كلّ ما جاءهم به من تذكير وما يقرعهم به من إنذار ووعيد، أعقبه الله تعالى بإنذارهم على استهزائهم بالحقّ الذي أُنبأ به القرآن، سيما بأحداث قيام السّاعة وأهوال اليوم الآخر؛ لأنّ النبأ هو الخبر عن الحدث العظيم، ويجوز أن يراد به التهديد بما سيحيق بهم من العذاب العاجل في الدّنيا من القتل والأسر وأخذهم بالسّنين.

ولما كان الدّافع لإعراضهم وتكذيبهم هو فساد تصوّرهم لمعنى الألوهية والرّبوبية بالشّك في وحدانية الله وقدرته، جاء تذكيرهم بنعمة الله عليهم في ما يتنعّمون به من خيرات الأرض فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

ماذا يطلب هؤلاء من الآيات ليصدّقوا بما جاء به الرّسول؟، وقدرة الله تتجلّى لهم في المكان والزّمان لو أنّهم كانوا يتأملون ويعتبرون، وإذ كان شأنهم الإعراض والتّكذيب بحيث لا تجدي فيهم الآيات، فقد جاء العطف هنا بالاستفهام الإنكاري للتّوبيخ على تعاميهم بما هو في متناول أيديهم مما سخره الله لهم من نبات الأرض بمختلف أنواعه أصنافا وأشكالا، وهي كريمة في تنوّع منافعها طعاما ولباسا وزينة وجمالا، وذلك من فضل الله عليكم، وإسناد الإنبات إلى نون العظمة بعد ﴿كَمْ﴾ الخبرية هو لتضمّن الامتنان مع التّدليل على قدرة الخالق في توفير الأرزاق لمخلوقاته حيث أشار إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، وفائدة التّوكيد بـ"إنّ" و"اللام"؛ لأنّه بإزاء منكرين شاكّين، لأنّهم على وضوح تلك الآية فإن الكثير منهم مصرّون على الكفر، بمعنى أنّ من يعتبرون ويؤمنون هم القلّة، والله القويّ القاهر غنيّ عن خلقه، عزيز في سلطانه، وهو الرّحيم بخلقه يذكّرهم بآيات

عظمته ولا يعجّل لهم العذاب لعلهم يتذكّرون، وقد تكررت الآيتان ثمان مرات في السّورة الكريمة، مرّة هنا مع هذه الآية الكونية الوحيدة، وسبع مرّات مع الآيات الزّمانية من تاريخ الأمم الخوالي التي يتيسر بها الاعتبار لكل أحد، والله أعلم.

مِن قصّة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه

أ)- النصّ:

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ
هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم
مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ
وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف للزّمان الماضي متعلق بمحذوف تقديره: اذكر، أو اُتل يا محمد. ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: "أن" وما بعدها تفسير لجملة: ﴿نَادَىٰ رَبُّكَ﴾. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾: "قوم" منصوب على البدلية أو هو عطف بيان. ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾: الاستفهام إنكار لانتفاء تقواهم، وهي للدّلالة على التعجّب. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾: الضّيق مستعار للغضب

والقلق، لا ينطلق لسانه للحبسة التي فيه فلا يستطيع الإفصاح بما يريد. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ﴾: لأنه قتل قبطيا قبل أن يصطفيه الله بالرّسالة. ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾: لم يكن خوفه من القتل في سبيل الله، وإنما كان خوفه أن تضيع الرّسالة. ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾: "معكم" بالجمع أجري مجرى الجماعة للتعظيم، أو لدخول قوم فرعون عند التبليغ. مستمعون: لتأكيد السّماع. ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: تضمن كلمة: ﴿رَسُولُ﴾: معنى الرّسالة، أو قصد به الجنس، فكل من موسى وهارون رسول يبلغان رسالة واحدة. ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾: الاستفهام للتقرير في معرض الامتنان، والوليد: أي من وقت ولادته إلى فترة فطامه، ويسمى بعد ذلك طفلا. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾: الفعلة -بفتح الفاء- المرة الواحدة من الفعل وهي هنا قتله للقبطي، ووصفها بالموصول؛ لأن موسى ﷺ يعلمها ويقرّ بها، ولم يصرّح له بما فعل لقصد التهويل والتوبيخ. ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾: اعتراف من موسى بما فعله، وأنه قد أخطأ في ذلك وهو تائب إلى الله، ولم يكن قد نبأه الله يومئذ. ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: الإشارة إلى نعمة التربية في قصر فرعون، وقوله بعدها: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: هو لقلب تلك النعمة نقمة؛ لأن تلك النعمة لم تتحقق إلا بسبب إذلال فرعون لبني إسرائيل حتى اضطرت أمّه إلى إلقائه في اليمّ، فإذًا لا تساوي تلك النعمة شيئا إذا قورنت بما حدث منك لبني إسرائيل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنِ ائْتِ﴾: أبدل الهمزة في الوصل كلٌّ من ورش والسّوسي وأبو جعفر، وحققها باقي القراء العشرة، وأمّا في الوقف فكلّ القرّاء يبتدئون بهمزة وصل مكسورة، مع إبدال الياء السّاكنة ياء مدّية. ﴿يُكَذِّبُونِ﴾، ﴿يَقْتُلُونِ﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم وصلا ووقفا، وقرأها باقي القراء بحذف ياء المتكلم. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾: قرأ يعقوب بنصب الفعلين "يضيق" و"ينطلق"،

بالعطف على: ﴿أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، وقرأهما باقي القراء بالرّفع على الاستئناف.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن أيأس الله رسوله من إيمان قومه، وأرشده أن يكفّ عن الحزن عليهم، وبعد التدليل على وحدانيته وقدرته بإنبات الأرض، ولمزيد من التسلية لقلب رسول الله بيّن الله له هنا بأنّ قومه ليسوا بدعا من الأمم، فذكر قصة سبعة من الرّسل السّابقين مع أقوامهم إذ كذّبوهم فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، فبدأ بقصة موسى عليه السلام بشيء من التفصيل في أغلب مراحلها، وتكرّر في نهاية كل قصة قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، تعريضا بكبراء مكة وتهديدا لهم على إصرارهم وعنادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾.

نظرا لطول النصّ الذي تعرّض لقصة موسى والذي تنتظم فيه الآيات من العاشرة إلى الثامنة والستين، آثرنا تقسيمها إلى مراحلها الأساسية مما أوردته هذه السّورة الكريمة.

وكان البدء بقصة موسى قبل ذكر الرّسل السّابقين عنه في ترتيب الزّمان، لوجود التشابه الكبير في المواقف، ما بين مشركي مكة وبين فرعون وقومه في الإعراض والعناد وطلب الآيات الخارقة.

وتبتدئ القصة هنا بمناداة الرّبّ تعالى لموسى في جانب الطّور الأيمن، وطوى ما كان من أحداث قبل ذلك مما هو مفصّل في السّور الأخرى، والخطاب موجّه لرسول الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ﴾، والجملة معطوفة على قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾، ومصدّرة بـ"إذ" المتعلق بمحذوف مقدّر بمعنى: اذكر يا محمد لنفسك ولقومك ما حدث لموسى مع فرعون وقومه، بعد أن تلقى نداء ربّه آمرا إياه بالذّهاب إليه، ولم يذكر فرعون باسمه، بل وصفه وقومه قبل ذلك بالقوم

الظَّالمين، وهم أحرياء بذلك الوصف لكفرهم بالله. ولبيان سنة الله في إرسال الرّسل وكيف تواجه دعواتهم بالصّدود والإعراض، ثم بيان عاقبة المكذّبين. وصفهم بالظّلم ثم عرّفهم بأنهم قوم فرعون؛ لأنّ مجرّد إضافتهم إليه تكفي للدّلالة على الظّلم والطّغيان لما أصبح يعرف به هذا الطّاغية عبر التاريخ البشري؛ إذ أصبح النّاس يطلقون على كل جبّار بأنه فرعون زمانه، وللأتباع حظهم الوافر في التّمكين للطّغيان والجبروت.

وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ جملة مستأنفة تدلّ على التعجيب من فرط ظلمهم وطغيانهم، ولذلك كان على موسى أن يدعوهم إلى التقوى، وهي دعوة ردّدها جميع الرّسل كما سيأتي في قصصهم، ويكون الاتّقاء من غضب الله وسخطه إن هم تمادوا على طغيانهم، ولا شك أن لهم من الأمم السّابقة عبرة وتذكرة، فكيف كان جواب موسى لنداء ربّه؟

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ. وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾.

في نداء موسى بصفة الرّبّ لمولاه تحنّن واستعطاف أن يكون الله في رعايته وعونه، ولشدّة حرصه على أداء مهمته في التبليغ ساوره الخوف من أن يبادره قوم فرعون بالتكذيب، فيكون بذلك قد فشل في استجابة أمر ربّه، فهو يريد أن يستجمع قواه ويجزم أمره للإقدام على تلك المهمة الشّاقة، ولكنه أحسّ بجانب الضّعف في نفسه، فتوسل إلى الله أن يكمل ذلك الضّعف بمؤازرة أخيه هارون، ويتمثل ذلك الضّعف في:

أ)- ضيق صدره، بأن كان سريع الانفعال أمام المواقف المثيرة، عندما يتعرّض للتكذيب وضغط الطّغيان الفرعوني.

ب)- حبسة لسانه التي لازمته منذ صغره، فلا يقوى على الإفصاح والإبانة

في موقف يتطلب الجرأة وقوة العارضة وفصاحة اللّسان، سيما أمام فرعون الـــذي كان يعلم ذلك النّقص في موسى، وكثيرا ما كان يستنقصه به أمام قومه كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِـــينٌ وَلَا يَكَـــادُ يُـــبِينُ﴾ (الزّخرف:٥٢). وكان أخوه هارون أفصح منه لسانا فسأل موسى ربّه أن يكون معه وزيرا. وقوله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾، يدل على أنه كان بعيدا عن موسى في وقت المناجاة.

ولمزيد من الإلحاح في طلب العون والرّعاية من مولاه، ذكر ما كان لقـــوم فرعون من ثأر قديم عنده بقتله واحدا منهم من غير قصد، كما فصّـــل الله تلـــك القصّة في سورة القصص، وكلّ ذلك كان حرصا منه ﷺ أن لا تضيع الرّســـالة التي كلّفه الله بها، إذ لا يتصوّر أبدا أن يخاف الأنبياء والمرسلون من الموت في سبيل الله.

قال تعالى: **﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ، فَأْتِيَـــا فِرْعَـــوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.**

﴿كَلَّا﴾: تفيد الإبطال بقوة، أي إنهم لا يقتلونك فـــلا داعـــي لخوفـــك، والإجابة بضمير التّثنية: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، ﴿فَاذْهَبَا﴾ تدلّ على استجابة الله لطلب موسى مؤازرة أخيه هارون، وقد طوى النّصّ كيفية إبلاغ هارون عـــن رســـالته. وقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، "الباء" للمصاحبة، والآيات هي معجزة العصا واليد، وقد أصبح الرّسولان مؤيّدين بهما في تأديتهما لمهمة واحدة من دعوة فرعون إلى الإيمان بالله وتحرير بني إسرائيل من العبودية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ هو لضمان طمأنتهما بالرّعاية الرّبانية، على أن الإتيان بضمير الجمع: ﴿مَعَكُم﴾ هو لتأكيد تلك المعيّة، وأنّها تغطّي بجلالها ورهبتها مجلس فرعون، فلا يقوى على تخويفهما برهبته.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾: ترتّب إتيانهما فرعون على أمرهما بالذّهاب إليه وإخباره بأنّهما رسول ربّ العالمين هكذا بالإفراد لكلمة: ﴿رَسُولُ﴾ للدّلالة على وحدة رسالتهما، وأنّهما متكاملان في إبلاغها. وفي التعبير بـ"ربّ العالمين" إبطال لدعوى الرّبوبية من فرعون، إذ هو وجنوده وحاشيته من جملة الخلق الذين يدينون لهذا الربّ العظيم. ولا شكّ أن تكون لهذه الحاقة الجريئة أثرها في نفس الطّاغية، وهو يصدم بها أمام من يتألّه عليهم.

وبعد دعوته إلى الإيمان بالله، تضمّنت رسالتهما طلب إطلاق سراح بني إسرائيل للخروج معهما من مصر وقد استعبدهم فرعون من عهد يوسف ﷺ؛ كما دلّت على ذلك النّصوص الأخرى.

ذلك هو مضمون الرّسالة التي أمرهما الله بإبلاغها لفرعون، فما هو ردّه على ذلك؟.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾:

لم يهتمّ فرعون بالقضية الأساسية التي أمر الله الرّسولين بإبلاغها إليه، بل توجّه بخطابه إلى موسى وحده؛ لأنه هو المخصوص بما قرّره من الامتنان عليه، وعلى اعتبار أنّ موسى هو الأصل في الرّسالة؛ وقد عدل عن الرّدّ عن مضمونها إمّا دهاء ومكرا أو علوّا واستكبارا، فأخذ يذكّره بنعمة القصر الفرعوني في تربيته بأن لبث سنين طويلة في كنف تلك النّعمة، حتى أصبح رجلا سويّا. وإمعانا في ترهيبه وتخويفه ذكّره بقتله القبطيّ انتصارا لأحد الإسرائيليين، وتقول الرّواية بأنّ القبطيّ كان جارا لفرعون، وحتى يهوّل على موسى تلك القضية عدّاه يضطرب في موقفه نعته بالكفر: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. وللكفر احتمالات عند المفسرين:

أ)- أي كفرت بالله؛ لأنك قتلت نفسا متعمدا بغير حق.

ب)- كفرت، كفر نعمة إذ جحدت تربيتنا لك.

ج)- كفرت بأني إلهك.

وأغلب المفسّرين على القول بكفر نعمة التربية.

بادر موسى بالإقرار بما فعل: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

ترك موسى الإجابة عن الامتنان بنعمة التربية وأقرّ بما فعله من القتل ليستدفع عن نفسه تلك التهمة التي أراد فرعون أن تلزم فيه بقوله بعدها: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾؛ أي أنه فعل ذلك أيام كان في غفلة وجهالة عما يترتب على ذلك، وأنه لم يقصد القتل، فهو إذا ضلال بريء اعترف به موسى وتاب إلى ربّه فغفر له، كما صرّح بذلك قوله تعالى في سورة القصص: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ (١٦). فكلمة: ﴿الضَّالِّينَ﴾ لا تعني انتفاء الهدى الذي يؤدي إلى الكفر، ولذلك قابل بها وصف فرعون له بقوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، ولم يكتف بذكر الوجه السلبيّ في القضية، بل أضاف الوجه الإيجابي بما أقرّ على فراره من الحبس بسبب خوفه من القتل، إذ كان ذلك الفرار سببا لحصوله على هبة الله العظيمة بأن أعطاه الحكمة والنبوة، ثم اصطفاه برسالته.

وجيء بضمير الجمع هنا؛ لأنّ خوف موسى منصبّ على ملأ فرعون كلهم كما فصّلت القصة في سورة القصص: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ (٢٠).

وبعد أن حسم موسى إجابته على جناية القتل عاد إلى قضية الامتنان عليه بالتربية فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أفرد هنا ضمير الخطاب؛ لأنّ القضية تتعلّق بفرعون خاصّة، فجاءت إجابته في معنى التبكيت لفرعون والتهوين من شأن تربيته له، إذ جعل سبب ذلك معاملته القاسية لبني

إسرائيل بإذلالهم واستعبادهم وذبح أولادهم واستحياء نسائهم مما اضطرّت معه أمّه إلى إلقائه في اليمّ، وإنعام الله عليه بالتربية في القصر، فليقابل تلك النعمة الفرديّة عليه بتلك النقمة الجماعية لقومه، فإنها لا تساوي شيئا، وهكذا شأن النفس العظيمة لا تعتبر سعادتها التامة إلا في أحضان سربها، وهم ينعمون جميعا بالعزة والكرامة.

والله أعلم

الجدال في إثبات وجود الله، وانبهار فرعون بمعجزة موسى

أ)- النص:

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن
كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ
لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: يستفهم بـ"ما" عن مجهول من الأشياء، وقد سأل عن حقيقة ربّ العالمين. ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم

مُوقِنِينَ﴾: كان الجواب بصفات الخالق في ما يتجلّى من مخلوقاته، واليقين هو العلم الذي لا شك فيه، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معناه إن كنتم مستعدين للإيقان غير مكابرين. ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾: استفهام تعجب من حالهم، كيف لم يبادروا إلى إنكار جواب موسى، لأنه نسب الرّبوبية إلى غيره. ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾: إعراض فرعون عن جواب موسى وتجاوزه إلى خطاب غيره اقتضى أن يوجه موسى الخطاب إلى جميعهم ولذلك بادره فرعون بوصف الجنون، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، وأكد ذلك بحرفي التوكيد، وإضافته صفة الرّسالة إلى ضمير الخطاب دون المتكلمين هي للسخرية، ولذلك قابل موسى وصفه ذلك بقوله عند الإدلاء بالحجة الأخيرة: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ولذلك بعد أن أفلس في الحجة عدل إلى التهديد بقوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾: "ال" للعهد، أي ممن عرفت حالتهم في سجوني. ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾: الاستفهام للإنكار والاستغراب أن يسجنه ولو جاء ببرهان واضح على صدق رسالة. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾: أخرجها من جيبه، و"إذا" فجائية. ﴿بَيْضَاءُ﴾: أي إن بياضها يستلفت الناظرين، سيما ولون السّمرة يغلب على موسى. ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾: معناه أخّرهما، من أرجاه يرجيه، أي أجّله إلى موعد آخر، و﴿الْمَدَائِنِ﴾: أنحاء البلاد كلها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَرْجِهِ﴾: قرأها قالون وابن وردان: ﴿أَرْجِهِ﴾ باختلاس كسرة الهاء، قرأها ورش والكسائي وابن جمّاز وخلف في اختياره: ﴿أَرْجِهِي﴾ بكسر الهاء مع صلتها، وقرأها ابن كثير وهشام: ﴿أَرْجِئْهُو﴾: بإثبات الهمزة وضمّ الهاء، مع إشباع الضمّ. وقرأها أبو عمرو ويعقوب: ﴿أَرْجِئْهُ﴾ ولكن باختلاس الضمّ. وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَرْجِهْ﴾ بترك الهمزة وإسكان الهاء، و كلها وجوه عربية صحيحة.

د)- البيان والتّفسير:

لم يؤثر تهويل قتل القبطيّ على موسى، كما لم يردّه امتنان فرعون له في تربيته عن دعوته إلى توحيد الله وإطلاق سراح بني إسرائيل لإخراجهم من مصر، فنقل فرعون الحوار إلى جدال فكريّ للاعتراض على دعوة موسى وأخيه هارون، فبدأ بالاستفسار عن حقيقة الرّبّ الذي أرسله فقال له: **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾**.

وكان سؤال فرعون على مقتضى ما بدأ به موسى دعوته إليه عندما قال له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فهو سؤال عن حقيقة الرّبّ وكنه ذاته العلية، والدّافع لهذا السّؤال هو إثبات القبط لآلهة متعددة في معتقدهم، وإن فرعون هو المختار من تلك الآلهة لحكم مصر، ولكن موسى أعرض عن الجواب على ذلك السّؤال؛ لأن إدراك حقيقة الخالق لا تدركها الخلائق، مهما أوتيت من العلم، ولــذلك جــاء جواب موسى بما يستطيع البشر إدراكه من آثار خلقه وبديع صنعه في الآفاق مــن السّماوات والأرض وما بينهما.

وإتيانه بضمير الجمع: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ هو لإشراك مخاطبيــه في مجلــس فرعون لإقامة الحجة عليهم كلّهم، واختياره لصفة الإيقان هو لدفعهم إلى التّأمــل الواعي وإدراك أنّ ذلك الخلق العظيم موجود قبل فرعون، ثم ما هو حيّزه مما يدّعيه من الملك والرّبوبية في ذلك الكون العظيم.

وكأن فرعون أحسّ من أتباعه بعض الارتياح لما دعاهم إليه موسى؛ لأنهم لم يجيبوه فقال لهم في عتوّ واستكبار: **﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾**.

أبدى تعجّبه من حالهم كيف انبهتوا لبلاغ موسى فسكتوا في قضية لا ينبغي السّكوت عنها، وهي إثبات ربّ واحد لجميع المخلوقات، وكيف تهرّب موســى عن الإجابة عن سؤاله لمعرفة حقيقة ذلك الرّب، غير أن موسى بادرهم بجواب آخر

أضيق مجالا من الأول فقال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، انتقل موسى في حجّته من الآفاق الكونية الواسعة فنزل إلى مستواهم ملفتا أنظارهم إلى إيجادهم بعد العدم وإيجاد آبائهم وأجدادهم من قبلهم أي قبل أن يولد فرعون ويدّعي الألوهية.

وكانت هذه الحجة من المعقولية والواقعية لدى السامعين بحيث يصعب نفيها وإنكارها، مما دفع فرعون إلى السخرية والتهكّم ثم إلى العنف والتهديد فالتفت إلى قومه قائلا: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾

أكّد اتّهامه لموسى بالجنون بمؤكّدات ثلاثة: بـ"إنّ" وبلام التوكيد والجملة الاسمية، وأمّا وصفه بالرسولية فعلى سبيل التهكّم والانتقاص، واختار ضمير الخطاب ليخرج نفسه من الحكم، فزاد موسى حجّة أخرى هي تدلّ على قصر فرعون في التحكم والتدبير: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

نلاحظ التدرّج العجيب في تقديم الحجج الدامغة لإبطال ألوهية فرعون، إذ لفت أنظار سامعيه إلى ما لا يمكن إنكاره من ظاهرة الشروق والغروب، وهما ظاهرتان لا تنحصران في رقعة مصر التي يدّعي فرعون ربوبيته عليها، ويقابل موسى اتّهامه بالجنون بتنبيه سامعيه إلى النظر العقلي: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، حتى يدركوا أن الله الخالق الذي يدعوهم إلى الإيمان به هو المتصرّف وهو المحرّك لتلك الأجرام العظيمة. وهل فرعون له يد في ذلك؟

وإلى هنا اتّضح عند الذي كفر، فانتقل من الحجاج إلى التخويف والتهديد: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾

نلاحظ كيف تدرّج فرعون -وهو نموذج للجبابرة الطغاة- كيف تدرج في حواره مع موسى في إظهار جبروته حتى مع حاشيته يحاول تركيز انتباههم إلى

مقالته بقوله: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، ثم إلى اتهام خصمه بالسّفه والجنون عندما يحسّ بلزوم الحجة عليه، ثم أخيرا إلى التّهديد بعد أن تدمغه حجة خصمه، بينما نجد موسى -وهو صاحب الحق- ثابتا في موقفه واثقا من نفسه في الإدلاء بحجته حتى في موقف التّهديد، وقد رفض فرعون الإيمان بإله موسى، وأقسم لموسى إن لم يؤمن بألوهيته هو ليُلقينّ به في السّجن، حيث يعلم أنّ المُلقى بهم هناك يبقون حتى الموت.

ولكنّ موسى لم يُرهبه تهديد فرعون، بل تابع بكلّ هدوء حجاجه: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾.

كان في إمكان فرعون أن ينفّذ تهديده، ولكنّ الله كفكف من طغيانه أمام موسى فاستمع مرّة أخرى إلى تحدّيه بالإتيان بما يمكن أن يجعله يذعن للحقّ.

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾: فصيغة السّؤال تنبئ على أنّ فرعون يريد قطع الحجّة على موسى قبل أن يسحنه، معتقدا أن ليس مع موسى من أدلّة أخرى تعزّز موقفه، ولذلك قابل التّحدّي بالتّحدّي: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

والتعبير بـ"إن" يدلّ على شكّ فرعون في ما يأتي به موسى، ولذلك فهو يستعجل الإتيان به ليبقى على عينه أمام الحاضرين، وإثر ذلك ألقى موسى عصاه فانقلبت ثعبانا مبينا، أي ظاهر الهيئة والحركة لا لبس فيه ولا تمويه كما يفعل السّحرة بحيلهم، وقد تعددت الأوصاف لما آلت إليه العصا فقال تعالى في آيات أخرى:

أ)- ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ (طه:٢٠).

ب)- ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ (القصص:٣١).

فالأوصاف تتكامل في بيان هيئات العصا، إذ ألقاها موسى ثلاث مرات، كانت في كلّ مرّة على هيئة من تلك الهيئات المذكورة، مرة عند مناجاة ربه عند الطّور، ومرّة أمام فرعون وملائه، ومرّة أمام السّحرة وجموع النّاس عند المباراة.

وفاجأ الحاضرين بمعجزة أخرى حين وضع يده في جيبه ثم أخرجها بيضاء ناصعة تتوهّج من غير سوء أصابه في جلده، وكان من خلقه مائلا إلى السّمرة، فانبهر الحاضرون لما شاهدوه.

وحتّى لا يترك فرعون حاشيته تحت تأثير معجزتي موسى رماه بأنّه ساحر عليم، تحاشيا من اعتبار ذلك معجزة من الله تؤيّده في دعوته، ولم يكتف بتلك التّهمة، بل أخذ يستعدي قومه على موسى ويثير نخوتهم الوطنية بأنّه يحاول بسحره إخراجهم من أرضهم وإزالة سلطانهم وتسليط بني إسرائيل عليهم، وكأنّه قد أحسّ بضعف موقفه وإفلاس حجّته أمام موسى، فوجّه الاستشارة إلى ملئه في ما يجب أن يواجهوا به خصمهم، وما كان يفعل ذلك معهم من قبل.

ولكنّه الشّعور بالهزيمة جعله يتودّد إليهم ويستثير حماسهم وهم ما يزالون تحت تأثير الرّهبة والخوف من سلطانه، فأجابوه بما يدل على أنّهم بدأوا يحسّون بكذب ألوهيته فاستدرجوه لينزل إلى مستوى شعبه يلتمس من سحرته الحضور لمنازلة موسى، فقالوا لفرعون: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ، يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾

طلبوا أن يؤخّر الموعد للقاء السحرة بموسى وأخيه هارون في مباراة أمام فرعون وحاشيته ورعيّته، وقد بعث بمبعوثيه إلى كلّ المدن في مملكته ليجمعوا له السّحرة المهرة؛ لأن صيغة: ﴿سَحَّارٍ﴾ تدلّ على أنّهم يحترفون صناعة السّحر، وكان للسّاحر مكانة مرموقة عندهم، وهم عالمون بتقنياته وأسبابه.

والله أعلم.

اللقاء الحاسم، وإيمان السّحرة بالله، وكيف انتقم منهم فرعون؟

أ)- النص:

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا
نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ
لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾
قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا
إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾: الميقات يكون زمانيا ومكانيا بتحديد زمان أو مكان معيّن يجمع على "مواقيت"، وهو هنا وقت الضحى من يوم الزينة. ﴿قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾: الناس: "أل" للاستغراق، وهم جمهور بلدة فرعون، والاستفهام للحث والتحريض. ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ﴾: أي على تقدير غلبتهم فيستمرّون على دينهم. ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾: أقسم

السّحرة بعزة فرعون، والقسم عليه هو جملة: ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، استعملوا المؤكدات مع القسم لإظهار عزيمتهم في الغلبة، ولتخويف موسى. ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾: "إذا" للفجاءة، "تلقف": تبتلع، و"يأفكون": من الإفك، وهو يتضمّن معنى الكذب بما يموّهون به من حيل السّحر. ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾: أي يقطع يدا من جانب ورجلا من الجانب الآخر، ثم يقتلهم تصليبا، ليرهب غيرهم بذلك حتى لا يشقّوا عصا الطّاعة. ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ﴾: لا ضرر علينا بوعيدك، ثم علّلوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: والانقلاب: أي الرّجوع إلى الله وترك ما كانوا عليه من الكفر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نَعَمْ﴾: قرأها الجمهور بفتح العين، وقرأها الكسائي بكسرها، وهما وجهان عربيان صحيحان. ﴿هِيَ تَلْقَفُ﴾: قرأها الجمهور بتشديد القاف، وقرأها حفص بسكون اللاّم وفتح القاف، وقرأها البزّي بتشديد التاء والقاف في الوصل.

د)- البيان والتّفسير:

انتهى مشهد استشارة فرعون لملئه في ما يواجه به تحدّي موسى وأخيه. وبعد أن أشاروا عليه باستدعاء السّحرة المهرة من كلّ أرجاء مملكته فتوافدوا على قصر فرعون بما معهم من الحيل السّحرية، وشاءت حكمة الله أن يتواجه الحق والباطل أمام أعين الأتباع، وانتقل المشهد هنا إلى بيان استجابتهم لدعوة فرعون وجمْعهم في مكان وزمان معلومين فقال تعالى: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾، وقد حدّد ذلك الميقات الزّماني والمكاني في سورة "طه" إذ قال جلّ وعلا: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٥٩). وقال: ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ (طه:٥٨). وبذلك تكتمل حلقات القصّة، وكان للسحرة في ذلك العصر مكانٌ مرموق لدى

السلطات وفي أوساط الناس إذ يحظون بالطبقة المثقفة التي كان لها وزن اجتماعي، وكان لاختيار الزمان والمكان للتجمّع في لقاء موسى والسحرة تدبير حكيم سخّره الله تمهيدًا لنصرة الحق ودحر الجبروت والظلم، ولا شك أنّ أخبار القصر الفرعوني قد شاعت في الناس، فهم يتشوّقون إلى ما تسفر عنه نتيجة المباراة ولكلّ فريق فيها نصراء ومؤيّدون، إنها مباراة بين الحقّ والباطل، وكان فرعون وأعوانه يحرّضون الناس على الحضور لاعتقادهم الغلبة للسحرة وفي ذلك زيادة خضوع لأتباع دين فرعون.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

التعبير بـ "لعلّ" وبـ "إن" الشرطية يفيد بأنّ الداعين للتجمّع الحاشد ليسوا متأكدين من الغلبة والنصر على موسى، إذ لابدّ أن يكون ضمن أتباع فرعون من يودّون في الخفاء أن يتخلصوا من جبروت فرعون وقهره من أمثال الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه كما وردت قصّته في سورة غافر.

توافد السحرة على قصر فرعون وهم يشعرون بشيء من الجسارة والشأن، ولذلك تجرّءوا عليه فطالبوه بالأجر إن هم غلبوا خصمهم، والتنكير في كلمة "أجر" يدلّ على أنه أجر عظيم، وكانت إجابة فرعون بـ "نعم" الدالة على قبوله لذلك الطلب، بل زادهم على ما طلبوا بأن يجعلهم من المقرّبين إليه -أي من خاصته-، وتلك منزلة يتوق إليها الانتهازيون في كلّ زمان ومكان ممن يتزلّفون إلى الملوك والأمراء ليحقّقوا لأنفسهم مزايا مادية ومنافع شخصية، وهنا يطوي السياق أحداث الإعداد للمباراة كما بيّنها الله تعالى في آيات أخرى، وينقل بنا مباشرة إلى ميدان المباراة فيقول تعالى:

الوصف في استخدام صورة الإعراض، لأن الاسم لفتحه إياك ربما يفهم بعض ما

بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ، فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾:

انطلقت المباراة وفق ما جاء في سورتي الأعراف وطه بتخيير السّحرة لموسى في أن يكون هو البادئ: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ (الأعراف:١١٥)، واكتفى النصّ هنا بجواب موسى بإعطائهم الأولوية في الإلقاء، وفي ذلك حكمة وتدبير من الله تعالى لاستثارة حماس المشاهدين، ولا شكّ أنّ موسى في ذلك الموقف ينفّذ تعاليم ربّه خطوة خطوة، وهو واثق من نصره وتأييده، ولم يتوان السّحرة في إلقاء حبالهم وعصيّهم التي كانت عدتهم في السّحر، وأقسموا بعزّة فرعون تملّقا له وتعظيما وإظهارا للثقة في مهاراتهم السّحرية وأنهم غالبون بها لا محالة.

ولنا أن نسأل: لماذا اختاروا من الوسائل السّحرية الحبال والعصيّ دون غيرها من الوسائل الأخرى التي -ولا شكّ- أنهم يتقنونها؟. ذلك لأنهم يعلمون أنّ معجزة موسى تنحصر في العصا التي تنقلب ثعبانا، فظنّوا أنّ الإتيان بكثير من الحبال والعصيّ التي تنقلب حيات وثعابين تملأ الوادي هي التي تجعل موسى يخاف ويضعف أمامهم، وذلك ما عبّرت عنه الآيات الأخرى في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:١١٦)، ذلك بالنسبة للجمهور المتفرجة الحاشدة، وأما بالنسبة إلى موسى -وهو الطّرف الخصم- فهو الآخر قد امتلكته الرّهبة مما رأى لولا أن الله تعالى ثبّته وشجّعه كما قال: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ، قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ، وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه:٦٧-٦٩). وذلك ما طواه النصّ هنا، واكتفى بذكر النتيجة من إلقاء موسى عصاه وتلقّفها والتهامها لكلّ ما يعجّ به الوادي من تلك الحبال والعصيّ المسحورة، وجاء التعبير عنها بـ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ لبيان أنّ ذلك من

تمويه السّحر لا حقيقة له، إذ هو محض كذب، فكيف كان ردّ الفعل من السّحرة أمام ذلك المنظر الفاضح؟.

قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُواْ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾.

لم يتردّد السّحرة في إذعانهم للحقّ بما شاهدوه من معجزة موسى، إذ أيقنوا أنّ ما جاء به ليس من مقدور البشر، فخرّوا ساجدين لله معلنين عن إيمانهم بدعوة موسى وهارون إلى عبادة ربّ العالمين، وفي زيادة تعريفه برب الرّسولين إبطال لادّعاء فرعون بالرّبوبية، وهكذا يزهق الباطل أمام نصاعة الحق.

وإزاء ذلك ثارت ثائرة فرعون إذ انكشف ضعفه وبطلان دعواه أمام تلك الحشود من رعيته، فأراد أن يبرّر موقفه بشيء من المكر والدّهاء حتى يحافظ على هيبته فقال للسّحرة: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فهو لم يستطع أن يطعن في إيمان السّحرة؛ لأنه إن ملك رقاب النّاس فهو لا يملك قلوبهم وأفكارهم –وهي محط الإيمان–، ولكن لغة الجبروت والطّغيان لا تعدم المبرّرات والتّأويل لتصرّفات النّاس، ولذلك فهو ينكر أن يقرّ السّحرة بالإيمان قبل أن يأذن لهم، حتّى لكأنّه يملك نفوسهم وأفئدتهم، و لم يعترف أنّ باعث الإيمان في قلوبهم هو اقتناعهم بنصاعة الحقّ، والاهتداء بنوره، بل أوعز ذلك إلى السّحر نفسه، بأن اعتبر موسى أستاذهم في تعليمه لهم، في حين أنّ الجميع يعرفون أنّ موسى لم يجتمع بهم من قبل، ثم هدّدهم بقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، أي بما أعاقبكم به، ثم بيّن لهم نوعية ذلك العقاب بأسلوب التهويل لعلهم يرجعون عن إيمانهم فقال: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إنه أسلوب الطّغيان والجبروت في التفنن في أساليب التعذيب إذ لم يجرؤ أحد أعوانه أن ينازعه في ذلك الحكم القاسي، ولا هو قد استشارهم كما فعل ذلك معهم من قبل؛ لأنّ الموقف لا يستدعي الانتظار والتلكّؤ حتى يكونوا عبرة لغيرهم، ولكنّ معجزة الإيمان تدكّ صروح الجبروت والطّغيان، فكيف كانت إجابة السّحرة أمام ذلك التهديد؟.

﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ، إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الضّير: هو الضّرر، يقال: ضارّه يضرّه ضيرا، بمعنى: لا يضرّنا وعيدك لنا بالقتل؛ لأن الموت مدركنا -لا محالة-، وأنّ ما يكون لنا عند الله من الأجر والثواب هو خير وأبقى، لأنّا سنعود إليه فيجازينا على صبرنا. وقد علّلوا نفي الضّر عنهم بأمرين:

أ)- بقولهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾: وفيه تعريض ببطلان ربوبية فرعون الباطلة، وذلك بالرّجوع إلى الرّبوبية الحقّة التي آمنوا بها.

ب)- ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فيها بيان للجملة الأولى في رجائهم من الله المغفرة لذنوبهم، وعبّروا بقولهم: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾، تأدّبا مع الله، فلم يجزموا بما يقضيه الله فيهم، وشفّعوا طمعهم بكونهم أول المؤمنين برغم جهرة أمام فرعون، وذلك دليل على صدق إيمانهم وإخلاصهم الكامل، مما يجعلهم يستخفّون من جبروت فرعون ويعتزّون بقوّة الله، ويستشرفون ما عنده من النّعيم والرّضوان، وذكروا هنا الخطاب بصفة عامّة، وفي سورة "طه" زادوا قولهم لفرعون علانية: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه:٧٣) وهكذا كان هؤلاء السّحرة أول من آمن
3 جهرة من أمة موسى عليه السلام، والله أعلم.

نجاة موسى وقومه، وإغراق فرعون وجنده

أ)- النص:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ
﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ
﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ
فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ
أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾: ﴿أَسْرِ﴾: فعل أمر من سرى يسري كـ"أسرى"، من الإسراء وهو المشي ليلا. ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾: ﴿الْمَدَائِنِ﴾: جمع مدينة، المجتمع السكني العظيم وهي يومئذ كثيرة في مصر. ﴿حَاشِرِينَ﴾: بمعنى جامعين للجنود. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: الإشارة إلى أتباع موسى، والشرذمة الجماعة القليلة، فالوصف بالقليلين هو للتأكيد، فهو يهوّن من شأنهم. ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾: غائظون: اسم فاعل من غاظ يغيظ غيظا، وهو الهم الشديد، يقال: غاظه وأغاظه، واللام فيه للتقوية. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾: جعل فرعون نفسه مع أهل المدائن يحثّهم على الحذر. ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾:

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: الجنات والعيون كانت على حافتي النيل، والكنوز: هي الأموال والمدخرات الثمينة التي يحفظونها، والمقام الكريم بمعنى العيشة المترفة في البيوت الفخمة. ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أي كذلك الإخراج أخرجناهم من تلك الخيرات وأعطيناها لبني إسرائيل. ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾: ﴿فَأَتْبَعُوهُم﴾: أي لحقوهم، مشرقين: حال بمعنى الاتجاه صوب الشرق، أو داخلين في وقت الشروق. ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾: أي كل منهما يرى الآخر، أي قوم فرعون وأتباع موسى. ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾: قاله بنو إسرائيل لموسى عندما لحق بهم فرعون. وهو تعبير عن الجزع. ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾: ﴿كَلَّا﴾: للردع، ومعية الرّب له هي بالحفظ والرّعاية والهداية إلى سبيل النّجاة. ﴿فَانفَلَقَ﴾: انفلق البحر بمعنى انشق، والفرق: بكسر الفاء وسكون الراء- الجزء المفروق من البحر. ﴿كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾: الجبل الضّخم. ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾: ﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: من الزلف وهو القرب، و"ثَمّ" بفتح الثاء بمعنى هناك. ﴿الْآخَرِينَ﴾: هم قوم فرعون غرقوا وسط البحر إذ سلكوا مسلك قوم موسى في طريق يبس وسط البحر كما قال تعالى في سورة طه: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ (٧٧).

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنْ أَسْرِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو جعفر: ﴿اسْرِ﴾ بهمزة وصل، أي فعل أمر من: سرى يسري، وبكسر النون في: ﴿أنِ﴾ لالتقاء السّاكنين، وقرأ الباقون بهمزة قطع وسكون نون: ﴿أنْ﴾ أي من فعل: أسرى، وهما متحدان. ﴿حَاذِرُونَ﴾: قرأه الجمهور بدون ألف بعد الحاء فهو جمع "حذر". وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وخلف قرأوه بألف بعد الحاء جمع "حاذر" بصيغة اسم الفاعل. ﴿سَيَهْدِينِ﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم، وقرأ باقي القراء بحذفها.

د)- البيان والتفسير:

بين مقتل السّحرة وخروج موسى ببني إسرائيل من مصر فترة زمنية غير قصيرة، وقعت فيها أحداث طواها النصّ هنا، وذكرت في سورة الأعراف. فلابدّ من قراءة سورتي الشّعراء والأعراف والقصص للملمة أطراف القصة بكاملها.

فقد ازداد فرعون طغيانا وتنكيلا ببني إسرائيل الذين آمن أغلبهم بموسى والتفّوا حوله، وكان يطالب فرعون بإطلاق سراح بني إسرائيل ليخرج بهم من مصر، فأراهم الله الآيات التسع كما فصّلته سورة الأعراف، فكلّما رأى آية وذاق رجزها طلب من موسى أن يدعو ربّه بكشفها عنهم ويعده بإطلاق سراح بني إسرائيل، ولكنه ينكث وعده في كلّ مرة، وهكذا حتى أوحى الله لموسى أن يسري بقومه في اتجاه البحر الأحمر، وأخبره بأنّ فرعون سيتبعه بجنده فقال جلّ من قائل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

امتدت فترة التمحيص والابتلاء على بني إسرائيل بعد حادثة السُّحرة حتى ضاقوا ذرعا بما أصابهم، وهم يشكون سوء أحوالهم لموسى وهو يصبّرهم ويعدهم بالخروج والنجاة: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف:١٢٨)

استحق قوم موسى في محنتهم هذه ذلك الوصف التشريفي بأن أصبحوا عبادا لله إذ دخلوا في حظيرة الإيمان بوحدانية الله وكفروا بربوبية فرعون، وقيل: إنهم ليلة خروجهم من مصر أقاموا أبهة كبيرة بحيث أنّ النساء الإسرائيليات استعرن حليّ الذّهب والفضّة من القبطيات، وصادف ذلك الخروج ليلة عيد الفصح عندهم، ولا شك أنّهم قد احتاطوا لذلك الخروج؛ لأنّ الله تعالى قد أخبرهم باتّباع فرعون لهم؛ لأنه كان يتوقع من ذلك شرّا على قومه وملكه، فماذا فعل؟.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ، إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ، وَإِنَّهُمْ

لَنَا لَغَائِظُونَ، وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾.

لقد قام فرعون بما تسمّيه اليوم بالتّعبئة العامّة لحشر الجيوش من أطراف مملكته وهو يستعديهم بما يصف به خصومه من أوصاف التهوين والتحقير.

أ- ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾: ولفظ الشرذمة هي القلّة من النّاس، والإشارة: بـ﴿هَؤُلَاءِ﴾ للدّلالة على التحقير، وقد أضاف وصف: ﴿قَلِيلُونَ﴾ للتأكيد على ذلك، وقيل: إنّهم ستمائة ألف، وهم قلّة بالنّسبة لجند فرعون.

ب)- ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾: والغيظ هو شدة الغضب، أغاظوه بتمرّدهم عليه وتسفيههم لربوبيته، ثم حرمانه من استغلالهم في الأعمال الشّاقة، وهكذا الطّغاة حين تزلزل عروشهم من طرف شعوبهم إرهاقا للباطل ودحرا للظلم.

ج)- ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾: لقد أزّ فرعون نفسه في قرن مع قومه في وجوب الأخذ بالحيطة والحذر من موسى وقومه، وفي ذلك دليل على ما سلّط الله عليهم من رهبة الحقّ وقوّة الإيمان، فهو يؤكّد إعلانه بعدّة مؤكّدات ليؤجج حماسهم في الخروج معه.

﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾.

بعد أن تمّت التّعبئة وعرف فرعون وجهة موسى وقومه الذين خرجوا في جنح اللّيل، أهاج الله في قلوب خصومهم داعية الخروج للحاقهم والقضاء عليهم، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾، لقد نحوا عن حتفهم بظلفهم، إذ خرجوا تاركين وراءهم كلّ ما كانوا يتمتعون به من أسباب النّعيم التي بيّن الله نماذج منها بالجنات الوارفة الظّلال على ضفاف النيل والعيون المتدفقة على جنباتها تروي الزّرع وتدرّ الضّرع، والكنوز المتوارثة ممن سبقوهم أو التي وفّروها في عهدهم، ويحرصون على دفنها معهم مما أصبح اليوم محلّ دراسات

في علوم الآثار، إلى جانب ما شيّدوه من المنازل والقصور، يطيب فيها المقام ويعظم بها الجاه.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: أي أخرجناهم ذلك الإخراج بمثل ما وصفنا، لنورثها بني إسرائيل من بعدهم، والإرث هو إعطاء مال الميّت لوارثه، وقد وفّى الله بذلك وعده كما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥). يرى الإمام ابن عاشور أن المراد من الآية أنّ الله أعطى بني إسرائيل خيرات مثلها لم تكن لهم، على اعتبار أن بني إسرائيل بعد ما فارقوا أرض مصر لم يرجعوا إليها كما يدل عليه التاريخ، فعود الضّمير في قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ عائد للأشياء المعدودة باعتبار أنها أسماء أجناس.(١)

قلت: وأغلب المفسّرين على أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون، وقيل: المراد بالإرث هنا ما استعاروه من حلّي آل فرعون بأمر الله تعالى، قال الإمام القرطبي: وكلا الأمرين حصل لهم، والحمد لله.

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾: أي التحق فرعون بقوم موسى عند شروق الشّمس في اتجاه البحر الأحمر -وكان من الجهة الشّرقية-.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

لحق فرعون بجنوده جموع بني إسرائيل، وليس بين الفريقين تكافؤ في العدد، وما يزال بنو إسرائيل تحت وطأة الخوف من جبروت فرعون، ولذلك تنادوا بالفزع حين تراءى الفريقان، وجزعوا لما توقّعوه من الهلاك على أيدي فرعون، ولكن موسى ردعهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾، فنفى عنهم ما كانوا يظنونه من الهلاك، وعلّل ذلك النفي بقوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، أكّد معية ربّه له بالرّعاية والحفظ

---

١ - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٩/١٣٣.

وأنّه سيهديه إلى سبيل النجاة في الحاضر والمآل، وقد حصر الهداية في شخصه على اعتبار صلته بوحي الله، فهو لا يدري كيف يتحقّق نجاتهم وهم بين خطرين محدقين: أمواج البحر وجنود فرعون، فكان لاختيار فعل الهداية له من الله معناه الدّقيق في الأدب مع الله، في اتّباع أوامره خطوة فخطوة في تلك المغامرة العظيمة، وما إن واجهته أمواج البحر العاتية حتّى أمره الله بضربه بعصاه، وهي رمز القدرة الإلهية في يده.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾.

كان الإيحاء لموسى من الله فور طلب الاستهداء بأن أمره أن يضرب البحر بعصاه فانفلق، أي انشق إلى أجزاء، قيل: إنّها اثني عشر جزءا بعدد أسباط بني إسرائيل، انحصر كلّ جزء كائنة، وتوقّف عن الانسياب حتى ارتفع كالجبل الشامخ، فتهيّأت بتلك الطّرق اليابسة لعبور بني إسرائيل فتقدّمهم موسى لا يخاف دركا ولا يخشى، فسبحان الله العليّ القدير خالق الأسباب والمسبّبات، كيف يبرزها في عالم الشّهادة ولو بأبسط الأشياء، ليعلّم خلقه كيف يتّخذون الأسباب، وإلاّ فما قيمة تلك العصا في يد موسى، وما أثر ضربها على أمواج البحر العاتية؟، ولكنّها معجزة خارقة للعادة أجراها الله على يد موسى ليشاهدها قوم أذلّهم الطّغيان البشري، فأراد الله أن يمنّ عليهم بهداية الإيمان.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ، وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾.

قدّر الله أن يدفع فرعون وجنوده إلى السّير وراء بني إسرائيل على نفس المسالك التي ساروا عليها، ولم يصرّح بفرعون وجنوده بل عبّر: بـ﴿الآخَرِينَ﴾ للتهوين من شأنهم إذ أهلكهم الله بالغرق، إذ انطبقت عليهم الأمواج بعد إذ أنجى الله موسى ومن معه إلى الضّفّة الأخرى من البحر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

تكرّرت هاتان الآيتان بعد كلّ قصّة من القصص الواردة في هذه السّورة الكريمة لاستخلاص العبر ولتسلية رسول الله وأصحابه مما يعانونه من المشركين الذين كانوا يطالبون بالآيات الحسّية على وجه التحدّي والعناد، فهؤلاء قوم فرعون، وقوم موسى لم يؤمن إلاّ القليل منهم برسالة موسى على ما عاينوه من للمعجزات الحسّية الباهرة التي تبعث على الإيمان بقدرة الله وجلاله وعظمته، إذ أنّ كثيرا من الأقباط بقوا على كفرهم كما أنّ كثيرا من بني إسرائيل ما إن عبروا البحر حتى مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا: يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، وقالوا: أرنا الله جهرة، وهكذا الكفر ملة واحدة، والله القاهر فوق عباده غني عن العالمين عزيز بملكه وسلطانه، فهو يملي للظالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، وذلك من مظاهر رحمته بخلقه، والله أعلم.

قصّة إبراهيم مع قومه، ودعاؤه لربّه

أ)- النص:

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ
أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ
وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾
وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾

رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ
﴿٨٤﴾ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا
تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: ﴿وَٱتۡلُ﴾: من التلاوة، الخطاب لرسول الله بأمره الله أن يقصّ على كفّار قريش الأخبار الهامّة الخاصّة بإبراهيم. ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾: ﴿مَا﴾: للسؤال عن الشيء وهو يتضمن معنى الإنكار. ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾: الأصنام التماثيل المنحوتة وتنكيرها للتعظيم، و﴿نَظَلُّ﴾: أي نستمرّ على عبادتها، لأن العكوف هو الإقامة على الشيء ولزومه. ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾: الاستفهام للاستنكار، وجيء بالمضارع بعد "إذ" لحكاية الحال الماضية. والتعبير عن الأصنام بضمير العقلاء على اعتبار اعتقاد عابديها بأنها مدركة. ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾: ﴿بَلۡ﴾: للإضراب الانتقالي إلى تقرير ما عندهم من تقليد آبائهم في ذلك الفعل، حتى لكأنهم لا يفهمون معنى العبادة. ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: العدوّ: يطلق على المفرد وعلى الجمع، نسب إبراهيم عداوتها لنفسه تعريضا لهم لأن ذلك أبين في النصح والإرشاد، ولذلك استثنى عبادة ربّ العالمين. ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾: الخطيئة: الذنب، وهي بالنسبة للأنبياء المعصومين ما يكون منهم من تقصير في متطلبات النبوءة على قاعدة: حسنات الأبرار سيئات المقربين، و﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾: هو يوم الجزاء الأخرويّ. ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: طلب من الله أن يجعل له ذكرا حسنا في الأمم والأجيال من بعده. ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾: الخزي هو الإذلال والإهانة بأن يفتضح أمام الخلائق يوم القيامة.

ج)- البيان والتفسير:

لا يراعى في قصص القرآن الكريم التسلسل التاريخي، بل تُراعى المناسبة التي تكون ملائمة لذكر القصّة، وإذ افتتح الله السّورة الكريمة بذكر حزن الرّسول بسبب كفر قومه، فسلاه بقصّة موسى مع فرعون بيان ما كابده من محن وكيف ثبت لها مستعينا بربّه، فقد ناسب أن يرتّب عليها قصّة إبراهيم، وذلك لأمرين:

أ)- شدّة الشّبه بين قوم إبراهيم ومشركي مكّة في عبادة الأصنام وتقليدهم للآباء والأجداد في ذلك.

ب)- دعوى قريش في أنهم على ملّة إبراهيم وافتخارهم بالانتساب إليه.

قال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ. قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ**﴾.

"الواو" لعطف القصّة على القصّة، وقد أمر الله نبيّه أن يقرأ على قومه قصة إبراهيم ليعتبروا بما تضمّنه من الأحداث هي شبيهة بما هم فيه من الضّلال والكفر بعبادة الأصنام، وأنّ ما يدعوهم إليه الرّسول من عبادة الله هي نفس الدّعوة التي دعا إليها إبراهيم قومه، والتّمهيد بلفظ "النّبأ" هو للتّنبيه إلى ما تحمله القصة من أحداث هي جديرة بالاهتمام؛ لأنّها تقوم على المحاورة الهادئة الدّافعة إلى إعمال النّظر والإنصات إلى صوت الفطرة، وهي مرتكزات الدّعوة المحمّدية، فإبراهيم بعد أن ألهمه الله رشده، وهداه إلى التّأمّل الواعي في ملكوت السّماوات والأرض كما بيّن الله ذلك في سورة الأنعام، وقد أنكر ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، بدأ دعوتهم إلى الله بهذه المحاجّة، فبدأ بأبيه كما يقتضيه واجب الدّعوة في حسن القدوة على قاعدة: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)؛ ذلك لأنّ الدّعوات الحقّة لا تحابي قريبا ولا بعيدا، بل إن البدء بالقريب مما يدعو إليه الطّبع السّليم في حسبة النّفس ثم الحبّ لأقرب النّاس إليها، وقد قيل: إنّ والد إبراهيم كان ينحت الأصنام

ويبيعها، وكان الولد الصّالح إبراهيم مدفوعا بفطرته السّليمة لاستنكار عبادة تلك الآلهة الباطلة، وقد آتاه الله رشده ليفاتح قومه وينبّههم إلى ما هم عليه من باطل، فكان منه ذلك السّؤال الاستهجاني بأداة: ﴿مَا﴾ ليجرّد تلك الآلهة الباطلة من كلّ عقل أو إدراك، فهو لا يستفسر عن شيء لا يعرفه وإنما هو استدراج لهم لطلب الإجابة أثناء قيامهم بتلك العبادة الباطلة، فأجابوه بقولهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾.

والإتيان بصيغة المضارع: ﴿نَعْبُدُ﴾ يدلّ على أنّهم متلبسون بعبادتها عند إجابتهم، وأنّهم مستمرّون على ذلك، بل ومعتزّون بما يفعلون، إذ يظلّون عاكفين لها في كلّ أوقاتهم، والعبادة طاعة للمعبود وتوجّه إليه بالدّعاء لجلب نفع أو دفع ضرّ، ولذلك أخذ إبراهيم يبيّن لهم بطلان تلك العبادة لأنّها أصنام لا تسمع ولا تنفع ولا تضرّ فوجّه إليهم هذا السّؤال الإنكاري: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾، وليس لهم أن يجيبوه بـ"نعم" فيقرّون على أنفسهم بالغباوة والبلاهة، ولكنّهم لجأوا إلى حجّة التقليد لآبائهم حتى يقطعوا المجادلة التي تنتهي إلى إفحامهم الحجة: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، وما أنسب استعمال أداة الإضراب هنا بقولهم: "بل" للانتقال بالمجادلة إلى تغطية ما هم عليه من العجز والعياء، وفي تقليدهم للآباء اكتفوا بمجرّد الإتيان بمثل ما كان يفعله آباؤهم دون ذكر لفعل العبادة، وفي ذلك إقرار للجهل والتخلف، وفيه تعريض بكفار قريش إذ تذرّعوا بنفس الحجّة عندما قالوا لرسول الله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣).

وما كان إبراهيم ليقتنع بذلك الرّدّ التقليدي، وهو الذي يسرح بنظره في ملكوت السّماوات والأرض، فردّ عليهم بقوّة، وأعلن بطلان ما هم عليه هم وآباؤهم من الكفر والضلال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾.

إنما الصّرخة العلنية من إبراهيم بوحدانية الله في تحدّ صارخ لقومه ولأجدادهم، ووصفه لهم بالأقدمية، للتأكيد على توغّل الباطل في أجيالهم المتلاحقة؛ لأنّ الباطل لا يؤصّله طول المدى وتوارث الأجيال لضلالاته، فـإبراهيم -وهو يتعجّب من أحوال قومه- يعلن عداوته لتلك الأصنام، ولكنّه استثنى من تلك العداوة ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ على حذف مضاف بتقدير: إلا عبادة ربّ العالمين، وهو على الأرجح استثناء متّصل على اعتبار أن يكون في أولئك الآباء الأقدمين من يكون قد عبد الله بحقّ فيشمله ذلك الاستثناء، ومن خلال الأوصاف التي أضفاها إبراهيم على ربّه، ومن خلال موقفه القويّ في التحدّي لقومه، تبدو قوة إيمانه بربه ويقينه الرّاسخ في رعايته له وحفظه من كل سوء فقال: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ، وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾.

وصف ربّ العالمين بالموصول للدّلالة على استحقاق الموصوف لتلك الصّفات، والخلق هو الإيجاد من العدم، تفرّعت عليه الهداية التي جاءت بصيغة المضارع خبرا لضمير: ﴿هُوَ﴾ لتدلّ على تخصّصه تعالى وحده بالهداية دون تلك المعبودات الباطلة، وقد رتّب الهداية على الخلق؛ لأنّ ذلك هو المنّة العظمى من الخالق لكلّ مخلوقاته، سيما لدى الإنسان العاقل، مصداقا لقوله تعالى:

أ)- ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طـه:٥٠).

ب)- ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ (الأعلى: ١-٣).

وبما أن الإنسان مختار في ما يريده ويفعله، فإنّه تعالى قد هيّأ له الأسباب لسلوك الطّريق الذي يختاره في حياته إن خيرا أو شرّا، ولذلك جاء قوله تعالى بالنّسبة للإنسان:

أ- ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣).

ب)- ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧-٨).

ج)- ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠).

ثم يكمل إبراهيم مجالي نعمة ربّه في توفير مقوّمات الحياة للإنسان والمتمثّلة في ضمان رزقه من الطّعام والشّراب، وصيانة بدنه من الأمراض، فهو يؤكّد توفير تلك الأسباب بضمير الفصل: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ للاحتراز من اعتبار مسعى النّاس في كسب أرزاقهم أو الاستشفاء عند الأطباء أنّ ذلك ضامن لعيشهم أو شفائهم؛ لأنّ استبقاء الحياة وضمان ذلك هو بيد الله وحده، إذ هو الخالق والهادي للإنسان في تدبير شؤون حياته.

وما أروع أدب إبراهيم مع ربّه عندما أسند المرض إلى نفسه فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وزيادة على ذلك الأدب العالي مع الله فهو يشير إلى أنّ كثيرا من الأمراض يتسبّب فيها الإنسان، سيما الإفراط في الطّعام والشّراب وتناول المحرمات، وما الطبيب إلاّ معالج لتلك الأمراض، وقد لا يتحقّق شفاء المريض لأنّ الشّافي هو الله وحده.

وفي قضية الموت والبعث فقد غاب ضمير الفصل في الجملتين؛ لأنّه لا أحد من المتألّهين يدّعي القدرة على ذلك، قديما وحديثا، والعطف بـ"ثمّ" للحياة الثانية هو الأنسب، لتراخيها في الزّمن، وللتفاوت الكبير بين الحياتين، كما تقرّر بتلك عقيدة المسلم.

ومن كمال تواضع إبراهيم لربّه -وهو الحنيف الثّابت- أن عبّر بالطّمع في مغفرة ربّه لخطيئته يوم الدّين، وما خطيئته تلك التي تحرجه -وهو خليل الله الذي وصفه بأنه "أمّة" في علوّ أخلاقه وكمال إيمانه-؟، والخطيئة هي الذّنب، مع أنّ الأنبياء منزّهون عن الخطايا التي تكون من الكبائر قطعا، ولكنّه تواضع وهضم

للنفس، وأدب رفيع مع الله إذ لم يقطع بتلك المغفرة، بل هو طمع ورجاء، على قاعدة: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ذلك لأن الإنسان الكامل مهما اجتهد في عبادة ربه، فإنه يعتبر ذلك دون ما يستحقه المولى من واجب الطاعة والعبادة، سيما وقد عدد إبراهيم منن الله عليه، وهو عاجز على أداء شكرها، وها هو ذا يتضرع إلى الله بدعائه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ، وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ، وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ، وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

ومع طلب إبراهيم المغفرة من ربه تخلص إلى الدعاء له بما يحقق له الكمال الإنساني بإيتائه الحكمة والنبوءة، فالحكمة هي العلم بالخير والعمل به وهي التي قال الله عنها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩).

فقد رغب إبراهيم في هذا الخير الكثير الذي هو هبة من الله يهبها لمن يشاء من عباده، ثم هو يرجو من ربه استدامة ذلك حتى يلحقه بالصالحين ممن سبقه من الأنبياء والرسل، وفي هذا الدعاء استشراف لدرجات الكمال التي لا ينالها المرء إلا بتوفيق من الله وعونه، وقد استجاب الله دعوته إذ قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٢٧).

ج)- ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾: أي حسن الأحدوثة والذكر الجميل على ألسنة الخلق من بعده، وإضافة اللسان إلى الصدق، لإفادة الاستغراق، أي لا يذكر عنه إلا ما يكون فيه الصدق والحق، لما يترتب على ذلك من الخير والقدوة الحسنة للأجيال من بعده، وليس القصد منه الفخر والخيلاء، كما يفعل الناس اليوم بالكبراء والزعماء، وقد حقق الله له ذلك -أيضا- فكان محبوبا ومحترما لدى الملل السماوية الباقية.

د)- ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾: وبعد طلبه للكمالات الدّنيوية، توجّه إبراهيم إلى ربّه بطلب السّعادة الأبدية بأن يكون من ورّاث جنّات النّعيم، وقد تقدم في تفسير سورة المؤمنون وجه اختيار صفة الإرث للجنّة بما ورد في الحديث الشّريف: «لن يدخل الجنة أحدا عمله»، وقول رسول الله لأصحابه: «ولا أنا، إلا إن تغمدني الله برحمته».[1]

هـ)- ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾: طلب المغفرة لأبيه أي يؤتاه الله التّوبة مما كان عليه من الكفر والضّلال، لأنّه من تمام صلاح الولد أن يدعو بالخير لمن ربّاه، وقد وعد والده بذلك طمعا في إصلاحه، ولكن الأب أصرّ على الكفر، فكفّ إبراهيم عن الاستغفار له كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ (التوبة: ١١٤).

و)- ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾: الخزي يكون بالافتضاح أمام الخلائق بمحاسبة الله لعبده، وإن كان هذا المطلب سلبيا -وهو لا يتصوّر في حق إبراهيم الخليل- ولكنه تكميل لمطالبه الإيجابية لمغفرة خطيئته، وإرثه لجنات النّعيم، مما يدلّ على رهافة الحسّ وقوة الإخلاص وحبّه لربّه.

فمهما بلغ من الصّدق واليقين فهو يخشى التّقصير في جنب الله وفي الوفاء حقّه، في يوم لا ينفع فيه متاع الدّنيا من المال والولد والجاه، مّما يفتخر به النّاس في الدّنيا ويطلبون العزّة به، كل ذلك لا قيمة له في ذلك الموقف، لأنّ الطّوق الوحيد للنّجاة هو أن يلقى العبد ربّه بقلب سليم من أدران الشّرك والعقائد الباطلة، أي

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت، رقم ٥٣٤٩. ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله، ...

السّلامة المعنوية.

ويَرِد على المستثنى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ احتمالان: فهو إمّا متّصل، فيكون المعنى: أنّ المال والولد قد ينفعان الإنسان يومئذ إذا أتى الله بقلب سليم، أو هو منقطع، فيكون المعنى: أنّه لا نفع مطلقًا للمال والبنين، بل النفع محصور في سلامة القلب.

هذا، وقد تحقّق -أيضًا- لإبراهيم عليه السلام هذا المطلب بشهادة الله إذ قال في شأنه في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ «٨٣-٨٤»، والله أعلم.

تصوير عاقبة التّقوى والغواية

أ)- النصّ:

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ
﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ
﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾: من الإزلاف وهو التقريب، أي قرّبت الجنّة للمتّقين بحيث يرونها من موقفهم في يوم الحساب. ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾: الإبراز

هو الإظهار بوضوح. الغاوون: المتصفون بالغواية، أي الضلالة والكفر. ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ﴾: يستفهم بـ"أين" عن المكان، والمقصود به التوبيخ. ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾: والاستفهام للإنكار والتوبيخ، النصر هو التغلب على العدوّ، والانتصار: طلب النصير، أي لا تملك أن تنصركم ولا تنصر نفسها. ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾: كبكبوا: أي كبّوا فيها كبًا بعد كبّ، والكبّ هو إلقاء الشيء على أعلاه أو على وجهه، وجنود إبليس هم أتباعه من الجنّ والإنس. ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾: الضمير يرجع إلى الغاوين وجنود إبليس، ﴿وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾: جملة حالية، وضمير: ﴿فِيهَا﴾ يعود لجهنم، وهي مفهومة من السّياق، والخصومة بين العابد الغاوي والمعبود الباطل، لأن الله يُنطق الأصنام فتتنكّر لعابديها، ومقول القول هو قولهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: ﴿تَاللَّهِ﴾: قسم، و"إن" هي المخففة من الثقيلة، غالبا ما تجيء "كان" بعدها واسمها ضمير الشّأن، أي أنهم يتحسرون ويندمون على إمعانهم في الضّلالة بتسويتهم في الطّاعة والعبادة بين الآلهة الباطلة وربّ العالمين. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿لو﴾: هنا تفيد معنى التّمنّي كـ"ليت"، والكرّة: الرّجعة إلى الدّنيا، وجمعها كرّات، وانتصب "نكون" في جواب التّمنّي.

ج)– البيان والتّفسير:

على ذكر إبراهيم في دعائه اليومَ الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ناسب أن يبيّن الله ما في ذلك اليوم من ثواب وعقاب وما تكون عليه أحوال المشركين من التحسّر والندامة مما اقترفوه من الضّلالات في الحياة الدّنيا فقال جلّ من قائل: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾.

كان البدء بجزاء المتقين هو الأنسب بحال إبراهيم في ابتهالاته لله ودعائه

المخلص له سيما في فقرته الأخيرة، وهو يرجو أن لا يخزيه الله في هول ذلك الموقف، فتقريب الجنة من المتقين الصالحين أمثاله هو تطمين لهم وبشرى بما يستقبلهم من نعيم الجنة، على عكس ضدّهم من المشركين الضالين الذين اسودّت قلوبهم بأدران الشرك، فإنّ إبراز جهنّم بحيث يروها ويسمعون زفيرها مما يزيد في غمّهم وحسرتهم؛ لأنهم يعلمون أنهم مواقعوها لا محالة.

وإمعانا في إشقائهم فإنهم يُسألون على وجه التبكيت والتوبيخ: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ، فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ، وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾.

الأظهر أنّ القائلين هم ملائكة العذاب؛ لأنّ الكافرين لا يكلّمهم الله يوم القيامة، وبما أنّ الآلهة الباطلة على مختلف أنواعها تكون حاضرة مع عبدتها في ذلك الموقف كما تنصّ على ذلك آيات أخرى، وقد وقع التبرؤ والتقاطع بينهم، فإنّ السؤال هنا يتعيّن للتبكيت والسخطة والتوبيخ، مع السؤال لإنكار أن تقدّم لهم نصرا أو تنتصر لنفسها.

وبإلقاء الجميع في النار بصورة الكبّ على الوجوه لتلك الأصنام ولعابديها والجنود إبليس، بتضعيف فعل الكبّ وتقديم الآلهة، يبلغ التصوير الفني في الجملة منتهاه لإفادة الترهيب والإمعان في التيئيس والإحباط، ويستمرّ المشهد في بيان الخصومة التي تحتدم بين أهل الضلال وبين من أضلّوهم بما يعبّر عن الغيظ الشديد الذي يضمره كلّ فريق للآخر.

﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ، تَاللهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿قَالُواْ﴾: أي أهل الغواية والضلال، قالوا لكلّ من الشياطين ولتلك الآلهة التي عبدوها بالباطل وقد تكشّفت الحقائق أمامهم، فثور الخصومة بينهم، ومس

خلال التراشق والتلاوم يعترفون بما كانوا عليه من ضلال، وأكّدوا ذلك بعدّة مؤكّدات للاعتراف باستغراقهم في الغفلة والتيه حين كانوا يسوّون في الطّاعة والعبادة بين تلك الآلهة الباطلة وربّ العالمين، واستعملوا ضمير الخطاب لما لا يعقل من تلك الأصنام، ثم إقرارهم بربوبية الخالق للمبالغة في التحسّر والنّدامة، ولات ساعة مندم، ولذلك حاولوا أن يلقوا بالتّبعة على المجرمين الذين أضلّوهم، حتى لكأنهم هم براء من ذلك الإجرام، ولكنّه ضغط السّادة والكبراء، فهم يطلبون لهم أشدّ الانتقام كما قال تعالى في مشهد آخر: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ (فصلت:٢٩).

ومن وسائل إضلالهم أن أطمعوهم في الوسطاء والشّفعاء عند الله فيتجاوز عن سيّئاتهم، ولذلك رتبوا بـ"الفاء" انتفاء أولئك في ذلك الموقف إذ قالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ، وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

إنّما الأماني الكاذبة التي يتعلق بها العصاة الغاوون وقد قال رسول الله: «**الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانيّ**».[1]

وهكذا تنقطع الأسباب، وتتقاطع الأنساب في ذلك الموقف المهول، وقد أكّد النفي للشافعين: بـ"من"، وجيء بصيغة الجمع؛ لأنّ المألوف عند النّاس في واقع حياتهم كثرة الشّفعاء الأدعياء ممن يثرّون لموال النّاس ولا يتوصّلون لقضاء مآربهم، ولكن الله العليم الحسيب لا يأذن بالشّفاعة إلا لمن ارتضى، ولا يرضى الله إلا بما هو حق وعدل، ووصف الصّديق بالحميم هو للدّلالة على كمال الصّداقة فيمن يشعر بشعورك ويهتمّ بأمورك دون أن تتوسّل إليه بطلب كما تفعل مع الشّفيع، وذلك النّوع من الأصدقاء قليل كما قال الشّاعر:

١- رواه الترمذي من حديث شداد بن أوس، كتاب (٣٥) صفة القيامة، باب (٢٥) حديث الكيس، رقم ٢٤٥٩، وقال: حديث حسن.

وما أكثر الإخوان حين تعدّهم ولكنّهم في النائبات قليل

وحين ضاقت بهم السّبل وبلغ بهم التحسّر والنّدم ذروته ركنوا إلى تعليل أنفسهم بالتّمنّي أن يعودوا إلى الدّنيا ليتداركوا تقصيرهم في مقتضيات الإيمان: ﴿فلو أنّ لنا كرّة فنكون من المؤمنين﴾، ولكن هيهات.

﴿إنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإنّ ربّك لهو العزيز الرّحيم﴾

الإشارة إلى قصّة إبراهيم وما تضمّنته من الحجج والبراهين على وحدانية الله وحسن دعوته لأبيه وقومه، ثمّ إطلاقه لتلك الابتهالات لله والتوجّه إليه بتلك الأدعية النديّة، ثم التخلّص للوعد والوعيد، بما يوقظ الضّمائر ويحيي القلوب. ومع ذلك لم يهتد بها قوم إبراهيم، فليس بعجيب ألّا يؤمن بها أكثر قومك -أيها الرّسول- لأن الكفر ملة واحدة: ﴿وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين﴾ (يوسف:١٠٣).

وإن الله لغنيّ عن العالمين قويّ عزيز لو شاء لعجّل لهم بالعذاب، ولكنّه رحيم يملي للظّالمين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون، وما على الرّسول إلا البلاغ المبين.

﴿ربّنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد﴾ (آل عمران:١٩٤).

والله أعلم.

من قصة قوم نوح عليه السلام

أ)- النص:

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا
عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)
قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)
فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾: ﴿قَوْمُ﴾: اسم لا واحد له من لفظه، يُذكَّر ويُؤنَّث، وهو بمعنى الأمة أو الجماعة. ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾: من إطلاق الكل وإرادة البعض، والجمع للتعظيم. ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾: هو أخوهم من النسب إذ كان منهم، و﴿نُوحٌ﴾ بدل من ﴿أَخُوهُمْ﴾. ﴿أَلَا﴾: حرف تحضيض على التقوى. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾: كان نوح موسوما بالأمانة في قومه قبل أن يكون رسولا. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: توكيد لقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾: تعليل للجملة السابقة، زيادة: ﴿مِنْ﴾ لاستغراق النفي، أي لا يطلب منه شيئا من متاع الدنيا على دعوته إياهم لتقوى الله. ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ

لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾: القائلون هم سادة القوم، والاستفهام للإنكار. و﴿الْأَرْذَلُونَ﴾: الموصوفون بالرَّذالة، أي الهوان والحقارة، وهم ضعفاء القوم. ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: الاستفهام لإظهار عدم الاهتمام بالمستفهم عنه، أي لا تعنيه معرفة وسيلة استرزاقهم، بل ما يعنيه إنما هو استجابتهم دعوته. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: نفيه لطرد المؤمنين يدلّ على أنهم طلبوا منهم ذلك كما طلب كبراء قريش ذلك من رسول الله. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾: انتقلوا عند إفلاس حجتهم إلى التهديد برجمه بالحجارة حتى الموت وأكدوا تهديدهم باللاّم الدالة على القسم وبنون التوكيد. ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: قابل نوح العنف في التهديد بإغلاظ الدّعاء عليهم بأن يهلكهم بعذاب الاستئصال بدليل طلبه من الله أن ينجيه ومن معه من المؤمنين. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾: قصده من كان معه في الإيمان والتصديق برسالته، و﴿الْمَشْحُونِ﴾: يعني: المملوء بما أمره الله أن يحمله من الأزواج.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَذَّبُونِ، وَأَطِيعُونِ﴾: قرأها يعقوب بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف، وقرأها باقي القراء بحذفها. ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾: قرأه الجمهور فعلا ماضيا وقرأه يعقوب: ﴿وَأَتْبَاعُكَ﴾: جمع تابع.

د)- البيان والتفسير:

تبعًا لغرض تسلية رسول الله مما يعانيه من قومه، فقد توالت قصص الأنبياء مع أقوامهم، فبعد نبأ موسى وإبراهيم مع قومهما، أتبعه الله بقصة أبي البشر الثاني نوح عليه السلام، ثم تعاقبت بعده قصص عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، وهم أمم عاقبها الله كلّها بعذاب المحق والاستئصال، ولا شكّ أنّ ذلك هو أشدّ تأثيرا

على نفوس المكذّبين من العرب، وهم يعلمون شأن تلك الأمم، فقال جلّ من قائل:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

اعتبر المؤرخون نوحاً عليه السلام أباً ثانياً للبشر بعد أبينا الأول آدم عليه السلام، على افتراض إغراق جميع من تناسلوا من آدم بالطوفان، وذلك بعد أن طال عليهم الأمد، فانتكسوا إلى عبادة الأصنام واتخاذ الأنداد لله تعالى.

ابتدأت القصة بفعل التكذيب: ﴿كَذَّبَتْ﴾، وأُنث الفعل؛ لأن لفظ: ﴿قَوْمُ﴾ لا مفرد له من أصله فهو يُذكّر ويُؤنّث، وعدّ أنّ تكذيبهم لرسولهم هو تكذيب لكلّ الرّسل؛ -لأن أصول الرّسالات السّماوية واحدة في العقائد والأخلاق- فقد جاء التعبير: بـ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ هنا وفي القصص اللاحقة، فتكذيب الرّسول وما ينتج عنه من العذاب للمكذّبين هو غاية كلّ قصة، غير أنّ البدء بها في أوّل القصّة هو لإبراز الطّبع البشري في الإعراض عن كلّ دعوة تدعو إلى تغيير المألوف وإصلاح الفاسد من العادات، وذلك أدعى إلى توضيح مناط الاعتبار وتحقيق التسلية.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾: بيان لبعض تفاصيل القصة، فنوح هو أخو قومه من النّسب، ومن حقّ الأخوّة المناصحة والمناصرة، وقد بادأهم بدعوتهم إلى طاعة الله حتى يتجنّبوا غضبه وسخطه، والدّعوة إلى تقوى الله تكرّرت في السّورة على ألسنة الرّسل، إذ هي الدّعامة الأولى في رسالتهم وهم يواجهون ما عليه أقوامهم من التيه والضّلال، وفي دعوة نوح تكرّرت ثلاث مرّات، مما يدلّ على أنهم قد جابهوا رسولهم من أوّل دعوته، ثم علّل ذلك بطاعته مرتين فقال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، وذلك بعد أن وصف نفسه بالرّسالة والأمانة: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ

أمينٌ﴾، فهو مؤتمن على تبليغ وحي السّماء بأمر الله، وهم يعرفونه قبل بذلك بالخُلق الكريم، فلا يمكن أن يغشّهم أو يكذب عليهم، ولذلك أمرهم بطاعته؛ لأنّ من مستلزمات التقوى لله طاعة رسوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤).

ويبدو من توكيده لهم الأمر بالتقوى أنهم كانوا قساة القلوب مقيمين على الكفر والضلال، فلم تُجْدِ فيهم تلك التأكيدات الدعوية، ولا تلك الأساليب الحكيمة التي ذكرها الله على لسان نوح في السّورة التي سمّيت باسمه والتي يقول فيها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِي إِلاَّ فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا، ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ (نوح: ٥-٩).

وليزيل كلّ شبهة من نفوسهم في أن يظنّوه أنّه يطلب متاع الدّنيا بدعوته نفى ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وإدخال: ﴿مِن﴾ لإفادة استغراق النفي لكل نوع من مغانم الدنيا التي يمكن أن يقترن ببعض الدّعوات قديما وحديثا.

ثم أردف قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فهو يطلب الأجر ممن هو أعلى وأسمى من منازلكم الدّنيوية، إنه ربّ العالمين الذي كلّفني تبليغ هذه الرّسالة، وهو القادر وحده على مكافأتي ورعايتي، ثم هو يكرّر عليهم طلب التقوى لله والطّاعة له في دعوته.

غير أن القوم لم يزدادوا إلا عتوّا واستكبارا فكان منهم هذا الرّد العجيب: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ، قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ، وَمَآ أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

هكذا يجيء الجواب بالاستفهام الإنكاري: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ﴾، مقرونا بالجملة الحالية: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾، وهم ضعفاء القوم من الفقراء الذين لا يؤبه لهم في نظر علية القوم من السّادة الكبراء، ويبدو من إجابة نوح لهم طلبوا منه إبعاد أولئك الضّعفاء عن مجالسهم، كما طلب ذلك عظماء قريش من رسول الله، ولذلك جاءت إجابة نوح بقوله: ﴿وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾، بمعنى: إن الله تعالى لم يكلفني بحسابهم على أعمالهم؛ لأن ذلك موكول إلى الله وحده، يزن أعمالهم ويحاسبهم عليها، أمّا مهمّتي أنا فهي الدّعوة إلى الإيمان، وليتكم تشعرون بذلك: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أي ليس من شأني أن أطرد من استجاب لدعوتي، وما مهمتي إلا الإنذار والتوضيح لرسالة الله، وقد جاءت بصفة الإنذار؛ لأن الموقف يستدعي ذلك لما يتطلبه من التهديد لأولئك الطّغاة المتكبرين الذين حاكموا نوحا بأسلوب العنف والتهديد وقالوا له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾.

إنه تهديد صريح مؤكّد، يقطعون به حبل الجدال، وقد أعوزتهم الحجّة فلجأوا إلى التهديد المادّي كما يفعله الطّغاة في كلّ زمان ومكان، واختاروا الرّجم بالحجارة للقتل، وهو أقسى الوسائل في تنفيذ حدّ من حدود الله في حقّ الزّاني المحصن، وقلّما تثبت الشّهادة فيه، أو إقرار الجاني على نفسه. وهنا يلتجئ نوح إلى ربّه لينصره على قومه، ووكل إلى ربّه وسيلة ذلك تأدّبا مع الله، فلم يزد أن يبث شكواه لربه: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾، تمهيدا لدعائه الحار: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾، طلب أن يفصل الله بينه وبينهم بحكمه، ثم وكل الأمر في ذلك إليه ليجازيهم بما يستحقون، ولكنّه في كلّ الأحوال طلب أن ينجيه ومن معه من المؤمنين، وهنا يطوي النصّ ما فصّله في سورة "هود" في أمر الله بإعداد السّفينة وجمعه لأزواج كلّ الأصناف الحيوانية لحملها معه، ثم ما كان من سخرية قومه كلما مرّوا به وهو يواصل العمل في صنع السّفينة... إلخ.

فنجد النصّ هنا ينتقل إلى الاستجابة الفورية لدعاء نوح بإنجائه ومن معه على السّفينة المملوءة بمن معه من المؤمنين وبالأزواج كما أمره الله، وعطف الإغراق لمن بقي خارج ظهر السّفينة، عطف بـ"ثمّ" للدلالة على التفاوت بين الإنجاء والإهلاك تفاوتا في الزّمان والمكان وتفاوتا في العاقبة والمصير.

وهكذا يسدل السّتار على قصة نوح بالفصل العادل في معركة الإيمان والكفر، ويليه التعقيب بالآيتين السّابقتين: **﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾**، تأتي تلك النهاية الأليمة للمكذّبين وهم الأكثرية من قوم نوح، تأتي بعد دعوة من رسولهم طويلة الأمد تمتدّ إلى ما يقرب من عشرة قرون، وبعد ذلك يقول المولى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (هود: ٤٠)، فكيف بك أيها الرّسول تبخع نفسك أن لا يؤمن بك قومك؟، والله أعلم.

قصّة هود مع قومه عاد

أ)- النصّ:

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ
﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾: عاد اسم لقبيلة هود عليه السلام، وهو اسم لجدّها الأعلى، وأنث الفعل: ﴿كَذَّبَتْ﴾ على اعتبار القبيلة. ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: الاستفهام إنكاري. الرّيع: المكان المرتفع، ويطلق على الطّريق والفج بين الجبلين. والآية: العلامة الدّالة على الطّريق، وتطلق على المصنوع العجيب مما يدلّ على مهارة صانعه. ﴿تَعْبَثُونَ﴾: من العبث، أي فعل ما لا فائدة فيه. فقيل: إن الآية بمعنى القصور الفخمة العالية، كانوا يجلسون على شرفاتها ليصدّوا النّاس عن دعوة هود. ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: المصانع: جمع مصنع، مشتق من صنع على وزن مفعل، للمبالغة، فهو اسم مكان أو مصدر ميمي، والصّنع هو إتقان العمل يقال: رجل صنع -بفتحتين- وامرأة صناع، فقيل في المصانع هنا أنها جوابي للمياه أو هي قصور مشيّدة يتحصّنون فيها كأنهم لا يموتون. ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾: البطش: الأخذ بعنف وشدة. ﴿جَبَّارِينَ﴾: حال: وهو جمع "جبّار" الذي يفرط في الأذى والكبر. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾: بمعنى أعطاكم ما تعرفونه بالمحسوس.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَطِيعُونِ﴾: قرأه الجمهور بحذف ياء المتكلم وقرأه يعقوب بإثباتها. ﴿إِلَّا أَجْرِيَ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأه الباقون بالإسكان. ﴿وَعُيُونٍ﴾: قرأه ابن كثير وابن ذكوان وشعبة وحمزة والكسائي: ﴿وَعِيُونٍ﴾ بكسر العين، وقرأه الباقون بضمّها. ﴿إِلَّا خُلُقُ﴾: قرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وخلف: ﴿خُلُقُ﴾ بضمّ الخاء واللام، وهو بمعنى السّجيّة

المتمكنة في النفس، كما في الحديث: «خالق الناس بخلق حسن»[1]، وقرأ الباقون: ﴿خَلْقُ﴾ بفتح الخاء وإسكان اللام، مصدر، بمعنى الإنشاء والتكوين.

د)- البيان والتفسير:

قصة هود عليه السلام هي القصة الرابعة في السورة الكريمة بعثه الله إلى قبيلة عاد التي كانت تسكن قرب "حضرموت" من محافظات "اليمن" اليوم وتسمى مرابعهم "الأحقاف"، وقد تقدم تحديدها في سورة "هود"، وكانوا أصحاب قوة وسلطان زادهم الله بسطة في الخلق كما قال تعالى عنهم في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [٦٩]، وهنا يوبخهم هود عليه السلام على إعراضهم عن ذكر الله وافتتانهم بمتاع الدنيا، وقد فاتحهم بما فاتح به نوح قومه بدعوتهم إلى تقوى الله وأنه رسوله إليهم يبلغ ويحسه بأمانة وصدق فيجب طاعتهم له.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تكررت الجملة التي تقدمت في أول قصة نوح لقصد التركيز على تسلية رسول الله، وتكرر نفس الدعوة على لسان هود عليه السلام، وقد تقدم تفسيرها، وكان من المفروض تاريخيا -إذ جاء قوم عاد من بعد نوح- فيفترض أن يتناسل من تلك البقية الصالحة من المؤمنين التي نجت مع نوح، يتناسل منها قوم صلحاء يتابعون المسيرة الإيمانية في الموكب البشري، ونحن لا نستطيع أن نقدر الفترة الزمانية التي تفصل بين العهدين، غير أن تذكير هود لقومه بمصير قوم نوح يدل على أن القوم

---

[1] - رواه الترمذي من حديث أبي ذر، كتاب (٢٨) البر والصلة، باب (٥٥) ما جاء في معاشرة الناس، رقم ١٩٨٧.

قد طال عليهم الأمد فلم يعتبروا بمن مضى قبلهم، حتى كان رسولهم يحرّضهم على شكر ما أمدّهم الله به من أنواع النعم، ومنها فراهة أجسامهم وقوة سلطانهم، وإذ أصبحوا مغرورين بالحظوظ الدنيوية، فقد كان من مستلزمات الدعوة هود عليه السلام أن ينفي عن نفسه أي طمع منهم في تلك الحظوظ كما فعل نوح مع قومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثم توجّه إليهم بعد ذلك في نقد واقعهم ليحاول إصلاح ما فسد من أوضاعهم فقال موبخا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾

أخذ هود يخاطب قومه بأسلوب التوبيخ والتأنيب ويعدّد ما هم عليه من الترف والانشغال بزينة الدّنيا والتعاظم بالقوة والسّلطان فذكر كشواهد على ذلك ثلاثة أمور:

أ)- ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: الرّيع هو المرتفع من الأرض، والتعبير "آية" للمبنى يدلّ على أنه معلم ممتاز بضخامته وزخارفه. فقيل لها أبراج عالية في المرتفعات؛ كانوا يتعنتون في تشييدها إظهارا للقوّة والسّلطان مما يتطلب منهم أموالا طائلة وجهودا مضنية اعتبرها رسولهم عبثا وتضييعا للوقت، كما تجد ذلك في ما تقوم به الدّول القويّة اليوم من التّنافس في المعالم العمرانية الشاهقة إلى حدّ الإسراف والترف.

ب)- ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾: المصانع: اللفظ مشتق من "صنع"، والصنع هو إتقان العمل، فعلى اعتبار "مصنع" اسم مكان، فقد قيل في معناه: إنها القصور العالية المحكمة المتقنة والتي إلى جانب وقايتها لهم من المكاره تقيهم من الحرّ والبرد، فإنها تقيهم -أيضا- من مكايد الأعداء، ومن نوائب الدّهر، حتى لكأنهم يرجون بذلك الخلود في الدّنيا، ومما يؤيّد ازدهار تلك الحضارة قوله تعالى في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ

يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ (٦-٨).

يقول الإمام ابن عاشور تعليقا على هذه الآيات: "وقد اختلفت أقوال المفسّرين في تعيين البناء، والآيات والمصانع -كما سيأتي- ومما قالوه ما هو متمحض للهو والعبث والفساد وفي بعضه ما الأصل فيه الإباحة، وفي بعضه ما هو صالح ونافع...إلخ".[1]

قلت: إن الأعمال بمقاصدها، والمقصد قد يتغير من أحد لآخر ومن جيل إلى جيل، فقد تنجز أعمال وتقام مؤسسات لغرض نبيل يراعى فيه النفع العام، ثم يأتي من يحوله إلى مفسدة.

ولذلك نجد الرسول هود قد قيد الاستفهام الإنكاري: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ فيده بجملة: ﴿تَعْبَثُونَ﴾ مما يدل على أنه لا ينكر عليهم عملية البناء، بل ينكر أن يكون ذلك لمجرد التباهي والتعاظم بالمقدرة والمهارة والغرور بفتنة الدنيا.

ج)- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾: والبطش هو الأخذ بالشدة والعنف في كل شيء، أي أنكم تعاملون غيركم بالغلظة والقساوة، فيختل بذلك ميزان العدل، ويعمّ الظلم والفساد؛ لأن العقاب يجب أن يكون مناسبا للذنب، وكل إفراط في ذلك فإنه يفضي إلى البغي والجبروت.

وها هو رسولهم هود ﷺ بعد إنكاره على قومه تلك الصفات الثلاث، يفرّع عليه تذكيرهم بتقوى الله ويقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وقد كرّر أمرهم بتقوى الله؛ لأن ذلك أدعى لتخويفهم واستنزال طائرهم من الغرور والافتتان بالدنيا، لأن الله الذي وهب لهم تلك القراهة في الأجسام قادر على أن يسلبهم إياها ويسلّط عليهم غيرهم.

ثم أخذ يذكرهم بنعم الله الكثيرة عليهم ويقول: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٩/ ١٦٧.

تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

عطف الأمر بالتقوى هنا على نظيره في الجملة السابقة، وجيء بعده بالموصول: ﴿الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ للدلالة على استحقاقه منكم صفة التقوى وبأن تشكروه على ما أنعم به عليكم، أجمل في ذكر تلك النعم: ﴿أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنها أشياء يحسّونها ويعيشون فيها، وهي من أسباب قوتهم التي طغوا بها إذ قالوا لنبيهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ (فصلت:١٥).

ثم أخذ هود ﷺ يفصّل لهم تلك النعم، فبدأ بالأنعام والبنين، وكلاهما من الرّغد والزّينة في الحياة الدّنيا، ثم أضاف الجنات والعيون لأنها متجع لتلك الأنعام وموارد رزق ومتعة للبنين الذين هم مناط آمالهم وامتداد لذكرهم، فاشكروا الله الذي سخّر لكم كل ذلك حتى يدعها عليكم، وإن لم تفعلوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

إنه تحذير وإشفاق أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، ووصف العقاب المتوعد به بالعظمة لما يقع فيه من الأهوال، قد يكون عاجلا أو آجلا، وهل من شأن المترفين الطّغاة أن يستجيبوا للناصحين؟ كلا!. أو لم يقولوا في السحاب الذي يحمل هلاكهم وهم سادرون في جبروتهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ (الأحقاف:٢٤)؟!.

وهنا يردّون على رسولهم في عجرفة واستكبار: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

أرادوا أن يغلقوا أبواب الرّجاء لأي انصياع إلى الحق، أو اهتداء لما يدعوهم

إليه رسولهم إذ سوّوا بين وعظه إياهم وعدمه.

والوعظ: هو التذكير بما يلين قلب الإنسان إذ قد يكون الإنسان عالمًا بما يوعظ به، ولكنه ينسى أو يتناسى، فينبهه الواعظ، ولكن تعبير هؤلاء يدلّ على نوع من الاستهتار والجفوة المفرطة إذ استمروا على ما هم عليه من الكفر والعناد، معلّلين موقفهم بصيغة القصر: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

وبما أن كلمة: ﴿خُلُقُ﴾ جاءت على قراءتين، بمعنى السّجية والعادة المتمكنة أو هي بمعنى الاختلاق والافتراء، فكلا المعنيين للفظ يؤكد إصرارهم وعنادهم بداعية البغي والكفر أو بداعية المحاكاة والتقليد، ثم هم ينفون أيّ لون من العذاب يلحقهم كما يهددهم بذلك هود في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وذلك اعتمادًا بأن أحدًا من آبائهم كان على مثل حالهم فلم يعذّب، وفي ذلك إنكار منهم للبعث، كما جاء تصريحهم بذلك في سورة الأنبياء.

ثم قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾، الفاء: المفصحة لترتيب ما بعدها على ما قبلها، إذ تحقق تكذيبهم لرسولهم، فكان هلاكهم بالريح الصّرصر العاتية، كما بيّن الله ذلك في قوله بسورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ (٦-٨).

وفي ختام هذه القصة تأتي الآيتان المكرّرتان في نهاية كل قصة، والعبرة هنا تكون لكل أمة متعها الله بالقوة والسلطان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. وكفار قريش هم مثال على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

والله أعلم.

قصة صالح عليه السلام مع ثمود

أ)- النص:

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ
طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا
تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا
أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾
قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾: الاستفهام إنكاري توبيخي لهم أن يظنوا بقاءهم على تلك النعم وهم لا يشكرونها. و﴿هَاهُنَا﴾: إشارة إلى البلد الذي يتنعمون بخيراته. ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾: النخل: اسم جمعي للنخلة، يفرق بينه وبين المفرد بالتاء فيقال: نخلة، والطلع: الوعاء الذي يطلع في جوف النخلة كنصل السيف بضم ثمر النخلة في أول أطواره، و﴿هَضِيمٌ﴾: بمعنى المهضوم، أي لطيف لين، لأن أصل الهضم شدخ الشيء حتى يلين، ومنه هضم المعدة للطعام. ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾: النحت هو النجر والبري والتسوية، والفره، الفاره هو القوي النشيط، والحاذق في مهنته و﴿فَارِهِينَ﴾: منصوب على الحال.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾: مسحّر: اسم مفعول، أي ممن اختلط عقله بالسّحر، فهو أبلغ من وصف "مسحور". ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: الشِّرب -بكسر الشين وسكون الراء- النوبة أو الحظ من الماء المشروب أي لها يوم مخصوص لشربها لا يزاحمها فيه أحد. ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾: نهاهم عن إذايتها بأي سوء كان، لأنها ناقة الله وهو حارسها وحاميها. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: قيل إن أشقاهم رماها بسهم فقتلها، وجيء بصيغة الجمع: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ على اعتبار أن الآخرين ساعدوه على ذلك ورضوا تلك الفعلة فهم شركاء في الإثم. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾: أي أحاط بهم العذاب فأهلكهم بقوة وشدة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَأَطِيعُونِ﴾: تقدمت القراءة فيه كما تقدمت في كلمة: ﴿تَتَّقُونَ﴾.
﴿فَرِهِينَ﴾: قرأه الجمهور بدون ألف بعد الفاء، مشتق من الفراهة، وهي الحذق والكياسة، وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: ﴿فَارِهِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل.

د)- البيان والتفسير:

من مزايا قصص الأنبياء في القرآن الكريم أنها تعالج أوضاع أمم اختلفت في بيئاتها وفي أوضاعها الاجتماعية، وفي أمراضها الحضارية، وفي ذلك سجلّ حافل من الأحداث التاريخية يستخلص منه رسول الله عبرا ودروسا وهو يصدع بأمر الله للناس جميعا بمنهاجه الذي يتلاءم مع كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ذلك المنهج الرّباني الذي يشهد له ربّ العزة بالكمال والتمام عندما قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة ٣)، كما قال في نفس السّورة: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة ٤٨).

وقصة صالح مع ثمود هي الخامسة في الترتيب، وثمود مثل عاد في كونهم عربًا يسكنون مدينة الحجر على طريق الشام من المدينة المنورة وهي ما تزال آثارها باقية هناك يعرفها العرب، إذ يمرّون عليها في رحلة الشتاء والصيف، وقد مرّ عليها رسول الله وأصحابه عند ذهابه إلى غزوة "تبوك" وفي رواية للإمام البخاري: إن الناس نزلوا مع رسول الله أرض ثمود -الحجر- فاستقوا من بئرها واعتجنوا به فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهرقوا ما استقوا من بئرها وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة. وقال لأصحابه: **«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**. ثم تقنّع بردائه وهو على الرّحل، وأسرع السّير حتى أجاز الوادي[1].

قال الله تبارك وتعالى: **﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**.

لقد تشابهت مقدّمات كلّ قصّة في الألفاظ والمضامين في ما يدعو إليه كلّ رسول قومه، للدّلالة على وحدة رسالات الله إلى خلقه بالدّعوة إلى تقوى الله وطاعة رسوله، كما أن صفة الأمانة في التبليغ مما يمتاز بها كل رسول، وهو لا يطلب على نصحه أجرا ولا منفعة وإنما جزاؤه عند الله.

ولكنّ القوم أعرضوا عن الله واغترّوا بما متّعهم الله به من النعم، فأخذ صالح يعظهم ويذكّرهم بما يجب عليهم من الشكر للمنعم، ويحذّرهم من نقمة الله إن هم تمادوا على الكفران.

١- رواه البخاري من حديث سالم بن عبد الله عن أبيه. كتاب (٦٤) الأنبياء، باب (١٩) قول الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحا﴾، رقم ٣٢٠٠. ورواه مسلم من حديثه أيضا. كتاب (٥٦) الزهد والرقائق، باب (١٠) لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، رقم ٧٦٥٦.

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا ءَامِنِينَ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ، وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ، الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾:

أخذ صالح يوقظ ضمائرهم ويلفت انتباههم إلى ما هم فيه من نعم توفّر لهم الرّخاء والأمن، وقد خاطبهم بالاستفهام الإنكاري موبّخا إياهم أن يعتقدوا أنّهم مخلّدون في ذلك النّعيم، وقد ذكر لهم بعض أسبابه من الجنات والعيون والزّروع مما يدلّ على خصوبة أرضهم ووفرة خيراتها. وخصّ بالذّكر النّخل -وهي من الجنات والزّروع- لما لهذه الشّجرة الصّحراوية من الفوائد الجمّة كان العرب يستغلونها، حتى شبّهها رسول الله بالمؤمن في ما رواه الشّيخان، وذلك لأنّ كل ما فيها نافع في حياة الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾، والطلع هو غلاف الشّماريخ التي تتحوّل إلى بسر ورطب وتمر، وهضيم: بمعنى غض طريّ. وإلى جانب تلك الجنات الوارفة كانوا يفتنون في نحت بيوتهم في صخور الجبال بحذق ومهارة إلى جانب القصور التي كانوا يبنونها في السّهول، وكأنّهم بذلك يحتاطون من الرّياح العاتية التي اجتاحت ديار عاد، وهم غافلون عن قدرة الله في أن يهلكهم بأسباب أخرى، وهو القاهر فوق عباده، ولذلك رتّب على ذلك النصح أمرهم بتقوى الله وطاعته في ما يدعوهم إليه: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثم نهاهم عن طاعة المسرفين منهم، وهم الكبراء والسّادة الذين يغررونهم بالسّفاهة والضّلالة، ووصف هؤلاء بأنّهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فأكّد فسادهم بضدّه من نفي كلّ إصلاح عنهم، حتى لا يتوهّم أحد أيّ نوع من الإصلاح يمكن أن يقوم به هؤلاء الناس، ذلك لأنّ في الناس من يفسد ويصلح، وفيهم من يزيّن له الشّيطان عمله فيراه حسنا ويحاول إغراء غيره بذلك.

وللتحذير من الوقوع في حبائل أولئك الدّعاة إلى الشّر جاء النّهي عن طاعة

أمر المسرفين، ولا شك أن الرّهط التسعة الذين تآمروا على قتل صالح يندرجون في تلك الزّمرة الفاسدة، وقد أضفى الله عليهم نفس الوصف في سورة النمل فقال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ (النمل:٤٨).

فكيف كانت إجابة القوم لتلك النصائح المخلصة: ﴿قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

إنها إجابة كل الضّالين المشركين، فهم يعيبون ذات الرّسول السّامية فيرمونه بتأثير السّحر في عقله بصيغة: "مسحّر" عوضا عن "مسحور"، تعني أنه قد تعرّض للسحر عدّة مرات، هكذا ليجعلوا ذلك ذريعة إلى تكذيبه، فلم يترددوا على اعتباره بشرا مثلهم، بينما المفروض في الرّسول أن يكون خلقا آخر في اعتقادهم، وإذ هم شاكون في صدقه فقد طالبوه أن يأتي لهم بمعجزة خارقة تدلّ على صدقه.

وسرعان ما كانت الاستجابة الرّبانية لصالح يرفع بها تحدّي القوم إذ قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ. فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

وإذ كان القوم أصحاب ضرع وزرع فقد اقتضت مشيئة الله أن تكون معجزة صالح ناقة ذات خصوصيات، تقول الروايات أنهم اقترحوها على صالح، غير أن النصوص القطعية لم تفصّل لنا ذلك إلا تلك الإضافة التشريفية للفظ الجلالة في قوله تعالى بسورة الأعراف: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ (٧٣)، فلم يرد هنا على أن اشترط صالح أن يكون لها يوم معلوم لشربها لا يردونه، ولهم يومهم الذي لا ترد فيه، وقيل إنها تدرّ لهم من اللّبن في آخر النّهار بمقدار ما شربته من الماء، ثم نهاهم أن يمسّوها بسوء، ونكّر اللّفظ ليشمل كل أنواع الأذى، فلا يقربوها وهي ترعى في أرض الله، وحذّرهم من عقاب يوم عظيم إن هم آذوها؛ لأن الله يحميها ويحرسها.

ويختصر النصّ هنا خاتمة القصة بأن القوم تآمروا على قتلها فجاء الخبر بصيغة الجمع: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ. فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾، ذلك لأن الإجرام -وإن قام به واحد منهم- فإن بقية أفراد القبيلة قد تواطؤوا معه وساعدوه على ذلك، وبعد ثلاثة أيام أخذهم الله بعذاب الرجفة والصيحة، ولم ينفع ندمهم على فعلتهم لأنه قد فات أوان التوبة، إذ هي كتوبة فرعون عند الغرق.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: نفس التعقيب في آخر كل قصة يتكرر ليؤكد الشبه في عاقبة المكذبين، وفي نجاة الرسول والمؤمنين معه والله أعلم.

قصة لوط عليه السلام مع قومه

أ)- النص:

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ
بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي
لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣)
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لُوط﴾: هو ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وقومه يسكنون قرية "سدوم" من

فلم يملك لوط أمام ذلك التهديد من قومه إلا أن يتضرع إلى مولاه أن

فلسطين، وهي واقعة على شاطئ بحر لوط. ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: الإتيان كناية عن قضاء العملية الجنسية. ﴿الذُّكْرَانَ﴾: جمع ذكر، ويجمع على ذكور. و﴿الْعَالَمِينَ﴾: الناس، يعني ما نسميه اليوم بالشذوذ الجنسي. ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾: ﴿تَذَرُونَ﴾: تتركون، والمراد بالأزواج هنا النساء. ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾: يعني إلى موضع الحرث، أي القبل. ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾: جمع عاد، وهو الظالم، وهو الذي يتجاوز الحدود الفطرية. ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾: هددوه بالطرد من بلدهم لأنه كان مهاجرا إليهم كما قال تعالى عنه: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾(العنكبوت:٢٦). وقد عللوا إخراجه بكونه يتطهر. ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾: أي أنا من المبغضين الكارهين كرها شديدا، وتقديم الجار والمجرور للدلالة على شدة نفوره منهم. ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾: العجوز: المرأة المسنة، والمراد بها زوج لوط. ﴿فِي الْغَابِرِينَ﴾: صفة للعجوز، أي بقيت مع المتأخرين لأنها كانت راضية بفعلهم. ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾: أي أهلكنا الآخرين ممن أصر على الفاحشة بعد إنجاء لوط ومن آمن معه. ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾: ساء: فعل ذم، وسمي ذلك العذاب مطرا لأنه نزل عليهم من السماء حجارة. قيل: إنها من حمم البراكين، و﴿الْمُنْذَرِينَ﴾: هم من أنذروا بعذاب ينزل بهم.

ج)- البيان والتفسير:

اشتهر قوم "لوط" عليه السلام بهذه الفاحشة المنكرة القذرة مما نسميه اليوم "الشذوذ الجنسي"، وهم أول من ارتكب هذه الفاحشة التي هي من أعظم الكبائر في الإسلام، وعقوبة مرتكبها القتل إجماعا من صحابة رسول الله ﷺ، ثم كيفية القتل فقد اختلف فيه الأئمة ما بين الحرق بالنار أو الرجم أو الإلقاء من شاهق، إلا أن أبا حنيفة فيه يرى التعزير. وقد جاء على لسان رسولهم قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف:٨٠).

وقد توزعت مشاهد قصة قوم لوط في القرآن الكريم في خمسة عشر نصًّا منها هذا النصّ من السّورة الكريمة ضمن ما ورد فيها من قصص الأنبياء وهي القصة السّادسة إذ قال الحق تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تشابهت عبارات التّمهيد للقصة وهي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، ولوط جاء مهاجرا من أرض بابل في العراق، ولم يكن من نسب قومه، ولكن لما استوطن بلادهم وعايشهم اعتبر أخا لهم، ولذلك جاء في سورة "ق": ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ (١٣)، أي أخوّة العشرة والملازمة في البلد الواحد.

وأما مضمون دعوته لقومه فيقال فيها ما تقدم في نظرائها من دعوات الرّسل السّابقين، ثم قال لهم يعظهم وينصحهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾.

الاستفهام إنكاريٌ للتوبيخ، و﴿الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من النّاس العقلاء، والإتيان كناية عن قضاء الشّهوة الجنسية، وقد جعلها الله وسيلة للتكاثر وحفظ الأنواع، وتتمّ بالانجذاب الغريزي بين الذّكر والأنثى من كل نوع وأحاطها بسياج من الطّهر والعفاف ومن الآداب والشّروط في إبرام عقدة النّكاح بين الرّجل والمرأة، وموضع الحرث في النّساء هو المحل الطّبيعي الذي خلقه الله لإشباع تلك الغريزة الفطرية.

ولكن قوم لوط، شذّوا عن الفطرة السّليمة بإتيان الذّكور في محلّ الفرث المستقذر. وهم بذلك أول من انحرف عن جادة الفطرة فنهاهم لوط عن ذلك مذكّرا إياهم بما أنعم عليهم ربهم من التمتع الحلال بأزواجهم، وهم لا يكادون

يتصحون فأغلظ عليهم بقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾، أي تجاوزتم بعدوانكم على أصول الفطرة كل حدود العقل والشرع والإنسانية السويّة. ووصفهم بـ"قوم عادين" يجعل صفة العداوة لكلّ ما هو نقيّ طاهر متمكّنة منهم حتى أصبحت سجية فيهم، ألم يقولوا لرسولهم مهددين: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل:٥٦).

وهنا نجدهم يتوعدون رسولهم بالطرد دون تعليل إذ: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ. قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ. رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ. فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ. ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾.

هددوه بالإخراج من مدينتهم؛ لأنه كان نزيلاً عندهم –كما تقدم– وأكدوا تهديدهم بالقسم والتوكيد حتى يتركهم وشأنهم مما استمرءوا من تلك الفاحشة الدنيئة، ظنا منهم أنهم في حرية من أمرهم، وأن القضية كما تنظر إليها الحضارة الفاجرة اليوم تندرج في الحريات الشخصية التي يحميها القانون ويفسح لها المجال في الممارسات الاجتماعية كعرفها. ولكن لم يأبه لوط بوعيدهم أغلظ الإنكار عليهم بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾، أي من المبغضين له بغضا شديدا.

وفرق بين أن لا يعمل إنسان عملا قد يمتنع عن ذلك خوفه من كلام الناس أو سلطة القانون لو أنه لا يجد حيلة إلى عمله، وبين أن يقلع عن ذلك العمل لأنه يكرهه ويبغضه في فطرته وسجيته كما صرّح بذلك لوط لقومه، ولنسأل الله تبارك وتعالى يمن علينا أن يزين الإيمان في قلوبنا ويكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان فقال جلّ من قائل في سورة الحجرات: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧).

فلا مناص للوط أمام ذلك التهديد من قومه إلا أن يضرع إلى مولاه أن

ينجّيه من عقوبة تلك الفعلة الشنعاء: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، فاستجاب الله دعاءه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾، والرّبط بالفاء يدلّ على أن الاستجابة قد تمت فور توجهه إلى الله، إذ رتّب له وسيلة النجاة مع أهله ومن آمن معه، والعجوز المستثناة من النجاة هي امرأة لوط، كانت ممالئة للقوم في فعلتهم الشنعاء، إذ لم تؤمن برسالة زوجها فكانت من الهالكين كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾.

يدلّ الرّبط بـ"ثم" في تدمير الضّالين على فترة زمنية تمت فيها تلك الترتيب التي سخّرها الله لنجاة لوط ومن معه، ولم يفصّلها النصّ هنا كما فصّلها في سورتي الأعراف وهود، بينما أشار باختصار هنا إلى وسيلة ذلك التدمير المهول لقوى قوم لوط فقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾، والإمطار هو إنزال المطر، ولما كانت حجارة العذاب تنزل عليهم من السّماء مثّلت بالمطر، ولكنّه مطر سوء وعذاب لكل من أنذره رسل الله فلم يرعووا عن غيّهم.

وفي سورة هود يفصّل الله تعالى صورة ذلك العذاب لتكتمل بذلك مشاهد القصة، وهي تختم هنا بنفس التعقيب المتقدم بعد كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، والله أعلم.

قصة شعيب عليه السلام مع قومه (أصحاب الأيكة)

أ) – النص:

كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾.

ب]- التحقيق اللغوي:

﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾: الأيك والأيكة: هي الغابة الكثيفة الشجر الوارفة الظلال، وهي منطقة خصبة من شاطئ البحر الأحمر إلى قرب خليج العقبة، وتوجد فيها مدينة مدين، وفي ما رواه ابن عباس أن مدين والأيكة شيء واحد، فتكون الأيكة متجمعا لمدين. ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾: ﴿أَوْفُوا﴾: من الإيفاء، وإعطاء الشيء كاملا غير منقوص. المخسر: هو الذي ينقص من حق غيره فيدفع المتعامل معه إلى الخسارة. ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: أي الميزان السوي، وأطلق على العدل. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: البخس هو النقص والذم، وبخس أشياء الناس يكون بذمها ووصفها بغير ما فيها، فيضطروهم إلى بيعها بأبخس الأثمان. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: العثو أو العثي هو الإفساد الشديد، ومفسدين حال، لتأكيد النهي عن العثو، ويلاحظ فيه المعنى الثاني بالقصد والعمد. ﴿وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾: ﴿الْجِبِلَّةَ﴾: -بكسر الجيم والباء وتشديد اللام- هي الخلقة والطبيعة، يقال: جُبل فلان على كذا، ويعني: ثبت ولازم تلك الصفة، والمراد هنا: الناس السابقون ممن جبلوا على صفات سبقوا إليها. ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾: ﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف،

واللام في "لمن" تسمّى اللام الفارقة، وأصل التركيب: ونظن أنك لمن الكاذبين، فوقع تقديم وتأخير. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَآءِ﴾: الكِسف -بكسر الكاف وسكون السين- جمع كِسفة مثل قطعة من الشيء، والمراد: قطع العذاب النازلة من السماء. ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾: ﴿الظُّلَّةِ﴾: السحابة التي أظلتهم، وكانت تحمل الصواعق التي أهلكتهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الأَيْكَةِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر "لَيكة" بلام مفتوحة بعدها ياء تحتية ساكنة، ممنوعا من الصرف للعلمية والتأنيث، وقرأه الباقون: ﴿الأَيْكَةِ﴾ بحرف التعريف بعد همزة مفتوحة وجرّ آخره على أنه تعريف عهد لأيكة معروفة. ﴿الْقُسْطَاسِ﴾: قرأه الجمهور بضم القاف، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وخلف بكسر القاف. ﴿كِسْفًا﴾: قرأ الجمهور بكسر الكاف وسكون السين، وقرأ حفص "كِسَفا" بكسر الكاف وفتح السين، على أنه جمع كِسف. ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿رَبِّيَ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها.

د)- البيان والتفسير:

اختلف المفسّرون: هل مدين هم أصحاب الأيكة فيكونون أمة واحدة، أم هما أمتان مختلفتان بعث الله إليهم رسولا واحدا وهو شعيب عليه السلام؟، فإلى القول الأول ذهب ابن عباس، ورجّحه ابن كثير، وإلى القول الثاني بأنهما قبيلتان مختلفتان مال كثير من المفسّرين، ونقل ذلك عن الإمام جابر بن زيد، ورجّحه القطب رحمه الله، إذ قال بعد شرحه للفظ: ﴿الأَيْكَةِ﴾ بأنها الشجر الملتف قال: "وهم غير أهل مدين، ولذلك قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ ولم يقل: "أخوهم"، نزلوا غيضة بعينها

في البادية".[1]

قلت: وقد رجّح الإمام ابن عاشور ذلك إذ قال: "والأظهر أن أهل الأيكة غير مدين، فإن مدين هم أهل نسب شعيب، وهم ذرية مدين بن إبراهيم من زوجه "قطورة"، سكن مدين في شرق بلد الخليل كما في التوراة، فاقتضى ذلك أنه وجده بلدا مأهولا بقوم، فهم إذن أصحاب الأيكة، فبنى مدين وبنوه المدينة وتركوا البادية لأهلها وهم سكان الغيضة". إلى أن يقول: "ومما يرجّح ذلك قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ، فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (٧٨-٧٩). فجعل ضميرهم مثنى باعتبار أنهم مجموع قبيلتين: مدين وأصحاب الأيكة".[2]

وقصة شعيب مع قومه هي القصة السّابعة، مهّد الله لها بنفس ما تقدم في القصص السّابقة فقال جلّ من قائل: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

بلّغ شعيب لقومه نفس البيان الذي بلّغه الرّسل من قبله، لأن المضمون الدّعوي واحد يركّز على المنهج العقدي في الإيمان بوحدانية الله وحسن طاعته وتقواه، كما حثهم على طاعته على اعتبار أنه رسول إليهم من عند الله، أمين في نصحه، لا يبتغي به أجرا ولا نفعا عندهم، ثم أخذ يتعرّض لما يمارسونه في معاملاتهم مع النّاس، إذ كانوا قوما تجارا وكان موقع بلدهم على ممرّ القوافل التجارية فنصحهم بقوله: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَاتَّقُوا

١- أحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٢٨٣.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٩/١٨٣.

الذي خلقكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾، ونهيهم عن التطفيف في الكيل والوزن يدلّ على أنهم يستعملون أدوات الكيل والوزن للتقييم والتقدير ويأخذون أثمان بضاعتهم على الطّريقة المعروفة قديمًا وحديثًا، ولكنهم لم يكونوا أمناء في ذلك التقييم والتقدير، إذ كانت لهم ضروب من الحيل في تطفيف الكيل والوزن، ولهم محاولات أخرى في غمط حقوق الناس والإفساد في الأرض، فقد تدرّج شعيب في تعداد نقائصهم من الدّنيا إلى العليا فقال:

أ)- ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾: وإيفاء الكيل هو جعله تامًا بأن يعطي التاجر كما يأخذ؛ لأنّ المخسر هو الذي يتسبّب في خسارة الطّرف الآخر، يعطي بالنقصان ويأخذ بالزّيادة، وذلك ما نهى الله عنه في سورة المطففين فقال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾(١-٣)، وكذلك أمرهم أن يزنوا بالميزان السّويّ العادل، والوصف بالاستقامة للميزان يقتضي مراقبة هذه الآلة على الدّوام؛ لأنها تتعرّض للخلل حتى ولو لم تكن للبائع حيلة في ذلك، والقيام بمراقبة الدّقة في هذه الآلات تقوم اليوم على مستوى كل دولة هيئات متخصّصة للقيام بتلك المهمة.

ب)- ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾: والبخس هو النقص، وهذا النهي يشمل أيّ نقص في حق الغير بأيّ وسيلة كانت، و"الأشياء" تتناول كل ما يمتلكه الناس من حقوقهم المادية والمعنوية؛ لأنه تعالى يريد أن يطمئن الناس في حياتهم على أرزاقهم وحرماتهم.

ج)- ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: وهذا نهي أعمّ يشمل كل جوانب الحياة، وقد أصلح الله الأرض وجعلها خير مهاد لهذا الإنسان، الذي قالت الملائكة لربّهم عنه إذ أمرهم بالسّجود لآدم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾(البقرة: ٣٠). فالأرض -إذن- صالحة كما خلقها ربّها، والفساد

الذي ظهر في برّها وبحرها إنما يسبّب فيه الإنسان بما كسبت يداه عن عمد وقصد، كقطع الطريق والسّرقة والقتل مما يهلك الحرث والنّسل ويقوّض أمن وسلامة المجتمعات البشرية، ولما كانت تقوى الله واتباع منهجه القويم هي الدّرع الواقي من تلك الآفات، فقد استحث شعيب همم قومه إلى تقوى الله لأنه خالقهم وخالق من سبقهم من الأمم ممن جبلوا على سير وعادات اتبعوها، فجازاهم الله بما يستحقون، وأغلبهم حمل على التكذيب والعناد لرسل الله. ففعل الله بهم ما فعل، فاحذروا أن تكونوا مثلهم.

ولكن القوم لم يكتفوا بوصف رسولهم بالسّحر بل تحدّوه باستعجال نزول العذاب الذي توعّدهم به: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

رموه بالسّحر كما وصف بذلك غيره من الرّسل، ثم أضافوا صفة البشرية فأكّدوا الصّفتين: السّحر والبشرية بصيغة الحصر، ليتوصّلوا إلى تكذيبه أن يكون رسولاً من عند الله. فصرّحوا بذلك في قولهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، فلم يترددوا بعد ذلك في الاستخفاف بما توعّدهم به من العذاب: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، والكسف جمع كسفة، أي قطعة، والمعنى: إذا كنت صادقًا في ما تقول، فأسقط علينا من السّماء قطع العذاب الذي تزعمه طلبوا منه ذلك على وجه التحدّي والتعجيز إمعانًا منهم في التكذيب والإعراض، وهم يشبهون في ذلك طلب مشركي قريش لرسول الله عندما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (الأنفال ٣٢)، وقالوا في سورة الإسراء: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ (٩٢).

كان شعيب مترفّقًا مع قومه إذ لم يطلب من الله إنزال العذاب عليهم، ولكنه

فوّض الأمر إلى ربّه فهو أعلم بنواياهم، فيحكم عليهم بما يستحقونه إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وكان من إرادة الله تعالى أن يكون عذابهم من نوع ما طلبوه واقترحوه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿الظُّلَّةِ﴾: السّحابة تظلل ما تحتها، فيشعر المستظل بنوع من الرّاحة، سيما إذا كان اليوم حارًا كما روي عن المكذّبين لشعيب أنهم أصيبوا بحر شديد لبضعة أيام اختنقت فيها أنفاسهم فخرجوا يلتمسون ما يروّح عنهم، فإذا بغمامة تحجب عنهم حرارة الشّمس فنادوا للاستظلال بظلها حتى احتضنتهم جميعا وشعروا بشيء من الرّاحة فأمطرت عليهم نارا محرقة زادتهم عذابا فوق العذاب أبادهم الله بها جميعا، وقد وصف الله ذلك العذاب بأنه عظيم؛ لأنه جاء مما لجأوا إليه وظنوا فيه راحتهم.

وهكذا يسدل السّتار على هذه الأمّة الظّالمة، في معاملاتها مع النّاس تطفيفا للكيل والميزان، وبخسا لحقوق النّاس وإفسادا في الأرض، وفي ذلك عبرة لكفار قريش -وهم تجار- ليحذروا أن تكون عاقبتهم بتكذيبهم لرسول الله كعاقبة هؤلاء.

وسنن الله لا تتغير في نصرة الحق وأوليائه، ودحر الباطل مهما قويت شوكته وكثر أتباعه، ولله في خلقه شؤون، فإذا كان الله قد رفع عن أمة محمد عذاب الاستئصال فضلا منه ومنّة، فهو لا يغفل عما يعمل الظّالمون، وإنما يستدرجهم من حيث لا يعلمون: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

والله أعلم

القرآن أعظم آية لرسول الله ﷺ

أ)- النص:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً
أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا
كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ
﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾
ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ
﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾: هو جبريل عليه السلام وهو أمين على وحي الله لجميع رسله، وهو روح القدس. ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾: يطلق القلب على القوة المدركة في الإنسان وهو محلّ التلقي، والأذن إنما هي وسيلة العبور إلى القلب، و﴿عَلَى﴾: تدلّ على التمكن، والإنذار هو التخويف من شرّ قبل وقوعه، والاكتفاء هنا بالنذارة لأنها أنسب بغرض السّورة من إعراض المشركين، والمراد باللّسان: اللّغة، و﴿مُبِين﴾: موضّح للمعاني التي يريدها المتكلم، والباء: للملابسة، وهي تتعلق بـ"نزل" أو"منذرين". ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾:

زبر الأولين: أي كتب الرّسل السّابقين كالتّوراة والإنجيل، والضّمير يعود إلى القرآن. ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: الضّمير يرجع إلى القرآن. ﴿آيَةً﴾: خبر مقدم لـ"يكن"، أي دليلا وعلامة على أن القرآن من عند الله. ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾: اسم "يكن" والتقدير: لو لم يكن لهم علم بني إسرائيل آية لهم على صدق القرآن. ﴿الْأَعْجَمِينَ﴾: جمع أعجم، وهو الذي لا يحسن العربية. ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾: ﴿سَلَكْنَاهُ﴾: أدخلناه، الضّمير للقرآن. والمشبه بـ"كذلك" هو ما عليه المشركون من تكذيب يكون عليه المجرمون فهم لا يهتدون به، والمقصود بهم كفار قريش. ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: ﴿هَلْ﴾: للتمني، ومنظرون: أي أخّروا عنا العذاب، وهم يقولون ذلك عندما فاجأهم العذاب، وكانوا من قبل يستعجلونه. ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾: الخطاب لغير معيّن، والاستفهام للتقرير، والرّؤية علمية، ﴿مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾: أي بمتاع الدّنيا وزخرفها، ﴿جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾: أي من العذاب العاجل أو الآجل. ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾: ﴿مَا﴾: الأولى إما استفهامية، وإما نافية، و﴿مَا﴾: الثانية في موضع رفع بـ"أغنى". ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: ﴿ذِكْرَىٰ﴾: اسم مصدر "ذكر" فهي إما منصوبة على المصدر أو على الحال، وإما مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي هذه ذكرى. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾: أي الشّياطين معزولون عن سماع كلام الملائكة.

ج- أوجه القراءة:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر بتخفيف زاي ﴿نَزَلَ﴾ ورفع: ﴿الرُّوحُ﴾، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف: ﴿نَزَّلَ﴾ بتشديد الزّاي ونصب: ﴿الرُّوحَ الْأَمِينَ﴾: أي نزّله الله به. ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً﴾: قرأ أبو عامر: ﴿أَوَلَمْ تَكُن لَّهُمْ

ءَايَةً﴾ برفع "آية" على أنها فاعل، أو اسم "تكن" التامّة، والمصدر المؤوّل من: ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بدل من الفاعل أو خبر: ﴿تَكُن﴾، وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾: بنصب آية على أنها خبر: ﴿يَكُن﴾، واسمها المصدر المؤول.

د)- البيان والتفسير:

تضمّنت السّورة الكريمة سبعا من قصص الأنبياء مع أقوامهم، لتصوّر الصّراع بين الحقّ والباطل، وكيف تنفذ سنة الله في خلقه بانتصار الحق واندحار الباطل فتكون في ذلك كلّه تسلية لرسول الله، وإنذار للمشركين من قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب من سبقهم، وهنا ينتقل السّياق إلى خطاب رسول الله في معرض التنويه بشأن القرآن المنزل على قلبه الشّريف، وأنّه الآية العظمى على صدق نبوته، وهكذا تتناسب خاتمة السّورة مع بدايتها في التنويه بشأن القرآن، والتنديد بموقف المشركين منه فقال جلّ من قائل: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ، نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾.

الجملة معطوفة على ما سبقها من قصص الأنبياء، وبذلك يتدرج رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين في موكب رسل الله السّابقين، والضّمير في: ﴿إِنَّهُۥ﴾ يعود على القرآن وهو معلوم من المقام ويبيّنه قوله: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهي الصّفة الأولى التي رفعته إلى منزلة لا تدانى، وقد أكدت الجملة بعدة مؤكدات، فهي جملة اسمية مؤكدة بـ"إنّ" واللاّم. والوصف بالمصدر: ﴿تَنزِيلُ﴾ للمبالغة ليتناول كل جزء فيه بأنّه معجز؛ ولأن منزّله هو ربّ العالمين، وجيء بصفة الرّبوبية لما تقتضيه من معاني التّربية والرّعاية للخلق، ثم بيّن الله كيفية تنزيله بما يزيده شرفا على شرف فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾.

وتوجيه الخطاب لرسول الله مقرونا بنزول القرآن فيه تشريف له وردٌّ لإنكار المشركين، والرّوح الأمين هو جبريل ﷺ، وصفه الله بالأمانة على وحيه، وهو ذو المكانة العالية في الملإ الأعلى، يقول عنه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير:١٩-٢١).

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، فالقلب هو مستودع الأنوار الربانية، يفضي بها قلب الرّسول مباشرة، فهو من قوة الانتباه والاستعداد للتلقي لا يحتاج إلى حاسّة الأذن لتمرير الصّوت، فربّ سامع لصوت وهو لا يعيه، وتلك هي خاصية الرّسل ويمنح الله عنهم الشطحات المادية فتنأى أرواحهم لتتصل بالملإ الأعلى، واختيار حرف: ﴿عَلَىٰ﴾ هو للدلالة على الاستعلاء والتمكّن، وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ بيان لمهمة الرّسول الدّعوية، فهو بذلك من جملة رسل الله السّابقين، والاجتزاء بالنذارة دون وظائف الرّسول الأخرى، لأن ذلك يناسب جوّ السّورة وغرضها في تهديد المشركين وتخويفهم.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾: الباء للملابسة، والمراد باللّسان اللّغة، ووصفه بأنه عربيّ مبين تشريف لهذه اللّغة لما تمتاز به من الفصاحة والبيان، ومن خلالها هو تشريف لأهلها كما قال تعالى في شأن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤).

ثم يضيف تعالى مزايا أخرى للقرآن فيقول: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ، أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: الزّبر: جمع زبور، بمعنى كتب السّابقين، والضمير كسابقه يعود إلى القرآن، ويجوز أن يعود إلى رسول الله، فكما أن الكتب السّابقة من التوراة والإنجيل وغيرهما تتضمن بعض ما أنزل عليك من القصص والأمثال ومن الأصول العامة في العقائد والأخلاق، فكذلك بشرت بمجيئك في آخر الزّمان، وأشادت بأوصافك كما ثبت في علم الله أن تكون، وكما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ

ذلك العذاب لحماقتهم وجهلهم، قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ. أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

لقد تكررت في القرآن عبارات استعجالهم لنزول العذاب عليهم أو سؤالهم عن قيام الساعة في تحدٍ وتعجيز لرسول الله، فجاء الرّدّ الإلهي بهذا الاستفهام التعجبي من غرورهم وكبريائهم؛ لأنهم عند نزوله يطلبون الإنظار والإمهال وقد اقتضت حكمة الله ذلك الإمهال؛ لأنه أعلم بما في أحوالهم المستقبلية، ومع ذلك أعقبه بهذا الرّدّ اللطيف، وهو يخاطب رسوله، وكلّ من يقرأ القرآن بهذا الاستفهام التقريري: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

يبيّن الله تعالى كيف يستدرج الظلمة ويملي لهم بالتمتع سنين، وهي معدودة زائلة، فهل ينفعهم ذلك التمتع حين يأتيهم العذاب الأبديّ، وهل يتذكرون عندها ذلك المتاع الزائل؟، كلاّ، وقريبا من هذا المعنى يقول المعرّي:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلاّ من راغب في ازدياد

إنّ حزنا في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

وقال الله مسليا رسوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ (الأحقاف:٣٥).

ثم يبيّن الله سنته في خلقه تقتضيها حكمته وعدله فيقول: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ. ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وتصلح هذه الآية فذلكة لما تقدم من قصص الأنبياء في هذه السّورة تنبيها لمشركي مكة، وأنّه تعالى لا يهلك قرية إلاّ بعد إقامة الحجة عليها بإرسال الرّسل،

ذلك العذاب لحماقتهم وجهلهم، قال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ، أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

لقد تكررت في القرآن عبارات استعجالهم لنزول العذاب عليهم أو سؤالهم عن قيام الساعة في تحدٍ وتعجيز لرسول الله، فجاء الرَّدّ الإلهي بهذا الاستفهام التعجبي من غرورهم وكبريائهم؛ لأنهم عند نزوله يطلبون الإنظار والإمهال وقد اقتضت حكمة الله ذلك الإمهال؛ لأنه أعلم بما في أحوالهم المستقبلية، ومع ذلك أعقبه بهذا الرَّدّ اللطيف، وهو يخاطب رسوله، وكلّ من يقرأ القرآن بهذا الاستفهام التقريري: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ، ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

يبّن الله تعالى كيف يستدرج الظَّلَمة ويملي لهم بالتمتع سنين، وهي معدودة زائلة، فهل ينفعهم ذلك التمتع حين يأتيهم العذاب الأبديّ، وهل يتذكرون عندها ذلك المتاع الزائل؟، كلاّ، وقريبا من هذا المعنى يقول المعرّي:

تعبٌ كلّها الحياة فما أعجب إلاّ من راغب في ازدياد

إنّ حزنا في ساعة الموت أضعاف سرور في ساعة الميلاد

وقال الله مسليا رسوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ (الأحقاف:٣٥).

ثم يبّن الله سنته في خلقه تقتضيها حكمته وعدله فيقول: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ، ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وتصلح هذه الآية فذلكة لما تقدم من قصص الأنبياء في هذه السّورة تنبيها لمشركي مكة، وأنّه تعالى لا يهلك قرية إلاّ بعد إقامة الحجة عليها بإرسال الرّسل،

وقد اكتفى بوصفهم بالإنذار لأنّه الأنسب بغرض السّورة، وقد أدرج الرّسول في موكبهم بقوله في الآية السّابقة: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، وبذلك يكون التّذكير لقريش ولجميع النّاس، حتى يتحققوا من عدل ربّهم وأنه لا يظلم النّاس، ولكن النّاس أنفسهم يظلمون.

ثم يأتي الرّدّ الإلهي على دعوى المشركين بأن محمدا كاهن تلقى عليه الشّياطين ذلك الكلام، قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ، وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ، إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾.

لطالما ألقى الكفار بشبهاتهم للنّيل من صدق القرآن فقالوا عن رسول الله: إنه ساحر، كما نسبوا إليه قول الشّعر، وقالوا: إنه كاهن، وفي زعمهم أنّ الكهنة لهم شياطين يأتون إليهم بأخبار السّماء، كما يقولون بمثل ذلك في الشّاعر بأنه له رئيّ من شياطين الجنّ، فجاء هذا الرّدّ الإلهي نافيا لتلك الشّبهات كلها واحدة تلو أخرى فقال:

أ- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾: الضمير في "به" يعود إلى القرآن، أي إن هذا الزّعم باطل لأنه يتناقض مع واقع القرآن، إذ أن دلالات آياته كلها تدعو إلى الحق والخير ونشر الفضائل والسّلوك الحميد، وذلك يتنافى كلية مع ما تدعو إليه الشّياطين من الشّرّ والضّلال والفساد.

ثم دعّم الله ذلك النّفي القاطع بثلاثة أمور فقال:

أ- ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾: أي لا يتيسر لهم ذلك ولا يصلح لهم بدافع خلقتهم وسجيتهم فهم أعوان الشّرّ والفساد، وقرناء للكفر والإضلال.

ب- ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾: أن يأتوا بمثل القرآن في إعجازه وبلاغته، وبالتالي لا يستطيعون تحمّل أعبائه من التّكاليف.

ج- ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾: ويلاحظ هنا المؤكدات المختلفة

لبيان أن الشّياطين لو تهيأ لهم ما تقدم من الإنبغاء والاستطاعة ما أمكن لهم الوصول إلى تحقيق مرادهم؛ لأنهم معزولون عن استراق السّمع من الملإ الأعلى؛ لأن السّماء ملئت حرسا شديدا وشهبا كما جاء ذلك على لسان الجنّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾(الجن:٨-٩).

والله أعلم

آداب الدّاعية، وتنزيه القرآن عن الشياطين

أ)- النص:

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾
وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٢١٦﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ
﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾
تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ
يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟
مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾: العشيرة: هم قرابة الرّجل ممن يكثر بهم، والأقربون جمع: أقرب، وهو الأشد قرابة. ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ

﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: خفض الجناح: استعارة مكنية للتواضع ولين الجانب، كالطائر يخفض جناحه على فراخه. و﴿مِنَ﴾: بيانية. ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾: الضمير في ﴿عَصَوْكَ﴾ يعود إلى العشيرة، والتبرؤ إنما يكون من كفرهم، أما صلة الرحم فتبقى. ﴿يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾: المراد بقوله تعالى: ﴿يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ المراد بالرؤية رؤية الإقبال والقبول، والمراد بالقيام الصلاة في جوف الليل. والمراد بالتقلب في الساجدين: أي الأحوال المختلفة في الصلاة من القيام والقعود والركوع والسجود، والمراد بالساجدين جماعة المصلين. ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾: ﴿تَنَزَّلُ﴾: أصله تتنزل، حذفت إحدى التاءات للتخفيف. الأفاك: أي الكثير الكذب. ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾: إلقاء السمع هو شدة الإصغاء ليعي ما يقال له. ﴿الْغَاوُونَ﴾: جمع "غاو"، وهو الضال الراغب في الفسوق والأذى. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: الاستفهام تقريري: أخبرني، والهيام في الواد: الحيرة والتردد في المرعى، والمقصود: هو التخبط في فنون الكلام مدحا وهجاء وغزلا...إلخ. ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾: انتصر لنفسه تعني دافع عن حقه لرد الظلم. ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾: "أي" منصوب على المصدرية، والمنقلب: مصدر ميمي من الانقلاب، وهو المصير والمآل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَتَوَكَّلْ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بفاء التفريع على قوله تعالى: ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تنبيها على المبادرة بالعود من شر أولئك الأعداء، وتنصيصا على اتصال التوكل بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: بالواو، وهو عطف على جواب الشرط أي: قل إني بريء وتوكل.

د)- البيان والتفسير:

بعد التنويه بشأن القرآن العظيم وتنزيهه من مداوشة الشياطين، وأنه الآية

العظمى لصدق نبوة رسول الله، أرشده الله للمنهج القويم في التبليغ والرّسالة، بأن يبدأ في دعوته بالأقرب فالأقرب، وأن يخفض جناحه للمؤمنين، ويعلن براءته من العاصين، متوكّلا على الله وحده، إذ هو راعيه وكافله فقال جلّ من قائل: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾.

توجيه الخطاب إلى الرّسول بنهيه عن أن يتخذ مع الله إلها آخر، لا يعني أنه -حاشاه- قد فعل ذلك فجاء الوحي لينهاه، وإنما هو رسم لبداية التكليف بصفته مبلّغا عن الله؛ إذ هو القدوة والمثل الأعلى لغيره؛ ولأن قضية التوحيد لها الأولّية والأفضلية في كلّ الرّسالات السّماوية، فلا محاباة فيها لأحد، وإن كان معصوما من رسل الله؛ لأنّ التأكيد عليهم في هذه القضيّة الحسّاسة يكون أدعى لإصغاء النّاس إليها واهتمامهم بها، وقريبا من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر:٦٥).

ثم توجّه الأمر الإلهي إلى قرابة الرّسول وهم أولى النّاس بسماع دعوته فقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾

بعد أن بيّن الله مهمته العامّة في إنذار كافة النّاس بقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، خصّص هنا جزءا من تلك المهمة في إنذار عشيرته الأقربين؛ لأنّ ذلك أدعى إلى الطّاعة والقبول من غيره، وتخصيص الأمر بالإنذار لهم حتى لا يعتقدوا بأنهم في منجاة من سخط الله وغضبه، لأنهم أقرباء من الرّسول النّذير، وقد طبّق الرّسول هذا الأمر كما تذكره الرّوايات المختلفة، منها ما رواه الشّيخان من حديث عائشة وابن عباس، أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أتى رسول الله على الصّفا فدعا قريشا فجعل ينادي: «**يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا، يا بني عبد المطلب، لا أغني عنكم الله شيئا، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغني عنك من الله شيئا، يا صفية عمة**

رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئا، يا فاطمة بنت رسول الله، سليني بما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا».(١)

ولكون المؤمنين هم قوام الدّعوة وملاك أمرها فقد أمر الله رسوله بالتواضع واللّين لهم فقال: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، وخفض الجناح كناية عن التواضع ولين الجانب، ولم يوص الإسلام بذلك إلا للوالدين بصفة خاصة فقال في شأنها: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء: ٢٤)، وللمؤمنين الأولياء بصفة عامّة كما ورد في هذه الآية، وآية سورة الحجر.

وقوله تعالى: ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لتعظيم شأن الإيمان فهؤلاء الأتباع وإن كانوا في الواقع من ضعفاء القوم يعاملون بغلظة وقساوة من طرف الكبراء والسّادة، فهم مستحقّون لذلك اللّين وتلك المعاملة اللّطيفة لأجل إيمانهم، لأنّ ذلك أطيب لنفوسهم وأوثق لرابطتهم.

بينما الذين يعصون من الأقارب ومن غيرهم فليس لهم إلا التّبرؤ والإنكار عليهم: ﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾، لأنّ عصيان رسول الله كفر، والمؤمن لا يتولّى الكافر ولو كان قريبا منه، وقد انصرف التبرؤ إلى عملهم الشّائن حتى يقلعوا عنه، ويجب أن يعلن بتلك البراءة حتى يرتدع بذلك غيرهم، ولا يخشى الدّاعية في ذلك عواطف النّاس؛ لأنّ له من الله العون والتأييد، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿**وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ، وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

في لحظات الحرج والضّيق من مكر النّاس وإعراضهم عن الحق، يكون الدّاعية في حاجة ماسّة إلى تلك القوة الرّوحية التي تصله بمولاه القويّ العزيز يستمدّ

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٢) الإيمان، باب (٩١) في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم ٥٠٦.

منه العون، ويفوّض الأمر إليه فلا ينكسر خاطره بقلّة الأنصار ولا يخشى خذلان الأتباع، فرسول الله في ضمان نصر الله وتأييده لا يقلّ عن رسل الله حظًّا ومكانة في ذلك، بدليل الإتيان بالصّفتين المختارتين لذات العلية وهما: ﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ المعقب على كل قصة من قصص النبيّين السّابقة، فهو العزيز الذي لا يقهر، وهو الرحيم بعباده في تدبير شؤونهم، ثم إنّه تعالى يغمر رسوله بفيض من أنسه وقربه إذ يكون معه في صلاته بجوف الليل منفردا أو في جماعة المصلين متنقلا في حالات من الخشوع والتبتل، فهو في كنف ربّه وفي جواره يرعاه ويسمع دعاءه ويعلم أحواله، وأحوال الخلائق كلها.

وبعد هذه الإرشادات التي ترسم طريق الدّعوة وتضع منهجيتها تجيء الجولة الأخيرة من السّورة الكريمة عودا على بدء في التنويه بشأن القرآن بالرّد على شبهات المشركين وادعاءاتهم الباطلة فقال جلّ من قائل: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾.

لقد سبق أن نوّه الله بشأن القرآن ومصدر التنزيل عليه فقال عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، ثم نفى نفيا قاطعا أن تنزل به الشياطين، ولكن القوم ظلوا حيارى أمام إعجاز القرآن وتأثيره على نفوسهم فأرادوا مقارنته بما ألفوه من سجع الكهان وبلاغة الشعراء، وبما أنّهم يعتقدون أن الشياطين توحي إلى الكهان، ولكل شاعر رئي من الجنّ، فأوهموا أتباعهم بأنّ القرآن مما تنزلت به الشياطين، وليس محمد إلا كاهنا ناطقا أو شاعرا بليغا، ولكن عقلاءهم مثل الوليد بن المغيرة ينفي عن رسول الله صفة الكهانة، وها هي هذه الآيات توضّح أن الشياطين لا تنزل على محمد، لأنّ دعوته تقوم على الحقّ الواضح وتسير على نهج مستقيم، فما هو بشاعر ولا كاهن، ممن يسبحون في أوهامهم ويخرفون في خيالات لا أساس لها في الواقع فقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾، لاسترعاء الانتباه إلى ما يتوهمونه لتصحيح

أ)- ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾: تارة مع العطّاوين وتارة مع الجزّارين، فليس لهم في الحياة منهج مستقيم يسلكونه، يذمّ في الصّباح من يمدحه في المساء، ويلبس الحقّ بالباطل أو العكس، وفق ما يكافأ به من عطاء.

ب)- ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾: يمدحون الجود والكرم، وهم بخلاء، ويشيدون بالشّجاعة وهم جبناء...إلخ.

وحاشا لرسول الله أن يكون على ذلك النّمط، وهو الصّادق الأمين، وهو الطّاهر العفيف أدّبه ربّه فشهد له بالخلق العظيم.

ولا يفهم من هذا أن الإسلام يحارب الشّعر جملة وتفصيلا لذاته، وإنما يرشدنا إلى نبل المقصد في المحتوى والمضمون، إذ هناك من الشّعر ما يخدم القضايا المصيرية الكبرى للشّعوب ويدافع عن كرامة الأمة، ويخلد مآثرها في ذاكرة الأجيال.

ومن هؤلاء الشّعراء الأوائل الذين نافحوا عن الإسلام حسان بن ثابت ﷺ فكان يردّ على المشركين فيقول له الرّسول: «إنّ روح القدس معك ما هاجيتهم»[1]، ومنهم عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك، ومما روي في أسباب النزول: "أن هؤلاء الثّلاثة لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ جاؤوا إلى رسول الله فقالوا له: والله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء هلكنا. فأنزل الله قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾: فتلاها عليهم".

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾: استثنى الله من الشّعراء المتصفين بما سبق استثنى منهم من توفرت فيهم أربع خصال:

١- رواه الحاكم في المستدرك، رقم ٦٠٦٦، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

أ)- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي الإيمان الصّحيح بكلّ عناصره الأساسية، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه.

ب)- ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فالعمل الصّالح هو تجسيد للإيمان الصّالح في واقع الحياة، كما جاء في الأثر: «**الإيمان ما وقر في القلب وصدّقه العمل**»[1]. فلا يكتفي الشّاعر بالتصورات والانفعالات النّفسية أقوالا بدون عمل.

ج)- ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾: فلا يشغلهم مدح العباد والمغالاة في إطرائهم عن استحضار عظمة الله وإفراده بالتمجيد والتعظيم، فقد بالغ أحدهم في إطــراء ممدوحه حتى قال كلمة الكفر بمثل قوله:

ما شئت لا ما شاءت الأقـــدار فاحكم فأنت الواحد القهـــار

د)- ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾: أي دافعوا عن كرامـــة الإســـلام ورسوله من بعد إذاية المشركين لهم، وهذا من عـــدل الله، إذ أذن للمســـلمين أن يقاوموا الظّلم بمثله دون تجاوز للحدود فقال عزّ من قائل:

أ)- ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ (النحل:١٢٦).

ب)- ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ (الشورى:٤١).

ج)- ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ (الشورى:٣٩).

وكان الشّعراء الذين دافعوا عن الإسلام ممن سبق ذكرهم، فقد سأل كعب بن مالك رسول الله: ما تقول في الشّعر فقال: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولســـانه،**

١- رواه ابن أبي شيبة في المصنف من قول الحسن، رقم ٣٥٢١١، ولفظه: "الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل".

والذي نفسي بيده لكأنما تنضحوهم بالنبل»[1]، وقد قام الشّعراء والأدباء قديمًا وحديثًا بدور إعلامي ممتاز في الدّفاع عن الإسلام.

ثم تختم السّورة الكريمة بهذه الآية المناسبة لجوّها في تصوير مصارع الظّالمين، فجاءت بهذا التّهديد الشّامل لكل أنواع الظّلم، وهي إلى كونها سياطًا من نار للظالمين، فهي بلسم وتطمين للمظلومين بأن الله لأعمالهم بالمرصاد، وليس مصرعهم ببعيد؛ لأن الله اختار لوعيده حرف التنفيس: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾، فليت المتعاظمين المتغطرسين تؤثر فيهم هذه الآية فيراجعون أنفسهم ويشفقون على منقلبهم كيف يكون؟، وإلا، فويل لمن طوّحت به الشّكوك والظّنون.

والله أعلم.

تمّت

١- رواه أحمد في المسند من حديث كعب بن مالك ﷺ في حديثين منفصلين لكل جملة، رقم: ١٥٨٢٣-١٥٨٢٤.

سورة النمل، مكيّة، وآياتها ٩٣

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

تميّزت سورة النّمل لورود قصة النملة في تحذيرها لجماعة النمل من سليمان وجنوده، وهذا الاسم هو الأشهر، وقد تسمّى بسورة "سليمان" لما ذكر فيها من أبنات ملكه، وتسمى أيضا سورة "الهدهد".

وهي مكيّة، وآياتها ثلاث وتسعون آية، وهي السّورة الثّامنة والأربعون في ترتيب نزول السّور، والسّابعة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وهي تتفق مع أغراض السّور المكية في بيان أصول العقيدة، من الإيمان بوحدانية الله، وصدق الرّسالة والنبوءة، والإيمان باليوم الآخر.

وروي عن ابن عباس وجابر بن زيد أن السّور الثّلاث: الشّعراء والنّمل والقصص نزلت متتالية على هذا الترتيب، كما في المصحف.

وفي مناسبتها لما قبلها يقول الشيخ المراغي: "ومناسبتها لما قبلها من وجوه:

٠١)- إنها كالتتمة لها إذ جاء فيها -زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء- قصص داود وسليمان.

٠٢)- إنّ فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السّالفة كقصّة موسى ولوط عليهما السّلام.

٠٣)- إنّ كليهما قد اشتمل على نعت القرآن وأنّه منزّل من عند الله.

٠٤)- تسلية رسول الله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وعنتهم وإصرارهم

على الكفر، والإعراض عنه".(1)

ب)- من محاور السورة:

- في صدر السّورة تنويه بشأن القرآن الكريم وبيان مختصر عن مصائر المؤمنين والكافرين.

- إيراد أربع قصص عن موسى، وعن سليمان وسبأ، وعن ثمود وقوم لوط.

- إقامة الأدلة على وحدانية الله وقدرته في توجيه خمسة أسئلة تجلّي مظاهر قدرته وتشرح الحقيقة وتدحض شبهات الكفر.

- الرّدّ على المشركين في إنكارهم للبعث والنشور.

- دعوة بني إسرائيل إلى الاحتكام لما في القرآن في ما اختلفوا فيه.

- ذكر بعض أشراط السّاعة كخروج الدّابة من الأرض وتسيير الجبال.

- تصنيف الناس إلى سعداء وأشقياء وجزاء الفريقين.

- ظهور آيات الله لتعرفها كلّ الخلائق وأنّها حقّ.

1- تفسير المراغي: 118/7.

رسالة القرآن، ومصائر المؤمنين والكافرين

أ)– النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ
وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ① هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ
يَعْمَهُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ⑤
وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ⑥

ب)– التّحقيق اللّغوي:

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿هُدًى﴾: منصوب على الحال و﴿بُشْرَىٰ﴾: معطوف عليه، وجعل الحال مصدرًا للمبالغة لقوّة تأثيره في قلوب المؤمنين. ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: الضّمير يعود للمؤمنين، وتكرار الضّمير لإفادة الحصر والاختصاص. ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾: إسناد التزيين إلى الله هو على اعتبار فساد فطرهم، إذ أصبحت المعاصي محبوبة إلى نفوسهم حتى جُبلوا عليها، فتخلّى الله عنهم، والعمه هو الضّلال عن الطّريق. ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾: ﴿تُلَقَّى﴾: مضارع: "لقّي" مبني للمجهول، أي جعله لاقيا، وهو وصول الشّيء إلى شيء آخر. ﴿لَدُنْ﴾: مثل "عند"، يدلّ على المكان، وتفيد اختصاص ما تضاف هي إليه تنويها بشأنه، والتنكير في الصّفتين: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ للتعظيم.

ج)– البيان والتّفسير:

تصدّرت السّورة الكريمة بمثل ما تصدّرت به سورة الشّعراء بالتنويه بشأن

القرآن الكريم، ولكن بشيء من التغيير في ترتيب الألفاظ فقال جلّ من قائل: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

القول في الحرفين "الطّاء" و"السّين" في مفتتح السّورة هو كنظائره في ما تقدم للتنبيه على إعجاز القرآن، والتحدّي للمشركين المنكرين له أن يأتوا بمثله.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾: الإشارة إلى ما جاء في السّورة الكريمة، والآيات جمع آية، وهي تدلّ على عدّة معانٍ، والمقصود بها هنا الآيات المنطوقة من القرآن، وهو المقصود من الكتاب من عطف الشّيء على نفسه، فالقرآن: لأنّه مقروء محفوظ في الصّدور، والكتاب: لأنّه مكتوب ومسجّل في السّطور، والمبين: وصف من أبان، بمعنى الواضح البيّن لمن أراد الاستفادة منه.

ثم أضاف الله التنويه بكتابه حالين وهما قوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالهدى: بمعنى الهداية إلى طريق الخير، ولأن القرآن هو في ذاته هداية فقد جاء التعبير بالمصدر "هدى"، كما أنه يشتمل على الهداية بما أودع الله في نصوصه من الأحكام والمواعظ والقصص والأمثال، ولكن لا ينتفع به إلا المؤمنون لأنهم المهديّون به بتوفيق الله وعونه كما قال تعالى:

أ)- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ (محمد:١٧).

ب)- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(التوبة:١٢٤).

ولذلك كان لهم القرآن -أيضا- بشرى بالجنة والنعيم الخالد.

وبما أن الإيمان من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى وصف المؤمنين بما يظهر عليهم من الأعمال الصالحة التي تجسّد ذلك الإيمان في واقع حياتهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

ووصفهم بالموصول لتميزهم عن غيرهم بأمور ثلاثة:

أ)- ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: وإقامة الصّلاة تتحقق باستيفاء أركانها وشروطها

كما رتبها رسول الله وقال: «صلُّوا كما رأيتموني أصلّي»[1]، وملاك أمرها الخشوع والتذلل إلى الله واستحضار عظمته تكبيرا وتعظيما وتسبيحا، ثم التوجّه إليه بالدعاء تزكية لنفسك وترقية لروحك.

ب)- ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾: وهي الركن الثالث الملازم للصلاة في كثير من آيات القرآن؛ لأنها زكاة للمال وتطهير للنفس من الشحّ، يقوم عليها التعاون الاجتماعي بين المسلمين، والمقصود بها هنا مطلق الصدقة؛ أي قبل أن تفرض مقادير الزكاة في المدينة.

ج)- ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: إكمال لعنصر الإيمان بعد الإيمان بالله، والإتيان بضمير الفصل: ﴿هُمْ﴾ لإفادة القصر، وتقديم الجار والمجرور: ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ لزيادة الاهتمام، واختيار العلم اليقيني بالنسبة للإيمان باليوم الآخر هو للتأكيد على هذا الأصل الإيماني حتى لا يكون فيه تردّد أو شك، لأنه هو القوّة الرادعة في نفس المؤمن لاجتناب المنكرات، وهو أيضا القوّة الدافعة للقيام بالواجبات، ولذلك أعقبه تعالى بذكر المقابل المضاد، وكيف تكون عواقبه الوخيمة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾.

إذا كان للقرآن ذلك الأثر البالغ في نفوس المؤمنين فما الذي يجعل الكافرين لا يتأثرون به، والكل على سليقة واحدة في فهم اللغة العربية وتذوق بلاغتها؟، ففي هذه الآية الكريمة نجد بيان سبب ذلك بأنّ هؤلاء لا يؤمنون بما وراء الموت من البعث والحساب والجزاء، فلا عجب أن يبقوا عبيد شهواتهم فيحرمون من توفيق الله، ويزيّن لهم الشيطان أعمالهم فيرونها حسنة لما جبلوا عليه من التيه والضلال، أما إسناد التزيين إلى الله فيقول فيه الإمام ابن عاشور: "وإسناد التزيين إلى الله تعالى

---

(١)- رواه البخاري من حديث مالك بن الحويرث، كتاب (١١) الأذان، باب (١٨) الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة، حديث ٦٠٢.

يرجع إلى أمر التكوين، أي خلقت نفوسهم وعقولهم قابلة للانفعال وقبول ما تسراه من مساوئ الاعتقادات، والأعمال التي اعتادوها، فإضافة "أعمال" إلى ضمير ﴿الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ يقتضي أن تلك الأعمال هي أعمال الشرك الظّاهرة والباطنة، فهم لإلفهم إياها وتصلبهم فيها صاروا غير قابلين لهدي هذا الكتاب الذي حاءهم آياته".[١]

ويقول القطب في تيسره: "ومعنى تزيينه تعالى أعمالهم خلقها، وهم فعلوها باختيار، أو خلق طبائع وشهوات تدعوهم إليها، أو تمتعهم بطول العمر وسعة الرّزق المتسبّبين لها، ولا تجب مراعاة الأصلح، إذ لا واجب على الله، ولا قائل بأنّ الله تعالى يغريهم عليها".[٢]

قلت: حكمة الله تعالى في جعل الناس متفاوتين في قبول الخير أو البقاء على الشرّ أمر دقيق قد لا ندرك كنه أسراره، كما لا نستطيع معرفة بواعثه في النفوس، وإن كانت من أقرب الناس إلينا، فالله وحده هو أعلم بمن خلق، وحسبنا في مواقفنا من مختلف الناس إزاء تلك الأحوال أن نلتزم بما أرشد الله به رسوله في قوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الجاثية: ١٤).

وقد فرّع الله على تزيين أعمال الذين لا يؤمنون بالآخرة بأنهم يعمهون، بصيغة المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار في التيه والحيرة والضلال: **﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾**.

جاءت الإشارة إلى جزاءين لهؤلاء: عاجل وآجل، فالعاجل هو العذاب الدّنيوي، ووصفه بالسّوء وقرن بلام الاختصاص: ﴿لَهُمْ﴾ للدّلالة على وقوعه لا

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٩/٢٢٠.

٢- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٢١٠.

حاله ما داموا على كفرهم، وذلك هو ما توعّد الله به كلّ كفور في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طـه:١٢٤) ويتنظرهم الجزاء الأخرويّ إن ماتوا على الكفر وهو الأشدّ فيكونون من أشدّ الناس خسرانا.

وبعد التنويه بشأن القرآن في مطلع السّورة انتقل النصّ إلى التنويه بشأن المنزّل عليه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، الخطاب للرسول في مقام التّشريف له بتلقيه القرآن من عند الله، فأكّد الإخبار للتعريض بالمشركين الذين ينكرون أن يكون وحيا من الله، فجاءت الصّفتان: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ مناسبتين للذات العلية، في إنزاله ما يصلح لخلقه في شؤون معاشهم ومعادهم، وهو العليم بأحوالهم، ويعلم حيث يجعل رسالاته، والله أعلم.

لقطات من قصّة موسى عليه السلام

أ)- النصّ:

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ
قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا
وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ
عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ
لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ
يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا
وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾: الإيناس: الإحساس والشعور بشيء خفي؛ لأن النار أبصرها من بعيد. ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: السين للتنفيس، والإتيان بالخبر: أي يستطلع أخبار ذلك المكان لعله يجد من يدلّه على الطّريق. والشّهاب والقبس: الجمرة المشتعلة. و﴿أَوْ﴾: للدّلالة على الإتيان بأحدهما، و﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي تستدفئون بتلك النار. ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: جملة تفسيرية لـ"نودي"، والبركة هو الخير والنماء. و﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: المراد به موسى ﷺ. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: "من" للعقلاء، وهم جبريل والملائكة الذين كانوا معه لإنارة المكان. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: ﴿إِنَّهُۥٓ﴾: ضمير الشأن، مبتدأ، وجملة: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر، والتعريف في طرفي الجملة الاسمية. ﴿أَنَا ٱللَّهُ﴾: لإفادة قصر العبودية في الذّات العلية. ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: ﴿تَهْتَزُّ﴾: العصا تضطرب، ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾: تشبيه مرسل، والجان: الحية الخفيفة. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: التولي: الرّجوع عن الشّر، ﴿لَمْ يُعَقِّبْ﴾: لم يرجع على عقبه.

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: الجيب: هو طوق القميص، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾: احتراز من أيّ مرض يصيبها، وقوله: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾: حال من قوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾، والآيات التسع هي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضّفادع، والدّم، والقحط، وانفلاق البحر، وهو أعظمها. ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾: الآيات هي المعجزات المذكورة، وكونها مبصرة، أي واضحة ظاهرة لناظرها. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾: الجحود: الإنكار، أي لم يقروا بألسنتهم ولكن تيقنوا في أنفسهم أنها من عند الله.

ج)– أوجه القراءة:

﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿إِنِّيَ﴾ بفتح

ياء المتكلم، وقرأها الباقون بإسكانها. ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: قرأ الجمهور بإضافة: ﴿بِشِهَابِ﴾ إلى: ﴿قَبَسٍ﴾ إضافة العام إلى الخاصّ، وقرأه عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بتنوين: ﴿شِهَابٍ﴾، فيكون: ﴿قَبَسٍ﴾: بدلا أو نعتا.

د)– البيان والتّفسير:

ترتكز السّورة الكريمة على محورين: أولهما التركيز على أسس العقيدة الإسلامية، وثانيهما تسلية رسول الله وتثبيت قلبه الشّريف لمجابهة تعنت المشركين في مكة، وفي هذا الإطار ترد بعض القصص للرّسل السّابقين، وللتمهيد لبدء تلك القصص جاء التنويه بالقرآن وبالمنزل عليه بأنّه حقّ من عند الحكيم العليم الذي ينبئه مما لا علم به ولا لقومه من أخبار الأمم الخوالي للعظة والذّكرى، وإذ بلغ كفار قريش من العناد والتعنّت إلى شبيه بمستوى ما بلغ إليه فرعون وقومه، كان البدء بلقطات من قصّة موسى ذكرا مناسبا، ينذر الله به أولئك القوم ليقيم عليهم الحجة قبل أخذهم بعذابه فقال جلّ من قائل:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: لم يرد هذا المشهد في سورة الشّعراء على ما جاء فيها من تفصيل في مواقفه مع فرعون، وهنا يذكر الله مرحلة رجوعه من مدين إلى مصر مع أهله، وكيف اصطفاه الله لرسالته في الوادي المقدّس.

"إذ" ظرف لمطلق الوقت، ويقدّر قبله فعل: "اذكر"، والخطاب لرسول الله ولكلّ سامع لهذا البيان، والحدث يبدأ في الوقت الذي قال فيه موسى لأهله –أي زوجه– التي صحبته في رحلته من مدين إلى مصر، وقيل: إن معه قطيعا من الغنم التي نالته من الرّعي في مدين، وكان اللّيل مظلما باردا وقد ضلّ الطّريق فقال لأهله: ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا﴾، أي أحسستها وأبصرتها من بعيد.

وعلى عادة البدو في مراعيهم أنهم كانوا يوقدون تلك النيران في المرتفعات ليهتدي بها السّارون أو يلتمسون القرى عند أصحابها، فقال موسى لأهله: سأذهب لآتي منها بخبر يدلنا على الطّريق أو بشعلة تستدفئ منها، ولعلّ أهله لم تر تلك النار، فلم يشأ موسى أن تغامر معه فذهب لوحده، ولذلك جاء في سورة القصص قوله لها: ﴿امْكُثُوا﴾ (٢٩).

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الضّمير يرجع إلى النّار، ولكن البركة وقعت على عاقل: ﴿مَن فِي النَّارِ﴾، ومضمون النّداء هو هذا الدّعاء، والمنادى مفهوم من السّياق هو موسى عليه السلام؛ فقد باركته عناية السّماء، ومن حوله هم الملائكة الأطهار وعلى رأسهم جبريل عليه السلام؛ كلّفهم الله بإنارة ذلك المكان المقدّس، فالتبريك الإلهي هو بمعنى الاصطفاء من الله لموسى، وما تلك النّار التي كانت هدفًا مقصودًا له إلا النّور المقدّس يتوهّج في فرع الشّجرة وهي لا تزداد إلا اخضرارًا وتوهّجًا كما رواه ابن عباس، وصرحت به آية سورة القصص فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ (٣٠).

إذن، هي القدرة الإلهية أحدثت ذلك المشهد العجيب، وذلك يقتضي تنزيهه تعالى فقال: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فهو لا يشبه أحوال خلقه؛ لأنّ له الرّبوبية المطلقة؛ ولأنّ سماع موسى لكلام الله دون أن يرى شيئًا أمر يدعو إلى الاندهاش بالنّسبة للمخلوق الضّعيف كموسى، فالموقف يدعو إلى الإيناس والتثبيت، ولذلك تكرّر النّداء الإلهي لموسى بأدواته الكاملة، أي بأداة النّداء وبالمنادي، فقال تعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

إنه التمهيد المبارك، فالإنباء بضمير الشّأن: ﴿إِنَّهُ﴾ والإخبار عنه بجملة معرّفة الطّرفين: ﴿أَنَا اللَّهُ﴾، ثم اختيار لفظ الجلالة الدّال على الألوهية ووصف الذّات العلية بالعزة والحكمة، كلّ ذلك يرسم الصّورة اللائقة بجلال الله وقدرته ليعلم

موسى مدى رعاية الله له، وهو يصطفيه لرسالة تتطلّب منه قوّة الاحتمال والصّبر أمام أعتى طاغية على وجه الأرض، وأنّ الله ناصره عليه؛ لأنّه ليس بربّ ولا إله كما يدّعي.

وكان لا بدّ لموسى من آية يطمئن لها في تحمّل تكاليف رسالته، وهنا يختصر النّصّ تلك المساءلة عن العصا التي فصّلت في سورة "طه" فأمره المولى هنا مباشرة بإلقاء عصاه إذ قال: ﴿**وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ، إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾.

إلقاء العصا وانقلابها حية تسعى هو المعجزة الأولى التي بهرت موسى، وعلم أنّ الله تعالى يعدّه لمهمّة كبرى، وكان من الطّبيعيّ في وجوده البشريّ أن يضطرب ويخاف، فيبتعد مولّيا ظهره غير راجع إلى مكان الحيّة السّاعية، فناداه الله مرة أخرى ليزيل عنه ذلك الخوف: ﴿يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾، وعلّة النهي عن الخوف بقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾، هي لإشعار موسى نهائيا بأنه قد اندرج في عداد المرسلين، الذين هم في حماية ربّهم، يحفظهم من كل خوف.

ثم يأتي الاستثناء المتصل في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وبما أن الاستثناء من عموم الخوف، ومنه خوف العقاب على الذّنب، فإنّ لموسى في نفسه هاجس الذّنب من قتله للقبطي، فكأنّ هذا الاستثناء قد تعرّض بلطف لتلك الحادثة، فأراد الله تطمين خاطر موسى بأنّ الله قد غفر له ذلك الذّنب، لأنّه حصل قبل أن يصطفيه الله للرسالة كما وردت القصة في سورة القصص، قال تعالى عقبها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦).

وقد جاء هذا الاستثناء بصيغة العموم ليضع القاعدة العامة لجميع المؤمنين في وجوب المسارعة إلى التوبة وعمل الصالحات بعد الذنب المرتكب، ولذلك يرى بعض المفسّرين أن الاستثناء منقطع فيكون بمعنى "لكن".

ثم يأمر الله موسى بإجراء المعجزة الثانية: **﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾**.

أمره الله بأن يُدخل يده في فتحة قميصه العليا من الرقبة -وكان موسى أسمر اللون- غير أنّ اليد تخرج من الجيب بيضاء منوّرة، واحترازًا من ظنّها مصابة بمرض البرص قال تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، فهذه معجزة ثانية، تدرّب عليهما موسى بحضرة ربّه، وهما آيتان من تسع آيات أخرى، وقوله: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ إيذان من الله بإرساله إلى فرعون وقومه، والآيات التسع مذكورة في النصوص الأخرى وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والجدب، ونقص من الثمرات. فهل كفكفت تلك الآيات من غلواء فرعون وجبروته؟.

قال تعالى: **﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾**.

يطوي النصّ مشاهد وأحداثا مما هو مفصّل في سور أخرى لينتقل إلى بيان العبرة من مواقف الطغاة المستكبرين، وأنهم مهما وضحت لهم الآيات حتى لكأنها هي المبصرة لشدة وضوحها، وقد توالت عليهم الواحدة تلو الأخرى، فجحدوا بها علنا بألسنتهم ووصفوها بأنها سحر فتن أعين الناس، ولكنهم في دواخل أنفسهم يدركون أنها الحق، ولا سبيل لإنكارها، ولكنه الظلم والعناد لأجل استبقاء نفوذهم وسيطرتهم، كما فعل المشركون بدعوة رسول الله.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: بالغرق في البحر وتقويض ملكهم، وتلك عاقبة كل الطغاة المفسدين -أيها الرسول-، فلا يحزنك ما ينالك من قومك، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون، والله أعلم.

من قصّة داود وسليمان عليهما السلام:

سليمان والنملة

أ)- النص:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ
عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا
مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾: قوله تعالى: ﴿آتينا﴾ دون "علّمنا" يشعر بأنه علم خاصّ بهما، وهو علم النبوة والأحكام والقضاء بين الناس، وتنكيره للتعظيم. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: أي فضّلهما بكثير من الفضائل الأخرى، يدلّ على ذلك قوله من بعد: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾: المراد بالإرث هنا

للمعنى المجازي، والمقصود به توريثه الحكمة والنّبوة والملك. لقوله ﷺ: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**»[1]. وقد كان لداود أحد عشر ولدا، وقيل: تسعة عشر. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: الوزع: الكفّ والمنع، بمعنى أن الجيش يمنع أفراده أن يسبق بعضهم بعضا إلى سليمان، بمعنى انقادت له الرّعية كلها. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡا عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: ﴿إِذَآ﴾: ظرف زمان مضمّن معنى الشّرط، و﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾: قد يقصد به الجنس، أي قرية النّمل حيثما توجد، وقد يراد به مكان مشتهر بالنّمل غلب عليه هذا المضاف، وعلى ذلك اختلفت الرّوايات في تعيينه فقيل: هو بأرض الشّام، وقيل: بالطائف، وقيل غير ذلك، والتّعبير بـ"على" إمّا للنزول إلى الوادي من أعلى الجبل، أو للدّلالة على قطعه كلّه. ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾: الحطم هو التكسير لشيء صلب، والمراد به هنا الرّفس، والقائلة هي ملكة النّمل، ولذلك بدأت في التحذير بسليمان لأنّه قائد الجند. ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾: ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: بمعنى وفّقني، والمعنى اللّغوي للكلمة: امنعني أن أغفل أو أن أنسى شكر نعمتك. ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ﴾: منصوب بنزع الخافض. ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي اجعلني واحدا منهم في الدّرجات العليا بالجنة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَلَىٰ وَادِ﴾: وقف الكسائي ويعقوب بالياء على "الوادي"، ووقف الباقون على الدّال دون ياء. ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾: قرأ رويس بنون التوكيد الخفيفة وقرأ الباقون بنون التوكيد الثقيلة. ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: فتح ورش والبزّي ياء المتكلم، وقرأها

١- رواه البخاري من حديث عائشة بلفظ: «لا نورث ما تركنا فهو صدقة»، كتاب (٦١) الخمس، باب (١) فرض الخمس، رقم ٢٩٢٦، ورواه مسلم من حديثها أيضا، كتاب (٣٢) الجهاد والسير، باب (١٦) قول النبي ﷺ: «لا نورث،...»، رقم ٤٦٧٨.

الباقون بالإسكان، وهما وجهان عربيان صحيحان.

د)- البيان والتفسير:

ترد قصة سليمان بتفصيل وتوسّع في هذه السّورة الكريمة بعد الإشارة الخفيفة إلى أبيه داود عليهما السّلام، وتأتي بعد قصة موسى، وهم كلهم من أنبياء بني إسرائيل، وبنو إسرائيل يأخذون حيّزا كبيرًا من اهتمام القرآن الكريم الذي نوّهت بشأنه السّورتان الشعراء والنمل، حتى جعلتا من الحديث على بني إسرائيل آية على صدقه أنّه من عند الله فقال جلّ من قائل:

أ)- ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء:١٩٧).

ب)- ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل:٧٦).

وفي سياق التذكير والاعتبار للذين جحدوا برسالة رسول الله تأتي قصة سليمان عليه السلام بذلك التفصيل الذي يشيد بملك سليمان وما آتاه الله من العلم والسّلطان، وموقفه من ملكة سبأ، وكيف أذعنت لسلطانه وآمنت به في نهاية المطاف، وما تخلل ذلك من أحداث، وما جرى من حوار في أسلوب فنّي بديع يجلّي حسن السّياسة للملك مع التواضع والشكر لله للنعم المتفضّل، فقال جلّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فكلّ من داود وسليمان قد جمعا بين الملك والنبوءة والحكمة، كما قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(٧٩). غير أن سليمان كان أوسع ملكا وأقوى سلطانا وأنفذ نظرة في القضاء، وذلك استجابة لدعائه إذ قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص:٣٥).

مهّد الله لقصّة سليمان بذكر فضله عليه وعلى والده داود بما آتاهما من العلم، وقد جاء التفصيل لما أوتيه داود في سور أخرى، وهي نعم كثيرة، كما ذكر هنا بعض ما آتاه لسليمان، فلماذا خصّص الله بالذّكر هنا نعمة العلم، وجاء باللّفظ نكرة: ﴿عِلْمًا﴾ لأجل التعظيم، ذلك لأنّ نعمة العلم هي أولى النّعم بالشّكر، أي العلم بكلّ أنواعه، سيما ذلك الذي ينير القلب، ويزكّي النّفس ويصل الإنسان بربّه ليزداد به إيمانا وخشية من كلّ علم نافع للدّنيا والآخرة، العلم الذي قال الله في شأن حامليه: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة:١١)، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨).

وزيادة على توكيد الخبر بلام القسم وقد اختار الله فعل: ﴿آتَيْنَا﴾ ما فيه من خصوصية، المنحة لهذين العبدين الصّالحين، وإذ آتاهما الله نعما أخرى غير العلم فقد شكرا الله تعالى على تلك النّعم كلّها وفي مقدمتها العلم، وجيء بحكاية قولهما في الحمد والشّكر لله لبيان ما فيه من أدب رفيع من آداب النّبوّة مع الله، إذ قالا: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، إذن، هو تفضيل نسبيّ، إذ هناك من هو أفضل منهما، وذلك ما علّمه الله تعالى لموسى في لقائه مع الرّجل الصّالح، والله يقول: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(يوسف:٧٦). ويقول الشّاعر:

قل للذي يدّعي في العلم معرفة ... علمت شيئا وغابت عنك أشياء

ثم قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾.

أي كان سليمان خلفا لأبيه داود في النّبوة والعلم وسياسة الرّعية، لا في المال؛ لأن الأنبياء لا يورثون كما جاء في الحديث أن رسول الله قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة**».[1]

١- تقدّم تخريجه: ص ١٠٨.

وهكذا يطوي النصّ أخبار داود الكَلِيْة للتوسّع والتفصيل في قصة ولده سليمان، وكان أعظم ملكا من أبيه ووهبه الله مزيدا من أسباب القوة والسلطان، في غير صلف ولا طغيان، وها هو ذا يعلنها صريحة بين النّاس متحدثا بنعمة الله شاكرا فضله العظيم عليه، فيخصّص ثم يعمّم.

يخصّص بالذّكر تعليم الله إياه منطق الطّير، وفي ذلك إيجاز، لأن أحداث القصة مع النّملة والهدهد تدلّ على أنه يعلم لغات الطّير والحيوان والحشرات، لا عن طريق الحدس والمحاولات العلمية الاجتهادية والاستقرائية لمعرفة دلالات بعض الأصوات لتلك المخلوقات، وإنما هو علم لدنيّ حباه الله سليمان خاصّة كما حباه تسخير الجنّ والرّياح وغير ذلك من مختلف النعم التي أجملها بقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾. أعلن ذلك على الملإ من رعيته لا تعاظما وكبرياء، بل تحدثا بنعمة الله إذ قال بعدها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، أي هو من الفضل الإلهي علينا، والذي لا يخفى على أحد.

ويعتبر هذا الإعلان من طرف سليمان لملك الرّسول أمام رعيته -ولله المثل الأعلى- بمثابة ما نسميه اليوم "البرنامج السّياسي لرئيس الدّولة"، فهو يستعمل ضمير المتكلمين مراعاة لخطاب السّياسة والملك، حتى يسلس قياد رعيّته ويحمّلها على تقديره واحترامه، لما يمتاز به من خصائص، وها هو ذا سليمان يتربّع على عرش ملكه وحوله جنوده من كلّ ما سخّر الله له، فكيف ينتظمون أمام قائدهم؟.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

الحشر: هو الجمع في مكان واحد، والمحشورون هم جند سليمان، وهو متنوّع الأصناف، بدأ بالصّنف الأقوى، وهو الجنّ، وأتبعه بالإنس القويّ بعقله، ويأتي الطّير في المرتبة الثالثة، وبالطّبع يكون الحاشرون هم قوّاد كلّ صنف، ومن
٤ المعروف من قديم الأزمان استعراض الملوك والرّؤساء لمظاهر القوّة عندهم إظهارا

لأبهة الملك وعزّة السّلطان، وذلك يقتضي التّنظيم والتّرتيب بحيث يتمّ حسن تأطيرهم أمام الرّؤساء والقادة حتى لا يتقدّم أحد منهم عن منزلته أو يتأخّر، وهذا ما تفيده جملة: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي يُمنعون من الفوضى والتّداخل، بحيث يقفون أو يمشون في صفوف منتظمة.

ولم يحدّد النصّ الغاية من حشر تلك الجنود ولا المنطقة التي اتجهوا إليها، إلا ما ذكره الله من مرورهم على وادي النّمل فقال: **﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**.

﴿حَتَّىٰ﴾ ابتدائية لها معنى الغاية، وإتيان سليمان وجنوده على: ﴿وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ يدلّ على مرورهم به كلّه، وإضافة الوادي إلى النّمل للدلالة على كثرة وجود النمل به، وهو على الأشهر يقع في أرض الشّام، فنادت نملة -هكذا بالتنكير-، ولكن تحذيرها للنّمل الآخر يدلّ على أنّ لها مهمة رائدة، فإمّا أن تكون هي الملكة، أو تكون مكلّفة بالحراسة، كما هو معروف في التّنظيم العجيب المحكم لمملكة النّحل والنّمل، وقد حذّرت باللّغة التي يتفاهم بها النّمل والتي يفهمها سليمان، حذّرت مجموعات النّمل من تحطيم سليمان وجنوده لها فأمرتها بالدّخول إلى مساكنها، ويلاحظ التّعبير بخطاب العقلاء، واختيار لفظ: ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾ حتى لكأننا في مجموعة سكنية للبشر محكمة البناء والتنسيق، وقرى النّمل عادة ما تمتد إلى سراديب تحت الأرض، فهي -إذن- صلبة السّقوف محصّنة بحيث لا تتحطم ولو مرّت الجيوش فوقها، وتجد النّملة الآمرة عادلة في تصرّفها إذ احترزت، فأعذرت سليمان وجنوده بأنّهم لا يشعرون، فهم لا يفعلون ذلك عن قصد الإذاية والظّلم. فاعجب لهذا المخلوق الضّعيف كيف ألهمه الله إلى تنظيم شؤون حياته بتلك الدّقة العجيبة التي لا تقلّ عن تنظيم البشر تنسيقا وتعاونا، وصدق مولانا إذ قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ (الأنعام:٣٨).

وإذ كان سليمان قد ألهمه الله إلى فهم منطق تلك المخلوقات، فقد هش وانشرح صدره لما قالته النملة، والذي أثار في نفسه خواطر كثيرة بفيوض نعم الله عليه، وهو مغمور بها في أوج عزّه وسلطانه، فكانت ردّة فعله الأولى أن تبسّم ضاحكا: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

لماذا تبسّم سليمان ضاحكا من قول النملة؟، ولماذا صدر منه ذلك الدّعاء الذيّ لربّه مباشرة؟.

نعم: إنّه قد عظمت عليه منّة الله بأن وهب له تلك القدرة العجيبة لفهم تلك العوالم الدّقيقة من خلق الله فيتفاعل معها ويدرك مقاصدها، ثم يستلهم منها ما ينفعه في سياسة رعيته، ونستطيع أن نستخلص من هذا المشهد ما يلي:

أ)- فهناك الرّاعي الأول في هذه المملكة النملية وهو يتمثل في تلك النملة القائدة، وهي تتصف باليقظة والحذر وتقوم على مسؤوليتها بصدق ووفاء، إذ تنبهت على الخطر قبل أن يداهمها، وتتصف بسعة الفهم والإدراك، إذ تحيط علما بكل ما يقع في الوادي، أي من وراء حدود مملكتها، بدليل معرفتها لاسم سليمان، وتحرّك جنده قبل أن يمرّ على الوادي، وحسن كياستها في معاملة القويّ إذ وصفته بالرّأفة والعدل.

ب)- وكثمرة لتلك المزايا في الرّاعي الأول، فإن نتيجة ذلك في الرّعية كانت حسن الانقياد والطّاعة.

ولا شكّ أنّ سليمان عليه السلام قد أثارته تلك الخواطر، فاتّجه إلى ربّه يشكره ويطلب منه المزيد، طلب أن يوفّقه الله ويجمع أمره على الشكر لما أنعم عليه وعلى والديه، وإدراج الوالدين في الدّعاء من طرف الولد الصّالح هو من حسن البرّ بهما، وخير الذّكر بعدهما.

والعمل الصّالح هو التجسيد العملي للشكر الذي هو القيد المحكم للنعمة الموجودة، والصّيد للنعمة المفقودة، ثم تجد سليمان من تمام تذلّله إلى الله يقيّد العمل الصّالح برضى الله؛ لأنّ رضوان الله هو أعظم الغايات عند الأولياء الصّلحاء، فربّ عمل صالح في ظاهره لا يكون محلّ الرّضى عند الله لافتقاره إلى نبل القصد وخلوص النية، أو لكونه على غير ما شرع الله.

ثم يخاف سليمان من وعثاء الطّريق ومن ضعف النفس البشرية فيسأل ربّه أن يسلكه في عداد الصّالحين بفضله ورحمته، وهو النبي الصّالح؛ لأن الإنسان مهما بلغ من الطّاعة لله والشكر لنعمه فهو لا يزكّي نفسه ولا يأمن مكر الله، والله أعلم.

سُليمان والهدهد

أ)- النّص:

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُۥ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ
وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
(٢٤) أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا
تُعْلِنُونَ (٢٥) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٢٦) ۩ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ
مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ (٢٧) ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)

ب)- التّحقيق اللّغوي:

رحير الذكر بعدها.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾: ﴿تَفَقَّدَ﴾: طلب معرفة سبب الفقد للشيء، و﴿الطَّيْرَ﴾: اسم جنس لكل طائر، إذ يمكن أن يكون في جند سليمان أنواع من الطيور النافعة، كالحمام الزاجل والبوازي للصيد، أمّا الهدهد فهو لمعرفة مواقع الماء. ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾: "ما" للاستفهام عن الشيء، و﴿لِيَ﴾: للاختصاص، بمعنى: ماذا حصل لي من عدم رؤيتي للهدهد؟. و﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى: لكن. ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: ﴿عَذَابًا﴾: إما منصوب على المفعولية، وإمّا على المصدرية بجواز جعل الاسم قائما مقام المصدر، استحق ذلك العقاب؛ لأنه عصى إذ تغيّب بغير إذن، أمّا نوعية العقاب فموكول إلى تقديرات سليمان. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: أي يستظهر ببرهان ودليل واضح يبرّر تغيبه. ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: أي عاد إلى معسكر الجند بسرعة. ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾: الإحاطة: استيعاب العلم بالمعلومات، وفي ذلك تنبيه على محدودية العلم عند الإنسان مهما تكن منزلته. ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾: ﴿سَبَإٍ﴾: اسم لجد قبيلة يمنية وهو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، لقب بذلك لأنه -كما قيل- أوّل من سبأ في غزوة، والنبأ هو الخبر الهامّ العظيم، وبين كلمتي "سبأ" و"نبأ" جناس ناقص. ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: المرأة هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك، كانت امرأة عاقلة عاصرت سليمان، ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾: تصوير لعظمة ملكها وخيرات بلادها، وناهيك عن سدّ مأرب الذي قيل أنها هي التي بنته. ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: ﴿الْخَبْءَ﴾: المخبوء المستتر من كل شيء، كإشراق الكواكب في السّماوات وإنزال المطر وإخراج النبات وغيره من الأرض. ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾: أي حمّل سليمان الهدهد بإيصال كتابه إلى مملكة سبأ. وقوله له: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾، أي تأكّد من وصول الكتاب إليهم وارتقب رجع الجواب عن الكتاب.

رجع الذكر بعدهما.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا لِي﴾: قرأ ابن كثير وهشام وعاصم والكسائي: ﴿مَا لِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بالإسكان. ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي﴾: قرأ ابن كثير بإثبات نون الوقاية بعد نون التوكيد الثقيلة، وقرأه الباقون بحذف إحدى النونات الثلاث. ﴿فَمَكُثَ﴾: قرأ عاصم وروح بفتح الكاف، وقرأ الباقون بضمّها. ﴿مِن سَبَإٍ﴾: قرأه الجمهور بالصّرف، وقرأه أبو عمرو والبزّي عن ابن كثير بفتحة غير مصروف، على تأويل البلاد أو القبيلة، وقرأه قنبل عن ابن كثير بسكون الهمزة على اعتبار الوقف. ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾: قرأه الجمهور بتشديد اللاّم على أنه مركب في الخط من "أن" و"لا" النافية، أي كلمة واحدة اعتبارا بحالة النّطق بها. وقرأ الكسائي وأبو جعفر ورويس: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا﴾ بتخفيف اللاّم، على أنها حرف الاستفتاح. ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: قرأ الجمهور بياء الغيبة، وقرأه الكسائي وحفص عن عاصم بتاء الخطاب، على وجه الالتفات.

د)- البيان والتّفسير:

كان سليمان ﷺ في موكب ضخم حاشد من جنده المختلف الأصناف في تركيبته، وبعد حادثة النّملة نجده في كامل اليقظة والحزم بتفقّده لشؤون جيشه، وهو على مرأى منه في نظامه وانضباطه، فيلاحظ غياب الهدهد، فيسأل عنه تلك الحشود بقوة وحزم، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَآئِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

في هذا النصّ المشتمل على ثمان آيات نقرأ فعلا مثيرا من تاريخ سليمان ﷺ في إدارة ملكه بحذق وحزم مهتمّا بنشر دين الله القويم بكل الوسائل المستطاعة، وهو في سيره مع جنده يقوم بمهمّة التفقّد لوضعية تلك الجند ويتابع

جميع أحواله، شأن الرّاعي الحازم المهتمّ بشؤون رعيته، ولكن لماذا ركّز تفقده على الطير وحدها؟.

والإجابة تكمن في ما ذكره العلماء والرّواة بأنّ سليمان كان في رحلة إلى مكّة للحجّ، وأمامه مفاوز وعرة شاسعة تحتاج إلى خبرة في معرفة مواقع الماء، وطائر الهدهد هو المهيّأ للقيام بتلك المهمّة؛ لأنه كما تقول الرّواية: يبصر الماء في الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزّجاجة.

ولما لم يجد سليمان الهدهد حاضرا في مكانه، قال مخاطبا الجند: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، فالاستفهام هنا للتعجب، ولكن يتعجّب من نفسه؛ لأنه لم يره وربما كان حاضرا، ولذلك أضرب عن الاستفهام الأول بـ"أم"، فتيقن أنه كان من الغائبين، ولم يكن قد طلب الإذن على ذلك، فقال سليمان متوعّدا الهدهد بالعقاب إن لم يبرّر غيابه بعذر مقبول: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، فقد كان سليمان حازما وعادلا في معاملته لرعيته، ذلك بأنه:

أ)- لم يتوان في إدراك موضع الخلل في صفوف جيشه، وعندما تعيّن المتسبّب فيه، وهو غياب الهدهد، لم يتردد في معاقبة المقصّر في واجبه؛ لأن السكوت على ذلك تنجرّ عنه تحدّيات أخرى تفضي إلى الفوضى واللامبالاة.

ب)- عدله في تنويع العقوبة حتى تكون وفق حجم الجريمة المرتكبة، وذلك لا يتأتى للقاضي إلا بالنظر الحصيف في ملابسات الخطأ المرتكب.

ج)- إعطاؤه الفرصة للجاني بالدّفاع عن نفسه بما يكون له عذرا مقبولا فقال بعد التهديد: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

وفي عقوبة الحيوان أحكام للفقهاء متنوعة، يقول عنها الإمام ابن عاشور: "وقال أبو حنيفة: إذا آذت الهرّة وقصد قتلها لا تعذّب ولا تخنق، بل تذبح بموسى

حادة لقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة»(١). وقال الشيخ ابن أبي يزيد في الرّسالة: "ولا بأس إن شاء الله بقتل النمل إذا آذت و لم يقدر على تركها، أمّا العقاب الخفيف للخيول لتربيتها على تعليم السّير ونحو ذلك فهو مأذون فيه".(٢)

ثم قال: ﴿فَمَكُثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، الفاء للتفريع، والمكث: البقاء في مكان وملازمته، و﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: أي غاب لمدة يسيرة، و"فاء" التعقيب تفيد أنّه حضر فور تهديد سليمان له فبادر بتقديم عذره قبل أن يتهره الملك قائلا له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾. والإحاطة: هي العلم الشامل بالشّيء من كلّ جوانبه، فكان الهدهد ذكيًا في مفاجأة الملك بتلك المقدّمة المثيرة للتشويق، وفيها أيضا من الإيحاء والتنبيه لسليمان بأنّ في خلق الله من يملكون كما يملك أو أكثر، وأنّه من تمام المسؤولية للحاكم أن يكون على دراية بما حوله من الأمم والممالك، فيشجّع أعوانه ذوي المواهب لالتقاط للعلومات وجمع الأخبار من مثل قول الهدهد له: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، فما أروع الجناس في هذه الرّواية، وما أثمن هذا الخبر الذي جاء به الهدهد، ولا شكّ أنّ سليمان يعرف مملكة سبأ، ولكنّه لم يقدّر عظمة سلطانها المادّي كما كان لا يعرف توجّهها الرّوحية الدّينية، وذلك هو النّبأ العظيم الذي أدلى به الهدهد لسليمان إذ قال له: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

فقد عرف هذا الهدهد الذّكي، وهو يمثل أمام سليمان في موقف المتمرّد

١- رواه مسلم من حديث شداد بن أوس، كتاب (٣٥) الصيد والذبائح، باب (١١) الأمر بإحسان الذبح والقتل، رقم ١٦٧٥.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ١٩/٢٤٦-٢٤٧.

الحاني، عرف كيف يدافع عن نفسه بلطف وحذق ومهارة ليصف لـه رحلتـه الاستكشافية إلى مملكة سبأ التي تقع في جنوب الجزيرة باليمن والتي يعرض القـرآن في سورة "سبأ" بعض مقتطفات من خيراتها وحضارتها، وفي عرض الهدهد تطالعنا ثلاثة أمور قال:

أ)- ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾: يبدو أن الأمر فيه غرابة أن تكون امرأة حاكمة لقوم رجال أشدّاء، مما لم يكن معهودا في بني إسرائيل، ولذلك جيء بالخبر مؤكدًا بـ"إن" لأهميته، والمرأة هي بلقيس بنت شرحيل، وهي من سلالة العائلة المالكة، وتمتاز برجاحة العقل والغنى والجمال، لقوله تعالى على لسان الهدهد:

ب)- ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾: فالمؤتي هو الله، وقد عمّم في الأشياء المؤتى بها لها، ليشمل بذلك كلّ ما توفّر لديها من أسباب الرّقي والازدهار الموروث منها والمكتسب، ولا يخلو التعبير من الإيماء إلى ما قاله سليمان عن نفسه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، ثم خصّص بالذّكر رمز سلطانها بقوله: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، مما يوحي أنه لم يكن لسليمان عرش مثلـه في الضّخامة والنفاسة والأبهة.

ذلك في الجانب المادّي، ولكن الهدهد حطّ من شأنهم في الجانب العقـدي والدّيني فقال:

ج)- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّـــنَ لَهُـمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾: كانت عبادة الشّـمس أمرا مشاعا في تلك العصور سيما عند أهل الزّرع، فالسّجود لغـير الله ضـلال، والعجب أن يعرف ذلك هذا الهدهد الذّكيّ الذي عرف الحقّ بـأن السّـجود لا يكون إلا لله وهو مؤمن بذلك، ويعلم وسوسة الشّيطان وإغواءه لبني آدم فأضـاف يقول: ﴿وَزَيَّـنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُـمْ لَا يَهْتَـدُونَ﴾، وهذا على القول بأنّ هذا الكلام هو من جملة ما قاله الهدهد لسليمان، إذ يحتمل أن

يكون قولا آخر جيء به للتعريض بالمشركين.

ثم قال: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿أَلاَّ﴾: مركبة من "أن" و"لا"، فادغمت النون في اللام، ويقدّر قبلها حرف جرّ محذوف، فتصبح "لئلا"، والمعنى: زيّن لهم الشيطان لئلا يسجدوا لله، والخبء، هو بمعنى اسم المفعول لكلّ ما هو مخبوء من الأشياء، فالله تعالى عالم الغيب والشّهادة، يخرج ما ستر من أنواع محسوسة كالحبّ والنّوى بعد نزول المطر، ويظهر ما في السّماوات من أنواع الكواكب والنّجوم وغيرها، وفي الخواطر النّفسية يعلم ما تخفي وما تعلن، وهو تعالى يتفرد بالوحدانية وهو صاحب السّلطة المطلقة في أرجاء ملكوته.

وجيء بالتعريف في قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ مقابل: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بالتنكير لعرش بلقيس، لتفرّد عرش الله بالعظمة المطلقة.

وهكذا سمع سليمان مقالة الهدهد، فلم يتعجّل بإصدار الحكم حتى يتثبّت من صدق ما قاله، فقال: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾.

ارتأى سليمان ليتأكّد من أخبار الهدهد أن يبعث برسالة إلى ملكة سبأ وقومها، وأرشده إلى ما يجب أن يلتزم به من اللّياقة في التّنحّي عن مجلسهم بعد إلقاء الكتاب إليهم، حتى يتحاوروا ويتشاوروا فيما بينهم بحرّية، وهو ينتظر عن قرب ليردّ إجابتهم على تلك الرّسالة، ولا يكشف فحواها في الذّهاب والإياب؛ لأنّ ذلك من الأسرار التي تكون في المراسلات بين الملوك والرّؤساء.

وبذلك يُسدل السّتار على هذا المشهد البديع ليرفع مرّة أخرى، لمتابعة ما يقع من حوار بين الملكة وحاشيتها، ولا شكّ أنّ في هذه القصّة الشيّقة بين الهدهد

وسليمان ما يكون فيه عبرة لنا وموعظة، مما بيّنا بعضه خلال التفسير، وتظهر قدرة الله وفضله على سليمان في ما كان يفهمه من منطق الطير، حتى لكأنه يخاطب إنسيًّا مثله، ثم الأعجب من ذلك في تلك القدرة التي مكّن الله بها ذلك الطائر الهدهد من إدراك أحوال الأقوام والأمم حتى في طقوسها الدينية ومعتقداتها، وكيف له أن يميّز بين الحقّ والباطل منها، فسبحان من أعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى، والله أعلم.

جواب بلقيس على كتاب سليمان، وردّة فعله

أ)- النص:

قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟
أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟
بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ
بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم
بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾: ﴿قَالَتْ﴾: الضمير يرجع إلى الملكة بلقيس، ﴿الْمَلَأُ﴾: علية القوم وأشرافهم من مستشاريها، والإفتاء: إعطاء الفتوى، وهي الإجابة عمّا يشكل من المسائل. ﴿فِي أَمْرِي﴾: الأمر: الحال المهمّ

وإضافته إلى ضميرها لأنها صاحبة الأمر في مملكتها. ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: قطع الأمر بمعنى البتّ فيه ليَنفّذ. ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: بمعنى حتى تكونوا حاضرين معي في المجلس، وهو كناية عن مشورتهم. ﴿نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾: أي أصحاب قوة دفاعية، وأصحاب شدّة على أعدائنا عند مواجهتهم. ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾: ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾: أي في اتخاذ القرار بالحرب أو عدمه، ونحن ممتثلون لأمرك. ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾: القرية في مصطلح القرآن كلّ مجمّع سكني كبيرا أو صغيرا، وإفساده هو بما يكون من تخريب وتدمير لمنشآتها، والأعزة: جمع عزيز، أي القويّ ضدّه الذّليل جمع: أذلة. ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾: "الباء" للمصاحبة، والهدية: ما يقدّم عطية على سبيل التقرب والتودّد، ومفعول "مرسلة" محذوف، دلّ عليه السّياق من الرّجال الذين يحملون تلك الهدية. ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾: ناظرة: أي مترقبة ومنتظرة. ﴿بِمَ يَرْجِعُ﴾: أي بقبول الهدية أم رفضها. ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾: فاعل "جاء" مقدّر، مفهوم من قوله: ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾: فالفاعل هو وفد الرّسل الحامل للهدية. ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾: أي بجنود لا طاقة لهم بدفعها ومقاومتها، فضمير: ﴿بِهَا﴾ للجنود على اعتبار الجماعة والكتيبة. ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾: أي مهانون محقرون.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنِّيٓ أُلْقِيَ﴾: ياء المتكلم في: ﴿إِنِّيٓ﴾ فيها قراءتان: الإسكان والفتح. ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾: قرأ الجمهور بحذف الياء وصلا ووقفا، وقرأ يعقوب بإثبات الياء وصلا ووقفا. ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾: قرأ الجمهور بنونين، وقرأه حمزة وخلف بنون واحدة مشدّدة بالإدغام. ﴿ءَاتَانِيَ اللَّهُ﴾: في ياء المتكلم قراءات: الإثبات والحذف، والفتح والإسكان.

د)- البيان والتفسير:

كانت الإجابة عن رسالة سليمان سريعة، إذ طوى النصّ ذكر الأحداث التي كانت بين أمر سليمان طائر الهدهد بالذهاب بالرّسالة إلى الملكة "بلقيس" وبين ذكر تشاورها مع مستشاريها في شأنه. فقال جلّ من قائل: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

الآية مستأنفة للبيان، بأن الملكة هي التي تلقّت الكتاب، وقرأته بنفسها، ولم يوضّح النصّ كيفية ذلك الإلقاء ولا من أين دخل الهدهد إلى مجلس العرش، وتعرّب الرّوايات في بيان ذلك، ولا نهتمّ تلك التفاصيل، فالهدهد قد قام بمهمته على أكمل وجه بإلقاء الكتاب في حجر الملكة وتنحّى جانبا، وها هي تبادر باستشارة أعوانها من علية القوم وأشرافهم، وقبل الإفصاح عن مضمون الكتاب وصفته بأنه "كريم"، وكذلك لم تذكر من جاءها بذلك الكتاب احترازا من التشكيك فيها أمام القوم، لمّا كرم الكتاب فربما يكون له من بإجلال وهو ملك عظيم كريم مما يدلّ عليه مضمون الكتاب، أو لكونه حسن الخط جميل المظهر، مختوما بخاتم سليمان على عادة مكاتبات الملوك والأمراء.

ثم تلت على مستشاريها مضمون الكتاب: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

يلاحظ في القسمة، وهي حكاية لكلام الملكة لقومها: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، الهاء الأولى للكتاب، والثانية لمضمونه، والتأكيد بـ"إنّ" لكليهما يدلّ على الاهتمام بهما. ثمّ ذكر اسم سليمان قبل ذكر اسم الله فللمفسرين توجيهات لذلك منها:

أ)- أنّ الملكة ابتدأت في باسم سليمان الذي عرفته من ختمه الذي كان

على ظاهر الكتاب، وأمّا المضمون الدّاخلي فقد بدأ فيه سليمان بسم الله كما فعل رسل الله، وقد فعل ذلك لتوجيه أنظار قومها إلى حسن التدبّر، إذ كان الجميع يعرفون مكانة سليمان وقوّته.

ب)- نقل القطب رحمه الله عن أبي حيان أنه بدأ باسمه -أي سليمان- وقاية لاسم الله عمّا قد يصدر منها إذ كانت كافرة.[1]

وهكذا قرأت الملكة مضمون الرّسالة، وهو يتضمن عبارات موجزة بليغة، ينهاهم فيها عن الاستكبار والعلوّ ويأمرهم بالدّخول في طاعته، وقيل: هو أمر بإسلام الوجه لله أي دين التوحيد، فيكون بذلك قد جمع بين الدّعوة إلى الخضوع لسلطانه على اعتباره ملكا مهاب الجانب، وإلى نبذ الشّرك والخضوع إلى دين الله القويم.

ولما كان قوله: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ يتضمن معنى التهديد، فقد بادرت الملكة إلى الاستشارة بقولها: **﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾**.

إعادة النّداء لعلية القوم هي لجذب انتباههم، ليشيروا عليها في شأن الكتاب، وقولها: ﴿فِي أَمْرِي﴾ لأنها هي المسؤولة الأولى عن شؤون المملكة، وربما كانت تعرف عن سليمان وقوّته ما لم يكن القوم يعرفونه، وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ يدلّ على أنها كانت تأخذ بأمر الشّورى في جميع قضاياها، وفي ذلك ما فيه من حسن السّياسة والدّهاء في إدارة ملكها، فردّ الملأ عليها بقولهم: **﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾**.

أظهر القوم استعدادهم للمجابهة والحرب بما يتوفر لديهم من القوة والشدة، ذلك لأنهم أدركوا ما يتضمّنه جواب سليمان من التهديد الخفي للخضوع

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٣٢٩.

والاستسلام له، فلا بد من الرّدّ القويّ، ولكنهم فوّضوا الأمر إلى الملكة في ما تراه الأصلح، فينفذون أمرها للحرب أو السّلم، فناقشتهم بموضوعية وحكمة، موازنة جانب السّلم على الحرب، معللة رأيها بالواقع التاريخي في الصّراع على الملك والتوسّع فقالت:

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾.

لقد قرّرت أمامهم قاعدة اجتماعية أيدتها وقائع التاريخ البشريّ في صراع البقاء، مما كان يفعله الملوك الأقوياء في فتوحاتهم للسيطرة والتوسع، فهم يكتسحون المدن ويخرّبون عمرانها ويستذلون أهلها بعد أن كانوا في عزّة ومنعة، ثم ذيّلت كلامها الحكيم بقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ لتصوير تلك الحالة الدائمة المستمرّة، حتى تجنّب قومها ويلات الحرب. ويحتمل أن يكون جملة: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هي من كلام الحقّ تبارك وتعالى، يؤيد بها ما ينطق به عباده من الحق -أحيانًا-.

ثم اتجهت الملكة إلى الملاينة والمسالمة بالإهداء فقالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾، أي أنها ترسل هدية ثمينة إلى سليمان وترقب ردّة فعله: أيكون من ملوك الدنيا فيقتنع بالهدايا والمال؟، أم أنه شأن آخر لنشر دين الله وإحقاق الحقّ وتوطيد أركان العدل.

سار الرّسل بهدية بلقيس إلى سليمان، فقال محقّرًا بتلك الهدية ومهدّدًا متوعدًا: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

كان وقع الهدية شديدًا في نفس سليمان، فما قيمتها أمام ما حباه الله به من ملك عريض ونبوة وحكمة، فما أوهى صلة المال التي تربطونها بيني وبينكم؛ لأن

الذي عندي منه هو خير مما بين أيديكم، ثم أضرب عن الكلام السّابق وقال: ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾، فقد ردّ الهدية، وأضافها إليهم هي بمعنى: إنكم أنتم من يفرح بما يهدى إليهم؛ لأنكم طلاب حظوة وجاه.

ثم توعّدهم وهدّدهم بإرسال جنود لا يقدرون على مواجهته، وأكد تهديده بلام القسم ونون التّوكيد الثقيلة، بأن أشار في ردّه إلى ما ذكرت به بلقيس قومها من فعلة الملوك، ليعلموا أن غايته هي أن ينقادوا لدين الله، وإلا سيلقون جزاءهم من القتل والأسر والهوان، والله أعلم.

زيارة بلقيس لسليمان، وإسلامها لربّ العالمين

أ)- النص:

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ
مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى
عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا
عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ
مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا
ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ
مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ
سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٢٦٦.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: العرش: سرير الملك، والباء للتعدية بفعل: ﴿يَأْتُونِي﴾، ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾: أي طائعين منقادين. ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾: ﴿عِفْرِيتٌ﴾: يجمع على عفاريت، الشديد الماكر الذي لا ينال. ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾: ومقام سليمان للقضاء في أمور رعيته كان من الصباح إلى الظهر. ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾: الله أعلم بالمراد من الكتاب، أهو اللوح المحفوظ أم هو التوراة؟، وبالتالي اختلفت أقوال المفسرين فقيل: هو النبي آصف بن برخيا، وكان وزيرا لسليمان، وقيل: هو جبريل، وقيل: هو سليمان نفسه. وارتداد العين يكون بضم الجفنين على العين بعد انفراجهما، والمراد بذلك السرعة على سبيل الاستعارة، ويقال أيضا: مثل لمح البصر. ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾: ﴿رَآهُ﴾: الضمير يرجع إلى العرش، والاستقرار: التمكن في الأرض، أي حاضرا عنده. ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾: أي ليختبرني، والشكر هو مقابلة إنعام المنعم بما يرضيه، وضده الكفر، وهو جحود تلك النعمة. ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾: ﴿نَكِّرُوا﴾: تعني غيّروا في هيئته بزيادة أو نقصان، ضده: عرّفوه. والآمر بذلك هو سليمان، والمأمورون: ملأ القوم. ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾: أي تهتدي إلى معرفة عرشها بعد تغيير بعض معالمه، أي نختبر ذكاءها. ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾: ﴿الصَّرْحَ﴾: يجمع على صروح، القصر وكل بناء شامخ، ويطلق أيضا على صحن الدار، والقائلون: هم الذين كانوا في رفقتها. ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾: اللجة يجمع على لجج، معظم البحر وتردّد أمواجه، أي توهمته ماء فرفعت ثوبها الساتر حتى لا تبتل لتخوض ذلك الماء. ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾: ممرّد: تعني مصقول وأملس. من قوارير: جمع قارورة: اسم لإناء من زجاج، والقائل هنا هو سليمان. ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: الإسلام هنا بالمعنى الديني، 9

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/١٦٦.

وهو الانقياد إلى الله، و"مع" بمعنى مصاحبة له، فكلاهما سواء في الخضوع لله.

ج) – أوجه القراءة:

﴿أَنَا آتِيكَ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بإثبات ألف: ﴿أَنَا﴾ بعد النون وصلا في الموضعين، وقرأها باقي القراء بحذف هذه الألف. ﴿لِيَبْلُوَنِي﴾: قرأ نافع وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأها باقي القراء بالإسكان. ﴿سَاقَيْهَا﴾: قرأ قنبل همزة ساكنة بعد السّين عوضا عن الألف، على لغة من يهمز حرف المدّ إذا وقع وسط الكلمة.

د) – البيان والتّفسير:

بعد توعّد سليمان لرسل الملكة وأمره إياهم بالرّجوع بهديتهم، طوى السّتعيّ هنا خبر رجوعهم وإخبارهم الملكة بما قال سليمان، وقد علم أن لا سبيل لها إلا الاستجابة لطلبه بقدومها إليه مع حاشيتها، فأعدّ لذلك ما يزيدها إعجابا وانبهارا بقوته وسلطانه، قال تعالى: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

لقد تحرك الوفد الملكيّ من سبأ قاطعا المسافات الشاسعة صوب بيت المقدس عاصمة المملكة السليمانية، ولا تغيب عن سليمان أخبارهم فله من إشراقات النبوءة ومن أعوانه من الجنّ ما يستطيع أن يتابع به مسيرة زائريه، حتى مشارف عاصمة ملكه، واستعدادا لتهيئة استقبال الملكة نادى سليمان على أشراف قومه ومستشاريه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، فقد بيّن المهمة المطلوبة وحدّد زمان إنجازها، وليس ذلك بمقدور البشر العاديّ، فأين مأرب في سبأ من بيت المقدس في فلسطين؟، ومن لحمل العرش في ثقل هيكله مع الحفاظ على زخرفه وزينته؟، ثم ما القصد من استحضار ذلك العرش بذاته وفي مقدور سليمان أن يعدّ للملكة خيرا منه مما عنده؟[1]

1- أحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٢٢٦.

ففي الإجابة عن السؤال الأول في القيام بتلك المهمة الصعبة يأتي قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، فنحن أمام نوعين من القوة الغيبية قد سخرها الله تعالى لسليمان لا نملك أمامها -ونحن مؤمنون بأن الله على كل شيء قدير وأنه تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء- لا نملك أن نعلل ولا أن نفسر بمألوفنا نحن البشر، فكم في ملكوت الله من أسرار لا نعلمها وكم في الكون من قوى ما نزال نجهلها، والله تعالى يلخص عنا الحيرة أمام هذه الخوارق بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥). فقوة الجن أمر مسلّم به لدى الإنس، وكلهم من خلق الله، ومع تفاوت القوة بين الجنسين فهي أيضا تتفاوت في إطار الجنس الواحد، فالعفريت من الجنّ هو المارد القويّ الشديد، كان المبادر للقيام بالمهمة المطلوبة فهو ينجزها قبل أن يقوم سليمان من مجلس قضائه، أي قبل زوال ذلك اليوم. ولكن سليمان قد استبطأ تلك الفترة؛ لأن الملكة -كما تقول الرّواية- تكون على مشارف المدينة تهيأ لدخولها.

فإذا بأحد مستشاريه، وعنده علم من الكتاب، هكذا يبرزه النصّ هذا الوصف دون بيان لنوعية ذلك العلم ولا للكتاب الذي يستمدّ منه تلك القوة الخارقة، إذ تكفّل أن يحضر العرش في طرفة العين، وأيا كانت نوعية ذلك العلم أو الكتاب الذي يستمدّ منه، فإن الحدس والتخمين في كشف تلك الأسرار الغيبية كما دأب عليه بعض المفسّرين، هو ضرب من التعسّف في الأخذ بما يسمّى بالإسرائيليات، والله وحده هو الواهب القادر، وهو الهادي من يريد إلى معرفة بعض تلك الأسرار، وليس الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه كما رجّح بعض المفسّرين، ولو كان هو الملك الرّسول. وما قصة العبد الصّالح مع موسى عنا ببعيدة إذ آتاه الله من العلم اللّدني ما لم يؤته موسى عليه السلام.

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٢٦٦.

والذي يستوقفنا في هذه اللقطة هو تعظيم مكانة العلم وترجيح كفّتها على القوّة التي بيد العفريت من طبيعة خلقته، وهكذا تحققت تلك المعجزة لسليمان فحضر لقصره عرش بلقيس بتلك السّرعة بقدرة الله.

وما قوّة الجانّ، وما الذي عنده علم من الكتاب إلاّ وسيلة ظاهرية في إدراكنا المادي، ولذلك بادر سليمان عند رؤيته للعرش مستقرا أمامه بادر بتقديم الشكر لله: **﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾**.

إنها الإشراقة النّبوية تهزّ كيان سليمان وهو يرى نعمة الله عليه كيف سخّر له كلّ ما يحقّق مطلبه من عزّة الملك وقوّة السّلطان، لا ليتعالى ويتعاظم أمام الملوك أمثاله، ولكن ليتخذ ذلك وسيلة في دعوتهم لدين الله القويم ونبذ الشرك والظلم، وهو يستشعر أنّ ذلك الفضل من الله عليه هو ابتلاء ضخم يفوز فيه ليكون شاكرا لله، أو يخسر حين يكفر نعمة الله.

ثم يرسلها حكمة عامة وقاعدة خلقية هامّة بأنّ فائدة الشكر لا ترجع إلا لصاحبها بدوام نعم الله عليه، كما أنّ ضرر الكفر عائد على صاحبه؛ لأن الله تعالى غنيّ عن شكر الشاكرين، وهو الرّبّ الكريم الذي يعطي عبده رغم جحوده.

وها هو ذا سليمان يعدّ مفاجأة أخرى للملكة وهي مقبلة مع وفدها للدخول إلى قصره فقال لملئه: **﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾**.

أمر بتغيير بعض معالم ذلك العرش ليختبر ذكاء الملكة وبداهتها عندما تراه فتعرف أنه عرشها فتزداد حيرة وإيمانا بنبوة سليمان وقوة سلطانه، أم أنها لا تهتدي إلى معرفة ذلك العرش بعدما غيّرت معالمه، فما إن حضرت الملكة حتى طرح عليها السؤال الاختباري بصيغة المجهول: **﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ، قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾**.

ولئن كانت مفاجأة ضخمة يطرح على الملكة عدة أسئلة، فإن الذي طـرح عليها السّؤال، سواء أكان سليمان أو أحد أعوانه طرحه بصيغة ذكيـة تـوحي بالإجابة للحاذق النبيه؟، فكانت الملكة على المستوى المطلوب من النباهة والـذّكاء فلم تجب بالسّلب ولا بالإيجاب إذ قالت: ﴿كَأَنَّـهُ هُوَ﴾، فجاء مناسبا للسّـؤال المطروح: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾.

﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْـبُدُ مِـن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾:

جملة: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فيها احتمالان:

أ)- تكون امتدادا لإجابة بلقيس في قولها: ﴿كَأَنَّـهُ هُوَ﴾ حتى لكأنها تخفّف من صدمة المفاجأة، بأن قالت أمام الملإ: لقد علمنا من قبل مجيئنا بقـوة سـليمان وبسطة سلطانه فجئنا خاضعين لأمره بدون هذه المفاجأة.

ب)- ويحتمل أنها من قول سليمان أو أعوانه شكرا لله على حظوة العلـم والهداية إلى الإسلام.

وأما جملة: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْـبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَـوْمٍ كَافِرِينَ﴾ لها أيضا احتمالان:

أ)- أنها إعذار من الله تعالى لبلقيس عمّا كانت عليه مـن الكفـر بعبـادة الشمس، إذ نشأت في بيئة كافرة منذ أجيال.

ب)- وهو ما رجّحه الإمام الشّعراوي بأنّ ما أعدّه سليمان لها من المفاجآت قد صدّها عن الكفر الذي ألفته وهيأها لعبادة الله.

وبقيت المفاجأة الأخيرة عند دخولها إلى القصر: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّـرْحَ فَلَمَّا رَأَتْـهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَـوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

لم يتعرض النصّ إلى تحديد المكان الذي استقر فيه عرش بلقيس، ولكن الأمر الذي وجّه إليها بدخول الصّرح -وهو قصر سليمان- يوحي بأنّ عرشها استقر في ردحة من ردحات القصر الخارجية، وأمّا الصّرح فهو المكان الذي كان يجلس فيه سليمان للقضاء، فطلب من الملكة أن تدخل عليه، وكان الصّرح آية في الصّناعة، إذ كانت أرضية ساحته الدّاخلية من بلور يدخل إليها من باب ضخم وأجري تحته الماء، وعندما همّت بالدّخول رفعت ثوبها عن ساقيها ظنّا منها أنّها تخوض بركة ماء، ولكن سليمان بادرها بقوله: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

فكانت هذه المفاجأة الأخيرة كافية للملكة بأنّها أمام قوة عظيمة ليست في مقدور البشر، فأشرقت نفسها بنور الله، وتوجّهت إليه نادمة على ما فرط منها من ظلم نفسها بالكفر، معلنة إسلامها لله ربّ العالمين مصاحبة لسليمان في الإيمان بالدّين القويم.

ولم يشر النصّ إلى إسلام قومها معها، ولا كيف عادت إلى بلادها، ولكن في خضوعها لله على ما كانت عليه من الأبهة والملك موعظة وعبرة للمشركين الذين أصرّوا على شركهم بعد إذ جاءهم الهدى، والله أعلم.

من قصّة صالح وثمود

أ)- النص:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ
﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ

﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا
بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا
دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

ب]- التحقيق اللغوي:

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: جملة تفسيرية، وهي في موقع نصب بنزع الخافض والتقدير: أرسلنا بأن اعبدوا الله. ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾: "إذا" للمفاجأة، و"الفريقان" على اعتبار الإيمان والكفر. ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾: الاستفهام للإنكار، ومفعول "تستعجلون" محذوف تقديره: تستعجلونني، و"الباء" للملابسة، أي بأخذون بجانب العذاب الذي هدّدوا به دون جانب الرحمة إن هم آمنوا برسولهم. ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾: أصله: تطيّرنا بك أبدلت التاء بالطّاء، وأدغمت الطّاءان، والتطيّر هو التشاؤم، مأخوذ من عادة زجر الطّير عند العرب. يقول الكندي في شأن قومه:

وإن زجروا بالنحس طيرا تمرّ بي   زجرت لهم طيرا تمرّ بهم سعدا

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾: الرّهط: الجماعة من النّاس، وكان هؤلاء التسعة من عتاة القوم الذين تآمروا على صالح وناقته. ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾: أي قال بعضهم لبعض تقاسموا بالله، أي تعاهدوا وأقسموا بالله لتبييت الغدر لرسول الله صالح، ثم إنكار ذلك إذا افتضح أمرهم. ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾: المكر: هو التدبير الخفيّ لفعل الشرّ. و﴿مَكْرًا﴾: مفعول مطلق للتأكيد، وإسناد المكر إلى لفظ الجلالة إسناد مجازيّ للدّلالة على دفع مكرهم بعذاب الاستئصال الذي دلّ

عليه قوله: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾: ﴿خَاوِيَةً﴾: أي خالية، وهي منصوبة على الحال، و"الباء" في ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ للسببية.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنُ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾: قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون في الوصل، وقرأ باقي القراء بضمّ النون في الوصل مراعاة لضمّ الباء في: ﴿اعْبُدُوا﴾. ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾: قرأ الجمهور بنون الجماعة وفتح التاء التي قبل نون التوكيد، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب في أوله وضمّ التاء الأصلية قبل نون التوكيد، على تقدير: أمر بعضهم لبعض. وهكذا قرأ الجمهور: ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ بنون الجماعة أيضا، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بتاء الخطاب وضم اللام. ﴿مُهْلَكَ﴾: قرأ الجمهور بضم الميم وفتح اللاّم، وقرأه حفص بفتح الميم وكسر اللاّم، وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الميم وفتح اللاّم، مصدرا لا غير. ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾: قرأ الجمهور بكسر همزة "إنا"، فتكون الجملة مستأنفة، وقرأه عاصم والكسائي ويعقوب وخلف بفتح الهمزة، فيكون المصدر بدلا من ﴿عاقبة﴾، والتأكيد للاهتمام.

د)- البيان والتّفسير:

جاءت قصّة ثمود مع رسولهم صالح بعد قصص موسى وداود وسليمان، لأنّ هؤلاء الثلاثة هم من بني إسرائيل، وأمّا ثمود وصالح فهم من العرب البائدة، وذكروا -أيضا- في القرآن بأصحاب الحجر، و"الحجر" أرض بين الشّام والحجاز إلى وادي القرى، يمرّ عليها عرب قريش بقوافلهم إلى الشام، فهم أقرب للتذكرة والاعتبار من غيرهم، ولما كانت قصة سليمان مع ملكة سبأ هي الأوفر حظا في بيان السّورة أعقبها الله بقصتي ثمود وقوم لوط دون غيرهم من الأقوام لكون أحداثهما وقعت على أرض الشّام كسابقتها في قصة سليمان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

توزعت مشاهد قصة ثمود مع رسولهم صالح في عدّة نصوص من القرآن، وأوفرها تفصيلا وبيانا هو ما جاء في سورة الأعراف، بينما هذا النصّ قد طوى قصّة الناقة وكيف كان مصيرها بيد القوم المفسدين، فبعد التمهيد للقصّة بتأكيد إرسال الله لصالح إلى ثمود بـ"لام" القسم و"قد"، وأنه كان أخاهم في النسب معروفا لديهم بالصّلاح والتقوى، خصّ الله فكرته الدّعوية بقوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، وهي دعوة الحقّ لكلّ رسول، فكانت المفاجأة أن انقسم القوم إلى فريقين: مؤمن مصدّق برسالة صالح، وهم القلّة المستضعفون، ومكذّب معرض، وهم الأكثرية المستكبرون، كما أفصحت عن ذلك آيات سورة الأعراف، وهكذا ثارت الخصومة بين الفريقين، شأن الفساد الاجتماعي الذي مارسته البشرية في مسيرتها الطّويلة بإزاء الدّعوات السّماوية كلها.

وتقتضي الفطرة السّليمة أن يذعنوا لدعوة الحقّ، ولكن اختيار التعبير بـ"إذا" الفجائية يدلّ على أنّ ذلك لم يكن متوقّعا ولا مرتقبا منهم، إذ هم على شاكلة عرب قريش في فساد تصوّرهم لحقيقة الألوهية، إذ كانوا يؤمنون بوجود الله بدليل قولهم: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾.

ومع اختلاف الرّأي وتضارب المصالح تشتدّ الخصومة، ثم يقع بعدها التحدّي والمجابهة، ويتصدّى صالح لمجابهة قومه ومحاولة إقناعهم بطلب الهداية من الله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وكان قوم صالح لشدّة تعنّتهم يستعجلون بنزول العذاب بهم، وقد مكّنهم الله تعالى من نعمه الكثيرة، وكان أولى بهم أن يذعنوا للإيمان به ويطلبوا رحمته، ولكنّه الطّغيان الذي يتغلّب على الإنسان إذا استغنى، إذ قالوا: ﴿يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف:٧٧)، وقد أنكر عليهم صالح ذلك وحرّضهم

على التوبة والاستغفار لعلّ الله تعالى يرحمهم، ولكنّهم لجّوا في عنادهم فاتّهموه بأنّ دعوته كانت شؤما عليهم.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾: والتطيّر هو التشاؤم، وهو مأخوذ من عادة زجر الطّير عند العرب فيتحوّل يمينا فيتفاءلون أو يتحوّل يسارا فيتشاءمون عند عزمهم على سفر مهمّ أو قضاء حاجة، وهي عادة جاهلية أبطلها الإسلام، ومن ثمّ جرت عادة النّاس أنّهم يتطيّرون بالأشخاص أو بالأشياء، وهؤلاء اعتبروا صالحا ومن معه من المؤمنين شؤما عليهم، كما تشاءم فرعون بموسى ومن معه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾ (الأعراف: ١٣١).

ولا شكّ أنّ سنّة الله في ابتلاء خلقه جارية على أقدارها وفق مشيئة الله. والتكذيب بالرّسل يقتضي سخط الله وغضبه، ولكن القوم ربطوا ما أصابهم من ضرّاء بدعوة صالح كما يفعل الطغاة المستكبرون فكان جواب صالح بقوله: ﴿طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾، أي إنّ ما يصيبكم هو من قدر الله وتصرّفه، وأنّ ما يعتقدونه من التطيّر هو من وسوسة الشّيطان وفتنته.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ. قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

المدينة هي المعروفة بمدائن صالح، أو ديار ثمود، والرّهط تعني الجماعة من النّاس بحوالي العشرة، والتعريف: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ للعهد، أي أرض ثمود، وهؤلاء التسعة هم -ولا شك- من عتاة القوم ممن يشفقون على مصالحهم، ووصفهم بالإفساد في الأرض مع نفي أي صلاح يبدر منهم، لأنّهم تمحضوا للفساد لا غير، لأنّ في النّاس من يفسد ويصلح، ولكن الذي لا يُرجى منه أيّ إصلاح هو الذي يقف أمام الدّعوات الصّالحة ويصدّ عليها المسالك ويدبّر المكائد، ولذلك تعاهد

هؤلاء التسعة وحلفوا بالله أن يغيروا بصالح وأهله فيقتلوهم بالليل، ثم هم يستترون بجنح الظلام ويدّعون لأولياء القتلى بأنهم لم يشهدوا شيئاً مما جرى من ذلك القتل، وهذا المشهد مما اختصت به هذه السورة، ومن ثَمّ درج الناس على وصف كلّ من يُعرف بالشرّ بأنه من التسعة رهط.

﴿ومَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ. فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، والمكر هو التدبير الخفي لشرّ أو ضرّ، أكّد بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في الخبث والتدبير، وأسند المكر للفظ الجلالة إسناداً مجازياً للدلالة على مبادرة الله لهم بالعذاب وإبطال مكرهم، وهم لا يشعرون.

وشتّان بين تدبير الله العليّ القدير وتدبير الإنسان، فمكر الله من ورائه الخير العميم، وإن لم نشعر به أحياناً، ولذلك توجّه الخطاب إلى رسول الله وإلى كل متدبّر للقرآن: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾، أي تأمل بنور عقلك -أيها الرّسول- كيف كانت عاقبة مكر أولئك الطّغاة، إذ دمّر الله قراهم فأصبحت بيوتهم خاوية، وقد أخذتهم الصّيحة والرّجفة، فلم تنفعهم تلك الجبال التي نحتوا فيها بيوتهم، وهكذا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

وكلّ ذلك بسبب الظّلم والطّغيان، فليعتبر مشركو قريش بما حدث لهؤلاء إذ عجّل الله لهم بعذاب الدّنيا، ليعلموا أنّ الله يملي للظّالمين ثم يأخذهم من حيث لا يحتسبون. واختير هنا فعل: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لأنّ السّورة ركّزت كثيراً على العلم كما تقدم.

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: لم تفصّل الآية كيفية الإنجاء، وإنما ركّزت على الإيمان والتقوى بأنهما طوق النجاة، وفي ذلك تسلية لرسول الله وطمأنة للمؤمنين بأنه تعالى سوف يرفع عنهم أذى المشركين، وينجيهم مما توعّدهم

به من العذاب، والله أعلم.

من قصة لوط عليه السلام

أ)- النص:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ٥٤ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً
مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ٥٥ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ
لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا
مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ٥٧ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ٥٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: ﴿لُوطًا﴾: إما معطوف على ﴿صَالِحًا﴾، أي وأرسلنا صالحًا، وإما بفعل مقدّر بـ: أذكر. ﴿إِذْ قَالَ﴾: بدل. ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتوبيخ. ﴿الْفَاحِشَةَ﴾: أو الفحش، يطلق في القرآن على الذّنوب الكبرى مما يتّسع خطرها ويعظم ضرّها، والمراد بها هنا "اللّواط". ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾: جملة حالية. ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾: تأكيد الاستفهام لإفادة الاستغراب مما وقع. ﴿شَهْوَةً﴾: تعليل منصوب على المفعولية لأجله. ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي من شأنهم الطّهارة من ذلك الرّجس، فهي طهارة معنوية. ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: أي قضينا وحكمنا أن تبقى مع الهالكين. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾: أي أنزلنا عليهم حجارة من سجيل حفت قراهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قَدَّرْنَاهَا﴾: قرأ شعبة بفتح الدّال دون تشديد، من فعل "قَدَرَ"، وقرأها الباقون بفتح الدّال مع التّشديد، من فعل "قدّر"، و"قدر" و"قدّر" لغتان لمعنى واحد.

د)- البيان والتّفسير:

تجيء القصة الرّابعة من قصص الأنبياء لتختصر قصة لوط مع قومه من أهل "سدوم"، وقد تقدّم بيان وجه اختيارها مع قصّة ثمود دون غيرهما من الأمم الأخرى، ونضيف هنا علة أخرى -والله أعلم- أنّ كلاًّ منهما قد أصيب بعذاب الاستئصال، إذ ذكرتا بعد قصّة سليمان مع بلقيس والتي انتهت بإسلام الملكة وخضوعها لله عن رضى واقتناع، بينما موضوع السّورة تميل إلى التخويف والتّهديد بمشركي مكّة، وموقفهم من دعوة رسول الله، فتجيء القصّتان للتحذير من عواقب مخالفة أمر الله باقتراف الفواحش والمنكرات.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: العطف هنا هو على التقدير الذي بيّناه، و﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ بتقدير: اذكر يا محمد، أو أيها المتلقي للقرآن، اذكر ما قاله لوط في دعوته لقومه، وهم منحرفون عن الفطرة السّليمة بارتكابهم للشذوذ الجنسي في ما بينهم بكيفية عمّت مجتمعهم واستعلنوا بها دون حياء أو خجل، ما فعلها غيرهم من قبل، بل ولا تفعلها الحيوانات العجماء، وقد استعمل لوط معهم أسلوب التلميح والتصريح فقال منكرا عليهم ومنددًا: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، لم يذكر مفعول تبصرون ليتناول كلّ ما يتصل بهذا المنكر سواء في الجهر به والتحريض عليه كما جاء في قوله: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت:٢٩)، أو في إبصارهم لعواقبها وإدراكهم لقبحها، وبعد هذا التلميح صرّح لهم بما يفعلون مؤكدا عليهم تنديده وتوبيخه فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. ولا شكّ أنّ الذنب يضاعف وزره مقتا وغضبا عند الله وشرًا ومفسدة عند الناس إذا كان صاحبه

يجاهر به ولا يراعي حرمة لأحد مهما يكن وزنه الاجتماعي، ومن إرشادات رسول الله في هذا الحال: «من ابتلي بشيء من هذه الخبائث -أو قال القاذورات- فليستتر، فإنه من يُبد لنا صفحته نُقم عليه كتاب الله».[1]

عبّر لوط هنا في إنكاره على قومه بإتيانهم الرّجال، وعبّر في آية أخرى بإتيان الذّكران، ولعل في التعبير بالرّجولة مزيد استثارة لنخوة القوم وكرامتهم، لأن الرّجولة الكاملة تأنف أن يفعل بها ذلك، وأي الرّجال نفيت الرّجولة عنه تعييرا وهجوا فإنه يغضب ويثور في وجهك، وقد اعتبر الأدباء من أقذع الهجو ما قاله الحطيئة في الزبرقان بن بدر -وهو سيد في قومه- فهجاه بقوله:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطّاعم الكاسي

إذ لم يزد عن وصفه بامرأة همّها الطّعام والشّراب.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فالجهل يحتمل نفي العلم بالشيء ويحتمل السّفه والطّيش، بمعنى أنهم يجهلون عواقب الانحراف عن الفطرة ولا يميزون بين الحسن والقبح، أو هم يسفهون على من يزجرهم عن ذلك، والتعبير بالمضارع للدلالة على أن ذلك شأنهم باستمرار.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: الفاء للتعقيب بما كان من تآمر قوم لوط على إخراج آل لوط، وهم أهله ممن آمن بدعوته، وإذ أصرّوا على فعلتهم الشنعاء في البقاء على الخبث والدّنس فقد علّلوا إخراجهم من القرية بأنهم أناس يتطهّرون، فحكموا بذلك على

١- رواه مالك في الموطأ من حديث زيد بن أسلم مرسلاً، كتاب الحدود، باب ما جاء فيمن اعترف على نفسه بالزنا، رقم ٣٠٤٨، وقال الشافعي: هذا حديث منقطع ليس مما يثبت به هو نفسه حجة وقد رأيت من أهل العلم عندنا من يعرفه ويقول به، فنحن نقول به. الأم: ١٥٧/٦.

أنفسهم بالقذارة والنجاسة، فهم يتحرّجون من وجود المتطهّرين بينهم شأن الفسّاق في كل زمان ومكان، وتلك دركة يهوي إليها أمثال هؤلاء السّفهاء فتنقلب المفاهيم عندهم، ويزين الشيطان أعمالهم.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾: ويختصر النصّ هنا كيفية إهلاك قوم لوط، وهو ما فصلته سورة هود من قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (٨١-٨٣).

قدّر الله النجاة للوط وآله ممن آمن معه، واستثنى زوجه، فكانت من المهلكين مع قومها؛ لأنها كانت متواطئة معهم راضية بما يفعلون، والراضي بالشيء كفاعله، فأمطر الله عليهم حجارة من سجيل -وهو الطين المحترق-، ووصفه الله بأنه منضود، مسوّمة: أي معلّمة، بحيث تصيب كلّ واحد منهم بعينه، وهكذا بقيت آثارهم عبرة للمعتبر، والله يقول: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

فهل يأمن مكر الله من يحاولون اليوم ترسيم هذه الفاحشة الدنيئة، فيكون المبتلون بها من شواذّ الخلق في حماية القانون يسرحون ويمرحون؟، فنحن اليوم أقرب إلى الدّمار والخراب من أيّ وقت مضى، فليس عقاب الله قاصرا على ما يزلزل به الأرض أو ينزله من السّماء، وأشدّ منهما أن يجعل بأسنا بيننا شديدا، فاللّهم إنا نسألك اللّطف، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا غير مفتونين، والله أعلم.

من آيات وحدانية الله تعالى وقدرته

أ)- النص:

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ
مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ
قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ
الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ
يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۖ بَلْ هُمْ
مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾: ﴿قُلْ﴾: الخطاب لرسول الله، أمر الله بإثبات الحمد لله والثناء عليه بما هو أهل له، ﴿وَسَلَامٌ﴾: من تقدير: سلمت سلاماً، والمقصود به التحية عند اللقاء للتأمين، و﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاء المجازي. ﴿الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾: هم كلّ من اختارهم الله من البشر أو من الملائكة لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج:٧٥). ﴿آللَّهُ

خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: ﴿ءَآللَّهُ﴾: الاستفهام للإلزام بالإقرار و﴿خَيْرٌ﴾: فيه معنى التفضيل على اعتبار معتقد المشركين في فضل آلهتهم. ﴿أَمَّا﴾: أصله "أمْ مَا"، أدغمت الميمان، وكذلك قوله: ﴿أَمَّنْ﴾: أصله "أمْ مَنْ"، فـ"أم" منقطعة بمعنى "بل" للإضراب، وهي لا تفارق معنى الاستفهام، و"مَنْ" استفهامية، فأدغمت الميمان. ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾: الحدائق جمع حديقة، البستان أو الجنة المسوّرة بحائط، والبهجة حسن المنظر. ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾: الاستفهام إنكاريّ. ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾: ﴿قَرَارًا﴾: مصدر "قرّ"، إذا ثبت وسكن، أي الأرض مستقرٌّ للخلائق لا تميد بها. ﴿خِلَالَهَا﴾: بمعنى ما بين أجزائها. ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: الرّواسي: هي الجبال الثوابت التي ترسي الأرض، والحاجز هو الفاصل بين شيئين، والمقصود بهما الماء العذب والماء المالح لا يختلطان. ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾: ﴿الْمُضْطَرَّ﴾: هو الذي اعترضته ضرورة فطاوعها والتجأ إلى الله، واللّام فيه للجنس. ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾: أي يرفع الضرّ عن البائس. ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: إضافة الظلمات إلى البرّ والبحر للملابسة، والهداية بمعنى الإرشاد بالنّجوم والعلامات. ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: أي تنشر السّحاب ويكون مقدمات لنزول المطر. ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: بداية الخلق هي النشأة الأولى وإعادته هي النشأة الثّانية للبعث بعد الموت. ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: ﴿ادَّارَكَ﴾: على ما فيه من أوجه القراءة، هو بمعنى توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرّسل. ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾: ﴿عَمُونَ﴾: جمع "عَمٍ"، وهو الذي عميت بصيرته، فلا يدرك أدلة الآخرة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب، وقرأه أبو عمرو وعاصم
10 ويعقوب بياء الغيبة، روعي فيه غيبة المشركين في مقام الخطاب بالأمر للرسول.

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: أصله تتذكرون، أدغمت تاء الفعل في الذّال لتقارب مخرجهما. قرأ الجمهور: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ روح عن أبي عمرو وهشام عن ابن عامر بياء الغيبة على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة. ﴿الرِّيَاحَ﴾: قرأه الجمهور بالجمع، وقرأه ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بالإفراد. ﴿نُشُرًا﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو بالنون وبضمتين، وقرأه ابن عامر بالنون بضمّ فسكون، وقرأ عاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بالموحدة وبسكون الشّين مع التنوين، وقرأه حمزة والكسائي بفتح النّون وسكون الشّين. ﴿ادَّارَكَ﴾: قرأ الجمهور همز وصل في أوله وتشديد الدّال، على أن أصله: تدارك، فأدغمت تاء التّفاعل في الدّال لقرب مخرجهما، بعد أن سكّنت، واجتلب همز الوصل للنطق بالسّاكن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿بَلْ أَدْرَكَ﴾ همز قطع وسكون الدّال، ومعناه انتهى علمهم في الآخرة.

د]- البيان والتّفسير:

إنّ في إخبار الله بقصص الأنبياء وكيف أنجاهم الله من مكايد أقوامهم المكذّبين، فكانوا هم المنتصرين الغالبين، ثم ما في ذكر عواقب المجرمين من العظة والاعتبار وما فيه من تسلية لرسول الله مما يلاقيه من قومه، كلّ ذلك يستوحي الحمد والثّناء لله تعالى والسّلام على المصطفين الأخيار من أنبيائه ورسله وأوليائه، كتمهيد لبيان الأدلة والبراهين على جلال ربوبيته وعظمة قدرته تعالى بأسلوب حجاجيّ مقنع، فقال جلّ من قائل: **﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**.

الله تعالى يستحقّ الحمد والثّناء منّا في كلّ حال؛ لأنّ الأقدار التي يدبّرها لخلقه هي كلّها خير لهم، وإن لم يدركوا سرّها، فهو الذي لا يُحمد على مكروه سواه كما ورد في الأثر، ففي القصص المتقدّمة جانب الخير والنّجاة والنّصر لرسل الله، وفيها جانب الضرّ والهلاك للطغاة المستكبرين، وفي كل ذلك نعمة أمر الله رسوله -ومن خلاله أمّته- أن يحمد الله عليها ويسلّم على عباده الذين اصطفاهم

واختارهم لرسالته ونشر هديه، فهم مستحقون -أيضا- لتلك التحية النديــة الــتي تكفل لهم التأمين والطمأنينة بعد ما عانوه من المكر والأذى.

وقد تكرّر الحمد لله في القرآن على كلّ تدبير حكيم أراده بخلقه في السّــراء والضّراء، سيما ما كان يلهج به رسل الله، وهم المثل الأعلى للإنسان الكامل.

فسيّدنا نوح قال بعد نجاته: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (المؤمنون:٢٨).

وسيّدنا إبراهيم قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْــمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (إبراهيم:٣٩).

وقال عن أصحاب الجنة وهم في غمرة نعيمها: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْــوَاهُمْ أَنِ الْحَمْــدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَــالَمِينَ﴾ (يونس:١٠).

والله يأمر رسوله باقتداء هدي الرّسل من قبله فيقول له: ﴿أُولَئِــكَ الَّــذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:٩٠)، وهو هنا يأمره بالحمد لله وبالسّلام علــى كل من اختارهم الله، هكذا على الإطلاق، فيتناول من أخبرنا بهم الله ومن لم يخبرنا بهم لأنه تعالى يقول: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج:٧٥)، ويقول ﴿وَرَبُّــكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَــانَ لَهُــمُ الْخِيَرَةُ﴾ (القصص:٦٨).

وبهذا التمهيد الشّيق نأخذ الأدب الشّرعي عند محاولتنــا لأيّ حــديث أن نصدّره بما نمتثل به هذا الأمر الإلهي لرسوله بأن نحمده ونثني عليه تعالى ونسلّم على رسله أجمعين ثم نشرع في عرض الموضوع الذي نريد الحديث عنه.

طرح الله قضية الألوهية التي تدور حولها الأدلة الإقناعية التفصيلية، جاء بهــا مجملة وفي صورة استفهام ومفاضلة بين التوحيــد والشــرك: ﴿آللَّهُ خَيْــرٌ أَمَّــا

تُشْرِكُونَ﴾.

يقول القطب -رحمه الله-: "وإنّما عبّر بالتفضيل مع الأصنام مع أنه لا شركة لها ذاتا ولا فعلا تسفيها للخصم وإلزاما للحجة وإيقافا عليها". ثم يقول: "وكان النبي ﷺ إذا قرأ هذه الآية قال: «**الله خير، والله خير وأبقى وأجلّ وأكرم**». وكذا في جميع القرآن يُسنّ أن يقال: لا، أو نعم، أو بلى، بحسب ما يناسب المقام مثل أن يقال: "لا" إذا قرئ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (الصافات:١٥٣). ومن أنكر ذلك هلك ويخاف عليه الإشراك لأنه ردّ للإجماع".[1]

قلت: إن ذلك من التجاوب النفسي والانفعال الوجداني الذي يجب على المؤمن أن يتعامل به مع القرآن، ولا يتأتّى له ذلك إلاّ بحسن التدبّر ومراعاة الآداب الشّرعية في تلاوته أو الاستماع له.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾:

﴿أَمَّنْ﴾: مركبة من "أم" المنقطعة التي تفيد الإضراب الانتقالي، أي بمعنى "بل" و"من" الاستفهامية، وهي هنا تفيد التقرير، وقوله: ﴿أَنزَلَ لَكُم﴾ الخطاب للمشركين بالله الجاحدين لنعمه التي تدلّ على بديع صنعه وقدرته، وقد عدّد الله مجالي تلك القدرة مما هو شديد الاتصال بحياة الإنسان في إطارها الزّماني والمكاني في أسئلة تقريرية هي أنسب بلغة الإقناع والحجاج، وكلّها أشياء لا يستطيع المشركون إنكارها ولا يدّعون نسبتها إلى معبوداتهم الباطلة، فبدأ الله بالمجال الأعظم لقدرته بخلق السّماوات والأرض بكلّ ما أدركه الإنسان من أسرارهما وما لم يزل في عالم الغيب. ومن إعجاز القرآن قوله: ﴿لَكُم﴾ عند ذكر إنزال الماء من السّماء؛ لأن

١- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٣٦٠-٣٦١.

تلك الظاهرة الطبيعية تخصّ كوكب الأرض مما نعلمه ونشاهده، وكذا مزاوجته بين أسلوب الغيبة والمتكلم في هذه الآية، عندما قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ فالإسناد لنون العظمة هنا للدّلالة على أن عملية الإنبات من خصوصية الخالق لا يد للإنسان فيها، وإن كان يحرث ويزرع ويسقي؛ ولذلك نفى تلك الشبهة بقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾، أي ليس ذلك من شأنكم ولا في قدرتكم، والتعبير بلفظ: ﴿حَدَآئِقَ﴾ مع الوصف: ﴿ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ للفت النظر إلى الناحية الجمالية لمتعة العين وانشراح الخاطر بالإضافة إلى الناحية الغذائية بما توفره من أنواع الفواكه والثمار.

ثم يأتي التذييل بهذا الاستفهام الإنكاري الذي يتكرر في كل آية: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾، فيقال: لا إله معه، وجاء التذييل المناسب للعقلية الكافرة بأنها تعرف الحق وتنحرف عنه فقال: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾، و"بل" بمعنى: لكن، أي أنهم مع إقرارهم بأنّ خلق ذلك من خصوصية الله هم ينحرفون ويكابرون في تلك الأدلة الواضحة.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

انتقل السؤال الإقناعي إلى خصوصية الأرض، وهي لا تخصّ الإنسان وحده، لأن المقصود من هذا الاستدلال الثاني هو إظهار بديع صنع الله في جعل الأرض مهادا ذلولا ومستقرًا مكينا لجميع مخلوقاته، فلا تضطرب بها ولا تميد لأنها مركّزة ومثبّتة بالجبال الرواسي، مما يدلّ على أنها خُلقت متحرّكة سابحة في الفضاء.

وفي توفير الأقوات للمخلوقات ذكر جريان الأنهار بالمياه العذبة في أوديتها ومساربها، وللجبال دور حيويّ في ذلك، إن في الإمداد بالمياه أو بالخصوبة الضرورية للأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا﴾، والمقصود بالبحرين بمعَم

المياه العذبة ومجمّع المياه المالحة، جعل الله بينهما حائلا يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، وإن كان بينهما تكامل وتفاعل في عملية التبخّر ونزول الأمطار، كما قال المتنبي في ممدوحه سيف الدّولة:

كالبحر يقذف للقريب جواهرا جودا، ويبعث للبعيد سحائبا

وكما قال آخر أيضا:

كالبحر يمطره السّحاب وما له فضل عليه لأنّه من مائه

وكالسّؤال السّابق يجيء بعده الاستفهام الإنكاريّ: ﴿أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ﴾، وليس للمنكرين إلا أن يقولوا: لا إله مع الله يستطيع أن يفعل ذلك، وبالتالي كيف تسوّون بين من خلق هذا وأبدع صنعه، وبين آلهتكم الباطلة التي لا تخلق شيئا؟.

ثم قال تعالى في التذييل هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾، استدراك بالإخبار عن جهل أكثرهم لتلك الحقائق؛ لأنّهم بحكم إلفهم لمشاهدة تلك الظّواهر الطّبيعية فهم لا يعيرون لها اهتماما لتدبّر القوة المبدعة التي وراء تدبير تلك الأمور، فليتهم ينصتون إلى آيات القرآن التي تعلّمهم فتقطع عليهم الحجة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

المضطرّ هو الذي نالته ضرورة من مرض أو خوف أو جوع أو غيرها من الأسباب، فهو لا يلتجئ إلاّ إلى الله خالق الأسباب والمسبّبات، يلتجئ إليه في تضرّع وانفعال ليفرّج عنه ما به من ضرّ، وهذه الحالة النّفسية عند الشّدة هي مستكنّة في فطرة الإنسان ولو لم يكن مؤمنا، لأنّ حالة الاضطرار تقطع صلته بعالم الشّهادة بعد أن يستنفد كلّ ما يتوفّر لديه من الأسباب، و لم تجده نفعا، فحينئذ يجأر إلى الله ويستغيث به حصريا، وتبقى الإجابة متعلقة بإرادة الله لأنّه أعلم بحال الدّاعي

حين يدعوه، وهو الذي يقدّر المصلحة في ذلك، وهذا المعنى قد تكرر في القرآن بأساليب مختلفة، وأغلبها يمثل طغيان الإنسان وعناده بمجرد أن يخرج من ضائقته كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ (الإسراء:٦٧).

ثم قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، أي يخلف بعضكم بعضا في عمارتها، وذلك بتعاقب الأجيال، وتعاقب الحضارات في تسخير موارد الأرض وتبادل منافعها، وفي التعاون والتكامل في مجال العلوم والمعارف، وتدل صيغة المضارع في فعل: ﴿يَجْعَلُكُمْ﴾ على التجدّد والاستمرار إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾: يتكرر السّؤال الإنكاريّ، ولكن التّذييل جاء بقوله تعالى هنا: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الحال، من ضمير الخطاب في الجملة السّابقة، أي أن خلافة الإنسان في الأرض إذا صحبها اليسر والرّخاء قد ينسى نعمة المنعم فلا يذكر افتقاره إلى الله فيطغى وينسى.

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

بعد بيان الأحوال العامّة لطبائع النّاس إزاء مواجهتهم لظروف الحياة القاسية انتقل السّؤال إلى بيان حالة الخواصّ منهم وهم المسافرون في البرّ والبحر، وإضافة "الظّلمات" إليهما هي للملابسة، على اعتبار السّير في أرجائها الواسعة، والتي تكون مظنّة للتيه والهلاك، فَمَنْ غير الله الذي خلق ذلك الفضاء الشّاسع من اليابسة والماء ومن غيره يهدينا في سيرنا بما وضعه من العلامات في الأرض وفي السّماء كما قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٦).

قد يقول قائل: إنّنا اليوم في غنى عن تلك العلامات الطّبيعية في سيرنا لما توفّر

لدينا من الوسائل التكنولوجية الحديثة ومن الطّرق المعقّدة؟، ولكن كيف لنا أن نتوصل إلى تسخير تلك الوسائل لولا هداية الله لنا؟، ولولا ما سخّره لنا من تلك الموادّ وما حبانا به من علم ومعرفة؟.

ولعلّ قوله تعالى بعد ذلك في سؤال جديد: ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾: يشير به إلى العنصر الهامّ للحياة على وجه الأرض وهو الماء الذي تقوم الرّياح بدور هامّ في بسط سحبه على مختلف بقاع الأرض، فيكون ذلك النّشاط الحيويّ للإنسان وهو يسخّرها ويسير في مناكبها، مَنْ غيرُ الله يستطيع أن يفعل ذلك، فهو -إذن- وحده المستحقّ للعبادة، وهو المنزّه عن الشّريك، فجاء التذييل المناسب: ﴿تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

يرتقي السّؤال من عالم الشّهادة إلى عالم الغيب لبيان قدرته تعالى وحكمته في إعادة الخلق للحساب والجزاء وفاء بوعده الحق، وتحقيقا لعدله في إنصاف الخلق، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٤)، فإذا كان المشركون يقرّون ببدء الخلق أنه من الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزّخرف:٨٧)، فإنهم ينكرون إعادة الخلق للنشأة الثانية ويقولون: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (ق:٣).

وقد عالج القرآن هذه القضية المصيرية بما فيه الكفاية لإقناع الشاكين المترددين، وكثيرا ما يربط الله عملية إحياء الموتى للمرحلة الأبدية النهائية، بربطها بإحياء الأرض بعد موتها بنزول الأمطار فيقول تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الرّوم:١٩). ونفس الرّبط نجده في هذه الآية الكريمة، فإرسال الرّياح لنشر السّحب وإنزال الأمطار هي لإحياء الأرض بعد موتها وتوفير الأرزاق للخلائق، بل آيت

العلم بما لا شك فيه بأنّ دورة الحياة والموت لا تقتصر على الزّروع والنباتات مع تعاقب الفصول، بل هي نفس الظّاهرة التي تحدث في أجسامنا في كريات الدّم وفي أنسجة الخلايا المختلفة، تموت وتتجدد الملايين منها ما بقيت لنا حياة على ظهر هذا الكوكب، أمّا كيف يعيد الله خلقتنا بعد الفناء فذلك ما لا يعلمه إلا الله الذي قال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ، عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة: ٦٠-٦١).

وعلى المنكر لشيء أن يأتي ببرهان يؤيّد به ذلك الإنكار، فما دام المشركون يعترفون ببدء الخلق لله فهو القادر على إعادته كما وعد، ولذلك جاء التذييل الأخير بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فهو أمر تعجيزي لا يقدرون على الإتيان به.

وبعد استكمال تلك الحجج الإقناعية الدّالة على انفراد الله بالوحدانية، وبالقدرة التّامّة لإبطال عقيدة الإشراك، أعقب ذلك بإبطال آثر من آثار الشّرك ممّا يعتقده المشركون في كهانهم من مخالطتهم للجن ومعرفة بعض أخبار السّماء فقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ، بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾.

الخطاب موجّه لرسول الله، وهو يواجه المعتقد الفاسد للمشركين في ما ينظرون به إلى سدنة معابدهم، وفي موضوع قيام السّاعة كثر تساؤل المشركين عنها، وهم يظنّون أنّ من صدق الرّسالة أن يكون الرّسول عالما بها، فجيء أمثال هذه الآيات لنفي أي زعم لأحد في علم ذلك، لا من رسول ولا من ملك مقرّب، جاء النّفي بصيغة الحصر ليفيد العموم.

والغيب هو كلّ ما يغيب عن إدراكنا وحسّنا، فلا نتوصّل إلى معرفة شيء من ذلك إلاّ ما شاء الله أن يقدرنا عليه هو كما قال:

أ)- ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن:٢٦-٢٧).

ب)- ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ (البقرة:٢٥٥).

وفي مجال الغيب المطلق الذي لا يعلمه إلاّ الله يركّز القرآن على معرفة قيام الساعة، فلا يمكن للخلق -حتى من الملائكة- معرفة ذلك بدليل قول الرسول لجبريل ﷺ عندما سأله عن الساعة: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». وإن كان القرآن والسنّة قد ذكرا بعض علاماتها. وكلّ محاولة من الخلق لمعرفة ذلك إنما هي ضرب من اللّهو الفكري الذي لا يرجع بطائل.

﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾: يعني أنّ الناس أعيوا تفكيرهم منذ القدم في البحث عن شؤون الآخرة -وهي من عالم الغيب-، وتتابع الحديث عنها في كل الرسالات السّماوية، وفي الفلسفات الوضعية، فتكوّن من ذلك ركام عظيم من الآراء والنظريات فلم يظفروا بطائل، ومع ذلك يظلّ المفكرون في شكّ وحيرة من أمرها، بل يظلّ فريق من الناس عمي البصائر لا يهتدون ولا يؤمنون بها، فهم في ضلال بعيد كما قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ:٨).

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران:١٦).

إنكار المشركين البعث

أ)- النصّ:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ
﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ
مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ﴾: قال الخطيب في وجه تقديم المشار به هنا على خلاف ما ورد في سورة المؤمنون قال: "وقدّم هنا ﴿هَٰذَا﴾ المشار به إلى الإخراج؛ لأن المقصود بالذات هنا "الإخراج"، وفيه عنادهم واحتجاجهم، بخلاف سورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، آية: (٨٣)، فقدّم فيه ﴿نَحْنُ﴾ على الأصل لأنه تأكيد لـ ﴿نَا﴾، ولا مقتضى للعدول عنه، إذ المذكور فيها مجرّد إتباع أسلافهم"[١]. ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: ﴿إِنْ﴾: للنفي، كـ"ما"، أساطير: جمع أسطورة، وهي ما حكاه وسطّره الأقدمون من خرافات. ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: الضيق: حرج الصدر وانقباضه، فهو مصدر، ويجوز أن يكون وصفا مخففا من ضيّق. ﴿مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾: أي من مكرهم، وهو التدبير الخفيّ للإضرار بأحد. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾: الاستفهام للتهكم والتعريض، و﴿الْوَعْدُ﴾: أي ما أنذروا به من العذاب في الدنيا أو الوعد بالبعث. ﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾: ردف: تبعه بقرب، أي جاء بعده، ويقال: أردفته على ناقته، إذا أركبته خلفه، و﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾: كعذاب يوم بدر. ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: بين "تكنّ" و"يعلن" طباق، ﴿تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾: تخفي

١- أحمد بن يوسف الحلبي، [illegible]

تخفي. ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: الغائبة: كل ما هو غائب عن الناس، والتاء فيه ليست للتأنيث، بل هي للنقل من الوصفية إلى الاسمية. ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾: الكتاب: يعبّر به عن علم الله في اللوح المحفوظ.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾: قرأ نافع وأبو جعفر: ﴿إِذَا﴾ بهمزة واحدة هي همزة: ﴿إِذَا﴾ على تقدير همزة استفهام محذوفة للتخفيف من اجتماع همزتين أو بجعل: ﴿إِذَا﴾ ظرفا مقدما على عامله والمستفهم عنه: ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾. وقرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة بهمزتين في: ﴿أَإِذَا﴾ و﴿أَئِنَّا﴾ على اعتبار تكرير همزة الاستفهام الثانية إلا أن أبا عمرو خفف الثانية من الهمزتين في الموضعين وعاصما وحمزة حققاهما، وقرأ ابن عامر والكسائي: ﴿أَإِذَا﴾ بهمزتين و﴿إِنَّنَا﴾ بهمزة واحدة ويتوين اكتفاء بالهمزة الأولى للاستفهام. وكلها استعمال فصيح. ﴿فِي ضَيْقٍ﴾: قرأه الجمهور بفتح الضاد، وقرأه ابن كثير بالكسر.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن أثبت الله تعالى قدرته على بدء الخلق وإعادته بالأدلة القاطعة، وذكر جهل الكفار بالآخرة، وأن مسالك الهداية قد سدت أمامهم لأنهم عمي البصائر، أتبع هنا ما يقولون في شأن هذه القضية الإيمانية الحساسة، مما يدلّ على استمرار إنكارهم لها، ثم تسلية الرّسول مما يلاقيه من مكرهم، فقال جلّ من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ. لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

لقد تكرّرت في القرآن الكريم معالجة هذه القضية الإيمانية الحساسة، وكيف كان موقف الكفار منها من الإنكار والجحود، بل ومن التهكّم والسّخرية برسول الله ورميه من جرّاها بالجنون والافتراء على الله، وهم في ذلك لا يقيمون دليلا على

ما يعتقدون، ولا هم يستطيعون معارضة الأدلة والبراهين التي يحاجّون بها في هـذا الموضوع، وليس لهم إلا ما اعتادوه من تلك الأسئلة الإنكارية التعجبية مثل هـذه التي بين أيدينا من الآيتين الكريمتين، فقد ركّزوا في إنكارهم على شيئين:

أ)- على صيرورتهم ترابا بعد الموت هم وآباؤهم الأقـدمون، أي تحلّـل أجسامهم إلى ذرّات من تراب لا أثر للحياة فيها، وبتأكيد الاستفهام الإنكـاريّ التعجبي بالتكرار و"اللاّم" أنكروا إمكانية إعادتهم إلى الحياة مرة ثانية والخروج مـن قبورهم، وهم بهذا التصوّر الفاسد ماديّو النّظرة جاهلون بأسرار الحياة حتى في الخلق الأول مع اعتقادهم أن ذلك كان من فعل الخالق: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّـنْ خَلَقَهُـمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزّخرف:٨٧).

ب)- على بعض المعرفة التي كانت لهم ببعض فصول التّاريخ وبقايا بعـض الدّيانات القديمة كملّة إبراهيم، فقد امتدّ التّاريخ في عصوره المتعاقبة وفنيت الأجيال من آبائهم وأجدادهم، فما سمعوا بميت عاد إلى الحياة مرة ثانية، وما دعوى محمـد -إذن- بأمر البعث إلا ترديد لتلك الخرافات السّابقة وهم بهذا الإدّعاء قد لزّوا كلّ الأنبياء والرّسل في قرن واحد بالكذب والافتراء، عندما قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِـدْنَا هَـذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾.

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيّه وخطاب من لا يفهـم

فما حيلة رسول الله أمام ذلك الشّطط وذلك العناد، وكانت نفسه الشّريفة مثقلة بهموم قومه في تعنّتهم وعنادهم، وهو من جهة أخرى مشفق علـيهم مـن عذاب الله وإنفاذ سننه في خلقه، فإذا بالتّوجيـه الرّبّـاني يشـدّ أزره فيـأمره الله باستحاشة قلوبهم لتعتبر بما أصاب من قبلهم وكيف كانت عاقبة تكذيبهم لرسلهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وكم تكرّر في القرآن هذا الأمر الإلهي بالسّير في الأرض مع النّظر الـواعي

للاتعاظ والاعتبار مما حدث للطغاة المجرمين، كيف انتقم الله منهم بسبب إجرامهم، وكان لهم من القوة والجبروت ما ليس لمشركي مكة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الروم:٩).

وليت المشركين كانت مواقفهم سلبية أمام الدعوة الإسلامية ما كفوا مواقفهم الشخصية من الإعراض والإنكار، ولكنهم يقاومونها بكل الوسائل ليصدّوا الناس عنها بالمكر والأذى، فكان ذلك مبعث الحزن والضيق في نفس رسول الله، مما يحتاج معه إلى التثبيت والتسلية من مثل قوله تعالى في ما سبق:

أ)- ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:٣).

ب)- ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر:٨).

وهنا ينهاه الله تعالى عن مثل تلك الحالة النفسية من الحزن على كفر قومه والضيق من مكرهم فيقول: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، إنها الرّحمة التي وصفه الله بها، والإشفاق مما يعانيه المؤمنون من أصحابه، ولابدّ له من أداء مهمته في التبليغ مهما كلّفه ذلك من ثمن، وبعد ذلك ليس عليه من شيء في أمر الهداية والضلال للخلق.

والكفار لا يكفّون عن عنادهم إذ يتحدّون الله ورسوله بأن يأتيهم بالعذاب الذي توعّدهم به في سخرية واستهزاء وهم شاكّون في صدق رسول الله باستعمالهم لـ"أن" الشرطية في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

جاء التعبير بالوعد عوضا من الوعيد على اعتبار عدم إيمانهم بالبعث وما يقع فيه من الأهوال، جاء الجواب الإلهي بالأسلوب الحكيم أمر الرّسول بتوجيهه إليهم، وصدّرت الجملة بـ"عسى" التي هي للتحقيق في حق الله كما قال الإمام

الزّمخشري: "عسى، ولعل، وسوف، في وعد الملوك ووعيدهم يدلّ على صدق الأمر وجدّه، وما لا مجال للشّك بعده".(١)

قلت: ولله الحكمة البالغة في أسلوبه الحكيم في الرّدّ على هؤلاء المتعنتين، إذ اكتفى بذكر بعض العذاب مما يستعجلونه دون عذاب المحق والاستئصال، و"ردف" بمعنى صار قريبا منكم، وهو ما نالهم في بعض الغزوات، وأما يوم القيامة وأهوالها فهو من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وإن تأخير العذاب العاجل في الدّنيا والآجل في الأخرى إنما هو من رحمة الله وفضله على خلقه لعلهم يزدجرون، ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

فالله تعالى قادر على أن يعجّل بالانتقام، ولكن حكمته اقتضت إرخاء الحبل للناس ليهلك من هلك عن بيّنة، ويحيا من حيي عن بينة، فلو عجل الله نقمته على كفار قريش لما خرج منهم أمثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم كثير من قادة الإسلام وعظمائه من بعد. فالواجب هو شكر المنعم على فضله وإحسانه، وقليل من عباده الشّكور، وهو تعالى عليم بطبائع خلقه مما يسرّون وما يعلنون، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

تكرار التّوكيد في هذه الجملة مع الإضافة التّشريفية بخطاب رسول الله، واختيار صفة الرّبوبية للذات العلية استرعى انتباهي أن تكون من ورائه نكتة لطيفة، فلم أجد في التّفاسير ما يشفي الغليل إلا ما ذكره الإمام ابن عاشور في بيان موقع هذه الآية من التي قبلها فقال -رحمه الله-: "موقع هذا موقع الاستئناف البياني، لأن قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ يثير سؤالا في نفوس المؤمنين أن يقولوا: إن هؤلاء المكذبين قد أضمروا المكر وأعلنوا الاستهزاء، فحالهم لا يقتضي إمهالهم؟، فيجاب بأنّ الذي أمهلهم مطّلع على ما في صدورهم وما أعلنوه، وأنه

١- الزمخشري، الكشاف: ٥/١٠٣.

أمهلهم مع علمه بهم لحكمة يعلمها، وفيه إشارة إلى أنهم يكتمون أشياء للنبيّ وللمؤمنين، منها أنهم يتربصون بهم الدّوائر، وأنهم تخامر نفوسهم خواطر إخراجه وإخراج المؤمنين، وهذا الاستئناف لما كان ذا جهة من معنى وصف الله بإحاطة العلم عطفت جملته على وصف الله بالفضل".(١)

ثم يذيّل السّياق كلّه بهذه الحقيقة الجامعة الخاصة بالذّات العلية فيقول تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾، إذا كان علم الله محيطا بما نحن من خاصّة خلقه ونحن خلفاؤه في الأرض، فإن علمه تعالى بكل ذرّة وكل غائبة مما هو خاف عن النّاس في أقطار السّماوات والأرض في عالم الغيب، إنّ علمه تعالى شامل محيط بكل ذلك، وكونه في كتاب مبين، كما عبّر عنه في القرآن باللّوح المحفوظ إنما هو كناية عن التحقيق والوضوح، أما كيفية ذلك فهو من الأسرار الغيبية التي نفوّض فيها الأمر إلى الخالق المدبّر الحكيم، ونؤمن بأن كل ما أخبرنا به على ألسنة رسله هو الحق المبين، والله أعلم.

القرآن أعظم دليل على نبوءة محمد ﷺ

أ) – النص:

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٧٦) وَإِنَّهُ
لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨)
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن
يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٠/ ٢٨-٢٩.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: يقال: قصّ الأثر يقصّه قصًّا، بمعنى تبعه شيئا فشيئا، ويقال: قصّ عليه الخبر، بمعنى حدّثه به على وجهه، وفيه استعارة، تمثيل بما يتكلم به الإنسان الناطق. ﴿عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾: ممن كانوا موجودين في زمن التنزيل. و﴿يَخْتَلِفُونَ﴾: أي في ما بينهم، كل فريق يخالف الآخر، أو هو بمعنى يحرّفون الحق. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ﴾: ﴿يَقْضِي﴾: بمعنى يفصل بينهم. ﴿بِحُكْمِهِ﴾: بمعنى القضاء بالحق والعدل أو هو بمعنى يفصل بينهم بما تقتضيه الحكمة. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾: التوكّل، من توكّل عليه بمعنى أسند إليه الأمر في التدبير والتصرّف. ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾: أي على صراط الله المستقيم الواضح، وأنك جدير بنصر الله. ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾: شبّه الكفّار المعرضين عن الدعوة بالموتى وبالصمّ والعمي في عدم انتفاعهم بالإيمان، وتقييد الصمّ بالتولّي لتصوير إيغالهم في الصّمم. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: "إن" تفيد النفي، والإسماع هو إبلاغ الكلام إلى السامع. ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾: صيغة المضارع تفيد الحال والاستقبال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ﴾: قرأ الجمهور: ﴿تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ بالفوقية من: سمع، وبنصب: ﴿الصُّمَّ﴾ على المفعولية، وقرأ ابن كثير: ﴿يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾ بالتحتية ورفع ﴿الصُّمُّ﴾ على أنه فاعل. ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿بِهَادِي﴾ على صيغة اسم الفاعل، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَمَا أَنتَ تَهْدِي﴾ بتاء فوقية في موضع الموحّدة وبدون ألف بعد الهاء، والقراءتان مؤداهما واحد.

د)- البيان والتفسير:

بعد استكمال الأدلّة على كمال الله تعالى في قدرته وعظمته سيما في إعادة الخلق للبعث وبيان علمه الشامل المحيط بكل غائبة في السّماء والأرض، وأنه محفوظ في كتاب مبين، أعقب الله ذلك ببيان أن هذا القرآن الكريم هو من آثار علم الله ووحيه لرسوله محمد ﷺ إبطالا لما يدّعيه المشركون من أنه أساطير الأولين، ودليلا على صدق الرّسول الموحى به إليه، فقال جلّ من قائل: **﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾**.

جاء التنويه بشأن القرآن في مفتتح السّورة الكريمة بأنه هدى وبشرى للمؤمنين، وبعد حديث مطوّل عن قصص أعظم الرّسل لبني إسرائيل كموسى وداود وسليمان ذكر هنا أنّ أهل الكتاب على ما يتظاهرون به من المعرفة لتعاليم كتبهم وأصول حضارتهم فهم مختلفون في عرض ذلك على بعضهم بعض، بله عرضها على غيرهم، نظراً على كتبهم من التحريف والتشتت ومن التلاشي والضياع ما أوقعهم في اختلاف وصراع يلعن بعضهم بعضا ويتصادمون، حتى واجهوا أنبيائهم ورسلهم بالقتل، والله العليم بأحوالهم قد أنزل القول الفصل في شأنهم قرآنا على رسول الله يتلوه المسلمون حتى لا تنطلي عليهم مكايد أهل الكتاب، ولذلك نجد ذلك التركيز الكبير على ذكر أحوال بني إسرائيل وقصص بعض أنبيائهم ورسلهم بما هو دليل قاطع على صدق نبوءة محمد الرّسول النبي الأميّ الذي قال الله عنه بخصوص شأن أهل الكتاب: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾
(الأعراف: ١٥٦-١٥٧).

وقد تعرّض القرآن الكريم إلى كثير من قضايا الخلاف التي بين اليهود والنصارى من جهة كقضية عيسى بن مريم وأمّه مريم، ثم قضايا الخلاف التي كانت داخل كلّ طائفة، واكتفى القرآن في ذلك ببيان وجه الحقّ في تلك القضايا، تاركًا ما ليس فيه نفع للمسلمين، ولذلك جاء التعبير: بـ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ولا يزال ذلك الخلاف قائما حتى اليوم، وإن حاولت إسرائيل والكنيسة الكاثوليكية في "روما" رفع الإدانة عن اليهود في جريمة محاولة قتل عيسى عليه السلام وصلبه، وصدق الله العظيم في قوله:

أ)- ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:١٤).

ب)- ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر:١٤).

وهنا يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾، وكون القرآن هدى ورحمة للمؤمنين، وتأكيد ذلك بـ"إنّ" و"اللام" هي للدلالة على أن الهداية إلى طريق الرّشاد هي الخاصية المتازة للقرآن، فهي في متناول كلّ مخلوق، يتأثر به من آمن، ويعرض عنه من كفر، كما أنه رحمة لجميع العالمين، غير أنّ خصوصية تلك الرّحمة للمؤمنين تبدو في يسر الأحكام التشريعية، إن في مجال العقيدة أو الشّريعة، أو في مجال الأخلاق والآداب.

والتذييل بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ جاء مناسبا لحكم الله العادل في الفصل بين خلائقه فيما كانوا فيه يختلفون.

ثم قال تعالى تفريعا على ما سبق ومخاطبا رسوله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾، جاء هذا التفريع على ما سبق مناسبا لما تقتضيه الحالة النّفسية لرسول الله، وهو يواجه الإعراض والإعنات من قومه، ولم يكن مقصّرا في أداء مهمّته، فلما أعلمه ربّه بأنه يقضي بين خلائقه بحكمه العادل وأنه الغالب على أمره

والعليم بشؤون عباده، أمره أن يتوكّل عليه ويفوّض الأمر إليه في الفصل بينه وبين خصومه، ثم علّل الأمر بالتوكل عليه بقوله تعالى شاهدًا لرسوله بما يزيده ثقة واطمئنانًا بنصر الله فقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾. ومن عرف أنه على الحق المبين فلا يزداد أمام الشدائد إلا عزيمة وثباتًا لأنه يعلم أن الله ناصره، وهذه شهادة الله لهذا الدين الذي دعا إليه الرّسول بأنه كامل لا نقص فيه، وهي في معنى قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ولزيادة الاطمئنان في نفس الرّسول لنفي كلّ تقصير من جانبه في أداء مهمته التبليغية جاء الحديث عن المشركين بصفهم بما يستحقونه من الأوصاف الذّميمة في مواقفهم الضالة فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ، وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، وهذه هي العلة الثانية للأمر بالتوكّل، وليس في الإنسان من النقائص التي تحطّ من قيمته بأردى من هذه العاهات الثّلاث: الموت والصّمم والعمى، فقد تدرّج الوصف من الأعلى إلى الأدنى، ذلك لأن المشركين يتفاوتون في ضلالهم وصدودهم عن الحق.

أ)- فالمشبّهون بالموتى هم في أسفل دركة من الضّلال، قد استغرقوا إلى الأذقان في حمأة شهواتهم، واستغلقت أفهامهم فهم كالأموات لا يُرجى منهم نفع، وإن كانوا على قيد الحياة، كما يقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميتٍ … إنما الميتُ ميّتُ الأحياء

وكما قال آخر:

أقبل على النفس واستكمل فضائلها … فأنت بالرّوح لا بالجسم إنسان

ب)- المشبّهون بالصّمّ: وهم في حالة إدبار عن المتكلم وما أبلغ هذا الوصف في استكمال صورة الإعراض، لأن الأصمّ المتجه إليك ربما يفهم بعض ما

تقول بالحركة أو بالإشارة كما نفعل مع أصحاب هذه العاهة، فهؤلاء هم في الدرجة الثانية من الاستغلاق؛ لأن عاهة الصمم هي أشد استغلاقًا في مجال التعليم من عاهة العمى.

ج)- المشبّهون بالعمي: وهم في الدرجة الثالثة، ونلاحظ بلاغة القرآن في تغيير التعبير هنا عن النفين السابقين، إذ الأعمى يسمع كلام الله فربما يكون في ذلك مطمع لهدايته؛ لأن تدبّر القرآن لا يستغلق عن الأعمى كما يستغلق عن الأصمّ، ولذلك أمر الله رسوله بإجارة الكافر إذا استجاره، على عادة العرب في ذلك، وجعل الغاية من ذلك أن يسمع كلام الله حتّى يهتدي، والنفي ذلك المطمع جاء النفي هنا لهداية العمي مؤكدًا بالجملة الاسمية و"الباء"؛ لأن أمر الهداية إلى الله يُضلّ من يشاء ويهدي من يشاء.

ولبيان من هم أحق بالهداية قال تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾، في العبارة حصر بالنفي والاستثناء، والخطاب لرسول الله فهو التالي والمسمّع لآيات الله الدالة عليه، والناس أربعة:

أ)- ميؤوس منهم لا رجاء في إنقاذهم فهم كالموتى لا يستجيبون.

ب)- من فيهم استعداد للاستجابة فهم يؤمنون لما نتلوه عليهم من آيات الله والذّكر الحكيم، وقد تفتّحت قلوبهم وحواسّهم للتلقّي والانصياع لسابق علمي إسلامهم مخلصين في إيمانهم حتّى لقاء ربّهم على ذلك.

اللهم اجعلنا ممّن آمن بك فهديته، وتوكّل عليك فكفيته، وتضرّع إليك فرحمته، وسألك فأعطيته، اللهم اجعلنا هداة مهتدين لا ضالين ولا مضلّين، والله أعلم.

من أمارات القيامة ومقدّماتها

أ)- النص:

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا
بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (82) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
يُوزَعُونَ (83) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (84) وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (85) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (86) وَيَوْمَ
يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ
دَاخِرِينَ (87) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي
أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ
يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ (89) وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (90)

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾: وقع القول عليهم بمعنى تعرّضهم للأهوال والشّدائد التي وعدوا بها، والتّعبير بالماضي للدّلالة على قرب الوقوع، وأكثر استعمال مادة "وَقَعَ" في القرآن أنّها تجيء أغلبها في الشّدائد. ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾: الدّابّة اسم للكائن الذي يدبّ على الأرض من غير الإنسان، مشتق من: دبّ يدبّ دبيبا. ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: أي تخبرهم بحلول البعث والحشر. ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾: أي إن المشركين كانوا ينكرون قيام السّاعة؛ لأنّهم لا يصدّقون بآيات القرآن. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾:

الحشر هو الجمع، والفوج: الجماعة من الناس، يجمع على "أفواج"، وهو حشر خاصٌ للحساب. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾: أي يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم، بل يجمعون كالأسرى. ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ والتبكيت، والقائل هو الله أو يبلغ الملائكة إليهم قوله. و﴿أَمَّا﴾: مركبة من "أم" التي تفيد الإضراب. ﴿أَمَّاذَا﴾: استفهام واسم إشارة بمعنى اسم الموصول، والمشار إليه هو مضمون الجملة بعده: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: الاستفهام للتعجيب، والرؤية إما بصرية تكتفي بمفعول واحد، وإمّا قلبية فتكون جملة: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ تسدّ مسدّ المفعولين، وكون النهار مبصرا هو من قبيل المجاز العقلي، وفيه احتباك، والتقدير: جعلنا اللّيل مظلما ليسكنوا فيه والنّهار مبصرا ليسعوا فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾: تعليل. ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾: فزع: أي خاف خوفا شديدا، والاستثناء يفسّره قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾، وقيل: هم أشراف الملائكة: جبرائيل وإسرافيل وميكائيل وعزرائيل، وقيل: هم الشّهداء. ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: الكبّ: جعل ظاهر الشّيء إلى الأرض، وعُدّي إلى الوجوه دون سائر الجسد؛ لأنها الأشرف وأوّل ما يُقلب، وإلا فالكبّ يكون لجميع الجسد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّ النَّاسَ﴾: قرأ الجمهور بكسر همزة ﴿إِنَّ﴾، فتكون الجملة للتعليل، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي: ﴿أَنَّ﴾ بفتح الهمزة، والجملة أيضا للتعليل، بتقدير حرف جرّ، وهو باء السّببية. ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ﴾: قرأ الجمهور بصيغة اسم الفاعل من: أتى، وقرأ حمزة وحفص: ﴿أَتَوْهُ﴾ بصيغة الماضي، كقوله تعالى: ﴿فَفَزِعَ﴾. ﴿تَحْسَبُهَا﴾: قرأ الجمهور بكسر السّين، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم وأبو جعفر بفتح السّين، وهما وجهان صحيحان. ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب،

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بياء الغائبين، عائدا ضميره على: ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾. ﴿مِن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾: قرأ الجمهور بإضافة ﴿فزع﴾ إلى ﴿يوم﴾، من ﴿يومئذ﴾، وإضافة ﴿يوم﴾ إلى ﴿إذ﴾، فتحة ﴿يوم﴾ بناء على أنه اسم زمان أضيف إلى اسم غير متمكن، وقرأ عاصم وحمزة والكسائي بتنوين ﴿فزع﴾ و﴿يومئذ﴾ منصوبا على المفعول فيه متعلقا بـ﴿آمنون﴾.

د)- البيان والتّفسير:

تتوالى المناسبة بين النّصوص الأخيرة ويتناسق العرض، فبعد بيان الأدلّة على كمال قدرته تعالى في عالم الغيب والشّهادة مما تفرّع عليه وقوع البعث للحياة الثّانية، كما أخبر بذلك القرآن وهو المعجزة القاطعة لصدق نبوة محمد ﷺ، إذ جاء بالقول الفصل في ما اختلف فيه بنو إسرائيل، ثم تأتي هذه الجولة الأخيرة قبل ختام السّورة لتذكير المشركين المنكرين بما ينتظرهم من الوعيد بقيام القيامة ببيان مقدماتها، وما يقع عند قيامها، ويعرض مصير المحسنين وهم في أمن وسرور، ومصير المسيئين وهم مكبوتون في جهنم قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ﴾.

الجملة معطوفة على ما سبق، والضّمير في: ﴿عَلَيْهِم﴾ يرجع إلى ما ورد في الآية السّابقة من التشبيه للمشركين المكذبين بالموتى والصّمّ والعمي، ووقوع القول هو وعيد الله وحكمه بقيام السّاعة التي استبطأ المشركون وقوعها، وإن كان موعد ذلك لا يعلمه إلا الله، فإنّه تعالى ذكر في القرآن بعض العلامات التي تكون بين يدي قيامها كمقدمات لها، كما صحّ عن رسول الله ذكر بعض تلك العلامات، وقد تقدم خروج يأجوج ومأجوج في سورة الأنبياء، وهنا يعبّر الله بصيغة الماضي لتحقّق ذلك واقتراب موعده، ويذكر الله خروج الدّابة من الأرض تكلم النّاس، والدّابة اسم لكلّ ما يدبّ على الأرض من غير الإنسان، ولا شك أنّ ذلك من خوارق العادات، لأنّ فعل ﴿تكلّم النّاس﴾ يدلّ على النطق الفصيح المفهوم، وليس

هو من قبيل الأصوات المبهمة التي تصدر عن بعض الحيوانات والطيور، ولا يزيد النصّ عن أنّ هذه الدّابة تكلّم النّاس، وتوسّع الرّوايات في ذكر أوصافها شكلاً ولونًا وعددًا، وعن المكان الذي تخرج فيه، واللّغة التي تكلّم بها... إلخ.

وليس في كلّ ذلك دليل قاطع يؤخذ به، فهو من أمور الغيب التي نفوّض فيها الأمر إلى الله، غير أن إخراج تلك الدّابة وتكليمها النّاس هو دليل محسوس لمنكري البعث بقدرة الله على إحياء الموتى، وفيه إهانة لهم وتبكيت لأنّهم لم يسمعوا كلام الرّسل من البشر أمثالهم، فها هم يسمعون ممّن هو أدنى منهم، ولذلك جيء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾، أي الآيات الصّامتة في أرجاء الكون والنّاطقة وهي القرآن الكريم، ولا شك أنهم بعد خروج تلك الدّابة سوف يخضعون ويؤمنون، ولكن لا ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت إذ يغلق باب التوبة فيحق القلم بما هو كائن مصداقًا لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والأرجح أن تكون الجملة: ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تذييلاً من كلام الله، لا من جملة ما تكلّم به الدّابة كما ذهب إلى ذلك بعض المفسّرين.

ثم ينتقل العرض من مقدمات السّاعة إلى مشهد حشر الخلائق فيقول الله: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.**

﴿وَيَوْمَ﴾: عطف الله هنا المشهد على مقدمات السّاعة بخروج الدّابّة، ثم يقول بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾، ويذكر بعض أهوال قيامها، ويتخلّل ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾، فيبدو لنا عدم الترتيب للأحداث حسب وقوعها كما يفعل المؤرخون أو البشر بصفة عامّة، غير أن

أسلوب القرآن نسيج وحده في التنسيق وفق مضامين الآيات ودواعي التذكير والإرشاد.

فلما توجّه الوعيد في ذكر مقدّمات السّاعة إلى الطّغاة المنكرين للبعث انتقل المقام إلى ذكر حشرهم بصورة خاصّة من بين أقوامهم الذين كانوا تبعًا لهم في الضّلال والكفر، وهم على هيئة من الحشد والزّجر بهم ليقفوا سويًا للحساب فيقفون بين يدي الله فيوبّخهم بقوله: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالسّؤال: ﴿أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي﴾ هو للتبكيت والتوبيخ ليس لهم إلا الاعتراف بما صدر منهم من الكفر والضّلال دون تدبّر لآيات الله وإنما هو العناد والتحدّي، ثم يجيء السّؤال الثّاني للتأنيب والإدانة، بحيث لا ينتظر منهم جواب: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وبفكّك: ﴿أَمَّا﴾ إلى "أم" المنقطعة، التي هي بمعنى الإضراب، ثم "ما" الاستفهامية، تكتسب هذه الجملة روعتها بأسلوب الخطاب وبصيغتها الاستفهامية، والمعنى: ما هذا الذي شغلكم عن تدبير آيات القرآن والنظر فيها غير الصّدود والتكذيب؟، وبذلك تنسدّ أبواب الاعتذار أمامهم ولم يبق لهم إلا الوجوم والصّمت: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

أي حقّت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم، فيا للهول للإنسان النّاطق الذي يخرسه العذاب في ذلك اليوم، بينما تنطق فيه الدّابة العجماء لتذكّر النّاس بآيات الله، إنه التقابل البديع في أسلوب القرآن، وها هو ذا في خلال تلك المشاهد المروّعة ينتقل بأولئك الطّغاة المنكرين إلى التذكير بمشهد مألوف لهم في الدّنيا يدلّ على قدرة الخالق بما وفّر لهم من نعمة الوجود وأسباب الرّاحة والهناء في حياتهم الأولى فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

السّؤال للتعجب من أمر هؤلاء كيف لا يتأمّلون قدرة الخالق في تقليب اللّيل والنّهار وآثار ذلك على حياتهم هدوءاً وسكونًا في اللّيل، وسعيًا ونشاطًا في

النّهار بنظام دقيق لا يتخلّف، وما النّوم إلاّ موت موقّت يحتكم الله بعده على ضوء النّهار للسّعي والارتزاق، فالتّأمل الواعي لذلك يدعو إلى الإيمان لمن وفّقه الله في عالم الشّهادة.

ينتقل السّياق في إيجاز بليغ إلى مشهد مريع من عالم الغيب لقيام السّاعة فيقول: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ، وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

ينتقل السّياق من ذكر مقدمات السّاعة إلى ذكر أول وقائعها، ويكون الإعلان المفزع على ذلك بنفخ الصّور، والجملة معطوفة على جملة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾، فهي تذكير بأهوال يوم القيامة التي قال الله عنها: ﴿لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾ (الأعراف:١٨٧)، وموعدها محدود عند الله لا يعلمه إلا هو، وتذكر الآيات أنّ الإعلان عنه يكون بالنّفخ في الصّور، وهو بوق عظيم له دويّ مسموع لكلّ الخلائق، وتذكر الأحاديث الصّحيحة أن النّافخ هو إسرافيل عليه السلام، أمّا كيفية ذلك ومادة الصّور وشكله فعلمها عند الله، غير أن عدد النّفخات فهو اثنان كما صرحت بذلك آيات الزّمر وآيات يس، وقد تقدم الحديث عنهما: نفخة الصّعق، ونفخة البعث. أما نفخة الفزع المذكورة هنا فقد اختلف فيها المفسّرون: أهي نفخة ثالثة؟، وإذا كانت فمتى تقع؟، يقول القطب رحمه الله: "ويقال: يُلقى الفزع على الخلق حتى يموتوا، ويقال: ينفخ إسرافيل في الصّور نفخة الفزع، ونفخة الصّعق أي الموت، ونفخة القيام لربّ العالمين". سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ﴾: فقال: «هم شهداء الله عزّ وجل» من رواية أبي هريرة[1]، قال ابن عباس: الشّهداء أحياء عند ربهم لا يصلهم الفزع، وقيل: جبريل، وميكائيل،

١- رواه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٠٠٠، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه: ٢/٢٧٧.

وإسرافيل، وعزرائيل، لا يبقى بعد النفخة إلا هؤلاء الأربعة"[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، أي صاغرين أذلاّء منقادين لله، إذ سلبت عنهم الحرّية والاختيار، فليس لهم تحكّم حتى على جوارحهم وحواسّهم كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس:٦٥). وعند نفخة الفزع يضطرب النظام الكوني كما فصّل الله مشاهده المرّوعة في كثير من الآيات، وقال في شأن الأرض: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ (إبراهيم:٤٨).

وأعظم خلق نراه على اليابسة هي الجبال، وقد امتن الله علينا أن جعلها رواسي للأرض كالأوتاد حتى لا تميد بنا، ثمّ إنّه تعالى قد تفنّن في وصفها كيف يعتريها الفناء عند قيام السّاعة فشبّهها تارة بالعهن المنفوش، وتارة بالكثيب المهيل، وعبّر عن تدميرها بالنسف وبالتسيير... إلخ، مما يرجّح -والله أعلم- أن هذه الآية الكريمة تندرج هي الأخرى في ذلك الإطار الوصفي لمشاهد القيامة للتذكير بأهوال ذلك اليوم العظيم، كيف يسيّر الله تلك الجبال الضّخمة كما يسيّر السّحاب، وكلّ ذلك من بديع صنع الله.

وهناك من المفسّرين الجدد من تمسك بهذه الآية من قوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فقال: هي إشارة إلى بديع صنع الله في الدّنيا بجعل الأرض تدور بكلّ ما عليها حول نفسها وحول الشّمس بسرعة فائقة فلا نحسّ معها بحركات الجبال. وقال: الدّليل على ذلك قوله: ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾، والظّن لا يكون إلاّ في الدّنيا بحسب أفهامنا القاصرة، وأمور الآخرة كلها يقينية، وليس في الآية ما يعارض هذا الاحتمال إذا ما أخذناها خارجة عن السّياق، ثم إن إتقان الصّنع عند الله شامل لعالمي الغيب، والشّهادة فلا تعارض.

ويجيء التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ للتحذير من اعتقاد

- احمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٣٨٢- ٣٨٣.

المكذبين أنهم يغفلون من حساب الله ومجازاتهم بما يستحقون، على الكيفية العادلة التي فصّلها بقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ، وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

يكون الناس المبعوثون ليوم الحشر على فريقين:

أ)- أبرار آمنون: والباء في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ للمصاحبة، أي جاء ربّه في ذلك الموقف بالحسنات؛ لأنّ "أل" في الحسنة والسيئة للجنس، والحسنة هي الفعل الموافق لمطلوب عبادة الله، وضدّها السّيئة، وقد ثبت من نصوص القرآن أن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة، فقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي في مضاعفة الأجر، أو هو خير من الحسنة التي جاء بها، وحسبهم من فضل الله عليهم ما يكونون عليه من أمن وطمأنينة في ذلك الفزع العظيم.

ب)- الكفار الغارقون في السّيئات: فليس إلاّ ما ينتظرهم من شقاء وعذاب وهم مكبوبون على وجوههم في نار جهنم، وهي من أبشع صور العذاب إهانة وذلة، تلك الوجوه التي أعرضت عن آيات ربّها في الدّنيا، هي ذي تذوق عذاب الخزي في الأخرى جزاء أعمالها الخسيسة، وهم يجزون عنها الجزاء الأوفى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١١٧)، والله أعلم

الرّسول قدوة في دعوته، والنّاس مُوكلون إلى أنفسهم

أ)- النصّ:

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ
وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾: ﴿الْبَلْدَةِ﴾ هي مكة المكرمة، شرفها الله بإضافة: ﴿رَبَّ﴾ إليها، وهذه الصفة تحمل معنى الرّعاية والحفظ وقد جعلها الله حرما آمنا، لا يقتل فيها إنسان ولا يصاد صيدها، ولا يختلى خلاها، وذلك تشريف لأهل مكة. ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾: أي أنه تعالى خالق كل شيء ومالكه في السّماوات والأرض، فهو يختار من خلقه ما يشاء. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: والإسلام هو الخضوع لله والطّاعة والانقياد لأحكامه. ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾: أي أقرأه لنفسي أو على النّاس. ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾: أي من جملة رسل الله الذين ليس عليهم إلا التّبليغ، وخصّ بالذّكر مهمة الإنذار لأنه أنسب بجوّ السّورة. ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾: "السّين" تدل على المستقبل غير البعيد، وإراءة الله آياته للناس أي الدّالة على قدرته، والتي تدفعهم إلى الإيمان ولكن في وقت لا ينفعهم ذلك، كالآيات التي تأتي بين يدي السّاعة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بتاء الخطاب، فيكون ذلك من تمام ما أمر الرّسول أن يبلغه للمشركين. وقرأه الباقون: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياء الغيبة، فهو عطف على: ﴿قُلْ﴾، والمقصود به تسلية الرّسول ﷺ.

د)- البيان والتّفسير:

لقد تعرضت سورة النمل إلى بيان أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الله

والإيمان باليوم الآخر، وبيّنت مطاعن المشركين في نبوة رسول الله منوّهة بشأن القرآن العظيم في البدء والختام، كما ردّت على شبهاتهم بمختلف الأدلّة، التي تثبت رسول الله في دعوته، وها هي في الختام تلخّص منهج تلك الدّعوة، وقد قام الرّسول بتبليغها، وبقيت المسؤولية على المكلّفين في الاستجابة لها أو تركها؛ لأن فائدة الاستجابة أو مضرّة الإعراض تقع على المدعوّين، فليس على الدّاعي إلاّ البلاغ، وأنه تعالى مُظهر آياته للناس فيعرفونها حين لا ينفعهم ذلك فقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

صدّرت الجملة بأداة الحصر "إنّما" وهي تتضمن معنى الإجابة لأولئك الجاحدين الذين كانوا يستعجلون وعيد الله، ناكرين للبعث والحشر، وندرك من ذكر فعل "قل" بعدها أن التقدير هنا يكون هكذا: قل إنما أمرت، فقد أمر الله رسوله بثلاثة أمور تندرج كلها في منهج دعوته:

ا- ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾: الإشارة إلى مكة المكرمة، وجعلها حرما آمنا للتعظيم، وقد تكرّر الامتنان على قريش بأنهم مشرّفون بالبيت الحرام في بلدهم، وهم أهل سدنته والقائمون على حجّاجه، والمستفيدون من الخيرات التي تجيء إليه، مثل قوله تعالى:

أ- ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ (قريش:٣-٤).

ب)- ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ (القصص:٥٧).

ج)- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت:٦٧).

فأهل مكّة الذين تحدّوا رسول الله باعتقادهم استحالة البعث وتعجيلهم بوعيده أراد الله أن يطأطئ من كبريائهم فأمر رسوله أن يعلن أمامهم بأن لا ينتظروا منه ما يطلبون، وأنّ الذي شرّفهم بالبلد الحرام وهو الذي ميّزهم بذلك الفضل، بمقتضى الرّبوبية التي يتّصف بها، هو الذي يأمرني بأن أشتغل بعبادته بعدما أدّيت مهمّتي التبليغية، فإذا كنتم تتشرّفون بكونكم أهل هذه البلدة المحرّمة، فاعبدوا ربّها، فأنا أوّل العابدين له إذ دعوتكم لعبادته، وملكه لا يقتصر على هذا البلد، بل له كلّ شيء مما في السّماوات والأرض، وأنتم تقرّون له بذلك.

ب)- ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: يقال: أسلم وجهه لله بمعنى خضع وانقاد، فالمسلم هو من أعطى كلّ قوته وكلّ ما يملكه لله، بمعنى تسخيره لكلّ ذلك في مرضاة الله، على معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣). فالإسلام هو الدّين الذي دعا إليه جميع رسل الله من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، وكلّهم جاؤوا بدعوة عباد الله إلى التوحيد وإسلام الوجه لله وحده لا شريك له.

ج)- ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾: وتلاوة القرآن بمعنى قراءته على النّاس فهي وسيلة رسول الله في التبليغ، وإن كان قد يتلوه لخاصّة نفسه تلذذا واستمتاعا لكلام ربّ العالمين، فللقرآن سلطان على النفوس المؤمنة فهو ملاك الدّعوة ومنافذها إلى القلوب والأرواح، وما شخص الرّسول إلا تجسيد لقيمه ومبادئه كما قالت أمّنا عائشة: «**كان خلقه القرآن**»، أمره الله بتبليغه، وما عليه بعد ذلك أن يؤمنوا به أو لا يؤمنوا.

ولذلك فرّع الله على تلاوته ما يكون عليه النّاس إزاء هديه فقال: ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾، فالرّسول يترك النّاس أحرارا إزاء دعوته، فمن وفّقه الله إلى الاهتداء بهدي القرآن فإن فائدة ذلك

لقد تعرضت سورة النمل إلى بيان أصول العقيدة الإسلامية من توحيد

تعود إليه نورا ورحمة وشفاء، ومن أعرض وتنكّر حسدا أو طغيانا، فإنّ مهمّتي أن أنذره وأبيّن له سوء عاقبته، وليس عليّ أن أحمله على ما يكره، وما أنا إلاّ واحد من الرّسل المنذرين لأقوامهم، وتلك نعمة عليّ من الله تستوجب منّي الشكر والحمد لله، إذ أمره ربه بذلك وهو قدوة المؤمنين فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

الحمد لله كما أثنى على نفسه، وهي الجملة الشاملة لكلّ المحامد، وذلك ما يناسب ختام هذه السّورة الكريمة، بكلّ ما اشتملت عليه من القصص المسلّية لرسول الله، ومن الأدلّة المبثّة في صفحة الكون، والتي أراد الله إظهار بعض أسرارها لخلقه، وسيكشف عن المزيد مما يزدادون به معرفة بقدرة الله، وعلمه المحيط.

ثم تختم السّورة بهذا التحذير لمن لا يزال شاكًا متردّدًا بأنّه تعالى شهيد على كلّ شيء، وسيأتي يوم الحساب والجزاء، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون.

والله أعلم

تمت

لقد تعرضت سورة النمل إلى بيان أصول العقيدة الإسلامية من توحيد الله

سورة القصص، مكيّة، وآياتها ٨٨

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بسورة القصص لورود قوله تعالى فيها على لسان موسى عليه السلام: ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ (٢٥)، أي على العبد الصّالح في مدين، وقد سمّى الله في السّورة بتفصيل قصة موسى من ميلاده إلى اصطفائه بالرّسالة، كما بيّن قصّة قارون بطغيانه المالي، وكيف كانت عاقبة طغيان الجاه والسّلطة المتمثل في فرعون وجنوده وغرقهم في اليمّ، وعاقبة الطّغيان المالي بخسف الأرض على قارون بداره وماله، والسّورة مكية في كل آياتها ما عدا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (٨٥)، قيل: نزلت على رسول الله في الجحفة، وهو مهاجر إلى المدينة تسلية له لمفارقة البلد، ووعدا من الله بالعودة إليه منتصرا فاتحا.

وهي في ترتيب نزول السّور في المرتبة التاسعة والأربعين بعد نزول سورة النمل، وهي الثامنة والعشرون في ترتيب سور المصحف الشّريف، وعدد آياتها ثمان وثمانون آية.

ونجد التناسب كبيرا بينها وبين سورة النمل، وذلك من عدّة أوجه:

أ)- التشابه في البدء والختام للسورتين، إذ افتتحت كل منهما بالتنويه بشأن القرآن، وفي نوعية الحروف المقطّعة في أوائلهما، وفي الختام بيان مصير الأبرار الذين جاؤوا بالحسنة ومصير من جاء بالسّيئة.

ب)- فصّلت سورة القصص ما أوجزته سورة النمل من قصّة موسى، بدءا من ميلاده إلى خروجه من مصر، ثم عودته إليها من مدين، وقد اصطفاه الله بالرّسالة في طريق عودته.

ج)- تعرضت السورتان لموقف المشركين من قضية البعث والحشر ليوم الحساب وتوبيخهم على إنكارهم وتكذيبهم، والإخبار بإهلاك أمثالهم.

د)- إيراد الأدلة لإثبات قدرة الله على الخلق والإيجاد وعلى البعث ليوم المعاد.

ب)- بعض محاور السورة:

المحور العامّ الذي تدور عليه السّورة هو في شأن تركيز العقيدة كغيرها من السّور المكية، سيما في بيان قوة الله وقدرته إذ قهر كل الطغاة المتجبرين من أمثال فرعون وقارون، وكيف يمنّ على المستضعفين في الأرض فيمكّن لهم وينصرهم على أعدائهم، كما ورد في مفتتح السّورة كتمهيد لقصة موسى مع فرعون.

ب)- التركيز على قصّتي فرعون وقارون في حوالي ثلثي السّورة كمثلين مع بيان عاقبتهما المشؤومة كمثلين لسلطان الله وقدرته وكيف ينتقم من الظالمين.

ج)- تحدّي المشركين ببيان إخبار النّبيّ بقصص الماضين، وهو الأمّيّ الذي لم يقرأ ولم يكتب ولا خالط أهل الكتاب، ثم تحذيرهم من سوء عاقبتهم إن هم تمادوا على التكذيب والإعراض.

د)- بيان أن اختيار الرّسل هو من خصوصية الله، وأنّ الله لا يعذّب أمّة حتى يقيم عليها الحجّة بإرسال رسول إليها.

هـ)- سَوْق بعض الأدلّة الكونية لبيان قدرة الله ووحدانيته.

وتختم السّورة بمشهد من مشاهد القيامة، وأنّ العالم كلّه إلى هلاك وفناء، وأنّ الدّوام والبقاء لله وحده، وكلّ الخلائق راجعة إليه للحساب والجزاء، ويتخلّل كلّ ذلك تمكين المسلمين من أعدائهم وعودة الرّسول إلى مكة منتصرا.

من عدل الله نصرة المستضعفين

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ
ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ
عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ
نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾: الإشارة بالبعيد لعلوّ شأن القرآن، وهو المقصود بالكتاب المبين، أي الواضح المبين للحق. ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾: التلاوة هي القراءة لنصّ مكتوب أو محفوظ، وهو يتعدّى بـ"على"، وعبّر عن المتلو بالنبأ للدّلالة على أهميته وشأنه. و﴿مِن﴾: تبعيضية، لأن ما ذكر في السّورة هو شطر من القصة. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾: والعلوّ هنا بمعنى التجبّر والاستكبار، ﴿وَجَعَلَ﴾: بمعنى صيّر، يتعدّى إلى مفعولين، و﴿شِيَعًا﴾: جمع شيعة: الجماعة التي تشيّع وتتابع غيرها فيما يريده. ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ﴾: أي يقتل فرعون الذّكور من أطفال بني إسرائيل ويبقي على حياة الإناث منهم ليستغلهن. ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: المنّ: هو الإنعام والتفضل بالرعاية والإنقاذ لبني إسرائيل من جبروت فرعون. ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ، وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿أَئِمَّةً﴾: جمع إمام، أي يكونون

أئمة للهدى، كما قال تعالى في شأنهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ (الأنبياء:٧٣)، ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾: أي لملك فرعون، ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي تثبيت سلطانهم في الأرض التي يرثونها وهي مصر والشام. ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: ﴿هَامَانَ﴾: هو الوزير الأكبر لفرعون، الإراءة بصرية و﴿نُرِيَ﴾ يتعدى إلى مفعولين، لتعديته بالهمزة، واختيار صيغة المضارع لشيء مضى هو لاستحضاره كأنه يقع في الحال، وجملة: ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: للمفعول الثاني، وما كانوا يحذرونه هو زوال ملكهم على يد رجل من بني إسرائيل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿طسم﴾: سكت أبو جعفر سكتة لطيفة بغير تنفس على: طاء وسين وميم. ﴿وَنُرِيَ﴾: قرأ الجمهور بنون العظمة، ونصب الفعل ونصب: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وما عطف عليه. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿وَيَرَى﴾ بياء الغائب مفتوحة وفتح الراء على أنه مضارع: "رأى"، ورفع "فرعون" وما عطف عليه، ومعنى القراءتين واحد.

د)- البيان والتفسير:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿طسم، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

افتتحت السُّور الكريمة بثلاثة أحرف مقطّعة، وهي طاء، سين، ميم، كما افتتحت بها سورة الشعراء، وتقتصر سورة النمل على حرفين منها وهي الطّاء والسّين، والقول في بيان حكمة ذلك -والله أعلم- هو كما بيّناه في ما سبق، وغالبا ما تعقبها الإشادة بشأن القرآن الكريم كما جاءت الإشارة بعدها هنا

بـ"تلك" التي تدلّ على البعيد للدّلالة على علوّ شأن القرآن في مبناه ومعناه وقد تحدّى الله به البلغاء والفصحاء -سيما عرب مكّة- فعجزوا أن يأتوا بمثله، وآيات الكتاب المشار إليها هي القرآن كلّه، أو هي آيات هذه السّورة بالذّات، وهي جزء منه يوضّح حقائق الدّين ويكشف أحكامه بما ينفع النّاس في معاشهم ومعادهم.

﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: مهّد الله لقصة موسى وفرعون هذه المقدمة الشيّقة لجذب الاهتمام بتتبّع تفاصيلها، والخطاب فيها لرسول الله، ومن خلاله لكلّ مستمع للقرآن مؤمن به، واختير فعل: "التلاوة" المسند إلى نون العظمة، لما في التلاوة من معنى هو أعمّ من القراءة؛ لأنه يفيد التتبّع بدقّة واهتمام لما في المبنى والمعنى، واختيار صيغة المضارع للدّلالة على ما كان في حاضر التنزيل مع ملاحظة الدّوام والاستمرار، والنبأ هو الخبر العظيم و"من" للتبعيض؛ لأن ما قصّه الله في هذه السّورة هو شطر من قصّة موسى بكاملها. وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، لأنّه قصص حقّ لا يتطرّق إليه شكّ، ولأنه مطابق للواقع الذي يخبر به الحكيم العليم، وتخصيص المؤمنين في الانتفاع به لأنّ لهم الاستعداد الرّوحاني للتلقّي والاستماع إليه بمقتضى إيمانهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: يبتدئ البيان التفصيلي لنبأ موسى وفرعون برسم الوضع المأفون الذي أصبح عليه فرعون بالتسلط والتجبّر على رعيّته، فهو الطّاغية الجبّار الذي لم يكتف بعلوّه على الخلائق فتطاول على مقام الخالق حين ادّعى الرّبوبية والألوهية. والمقصود بـ"الأرض" هو أرض مصر، والتي كانت تمتد إلى أعالي النّيل من السّودان المصري، وقد جعل من تدفّق مياه النّيل دعائم ملكه حين تباهى بذلك على موسى فقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزخرف:٥١).

و"فرعون" لقب للعائلة المالكة في مصر، وقيل: هو الملك الثالث ع، ملك

العائلة التاسعة عشرة، هذا الذي ولد موسى في عهده، فتسلّط وتجبّر حتى صار مضرب المثل للبطش والقهر، فيقال لكلّ طاغية: هو فرعون زمانه، وقد عدّد الله مظاهر بطشه وجبروته ليكون في ذلك عبرة لمن هو على شاكلته من الطّغاة الجبابرة وكيف يداول الله الأيّام بين النّاس فينتقم من الظّالمين وينصف المظلومين، وأول إجراء يتّخذه الجبابرة في كلّ زمان ومكان هو اتّباعهم لسياسة "فرّق تسد" بين رعاياهم، وأيّا كانت الفوارق التي يجعلها للتمييز بين النّاس فإنّ الأمّة أو المجتمع لا تقوم لها قائمة للبناء والتّعمير ولا للأمن والاستقرار، إذا تفرّقت طوائف تتصارع ويكيد بعضها لبعض، وقد يكون فرعون هو الذي سنّ تلك السّياسة الظّالمة، إذ قرّب إليه قومه الأقباط، واتّخذ منهم حاشيته وجنده، بينما استذلّ بني إسرائيل وهم نزلاء أرض مصر من عهد يوسف ﷺ، وكانوا يحافظون على معتقدهم في الإله الواحد على ما وقعوا فيه من انحراف، ولا يتبعون وثنية فرعون وقومه، ولذلك طبّق عليهم فرعون سياسة الاستضعاف، أي إبقائهم ضعفاء أذلّاء، واتّخذ وسيلته لذلك بـ:

أ)- ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾: أي يقوم بالتصفية الجسدية للأولاد الذّكور من بني إسرائيل، قيل: لأنّ أحد الكهّان قال له: "إنّ ذهاب ملكك سيكون على يد غلام من بني إسرائيل"، وقد جاء التّعبير في آيات أخرى بالقتل.

ب)- ﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ﴾: أي يبقي المواليد الإناث على قيد الحياة، لاستغلالهن خادمات في البيوت، وهنّ لا يملكن القوّة التي تهدّد سلطته.

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾: تعليل للسياسة الظّالمة التي اتّبعها فرعون، للدّلالة على تمكّن الفساد في طبعه، وأيّة مفسدة هي أشدّ من زرع الفتنة بين الطّوائف ونشر الرّعب والخوف في المجتمعات البشرية، ولكنّ الله يمهل ولا يهمل وإرادته تعالى لا تحابي أحدا من خلقه، فلا بد -إذن- من الفساد أن يتقلّص ظلّه،

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

هكذا تتواجه الإرادتان: إرادة الله في قوّتها وقهرها وحكمتها، وإرادة فرعون في غرورها وزهوها وفي غباءها وتهوّرها، والله في قوّته وقهره لا يظلم ولا يقبل الظّلم من أحد من خلقه، ولكن الظّلم من شيم النفوس عند البشر، فكيف تفصل العدالة الإلهية بين الظّالم والمظلوم؟، يقول المتنبّي:

والظّلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفّة فلِعلّة لا يظلم

فإذا كانت العلة في قبول الظّلم عند المظلوم هي الضّعف والذّلة، كما هو شأن بني إسرائيل، فإنّه تعالى قادر على قلب الموازين بما يمنّ به على المستضعفين من أسباب تجعلهم ينفضون غبار الظّلم عنهم فيسعون لاسترداد حقّهم السّليب، لأنّ الإنسان مهما قهرته الظّروف فإنّ له من طبعه الميل إلى الإنعتاق والحرية. ومن إرادة الله تتحقّق إرادته، والله غيور على أوليائه فهو لا يقف عند رفع الظّلم عنهم فحسب ولكنّه يزيدهم من منّه وفضله بما يحبونه مما خصّصه هنا بالذّكر من أمور أربعة:

أ)- ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾: بأن نخرجهم من ذلّ العبودية والقهر فيصبحون أحرارا في مجتمعهم، حتى يكونوا مثالا يحتذى بهم في أمور الدّين والقيم والأخلاق وفي أمور السّياسة والعمران.

ب)- ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾: على قاعدة: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (الأعراف:١٢٨)، أي يرث بنو إسرائيل أرض من ملكهم فيصبحون أسيادا عليهم، ولقد توسّعت مملكة سليمان كما تقدم، حتى شملت أرض الشّام والعراق ومصر...إلخ.

ج)- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: أي نثبت سلطتهم ونوطد أركان دولتهم فلا ينال منها عدوّ.

د)- ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾: وهامان هو أبرز وزراء فرعون، تطاول مثله بما له من حظوة عند الملك، والضمير في: ﴿مِنْهُم﴾ للمستضعفين، وجملة: ﴿مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ لبيان المرئي المحذور منه من طرف فرعون وهامان وجنودهما، وهو زوال ملكهم وهلاكهم على يد موسى من بني إسرائيل، والإراءة بصرية لأنهم عايشوها، وقد حقق الله وعده وأكمل منته.

وهكذا تمّ بهذه المقدمة الشيقة تنسيق المسرح الذي تستعرض فيه مشاهد قصة موسى عليه السلام حية نابضة مثيرة، والله أعلم.

نشأة موسى في قصر فرعون، وطمأنة أمّه

أ)- النص:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ
لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ
فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ
وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ
حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: الوحي هنا بمعنى الإلهام لها من الله، أو هو رؤيا منامية صادقة. و﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾: جملة تفسيرية: لـ﴿أَوْحَيْنَا﴾. ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾: أي في نهر النيل، وكان يشق مدينة فرعون. ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾: الخوف من توقع مكروه في المستقبل، والحزن: غمٌّ نفسيٌّ ينشأ من مكروه حصل. ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾: الالتقاط: تناول الشيء الملقى في الأرض من غير طلب له ولا إرادة والمقصود "بآل فرعون أعوانه، وقيل: هي إحدى النساء الحافات بآسية فرعون، كانت مع أترابها حين ألقت الأمواج تابوت موسى إلى شاطئ النهر حيث يقفن. ﴿لِيَكُونَ﴾: هذه اللام تسمّى بـلام العاقبة أو لام الصيرورة. ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾، وقرة العين كناية عن منتهى السّرور بالدّمعة الباردة، وضدّها سخنة العين بالدّمعة الحارة عند الحزن. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾: ﴿أَصْبَحَ﴾: بمعنى صار الفؤاد بمعنى العقل، والفراغ مجازي، كناية عن شدّة خوفها وإشفاقها على ولدها، وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (إبراهيم:٤٣)، أي خالية من العقل. ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: الرّبط على القلب بالصّبر استعارة بمعنى توثيقه وتثبيته، وجواب: ﴿لَوْلَا﴾ هو قوله: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾. ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾: القصّ هو إتباع الأثر، والمراد مراقبة تابوت موسى بعد التقاطه. و﴿عَن جُنُبٍ﴾: بمعنى أبصرت به من مكان بعيد جانبي. ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾: أي امتنع الوليد أن يرضع من مرضعات غير أمّه. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾: أي أدلكم على من يتعهدون بإرضاعه وتدبير شؤونه والاستفهام للعرض. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾: لأن الوليد لم يقبل أن يرضع سواها فرجعت بوليدها كما وعدها الله، وأكثر الناس لا يعلمون بذلك التدبير الإلهي الحكيم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَحَزَنًا﴾: قرأه الجمهور بفتح الحاء والزاي، وقرأه حمزة والكسائي وخلف بضمّ الحاء وسكون الزاي، وهما لغتان. ﴿خَاطِئِينَ﴾: قرأه الجمهور بإثبات الهمزة، وقرأه أبو جعفر: ﴿خَاطِينَ﴾ بدون همزة، وكذلك قرأها حمزة في الوقف.

د)- البيان والتّفسير:

لقد كانت لعناية الله ورعايته لرسوليه الكريمين موسى ومحمد، كان لها شديد الشّبه في توفير جوّ الأمن والحفظ لهما في بيئة قاسية غاض فيها معين الرّحمة، وكان ذلك من جملة ما منّ به على المستضعفين، فقال تعالى في شأن الرّسولين:

- قال لمحمد ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور:٤٨).

- وقال في شأن موسى ﷺ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طـه:٣٩).

فقد ولد موسى ﷺ في مصر، وفرعون في أوج عزّته وجبروته، والقتل مستحرّ في المواليد الذّكور من بني إسرائيل، ولكن:

رعاية الله أغنت عن مضاعفة من الدّروع وعن عال من الأطم

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم، فالمخاطر كلهن أمان

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾:

بعد أن ذكر الله منّه على المستضعفين في الأرض، وكان بنو إسرائيل على أرض مصر من جملتهم، أخذ يبيّن في هذه الآية المشهد الأول من حياة منقذهم ورسولهم موسى ﷺ، فقد أبصر نور الحياة وليدا في حضن أمّه وهي خائفة من

انكشاف أمرها لعيون فرعون، وشفرة الذّبح في أيديهم، وهم يريدون أمرا ويريد الله غير ذلك، فإذا بالعناية الإلهية تلقي في روع الأمّ المشفقة على وليدها، بطريق الإلهام أو بوسيلة الرّؤيا الصّادقة، وهما من معاني الوحي التي ورد ذكرها في القرآن كقوله تعالى:

أ- ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ (المائدة:١١١).

ب)- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (النحل:٦٨).

ثم بيّن الله مضمون ذلك الإيحاء بقوله: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فيا لروعة هذا المضمون في مبناه ومعناه، إنه يشتمل على أمرين ونهيين وبشارتين، ويا للمفارقة بين الأمرين: الأمر بإرضاع الوليد، وهو المهمّة الطّبيعية للأمّ لا تجد أيّ عناء في تحمّلها، ولكن ذلك لا يتأتّى لها إلاّ في حالة الأمن على وليدها، فإذا خافت عليه فإن إلقاءه في اليمّ هو وسيلة نجاته من القتل، واقتصر الشّرط على مطلق الخوف على الوليد من أي شيء يضرّه، ثم يجيء جواب الشّرط مفجعا لقلب الأمّ لأنه في الواقع عند النّاس هو الهلاك المحقّق للوليد، ولكنّه عند الله حفظ وأمان للوليد، ومكر وانتقام للظّالمين، ولكي تطمئن الأمّ على وليدها نهاها الله عن الخوف والحزن، إذ تتوقّع أن يصاب وليدها بمكروه وتحزن على فراقه، ولزيادة تطمينها أردف الله لها بشارتين: إرجاع الوليد إليها لتكون هي مرضعته، وذلك في عاجل أمره، وأن يصطفيه رسولا إلى فرعون وإلى قومه في الآجل.

ومن شأن هاتين البشارتين أن تزيلا كلّ أثر للخوف والحزن من قلب الأمّ، فكيف توالت تدابير الله في رعاية الوليد، وتابوته على أمواج النيل، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾.

"الفاء" للترتيب مع التعقيب، فقد طوى النصّ هنا ما بيّنه في سورة "طه" من وضع الوليد في التابوت وإلقاء الموج به على الساحل إذ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ، إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ، أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ (طـه:٣٧-٣٩).

فالالتقاط: هو تناول الشيء الملقى على الأرض بدون طلب له، ومنه اللّقطة واللّقيط، وآل فرعون هم أهله، تختلف الرّوايات في تعيينهم، والمهمّ أن يكونوا متواجدين في القصر، إنّه التدبير الحكيم من العليّ القدير، هؤلاء الجبابرة الذين ذبحوا المواليد من ذكور بني إسرائيل ورصدوا العيون على الحبالى يلتقطون بأيديهم من يصير لهم العدوّ المرتقب وليكون سببا لحزنهم على زوال ملكهم فيكونون كمن أصابه بدائه، وبذلك يظهر خطأ التقدير وخطأ التصرّف عند هؤلاء الطّغاة من فرعون وهامان وجنودهما من الحاشية والأعوان.

وبذلك يتمّ المشهد الأول من قصّة موسى بكلّ ما فيه من ألطاف ربّانية لتربيته ورعايته، ثما بيّنه الله في المشهد الثاني، إذ قال: **﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾**.

ها هو ذا موسى بعناية الله يتقلب بين يدي آل فرعون وهم يحارون في أمره ويقترحون على فرعون أن يقتله لشكهم أنّه من بني إسرائيل، فتتدخل القدرة الإلهية لتدى القلوب القاسية بالمحبّة للوليد والله يقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ (طـه:٣٩). فقد أصبح الوليد محبوبا لدى كلّ من شاهده، سيما لدى القلب الحاني لامرأة فرعون إذ جعلها الله سببا لنجاة الوليد، عندما روّضت قلب زوجها لاستبقائه حيّا بأن اعتبرته قرّة عين لها وله، وفي هذا التعبير العربي منتهى السّرور والفرح، أي بمعنى القرّ بالدّمعة الباردة، وتسمى امرأة فرعون: "آسية"، وهي مرضيّ عنها من الله بنصّ القرآن في سورة التحريم.

وقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ تخاطب به جماعة فرعون الذين حاولوا قتله في أول

الأمر، وللزوجة ضغط ودلال على زوجها مهما يكن طاغية جبّارا، سيما وآسية لم تلد من فرعون ولدا ذكرا يكون وليّ عهده في ملكه، ولذلك أردفت على شدة سرورها بالولد فقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾، فجعلت علّة إبقائه حيّا ما يرجى منه من نفع في خدمتهما وأن يكون لهم كالولد، ولكن اختيار فعل الرّجاء: ﴿عَسَىٰٓ﴾ يجعلهم لا يشعرون بمصير ذلك الولد معهم بأن يصير عدوّا لهم.

تلك كانت عناية الله بالوليد وقد اخترق أسوار قصر فرعون، كما اخترقت محبته شغاف قلب امرأته بتدبير الله وقدرته؟ فكيف كانت وضعية الأمّ الولهى وقد ألقت بفلذة كبدها في أمواج اليمّ؟.

قال تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

"أصبح" بمعنى صار فارغا، وهو فراغ مجازي، مما يدلّ أنه كان قبل ذلك ممتلئا، ويبقى السّؤال، فرغ الفؤاد من ماذا؟، والتعبير بالفؤاد للدّلالة على معنى العقل الذي يتحكّم في حركات الجسد، ولتحديد متعلق الفراغ اختلف المفسّرون:

أ)- فنظر البعض إلى إيمان أمّ موسى وتصديقها بوعد الله ورباطة جأشها في ذلك الموقف العصيب وهي تنفّذ أمر الله بإلقاء وليدها في اليمّ ولا تعلم مصيره، فيصير معنى الجملة بأن أصبح فؤادها فارغا من أيّ حزن أو أسف على وليدها لأنّ الله ربط على قبلها فهي واثقة بوعده.

ب)- والاحتمال الثّاني: -وهو الأرجح عند أغلب المفسّرين- هو أن فراغ قلبها كان من الصّبر ومن العقل حتى كادت تغفل عن وعد الله بما خامرها الشّيطان به من الوساوس والشكوك ومن تأنيب الضّمير، سيما عندما علمت بأن أعوان فرعون قد حملوا التابوت إلى القصر حتى كادت تصيح وتعلن أنها أمّ الوليد لولا أن تداركها الله بالصّبر واليقين فعاودها إيمانها وثقتها بوعد الله، وليس ذلك يقف أمام الدعوات الصالحة [illegible]

بمستغرب من أمّ في مثل ذلك الموقف العصيب، فما كان منها إلاّ أن تتلمّس أخبار طفلها بواسطة أخته إذ أمرتها: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

سارعت الأخت في تنفيذ أمر أمّها بتتبّع أثره والتقاط أخباره بعناية وحذر إذ أخذت تراقبه عن بُعد، وهي تعلم بوجوده في بيت فرعون، وهم لا يفطنون بتلك المراقبة، بله أن يعرفوا أنها أخت الوليد.

ثم تتابعت عناية الله له في توفير أسباب العودة إلى أمّه فقال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

والتحريم هنا ليس بمعناه الشّرعي، ولكنه بالمعنى التكويني بأمر الله، فامتنع الرّضيع عن أثداء المراضع من غير أمّه، وكان ذلك سببا للبحث عن مرضع يقبل ثديها، وهو من قبل قد ألف ثدي أمّه قبل إلقائه في اليمّ، وكانت الأخت تتابع حيرتهم في أمر أخيها الرّضيع فعرضت عليهم مرضعة تكفله وتحافظ عليه وتنصح له في تربيته، قال ابن عباس: "فلما شكّوا في أمرها سألوها من أين تعرف نصحهم له وشفقتهم عليه هو لرغبتهم في سرور الملك ورجاء منفعته؟".

وبتمّ وعد الله بعودة الولد إلى أمّه: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الرّبط بالفاء يدلّ على تتابع الأحداث بسرعة وترتيب، وقد طوى النّصّ ما تذكره الرّوايات مما كان بين آسية وأمّ موسى من الإحسان إليها وطلبها الإقامة معها لتجزل لها العطاء وتنفق عليها في القصر وهي لا تعرف أنها أمّه، ولكن الأم اعتذرت بأنّ لها أولادا آخرين تقوم عليهم فطلبت من آسية أن تذهب بالوليد إلى بيتها إذ رضي بثديها، وهكذا قرّت عينها باحتضان ولدها، وقد تلاشى الحزن

والخوف عن قلبها، وفي اختيار نون العظمة في قوله: ﴿رددناه﴾ إيحاء بقدرة الله وهو المسخّر لتلك الأسباب التي سخّرها لتحقيق وعده، وقد تيقّنت الأمّ أن ذلك حقّ لا ريب فيه بما تمّ بالفعل كما تيقّنت بالوعد المستقبلي من الله، بأن يجعله رسولا في قومه، غير أن أكثر الناس لا يعلمون تلك الحقائق لضعف إيمانهم.

والله أعلم.

من قصة موسى: قتله للمصريّ وخروجه من مصر

أ) – النص:

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ
ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا
مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ
عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ
نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ
أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ
بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى
هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن
تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ
يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ
مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾: بلوغ الأشدّ: والأشدّ القوة، بمعنى بلوغه كمال القوّة، وأمّا الاستواء: هو بلوغ العقل مرحلة النّضج، وذلك في حدود الأربعين سنة. ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أي النبوة والمعرفة. ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾: ﴿الْمَدِينَةَ﴾: قيل: هي "منفيس"، قاعدة مصر الشّمالية، وحين الغفلة: هو وقت القيلولة لاستراحة النّاس، وخلوّ الطّرق منهم. ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾: الشّيعة: الحزب والجماعة المنتمية إلى أحد، والعدوّ: أي من يخالفه في الدّين، أي من جماعة القبط. ﴿فَاسْتَغَاثَهُ﴾: أي طلب الغوث والنصرة. ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: الوكز: الضّرب باليد بجمع الأصابع. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾: بمعنى قتله، وفعل موسى ذلك خطأً. ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾: أي قال موسى في نفسه مؤنبا إياها ومعلّلا عمله بأنه من تزيين الشّيطان. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾: بما أنعمت عليّ: "الباء" سببية، "وما" موصولة، ويجوز أن تكون "ما" مصدرية، والمقصود بالإنعام هو ما أوتيه من الحكمة والعلم، أو ما حصل عليه من الجاه والعزّ، ومظاهرة المجرمين: إعانتهم ونصرهم كصحبة فرعون، أو الحميّة العصبية التي أدت به إلى القتل. ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: أي ينتظر ما يناله من القصاص. ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾: أي طلب نفس الإسرائيلي الذي استعان بموسى أمس أن يعينه على قبطيّ آخر. و﴿إِذَا﴾: للمفاجأة. ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾: الغويّ: الشّديد الغواية. ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾: الرّجل: قيل هو المؤمن من آل فرعون، ﴿مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾: أي من أبعد جهاتها، ﴿يَسْعَىٰ﴾: أي يمشي مسرعا، ويبدو أن الرّجل جاء من قصر فرعون إذ عرف ما يبيّتون لموسى من جرّاء حادثة القتل، وقد انتشر خبرها في المدينة.

13

ج)- البيان والتفسير:

قبل أن تتلاحق أحداث قصّة موسى وفق واقعها التاريخيّ -وليس ذلك شرط في القصص القرآني- تأتي هذه الآية معترضة بين أجزاء القصة فيقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، تأتي هنا استكمالا لوعد الله المتقدم في قوله لأمّ موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ لأن إيتاءه الحكم والعلم كان عند عودته من مدين من بعد أن قضى فيه عشر سنوات، واستكمل قواه الحسية والعقلية، اللّهم إلا إذا فسّرنا إيتاءه من الله الحكم والعلم بالرّشد والتوفيق في نشأته بقصر فرعون، وقد رجّح بعض المفسرين هذا القول، ليستقيم مع التعقيب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، أي بمثل ذلك الذي فعلنا بموسى وأمّه نجزي المحسنين، والنبوءة هي هبة من الله لمن يختاره من عباده، وليست جزاء على الإحسان.

ثم يقول تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

جاء العطف لهذا المشهد من قصّة موسى بعد أحداث الإرضاع والتكفل به من أمّه، وقد نشأ موسى وترعرع في قصر فرعون الذي يقع على أطراف المدينة على عادة الملوك في اختيار مواقع لقصورهم بعيدة عن ضوضاء المدينة، فهناك أحداث سكت عنها النصّ، وهي ما وقع له ما بين فترة إرضاعه وفطامه وفترة شبابه واكتمال قوته، فكيف تربّى في قصر فرعون، وكيف كانت علاقته بما في خارج القصر، إلاّ أنّ الحادثة التي تناولها هذا النصّ تدلّ على أنّه قد عرف، أنّه من بني إسرائيل، وكيف صنعه الله على عينيه، بدون التعرّف بوسيلة ذلك وكيفيّته.

ويبدأ النصّ هنا بكيفية دخوله إلى المدينة، والمفهوم أنّها العاصمة، فقيل: إنها "منفيس"، وقيل: إنها عين شمس، ولكن لماذا توخّى موسى الدّخول إليها في حين غفلة من أهلها، وهو على الأرجح وقت القيلولة؟. لم يبيّن الله سبب ذلك، ولكن يفهم من هذا السّلوك الحذر أنّ موسى لم يطب مقامه في قصر فرعون، وأنّ شخصيته الإسرائيلية قد تبلورت، فأنكر على مربّيه ما كان يمارسه من الظّلم والتّعسّف في بني قومه الإسرائيليين، وربما أخذ في الانسحاب من القصر شيئا فشيئا ليحتك ببني قومه ويبعث في صفوفهم النّخوة والعزة، والمهمّ أنّه دخل المدينة مستخفيا، وساق الله إليه تلك الحادثة التي تؤيّد ما قلناه من الواقع الذي أصبح عليه موسى، يقول تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾.

إذن، كان على دراية تامّة من واقع المجتمع الفرعوني يعرف فيه عدوّه من صديقه، فما إن دخل المدينة حتى وجد رجلين يتصارعان، وتبيّن طائفة كلّ منهما، بكون أحدهما إسرائيلي والآخر قبطيّ قيل: إنّه طبّاخ فرعون أو خبّازه، ولم تدفعه النّخوة القومية للدّفاع عن الإسرائيلي حتى استغاث به على خصمه القبطيّ، فما كان من موسى الشّابّ القويّ إلاّ أن استجاب لعاطفة الحميّة القومية، إذ ضرب القبطيّ بجمع يده ضربة أودت بحياته -وما كان يقصد قتله-، ولذلك أدركه النّدم على ما فعل واعتبر ذلك من إغواء الشّيطان اللّعين عدوّ الإنسان الأول. والعدوّ من شأنه الإضلال والشّرّ والفساد، ثم استطرد موسى متوجّها إلى ربّه وقد شعر بظلم نفسه مثلما شعر آدم وزوجه بخطيئتهما بوسوسة الشّيطان فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

كانت دعوة مستجابة بدلالة فاء التعقيب: ﴿فَغَفَرَ لَهُ﴾، وقد شعر موسى بطمأنينة قلبه، إذ تيقّن أنّ الله تعالى قد غفر له، وأنّه لم يكن يقصد القتل حين تدخّل بين الرّجلين، وتلك هي العلاقة الحميمة التي تكون بين الله وأوليائه،

فيشعرون بالاستجابة من الله فور دعائهم، فما بالك بموسى الكليم والله تعالى يعدّ لرسالته؟.

وها هو ذا يجيش وجدانه بالشكر لله ويقطع العهد على أن لا يظاهر أي مجرم فيقول: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، لقد شعر موسى بفيوض نعم الله عليه، إن بما حباه من حفظ ورعاية وجاه في قصر فرعون، أو بما آتاه من العلم والحكمة، فقد قطع العهد على نفسه أمام ربّه أن لا يعين أيّ مجرم، سواء من هو على مستوى فرعون في جبروته أو من هو دونه من أشياعه وأتباعه. وتبدو شخصية موسى من خلال هذا التعهّد الوفيّ لربّه، تبدو شخصيته بتوجّهاتها الدّينية قبل أن يصطفيه الله بالرّسالة، فهو في ذلك الجوّ المفعوم بالظّلم والباطل قد استبان طريق الحقّ والهدى وتعهّد أن يلتزم به، ولكن الخطر بالانتقام منه يواجهه في المدينة فلا بدّ من الحذر.

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ، فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

لقد ذاع في المدينة خبر قتل القبطيّ، وكان من الطّبيعي أن يتوجّس القاتل خيفة من النّاس، ولو تيقّن بمغفرة ربّه، ولا بدّ أن يكون وجود موسى في المدينة مع الفعلة التي فعلها يكون وجودا عاديًا من عامّة النّاس، وقد قطع كلّ صلة بالقصر الفرعوني، ولهذا كان في حالة نفسية منفعلة من خشية انفضاح أمره، فإذا بالقدر يضعه أمام امتحان آخر شبيه بما وقع له بالأمس، إذ استصرخ به ذلك الإسرائيليّ -مرة أخرى- يطلب منه النّصرة على قبطيّ آخر، ولكن موسى لم تبارح ذاكرته حادثة الأمس ولا خاس بالعهد الذي قطعه على نفسه فقال لصاحبه الإسرائيليّ: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، وصفه بالغواية والتّحريش بإثارة الفتن الجانبية، وما حيلة

موسى أمام ذلك التحرش المهين وهو يرى الظّلم المتكرر على بني قومه، ونظرا لشخصيته الانفعالية حاول مرة أخرى أن يبطش بالقبطيّ كما فعل بالأول غير أن هذا بادره بقوله مستنكرا: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾.

لقد أدركت عناية الله موسى فامتلك غضبه وعلم من قول القبطيّ أن قصة قتله للقبطيّ الأول قد ذاع خبرها، وأنّ السّلطات الفرعونية ممسكة به -لا محالة- فيزداد خوفا وترقبا بالانتقام، سيما وأن القبطيّ قد أضفى عليه تلك الأوصاف من الجبروت والفساد في الأرض -وذلك بالطّبع من الوجهة السّياسية-، أي بنظرة الحاكم وأشياعه إلى كلّ متمرّد عن حكمه بأنّه إرهابيّ مفسد. وإذ بلغ الخبر قصر فرعون فكيف توالت رعاية الله لموسى؟، ذلك ما نبيّنه في المشهد اللاحق.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ، فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

لم يسمّ النصّ الرّجل ولم يصفه، فقيل: إنه رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه كما ورد ذكره في سورة "غافر"، جاء من أقصى المدينة، أي حيث يوجد قصر فرعون، جاء مسرعا لينصح موسى بالخروج من المدينة، ويبلّغ له ما يدبّره ملأ فرعون من إيقاع السّوء به بتدبير قتله، وقد اعتبروا ما فعله بقتل القبطيّ بادرة تمرّد وثورة بدأ موسى بتحريض قومه لها، فأعجب لعناية الله البالغة بعبده موسى كيف انتدبت للإشفاق عليه مثل ذلك الرّجل الذي قيل عنه إنه كان ابن عمّ لفرعون والمثل الشّعبيّ يقول: "حيثما يكون عدوّك يوجد صديق لك". ولم يكن لموسى بدّ من الخروج من تلك المدينة وهو في حالة خوف وترقّب، ويجد الملجأ الأمين في كنف ربّه، يلتجئ إليه ويدعوه أن ينجّيه من القوم الظّالمين: من فرعون وملئه، كما قال تعالى ممتنّا عليه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ (طه: ٤٠)، والله أعلم.

من قصة موسى عليه السلام: توجّهه إلى مدين وزواجه

أ)- النصّ:

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ
مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ
فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ
قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ
نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ
فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾: ﴿تَوَجَّهَ﴾ بمعنى ولّى وجهه. و﴿تِلْقَاءَ﴾: ظرف مكان منصوب على الظّرفية وهو بمعنى: "تجاه". ﴿مَدْيَنَ﴾: هي مدينة قوم مدين بن إبراهيم، وهي على مسيرة ثمانية أيام من مصر في شمال الحجاز على الشاطئ الغربيّ من البحر الأحمر. ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: بمعنى الطّريق الأقوم الذي لا التواء فيه، وهي بالمعنى المجازي، طريق الدّين السّويّ. ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾: الورود معناه الوصول، و﴿مَآءَ مَدْيَنَ﴾: هو البئر التي تسقي القوم، وتعرف بها ديارهم. ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾:

﴿مِن دُونِهِمُ﴾: يعني في مكان تحتي غير المكان الذي حول الماء. ﴿تَذُودَانِ﴾: والذود: طرد الأنعام عن الماء حتى يخفّ الزحام. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾: أي ما شأنكما في هذا الانتظار. ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾: الورد والورود: هو الذهاب إلى الماء، والصَّدر والصُّدور: هو الخروج منه، وفي الحكمة: لا تقرب الورد حتى تعرف الصَّدَر. والرِّعاء: هم السُّقاة. ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾: التقدير: إني فقير لما أنزلت إليّ من خير. ﴿لِمَا﴾: موصولة، والتنكير في لفظ: ﴿خَيْرٍ﴾ ليتناول كلّ أنواعه مما فيه النفع الدنيوي والأخروي، سواء ما تحقق منه في الماضي أو ما يكون في المستقبل. ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾: أي جاءت تمشي مشية المستحي شأن المرأة الحرة العفيفة. ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾: الأجر أو الجزاء المكافأة على عمل حسن أو على شيء حسن، والأجر: التعويض على عمل نافع للمعوَّض. ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾: التاء في: ﴿يَا أَبَتِ﴾ هي عوض عن ياء المتكلم في النداء. ﴿اسْتَأْجِرْهُ﴾: اتخذه أجيرا لرعي الأغنام. ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾: والإجارة تعاقد على عمل معيّن في وقت معيّن وهو هنا ثماني سنوات. ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾: يعني خيّره في زيادة سنتين، إن أراد أن يتمّها بدون أجر. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾: يعني لا أشترط عليك ذلك دفعا لأي مشقة في معاملتك. ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: أي إن ذلك هو ما تعاقدنا عليه، ولي الخيار في الأجلين بدون إلزام.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُصْدِرَ﴾: قرأ الجمهور بضمّ الياء وكسر الدال، وقرأه ابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر: ﴿يَصْدُرَ﴾ بفتح حرف المضارعة وضمّ الدال، على إسناد الصَّدَر إلى الرِّعاء. ﴿يَا أَبَتِ﴾: التاء في ﴿يَا أَبَتِ﴾ عوض عن ياء المتكلم في النداء خاصّة فيجوز كسرها، وبه قرأ الجمهور، ويجوز فتحها، وبه قرأ ابن عامر وأبو جعفر.

د)- البيان والتفسير:

ينتقل النصّ الكريم إلى المشهد الرّابع من قصّة موسى ﷺ بعد أن خرج من المدينة خائفا يترقّب آخذا بنصيحة الرّجل المؤمن، متضرعا إلى ربّه طالبا أن ينجيه من القوم الظّالمين، وقد ألهمه الله أن يتّجه صوب مدين، وكونه خرج خائفا يترقب يدلّ على أنّه كان مطاردا من فرعون وجنوده، فما كان يقدّر مسافة تلك الرّحلة، ولا تأهّب لها بما تتطلبه من الزّاد والماء.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

لم يكن موسى عند خروجه يقصد مدين بالذّات، وبالتالي فقد تشعّبت عليه السّبل، ولذلك اتجه إلى ربّه أن يدلّه على الطّريق الأقوم، ثم هو لا يزال مرصودا من عدوّه، فاستجاب الله دعوته إذ اتجه صوب مدين، قيل: إنه سلك الطّريق الوسط، بينما سلك جنوده جنبات الطّريق وراءه، ظنّا منه أنّ موسى يختار المسالك غير المعروفة، وهكذا أصبح هائما على وجهه بدون راحلة ولا زاد، إلا الزّاد الرّوحي بالثّقة الكاملة في ربّه، يسدّد توجّهه ويطوي له البعاد.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

لقد انتهى موسى إلى وجهته في أرض مدين -وهي على مسافة ثمانية أيام من مصر-، وإضافة "ماء" إلى "مدين" جارية على مألوف العرب في اتّخاذ آبار تنسب إلى أصحابها وتقع قريبا من مضاربهم وتجمعاتهم السّكنية لشرابهم وسقي مواشيهم، وورود الماء بمعنى الوصول إليه، فإذا بموسى أمام مشهد لا ترتاح إليه

نفسه الشهمة الأبيّة، وقد انتهى إلى ذلك الماء مجهودًا مكدودًا من وعثاء الطّريق طاوي البطن لا يسدّ رمقه إلاّ بأوراق الشجر، ليجد الرّعاة الرّجال يتزاحمون على البئر لسقي مواشيهم، وكان الجوّ حارًّا، بينما هناك امرأتان تنفردان بأغنامهما وتمنعانهما من الشرب تنتظران انحسار الرّجال عن البئر، يا له من مشهد لا يروق لذوي الشهامة والمروءة!، فما كان من موسى إلاّ أن سأل عن شأنهما، فكان منهما تلك الإجابة التي حرّكت في نفسه الشهامة والنخوة: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

فيا له من استعطاف مثير، إذ علّلتا خروجهما للقيام بتلك المهمّة الشاقة بكون أبيهما شيخًا كبيرًا، فهي الضّرورة الملحّة التي تدفع المرأة أحيانًا للقيام ببعض الأعمال كرعي الأغنام وسقيها، ولا يجد أولياؤها غضاضة في ذلك، كما هي العادة في الأرياف والبوادي، والإسلام لا يمنع ذلك ما دامت المرأة مصونة محفوظة، بادر موسى بالسّقي للمرأتين، وهو الفتى المكدود، والغريب بين قوم لا يظاهرونه في ما يفعله، ولكنّه استطاع بقوّة شخصيته أن يزاحمهم في السّقي ليتابعا المرأتان خلال سبيلهما، وترجعا لأبيهما قبل المعتاد من ورودهما وصدورهما بفضل ذلك الرّجل الغريب، وقد تولّى إلى الظّل بعد إسداء المعروف للمرأتين، ضارعًا إلى الله كعادته، يستغيثه ويشكو له حاجته إلى ما يقيم أوده من طعام، مهما كان نوعه أو كميّته، ومن الغريب مثله في ذلك المكان غير الالتجاء إلى الله مسبّب الأسباب ومجيب الدّعوات.

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾:

إنّها استجابة الفرج تعقب ذلك الدّعاء الضّارع من موسى لربّه، فقد عرف الشيخ الكبير من كان السّبب في عودة ابنته من السّقي في وقت غير اعتيادي،

إذن، فلا بدّ من إكرام ذلك الرّجل الحسن الشّهم، إنّه موسى متفيّئًا الظّلّ يرقب الفرج والانتهاء إلى الملاذ الأمين، فها هي إحدى المرأتين تمحه صوبه في مشية الاستحياء يقتضيها التّصوّن والعفاف عند لقاء رجل بامرأة أجنبية عنه، وبدون خضوع بالقول ولا إغراء، فقدّمت إلى موسى دعوة أبيها الشّيخ لمكافأته على ما قدّم من معروف لابنتيه، ويطوي النّصّ ما تمّ من حوار بين موسى والفتاة، وكيف كان مسعيهما إلى مثوى الشّيخ، مما أفاض فيه الرّواة.

وينتقل المشهد إلى اللّقاء الحميم بين موسى والشّيخ وما جرى بينهما من حديث حول الظّروف القاسية التي عرفها موسى مع فرعون، وكيف كانت مسيرته إلى مدين، فبادر الشّيخ الكبير بطمأنة موسى فنهاه عن الخوف؛ لأنّه أصبح في مأمن من بطش فرعون، إذ لا تمتدّ سلطته إلى مدين، ووصفه لفرعون وقومه بالظّلم تصديق وتأييد لموسى على تجاوز محنته، فقد أصبح ينعم بالأمن والاستقرار، في بيت عائلة شيخ كبير، ولا مساعد له على مورد رزقه إلاّ ابنتاه تعانيان من رعي الغنم وسقيها، وبينهما شاب قويّ أمين وغريب فقير رأت فيه الفتاتان خير من يُستأجر لذلك العمل المرهق حتى تخلصا بعملهما الطّبيعي في البيت، فلم تتردّد إحدى البنتين عن تقديم المقترح لأبيها لاستئجاره: **﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ. قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾**.

فمن هو يا ترى هذا الشّيخ الحكيم الذي خطب لابنته على غير ما تجري به العادة عند النّاس؟، ذهب كثير من المفسّرين أنّه شعيب النّبي ﷺ، وقال آخرون بأنه كاهن لمدين، قال الإمام ابن عاشور: "واسم المرأتين "ليا" و "صفّورة". وفي سفر الخروج أنّ أباهما كاهن مدين، وسمّاه في ذلك السّفر أول مرّة "رعوئيل"، ثم

أعاد الكلام عنه فسمّاه: "أترون"، وسمّاه بحميّ موسى، والمسمّى واحد".[١]

قلت: لقد قرأت تعليلا معقولا لسيّد قطب في ظلاله يرجّح به أنّه ليس هو بشعيب النّبي، وخلاصة تعليله أنّ شعيبًا شهد مهلك قومه، و لم يبق معه إلاّ المؤمنون به، فلا يمكن لهؤلاء المؤمنين أن يسقوا قبل ابنتي نبيّهم الشّيخ الكبير، إذ ليس ذلك بسلوك قوم مؤمنين، ثم لو كان هو شعيبًا النّبيّ لسمعنا صوت النّبوّة في شيء من هذا مع موسى، وقد عاش معه عشر سنوات.

أيًا كان الشّخص، فهو يبدو من خلال النصّ أنّه قد حنّكته الشّيخوخة، إذ لم يتردّد في تلبية رغبة البنت، التي لم يحدّد النصّ أهي الدّاعية عند الظّل لدعوة موسى، أم هي الأخرى؟، وإن كان وصفها له بالقوّة والأمانة يوحي بأنها التي ذهبت إليه لما يمكن للطبيعة الأنثوية أن تثير من الميل العاطفي نحو ذلك الشّاب الغريب الذي يمتاز بالقوّة والأمانة. وندرك حنكة الأب وحزمه في ذلك الموقف الحسّاس وهو يحتضن في بيته شابا فاره القوّة يتردّد على ابنتيه في كلّ وقت، فلا بدّ -إذن- من علاقة شرعية بينه وبين إحداهما حتى يزيل عنه الحرج، فليكن هو الزّواج الشّرعي بكلّ ما يتطلبه من مهر وشهود وقبول ورضى، وتقول الرّواية أنها الصّغرى.

اقترح الشيخ أن يكون مهر ابنته إجارة موسى عنده لرعي أغنامه لمدة ثماني سنوات، ثم خيّره في زيادة سنتين إن شاء أكملهما دونما إعنات ولا إلزام، ثم عاهده على حسن المعاملة ولطافة المعشر، وهو في ذلك مستند إلى مشيئة الله وإرادته.

وتأتي إجابة موسى واضحة في أدقّ بيان وأكمله مما يُشترط في التعاقد، فالمهر محدّد بنوعية العمل ومدّته لثماني سنوات هي الشّرط الملزم، أمّا التكملة فله الخيار فيها دونما عدوان ولا قهر على الأجير. وروى عن ابن عباس قال: "قضى

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٠/ ١٠١.

أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل"[1]، كما تقتضيه سماحة النبوة.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: أي شاهد وحفيظ لما تعاقدنا عليه، لابدّ من الوفاء به، وإلا فسيؤاخذنا إن أخللنا بإحدى الشروط.

وشاءت حكمة الله أن يصبح موسى عليه السلام راعيا للأغنام بعد أن قضى شطرا من عمره في بحبوحة نعيم القصر، ومرّ بما مرّ به من الخوف والمطاردة، ثم ما ينتهي إليه في أرض مدين من الأمن والاستقرار في كنف الزوجية السعيدة، وبين الصلاح والتقوى، إعدادا له لشرف النبوة والرسالة، ومجابهة أعتى طاغية على وجه الأرض، كما سيأتي في المشهد اللاحق.

وفي الأحكام المستنبطة من النصّ يقول القطب -رحمه الله-: "وتلك التوسعة بين الأجلين لا تعدّ جهالة لأنها على الثمان، وإن شاء أتمّ العشر، كما أنه لا يضرّ الإجمال في ﴿إِحْدَى ابْنَتَيَّ﴾؛ لأنه بيّن بعد ذلك واحدة وميّزها، وجرى عليها العقد، ولا يضرّ عدم بيان زمان ابتداء الرّعي، فإنّ العقدة إذا لم تؤجّل كانت على الحلول، فهو يبتدئه عقب العقدة، وهذا مما لا تختلف فيه الشرائع، ثم إنه دخل عليها بعد العقدة، ولم يؤخّر إلى تمام الأجل كما قيل، ومذهب الشافعية والحنفية جواز أن يصدقها بالرّعي، ولمالك الإجازة والكراهة والمنع".[2]

والله أعلم.

- رواه البخاري من حديث سعيد بن جبير، كتاب (٥٦) الشهادات، باب (٢٨) من أمر بإنجاز الوعد، رقم ٢٥٣٨.

- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١٠/٤٢٠.

من قصة موسى عليه السلام: عودته إلى مصر ونبوءته

أ)– النص:

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ
مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي
جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ
بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾: أتم المدة المتفق عليها في الإجارة وهي عشر سنين. ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾: ﴿آنَسَ﴾: أي أبصرها من بعيد، أو أحسّ به إذا كان مما يسمع. ﴿مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾: أي من الجهة الموالية لجبل الطّور في صحراء سيناء. ﴿لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: الخبر: أي لمعرفة الطّريق للوصل إلى مصر، والجذوة: الجمرة الملتهبة. ﴿تَصْطَلُونَ﴾: تستدفئون. ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾: أي جانب الطّور الأيمن أي الجهة القريبة للجبل، باعتبار أنه واقع على يمين المستقبل للقبلة، ويجوز أن يحمل ﴿الْأَيْمَنِ﴾ على التفضيل، من اليمن، أي البركة. ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾: ﴿الْبُقْعَةِ﴾: بضم الباء وفتحها، القطعة من الأرض المتميزة عن غيرها، والمباركة: لنزول الوحي فيها. ﴿أَن يَا مُوسَىٰ﴾: ﴿أَنْ﴾: تفسيرية للمقول من النداء. ﴿تَهْتَزُّ

كأنّها جانّ﴾: أي صارت العصا حية صغيرة تتحرك. ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: جواب الشرط "لما": ولّى مدبرا بمعنى أدبر موسى هاربا خوفا منها ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: بمعنى ولم يكرّ راجعا. ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾: بمعنى: أدخل يدك في فتحة قميصك. ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾: الجناح: بمعنى اليد تشبيها لها بجناح الطّير. و﴿الرَّهْبِ﴾: الخوف، وهو تمثيل لسكون موسى عن اضطراب الخوف، كما يضمّ الطّائر جناحه إذا كفّ عن الطّيران.

ج)- أوجه القراءة:

﴿جَذْوَةٍ﴾: هي مثلثة الجيم، قرأها الجمهور بكسر الجيم، وقرأ عاصم بفتحها، وحمزة وخلف بضمّها، وهي العود الغليظ، قيل: مطلقا، وقيل: مشتعلا. ﴿الرَّهْبِ﴾: قرأ الجمهور بفتح الرّاء والهاء، وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف بضم الرّاء وسكون الهاء، وقرأه حفص عن عاصم بفتح الرّاء وسكون الهاء، وكلّها لغات فصيحة. ﴿فَذَانِكَ﴾: قرأه الجمهور بتخفيف النون على الأصل في التثنية، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب بتشديد النون، وهي لغة تميم وقيس. وعلّلها النحويون بأنّ تضعيف النون تعويض عن الألف من "ذا" و"تا" المحذوفة لأجل صيغة التثنية.

د)- البيان والتّفسير:

كلّ ما تقدّم من المشاهد في قصّة موسى عليه السلام منذ ولادته ورعاية الله له في قصر فرعون، وكيف بلغ أشدّه واستوى وامتحن في قلب المدينة بقتل النفس ليصبح خائفا يترقّب، ثم بنصح من الرّجل المؤمن يخرج من المدينة خائفا مستخفيا فارعا إلى مولاه ليهديه سواء السّبيل، فيتّجه صوب مدين طريدا جائعا بدون راحلة ولا زاد، وشاءت قدرة الله أن يجرّ إليه ذلك المعروف الذي صنعه في ابنتي شيخ مدين الكبير وتربطه بمصاهرته الحميمة، ليتحوّل بعد نعيم القصر إلى شظف

العيش في صحراء وديعة آمنة راعيا للغنم بكلّ ما تقتضيه تلك المهنة من عناء ومشقّة في كنف زوجة هيئة وبيت كريم في فترة من مرحلة عمره حسّاسة جيّاشة بجل الأحاسيس وتفاعل المشاعر، كلّ ذلك كان إرهاصا ومقدّمات هيّأها يد القدرة لموسى ليُصنع على عينيها، وبهيّأ للنداء العلوي الذي تجاوب معه الكون ذات يوم، وهو عائد بأهله من مدين إلى مصر، بعد أن هيّأت شخصيته الرّسولية للتلقي.

تُرى، ما الذي حرّك في نفس موسى لواعج الشّوق إلى الدّار الأوّل حيث مرّبوه على ما عرفوا به من جبروت وطغيان، وحيث قومه من بني إسرائيل على ما مردوا عليه من ذلّ وهوان؟، يقول الشّاعر:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

إنّها اليد الرّبانية الحانية تواكب موسى في مساره وتستدرجه إلى منزل الوحي والتلقّي لتجعل منه منازلا لعدوّ خصم لدود، ورائدا لقوم يرسفون في الأغلال والقيود، ليؤسّس لهم أمّة لا تدين إلاّ بالخالق الواحد المعبود، فلنتابع في هذه الحلقة الخامسة ذلك التتويج المبارك لموسى ﷺ.

قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ**﴾.

لقد أكمل موسى أكمل الأجلين وأطيبهما كما قال ابن عباس ﷺ، فبرئت بذلك ذمّته مع الشّيخ الكبير، لقد تحرّك به الشّوق إلى أهله وقومه فسار مصاحبا أهله متوجّها شطر مصر، وشتّان بين الخروج منها والإياب إليها، هو ذا مصحوب بأهله مزوّدا بما يكفيهم من طعام، ولكنّ النصّ يسكت عن بيان ما استفاده موسى في مدّة رعيه، وتذكر الرّواية أنّه عاد بقطيع غنم على عادة الموالين أنّهم يعيّنون

الرّاعي قسمة في الغنم مقابل عنائه، ويسترزق ذلك من إجابته لله تعالى عندما سأله من عصاه فقال: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾(طه: ١٨). كما يدلّ حديثه مع أهله أنّ الفصل شتاء بارد والليالي غير مقمرة وقد ضلّ الطّريق، فلا بدّ من هادٍ يسترشده، فإذا بنار تلوح من بعيد ولعلّه قد رآها وحده، فقال لأهله: امكثوا في مكانكم. على أنّ صيغة الجمع إمّا أن تكون للتعظيم، وإمّا لتدلّ على ركب يكون فيه معه ولده وخادمه كما تقول الرّواية: اتّجه موسى صوب النّار ليسأل صاحبها عن الطّريق، أو يأتي بقطعة من النّار يستدفئون بها من البرد. وانتهى إلى شاطئ الواد الأيمن، أي من النّاحية القريبة لجبل الطّور، حيث البقعة المباركة التي تحتضن الشّجرة المباركة مبعث ذلك النّور القدسي، وهناك تلقّى موسى النّداء العلوي المقدّس الذي اهتزّ له الكون كلّه، والمنادي هو الله ربّ العالمين. وهذا التقديم للذّات العلية بصفة الرّبوبية مضافة إلى "العالمين" معناه العظيم الإيحاء، والتثبيت لقلب موسى، وهو في ذلك الموقف المهيب، ليوقن بما يسمعه وليحتقر الرّبوبية المدّعاة من فرعون، وفواصل سورة "طه" توضّح تلك المعاني، وها هو ذا موسى يجمع نفسه ويركّز على ما يسمعه ليتلقّى التكليف الرّباني الثاني، وهو يؤيّده على حمله بمعجزتين هما مفعول قدرة الله، غير أنّ حكمته تعالى اقتضت أن يتّخذ منها سببًا تجري على يد موسى، فتجري المعجزة من خلاله على أعين بشر مثله، فقال له تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

إنّهما معجزتان زوّد بهما موسى، اقترنا باصطفائه لرسالة ربّ العالمين، ولم

يبرح مكانه لإدراك لعله حيث يمكنون إلاّ بعد أن تدرّب على طريقة الأداء كما أرشده الله.

ا)- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾: إنها العصا التي صحبته طويلا، تصيّرها يد القدرة حيّة تسعى عند إلقائها، وكان من الطّبيعة البشرية أن تخاف من الحيوانات الضّارّة، فتولّى عنها هاربة لا تلتفت وراءها، ذلك ما فعله موسى، غير أنّ مولاه هدّأ من روعه: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، أنت في رعاية مولاك وأنت في عداد الآمنين من خلقه، فارجع إلى مكانك وتدرّب على المعجزة الثّانية.

ب)- ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: والجيب هو فتحة القميص من الرّأس، أدخل فيه يدك تخرج بيضاء لامعة بإشراقة زها من غير مرض أو سوء أصابها، فيا للمفاجأة لتلك اليد السّمراء كيف تحوّلت إلى نور مشعّ. إنّ الموقف يدعو للاستغراب والدّهشة، لأنّ الإنسان من طبعه ذلك كلّما فاجأه شيء غريب في حياته لم يتعوّد عليه ولم يألفه، ولكنّ موسى أدركته عناية الله مرّة أخرى، وهو يقول له: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾، فإذا كانت العصا تعود سيرتها الأولى بمجرّد أن يمسك بها، فما بال هذه اليد المتّصلة به، كيف تعود إلى طبيعتها يا ترى؟.

إنّ اليد للإنسان بمثابة الجناح للطائر، يطير به عندما يرفرف به، ويقع عندما يقبضه، وهكذا تعود اليد إلى طبيعتها عندما يضمّها إلى جنابه فيطمئن روعه، وهكذا استتمّ موسى هذا التّربّص الرّبّاني، وتيقّن أنها مهمّة التّكليف الشّاقة التي لخّصها الله بقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، الإشارة إلى معجزتي العصا واليد، وكونهما من الرّبّ تعالى برهانين، أي على قدرته تعالى وأنه أرسل بهما موسى إلى فرعون وملئه ليكونا دليلين قاطعين على صدق نبوته، لأنّهم قوم جُبلوا على الفسق والتّمرّد عن أمر الله، فلابدّ لك 1

من ذلك التأييد الإلهي الذي يكفكف من طغيانهم وجبروتهم.

وهكذا تحقّق وعد الله لأمّ موسى وهي تحتضنه وليدا ورضيعا، وقد حباه العناية الإلهية بما تقلّب فيه من أحوال، فيتذكر الفعلة التي ألّبت عليه القوم فتآمروا لقتله فيحار كيف يكون إليهم المآل؟، والله أعلم.

من قصّة موسى: نبوءة هارون، وذهاب موسى إلى فرعون

أ)- النص:

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ
مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ
وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم
مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ
﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ
لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾: أي قتله للقبطيّ قبل ذهابه إلى مدين. ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾: ﴿رِدْءًا﴾: يأتي مخففا، ويأتي بالهمزة: "ردء"، وهو المساعد للمعين. ﴿يُصَدِّقُنِي﴾: أي يكون سببا في تصديق فرعون بإتيانه للأدلّة. ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾: العضد ما بين المرفق إلى الكتف، والشدّ هو الرّبط، أي يعينك في مهمتك، ويقال في ضدّ ذلك: فتّ في عضده، أو أسقط في يده. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾: أي مهابة في قلوب أعدائكم، ويأتي السّلطان بمعنى الحجة القوية.

في نبوته، لأنهم قوم جبلوا على الفسق والتمرّد عن أمر الله، فلابدّ لك

﴿مَا هَذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾: الإشارة إلى ادعاء موسى الرسالة، والمفترى بمعنى المكذوب. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ﴾: أي ما حدث هذا في أيام زمانهم. ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: العاقبة: أي التي تعقب، وتجيء عقب غيرها، والدار -أي الدنيا-، يعقبها الخير في الآخرة بعد المشقة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَن يَقْتُلُونِ﴾: قرأه يعقوب بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف، وقرأه باقي القراء بحذف ياء المتكلم. ﴿مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾: قرأ نافع ﴿رِدًا﴾ مخففا، وكذا أبو جعفر، وقرأه الباقون بالهمز على الأصل. ﴿يُصَدِّقْنِي﴾: قرأه الجمهور مجزوما في جواب الطلب بقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ﴾، وقرأه عاصم وحمزة بالرفع على أن الجملة حال من الهاء من "أرسله". ﴿تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾: قرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ﴾ بالمثناة الفوقية على أصل تأنيث لفظ: ﴿عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾، وقرأه حمزة والكسائي بالتحتية على الخيار في فعل الفاعل المجازي التأنيث.

د)- البيان والتفسير:

بعد أن تشرّف موسى برسالة ربّه، وتعزّز جانبه بمعجزتين، ليذهب بهما إلى فرعون الطّاغية داعيا إياه إلى الإقرار بألوهية الخالق، تذكّر في ذلك الموقف ما صدر منه من القتل للقبطيّ قبل خروجه من مصر وذهابه إلى مدين، تذكّر ذلك وهو في حضرة ربّه يكرّمه بنوره ورعايته، فطلب منه العون والتأييد بما يقوّي قلبه ويساعده في أداء مهمّته الشاقة، بإرسال هارون معه وزيرا؛ لأنّه أفصح منه لسانا في الحوار والمحاجّة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ. وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾.

في نبوته، لأنّهم قوم جُبلوا على الفسق والتمرّد عن أمر الله، فلابدّ لك

لم يقل موسى ذلك لربّه اعتذارا أو خوفا من تحمّل المسؤولية كما اتّهمه اليهود بذلك، فبرّأه الله مما قالوه، وإنّما هو الإشفاق والحذر من ضياع الرّسالة، وهو الاحتياط المطلوب في مثل تلك المواقف الصّعبة، ويفصح عن ذلك بقوله في سورة "طه": ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ (٤٥). وهنا يبادر موسى بطلبه من الله أن يؤيّده بأخيه هارون، ويظهر ميزته بفصاحة اللّسان، وهو السّلاح المطلوب في الإفصاح عن الدّعوة وبيان مضامينها، فهو يعرف عن أخيه ما لا يعرفه عن غيره، ولذلك عيّنه بشخصه ليكون مساعدا له، وليكون موسى هو الأصل في تحمّل المسؤولية بحيث يكون أخوه هارون ببيانه وفصاحته سببا في تصديق فرعون، ولذلك زاد تعليلا لطلبه بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

فلموسى -إذن- مخافتان دفعتاه إلى طلب المساعدة بأخيه.

الأولى: مخافة القتل في الأخذ بثار القبطيّ.

الثّانية: مخافة التّكذيب للدعوة لما له من العقدة في لسانه كما بيّنته سورة "طه".

وفي كلتا الحالتين، فهما مخافتان لا بدافع الجبن والانتكاس، ولكن بدافع الإشفاق والاحتراس، فجاءت الاستجابة الإلهية مطمئنة واعدة: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾، العضد هو مركز القوة في يد الإنسان، وهو الجزء من المرفق إلى الكتف، والشّدّ عبارة عن الرّبط، وهو كناية عن قوة التّأييد والمساعدة، وإذا ما استحكمت المودّة بين الأخوين فإنّهما يتكاملان في مواجهة الضّرّاء والبأساء بما لا يلقاه أحدهما في غيره من الأقرباء، وفي هذا المعنى يقول الشّاعر العربي:

أخاك أخاك إنّ من لا أخا له كساع إلى الهيجا بغير سلاح

استجاب الله دعوة موسى، فها هو هارون إلى جانب أخيه يؤازره ذهابا إلى فرعون، وقد وعدهما الله بالنّصر والغلبة على عدوّهما بالآيات الحسيّة كالعصا واليد، وبالحجّة القاطعة بالإفصاح والبيان.

والباء سببية في قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾، أمّا متعلّقها ففيه احتمالات:

أ)- يتعلق بمحذوف تقديره: "اذهبا بآياتنا"، كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ (١٥).

ب)- يتعلق بقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾، أي رهبة في نفوسهم.

ج)- يتعلق بقوله: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾، أي يصرف الله أذاهم عنكما بما أيّدكما به من الآيات.

ومع كلّ تلك الاحتمالات يكون قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ تلخيصا لما تقدّم، يعد الله فيه بالنّصر والغلبة لرسله وأتباعهم من المؤمنين.

ويطوي النّصّ ذكر ما كان من موسى وأخيه من التّهيئة والاستعداد للذّهاب إلى فرعون وينتقل إلى ذكر موقفهما بين يديه: **﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾**.

أسند المجيء إلى موسى وحده؛ لأنّه هو المكلّف الأساسي بالرّسالة، وهو الذي تقع المعجزات المؤثّرة على يده، والتي تقع تباعا، يواجه بها موسى فرعون وملئه، فيأتي جوابهم عليها مماراة للحقّ في ادّعاء أنّ تلك الآيات هي من نوع السّحر المفترى على الله لا أساس له من الصّحة، وما سمعوا بمثل ذلك الكلام في تاريخ آبائهم وأجدادهم، وهي ذات المقولة التي يردّدها الكفار والمشركون لرسلهم، يقولونها عن تقليد ومكابرة، عارية عن الحجّة والبرهان، فما كان من موسى إلاّ أن يحيل الأمر إلى ربّه العليم بما لا يعلمه آباؤهم، وهو أعلم بمسالك الهدى وبمن جاء به من خلقه المختارين. والتعبير بـ"من" الموصولة وبصيغة الماضي،

مع إحالة علم ذلك إلى ربّ العالمين فيه نوع من الأدب العالي في أخلاقيات الدّعوة، فهو يشير إلى نفسه بأسلوب غير مباشر، كما يشير إلى أسلافهم من الرّسل، ومنهم يوسف الطّيْلا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾، وعاقبة الدّار جاءت مقرونة بـ"تكون" الدّالّة على المستقبل على اعتبار المقاصد والغايات من الانتهاء إلى العاقبة المحمودة، في الدّنيا بالنّصر والتّمكين، وفي الآخرة بالنّعيم المقيم، كقوله تعالى في عاقبة المؤمنين: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٢-٢٣]، ثم تجيء التّعقيب بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ بيانًا لسنّته تعالى في الحكم على الظّالمين بعدم الفلاح مهما كانت قوّتهم، وفي ذلك شهادة لموسى بأنّه على الحقّ، وأنّ أعداءه مدحورون، والله أعلم.

ادّعاء فرعون الألوهية، وعاقبة عناده

أ)- النّصّ:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ
فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ
وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ
فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى
النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ
الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾: انتقل فرعون من محاورة موسى إلى محاورة ملئه، ونفيه لأن علم له بوجود إله غيره هو نفي للإله الذي دعا إليه موسى. ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾: ﴿هَامَانُ﴾: لقب لوزير فرعون، وطبخ الطين بالنار هو لصناعة الآجر الذي كانوا يشيدون به بيوتهم، والصرح: هو البناء العالي، وعلّل إنجاز ذلك البناء برؤيته للإله الذي زعمه موسى. ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: الاستكبار: شدة الكبر، والأرض إمّا للمعهودة، وهي أرض مصر، وإما المراد بها جنس الأرض على اعتبار أنهم أقوى أمم الأرض يومئذ. ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾: ﴿أَخَذْنَاهُ﴾: أي جعلنا هلاكهم في شدة، وذلك بطرحهم في البحر، كما تطرح الحصاة يُرمى بها على الأرض. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾: أي قادة للضلال والكفر مما يوقع في النار. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾: أي يشتمون ويلعنون من الله ومن الناس لسوء أعمالهم. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾: أي آتينا موسى التوراة، و﴿الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾: هي الأمم التي أهلكها الله كقوم نوح وعاد وثمود...إلخ. "بصائر" و"هدى" و"رحمة": منصوبات على الحال من "الكتاب"، والناس هم بنو إسرائيل، وكلّ من يريد أن يهتدي بهدي موسى عليه السلام.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لَعَلِّي﴾: قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأه الباقون بإسكانها. ﴿يُرْجَعُونَ﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي بفتح ياء المضارعة، من "رجع"، وقرأه الباقون بضمّها، من "أرجع".

د)- البيان والتّفسير:

انتهت محاورة موسى مع فرعون بالرّدّ اللائق بإحالته العلم إلى الله فيمن جاء من خلقه بالهدى ومن تكون له عاقبة الدّار، ويطوي النّصّ ما كان من أمر السّحرة وكيف انتهوا إلى الإيمان بربّ موسى وهارون، وكيف كان جزاؤهم القاسي من طرف فرعون، وهنا ينتقل النّصّ إلى ذكر محاورة فرعون مع أهل مجلسه تثبيتا لألوهيته للدّعاة، ومحاولته الإطلاع على إله موسى بصعوده على صرح عال أمر وزيره هامان ببنائه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

لقد كانت لدعوة موسى إلى الإله ربّ العالمين أثرها في مجلس فرعون، ولكنّه خوفا من زعزعة ثقة قومه به بادرهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾، فهو ينفي علمه بوجود ذلك الإله الذي يدّعيه موسى بأنّه خالق السّماوات والأرض، وهو ربّ المشرق والمغرب، ثم إنّه يريد بذلك تثبيت معتقدهم فيه بأنّه إلههم الوحيد ورث ذلك عن آبائه وأجداده فليس عليهم إلاّ الخضوع لسلطانه والانقياد لأوامره، وبحكم ذلك المعتقد الفاسد في هذا الطّاغية فهم مذعنون لما يأمرهم به كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف:٥٤).

وكنموذج لطاعة أوامره وبناء على فهمه المختلّ لدعوة موسى بأنّ الرّبّ الذي يدعو إليه مقرّه السّماء، فرّع على بيانه الأوّل أمره لوزيره هامان أن يبني له صرحا عاليا يمتدّ إلى السّماء ليرى منه الإله الذي يدعو إليه موسى، وذلك منه تلبيس على قومه بأسلوب تهكّمي، حتى إذا لم يجد شيئا -والله تعالى يجلّ عن المكان والزّمان- استطاع بذلك أن يوهّم على أتباعه بأنّه قد اجتهد في معرفة [illegible]

الحقيقة، فأثبت الواقع أن الإله المزعوم لموسى غير موجود، وبالتالي يحكم عليه بالكذب والافتراء.

ويلاحظ في الأمر الفرعوني أنه اقتصر على إحضار مواد البناء لذلك الصّرح، وهو ما يتمثّل في طبخ الطّين بالنّار لصناعة الآجر الذي اشتهرت به الحضارة الفرعونية، ولم يتعرّض النصّ إلى بنائه بالفعل، ولا يمكن أن يكون أحد الأهرامات الباقية إلى اليوم؛ لأنّها من صخور مرصوصة عظيمة، وأيّا كان الواقع التّاريخي في هذا المشهد، فإنّ المقصود من ورائه هو ذلك الأسلوب من التّمويه والتّلبيس على الأتباع لاستبقاء الهيبة والتّعظيم للطاغية في نفوسهم، ولكلّ الطغاة أساليبهم في تحقيق ذلك، وإن اختلفت في أنواعها.

ثم قال تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾

وأمام نصاعة الحقّ وثبات أهله عليه مهما كلّفهم ذلك من ثمن، فما لفرعون غير الاستكبار والعناد، وهو لا يملك أن يصل إلى إله موسى، وإذ هو لا يصدّق بوجوده، فكيف يصدّق أنّه راجع إليه ليوم الحساب، وبالتّالي لا يهون على أمثاله ممّن لا يؤمنون بالرّجوع إلى الله أن يطغوا وأن يعيثوا في الأرض فسادا، وفي ذلك تعريض بالمشركين المنكرين للبعث، فكيف تكون عاقبة هؤلاء؟.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾: هكذا يختصر النصّ أحداثا جاءت مفصّلة في سور أخرى، ليعجّل ببيان تلك العاقبة الوخيمة التي انتهت بأولئك الطّغاة إلى النّبذ كالحصيات الحقيرة في عرض البحر غرقا وهلاكا، ذلك اليمّ الذي كان لموسى مهادا آمنا ينساب عليه إلى محضنه حيث يترعرع ويتربّى، ذلك اليمّ يصير اليوم مقبرة لأعداء الله، فيا للمفارقة، ويا لجلال العظمة والسّلطان للحقّ، وتلك هي عاقبة كلّ ظالم جبّار.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ، وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾: ومن الشرّ المتضاعف الذي يستحقّ الويل والثبور أن يجمع أحد بين الضّلال في نفسه والإضلال لغيره، وقد جاء في الحديث: «ويل لمن جعلته للشرّ وأجريت الشرّ على يديه».[1]

فلا يدعو إلى النار إلاّ من كان من أهل النار كإبليس اللّعين، ولتلك الدّعوة وسائلها يفتن فيها أهل الفسق والفجور، ويأخذ بها كلّ كفور، فإذا وجدوا لهم في الدّنيا أتباعا ومؤيّدين، فإنهم في موقف الحساب يتبرؤون منهم، فلا يجدون لهم نصيرا، بل تتبعهم اللّعنة في الدّنيا على ألسنة المؤمنين، وحسبهم بذلك خزيا وعارا، وهم في الآخرة أخزى وأقبح على رؤوس الأشهاد.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

وفي مقابل تلك العاقبة المشؤومة لفرعون وجنوده، ولكلّ المكذّبين الطّغاة في الدّنيا والآخرة، ما هو نصيب موسى وأتباعه من المؤمنين؟، إنّه نور التوراة بما فيه من هدى ورحمة تستنير به بصائرهم فتستقيم على نهج الله مؤيّدة بالنصر والتمكين، وفي ذكره تعالى لإهلاك الأمم الخوالي تعريض بنذارة مشركي مكّة أن يصيبهم مثل ذلك، وفي ذكر الهدى والرّحمة تضمين لرسالة رسول الله، وفي كلّ من هدي التوراة والقرآن موعظة وذكرى لأولي الألباب.

والله أعلم

1- رواه البيهقي في كتاب الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، رقم ٩٩، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١: ١/١٠٧.

الإخبار بقصة موسى إثبات لنبوة محمد،

إذ لا يمكن أن يعلمها إلا بطريق الوحي

أ)- النص:

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا
أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا
كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ
هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾: الخطاب لرسول الله، والجانب الغربيّ أي في جبل الطور حيث تلقّى موسى الرّسالة من الله، والأمر المقضي هو تحقيق النبوة لموسى وإيتائه التوراة. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: ثوى: بمعنى أقام. و﴿أَهْلِ مَدْيَنَ﴾: هم قوم شعيب. ﴿تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾: ﴿عَلَيْهِمْ﴾: الضمير يرجع إلى مشركي مكة، أي يقصّ عليهم الرّسول ما شاهده

في أهل مدين مما كان بين موسى والشيخ الكبير، أي كما يفعله المسافر عند عودته من سفره. ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾: بعد نفي علم ما تقدم عن رسول الله جيء بالاستدراك ﴿لَكِن﴾ لإفادة أن إخباره بذلك كان بوحي الله رحمة منه لينذر قوما، وهم أهل مكة وغيرهم رجاء تذكرهم واتعاظهم. ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾: ﴿لَوْلَا﴾ الأولى حرف امتناع لوجود يفيد الشرط، وجوابه محذوف دلّ عليه ما تقدم، و﴿لَوْلَا﴾ الثانية تفيد التحضيض. ﴿فَنَتَّبِعَ﴾: منصـــوب بـــأن مضمرة في جواب التحضيض.

ج) – البيان والتفسير:

انتهت المشاهد السبعة من قصّة موسى وهارون مع فرعون وقومه، انتهت تلك القصّة مع ما فيها من غرائب الأخبار، ومع طول الفترة الزمانية التي تفصلها عن زمان رسول الله، فكان يتلوها على قومه كأنه شاهد عيان، وما كان يعلمها هو ولا قومه لولا أنّها من وحي الله عليه، وذلك فيه الحجّة القاطعة على صدقه وأمانته، ذلك هو التعقيب الإلهي الأوّل على أحداث تلك القصّة ليقطع بذلك عذر المشركين المتعنتين فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

إنّها مواقف ثلاثة حاسمة في حياة موسى تناولها النصّ الكريم وعكس ترتيبها الزمني، إذ بدأ بالأخير منها، فذكر موعد موسى لميقات ربّه في جبل الطّور، إذ آتاه التوراة والألواح، فقال مخاطبا رسوله:

أ)- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾: نفى الله عن رسوله أن يكون شاهدا لذلك الحدث العظيم في حياة موسى، وقد دعاه ربّه بعد اعتكافه أربعين ليلة ليعطيه التوراة والألواح فأعطاه العهد وذلك هو قضاؤه الأمر إلى موسى. فمن أنبأ رسول الله بذلك ولم يكن حاضرا؟، بل كانت بينه وبين موسى قرون وأجيال اندرست فيها الشرائع وانحرف الناس عن دين الله، فجئنا بك يا محمد وأوحينا إليك هذا القرآن لتجدد للناس دين الله ولتخبرهم بأخبار الماضين.

ب)- ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾: أتى الله برحلة موسى إلى مدين، وما كان له فيه من الزواج والرّعي ولم تكن -أيها الرّسول- مقيما بين أولئك القوم لتعلم ما جرى بينهم وبين موسى، فتخبر بذلك قومك لولا أنّا أرسلناك إليهم وأنزلنا عليك الوحي.

ج)- والموقف الثّالث في حياة موسى، وهو الأول في الوقوع مما سمعه من كلام الله بجانب الطّور الأيمن ليكلّفه برسالته إلى فرعون، وما أيّده به من معجزتي العصا واليد.

تلك هي المشاهد الخاصة في حياة موسى، ما كان لرسول الله أن يعرفها لطول الزّمن على وقوعها لولا أن الله تعالى ذكرها في وحيه المنزل على رسول الله ليقيم الحجّة بها على قريش، وقد بعثه الله إليهم رحمة لهم ورفعا لذكرهم لينذرهم من عذاب الله، وهم لم ينذروا من قبل، إذ لم يأت إليهم رسول من عهد إسماعيل الذّبيح، وكلّ ذلك ليقيم الله عليهم الحجة لعلّهم يتذكّرون، وفي ذلك إعذار لهم.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿لَوْلَا﴾ الأولى حرف امتناع لوجود تفيد الشّرط، وجوابها محذوف دلّ عليه ما تقدم من قوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾، والتقدير: لولا رحمتنا بتذكيرهم وإنذارهم لاستحقّوا عقابنا، فالشرط

وجوابه يتضمّنان التحذير للمكذّبين رسول الله أن تصيبهم مصيبة فيلتمسون الأعذار بقولهم: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿وَلَوْلَا﴾ الثانية تفيد التحضيض، أي أنّه تعالى يقطع العذر عن الناس، ببعثة رسله مبشّرين ومنذرين، ليقيموا الحجّة عليهم حتى لا يقولوا: ربّنا أهلكتنا ولم تبعث إلينا رسولًا، وها قد بعثناك إليهم كما بعثنا إلى أمم من قبلك، فهلّا آمنوا بك وصدّقوك؟. ذلك هو ما يبيّنه الله تعالى في ما يلي من النصّ اللاحق، وهو شديد الارتباط بهذا النصّ، والله أعلم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ. قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ما أكثر الشُّبه التي يردّدها مشركو مكة لردّ دعوة رسول الله، فرغم تلفيقهم تلك العذر الواهي عند خوفهم من مصيبة تنزل عليهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فها هو الرسول المطلوب قد جاءهم بالحقّ من عند الله، فلم يكن منهم إلّا الإعراض والتكذيب، وتلفيق الشبه إيحاء من اليهود، بأن يقولوا: ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾، وهم بذلك يريدون كتاب التوراة التي نزلت جملة واحدة في الألواح، لا كما ينزل القرآن منجّمًا، وكذا ما أوتي موسى من المعجزات المادية كالعصا واليد، وبما أنّ قولهم هذا كان باعث المكابرة والعناد، جاءت الإجابة الإلهية الدامغة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾، والأرجح أنّ الضمير في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا﴾ راجع إلى المتحدّث عنهم، وهم كفار قريش، فهم قد عايشوا أهل الكتاب وعرفوا ما عندهم

من الهدي السماوي، ولكنهم لم يؤمنوا به حتى قبل مجيء الرسول إليهم، وبعض المفسرين يرجعون الضمير إلى فرعون وقومه، وبما أن الإشراك يجمع الفريقين، فقد تزداد تلك المماثلة في هذه الإجابة، لأن المشركين يجحدون رسالة الرسل قاطبة، فقالوا لكلٍّ من موسى ومحمد: ساحران تظاهرا، أي تعاونا في تعاطي السحر للتأثير على سامعيهما، وبالتالي فهم يكفرون بالجميع، ويرى بعض المفسرين أن المقصود بالساحرين موسى وهارون حكاية لقصتهما مع فرعون.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: لقّن الله الإجابة لرسوله بأن يقول هؤلاء المتحرفين في تحدٍّ وتعجيز: إذا كنتم تكذّبون بالتوراة والقرآن فأتوا بكتاب آخر من عند الله يكون أكثر هداية للبشر، وأنفع في تنظيم شؤونهم، وأنا ألتزم باتباعه إن كنتم صادقين في دعواكم، وفي هذا الرّد الحكيم تضمين للتنويه بشأن التوراة والقرآن بأنهما كتابان من عند الله حقًّا وصدقًا.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: ولا شك أنهم عاجزون عن تلك الاستجابة، وبظلّ هذا التحدّي وارداً لجميع البشر إلى قيام الساعة، وما دام المنكرون لا يبحثون عن الحقّ، فماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال، يطيعون فيه أهواءهم ويتخبّطون في متاهات الضّلال المنافية لهدي الله، وقد اعتبر الحقّ تبارك وتعالى أنّ اتّباع الهوى هو أصلُ الضّلال، مما يدلّ أنّ الضّلالات الإنسانية تتفاوت دركاتها بما ينتج عنها من العواقب الوخيمة، إذ يصبح العابد هواه موطّنًا لذاته ورغباته.

وقد ذيّل الله ذلك بهذا الحكم العام فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وهنا أيضا تتفاوت دركات الظّلم فتبلغ مداها عندما تسدّ مسالك الهداية عن الظّالم، وذلك عندما يبلغ أقصى الظّلم وهو الإشراك بالله.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، صدّرت الآية

المعطوفة على ما قبلها في إطار السّياق، صدّرت باللاّم المشعرة بالقسم و"قد" التي للتحقيق، والتوصيل هو بمعنى ضمّ بعض الشيء إلى بعض، والمراد بـ"القول" هو القرآن الكريم، فالتعريف فيه للعهد، وضمير: ﴿لَهُمْ﴾ عائد إلى المشركين، ويشتمل توصيل القرآن إليهم في كلّ من مبناه ومعناه، فقد نزل مقسّطا بحسب حكمة النزول كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ (الإسراء:١٠٦).

كذلك نزل في معناه بما صرّف فيه من الوعد والوعيد والقصص والمواعظ والأحكام، وهذا ردّ على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢)، وحكمة ذلك هو ما بينه الله هنا وفي آية الفرقان، فقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقال هناك: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ (الفرقان:٣٢)، ولكن اتباع الهوى من المهلكات التي قال عنها رسول الله: «**ثلاث مهلكات: هوى مطاع، وشح متبع، وإعجاب المرء بنفسه**».[1]

وصدق الإمام البوصيري حين قال:

وإذا البيّنات لم تغن شيئا فالتماس الهدى بهنّ عناء

وإذا ضلّت العقول على علـ ـــم، فماذا تقوله النصحاء؟

والله أعلم.

١- رواه الطبراني في المعجم الأوسط من حديث أنس بن مالك، رقم ٥٤٥٢، ومن حديث ابن عمر، رقم ٥٧٥٤.

إيمان طائفة من أهل الكتاب بالقرآن

أ)- النص:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا
آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ
بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا
عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ﴾: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: الضمير يرجع إلى: "القول" المذكور في الآية السابقة. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: هم طائفة معهودة من أهل الكتاب: يهود ونصارى. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾: ﴿مُسْلِمِينَ﴾: يحتمل معناه الخاص وهو التصديق بمجيء رسول الإسلام على اعتبار مما يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، أو يكون بمعناه العام، أي التصديق بالرسل في أصل الدين وهو الإسلام. ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾: أي للإيمان بكتابهم وبالإيمان بالقرآن. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾: أي يدفعون السيئة بالحسنة، وذلك من أعظم خصال الخير. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾: ﴿اللَّغْوَ﴾: الكلام الساقط الذي لا فائدة فيه، وهو ما سمعوه من السب والشتم من كفار قريش. ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾: بمعنى تركوه تكرما منهم. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾: هي بمعنى المتاركة والموادعة، وطلب السلامة مما هم فيه.

ج)- البيان والتفسير:

بعد أن أقام الله الحجة على الكافرين بحقية القرآن أنه من عند الله وعلى

صدق نبوة رسول الله، وقطع عذرهم بوصوله إليهم رجاء أن يتذكّروا به، ولما بقوا على عنادهم وإعراضهم، انتقل السّياق إلى عرض صورة ناصعة ممن صفت نفوسهم وخاصة نواياهم من جماعة أهل الكتاب، كيف استقبلوا القرآن بالإيمان والتصديق وآمنوا برسول الله فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾.

فعلى طريقة القرآن في المزاوجة بذكر أحوال الذين آمنوا والذين كفروا يأتي هذا الاستئناف البياني بذكر أحوال طائفة من أهل الكتاب، أتوا لرسول الله فرادى وجماعات فآمنوا به وصدّقوه، وقد وردت روايات تحدّد أعدادهم وموطنهم، فقيل: إنهم نصارى نجران، ممن ورد ذكرهم في سورة آل عمران، وقيل: إنهم الوفد الذي بعثهم النّجاشي جاؤوا مع جعفر بن أبي طالب، ومن الأفراد: سلمان الفارسي، وصهيب الرّومي، وعبد الله بن سلام، وغيرهم. فأيًا كانوا، فهم جماعة من أهل الكتاب الأوفياء من اليهود والنصارى، سمعوا برسول الله فجاؤوا وجلسوا إليه يستمعون القرآن، فعرفوا أنه الحقّ من عند الله وآمنوا به على مشهد من كفّار قريش، فآذوهم لذلك وشتموهم، فصبروا على ذلك، فوصفهم الله بحميد الخصال وجعلهم نموذجا للنفوس الطّاهرة كيف تتلقّى القرآن وتعلم أنه الحقّ من عند الله.

فقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ الضّمير يرجع إلى القرآن المفهوم من قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾، وكذا في قوله: ﴿هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾، وقد يراد به الإيمان برسول الله، واختيار صيغة المضارع: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ للدّلالة على استمرارهم في الإيمان ورسوخه في نفوسهم.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾، فهم يعرفون حقّية القرآن وصدقه بمجرّد تلاوته عليهم، عرفوه من خلال ما عندهم من الكتاب، بأنّه سيجيء رسول مصدّق لما بين أيديهم فتبيّنوا أنه

الحقّ الذي يصدر من مشكاة واحدة، وكانوا مصدقين بدين الله الذي جاء به رسل الله كلّهم، وما زادهم سماعهم لآيات القرآن إلاّ يقينا وثباتا على إيمانهم، فما هو جزاء هؤلاء عند الله؟، وما هي الصّفات الغالبة عليهم؟.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾:

أراد الله أن يرسم صورة وضيئة مختارة لهذا الصّنف من مؤمني أهل الكتاب، فأشار إليهم بما يرفع منزلتهم عند الله وعند النّاس، أشار بإشارة البعيد: ﴿أُولَئِكَ﴾؛ لأنّهم جديرون بتلك الأوصاف التي وصفهم الله بها، فبدأ بالجزاء الأخروي؛ لأنه الباقي الخالد، وهو أغلى الأماني لدى المؤمنين الصّادقين.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾: إنه جزاء الصّبر على مفاتن الدّنيا والاستعلاء على رغبات النّفوس، والصّبر على أذى الطّغاة المنكرين، فلهم الأجر الأوّل على الإيمان والوفاء لكتابهم من توراة أو إنجيل، ولهم الأجر الثّاني على الإيمان بالقرآن، وليس سهلا على من كان على دين آبائه وأجداده أن ينتقل إلى دين جديد، سيما إذا كان رسوله من غير قومهم، علما بأنّ أغلب اليهود والنّصارى ما كفروا بمحمد إلاّ لكونه عربيا ولم يكن من جنسهم كما كانوا ينتظرون: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩).

وقد امتدح الله هذا الصّنف المؤمن من أهل الكتاب في كثير من الآيات مثل قوله تعالى:

أ)- ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ (آل عمران:١٩٩).

ب)- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (المائدة: ٨٢-٨٣).

ج)- وفي معنى هذه الآية قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (٢٨).

وفي رسم الصّورة الوضيئة لتلك النفوس الكريمة قال تعالى:

أ)- ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾: إنها الخصال الحميدة التي تجسّد ذلك الإيمان في واقع حياتهم، والتي أساسها قوّة الصّبر والاحتمال، التي تتمثّل في حسن معاملتهم لغيرهم بلطافة المعشر، فهم لا يواجهون السّيّئة بمثلها، بل يعفون ويصفحون، ويرتفعون إلى مستوى الإحسان ممّا لا يبلغه إلاّ ذو حظٍّ عظيم، كما قال تعالى في سورة فصّلت: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤).

ب)- ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾: والإنفاق في سبيل الخير هو تجسيد لكرم النّفس وسماحتها، بحيث لا تستعبدها شهوة المال، بل تعتقد أنّ ذلك من فضل الله عليها فهي تنفق منه سرًّا وجهرا.

ج)- ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾: والنّفوس العظيمة هي التي تعرض عن اللّغو من كل قول ساقط سفيه، فهؤلاء قد سمعوا ما آذاهم من كفار قريش -سيما من أبي جهل- إذ سبّهم وشتمهم، فهم إذ نزّهوا عن اللّغو في أقوالهم فهم يتحاشون سماعه عن غيرهم بالإعراض؛ لأنّ لهم من مهامّهم العظمى ما يشغلهم عن تضييع أوقاتهم في التحرش من أهل السّفاهة والباطل، وقد امتدح الله عباد الرّحمن بهذه الصّفة الحميدة إذا قال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢).

وتعبيرا منهم عن متاركة السّفهاء وموادعتهم يقولون:

د)- ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾: فلهم في أعمالهم الصّالحة النّافعة انشغال كامل يترفعون به عن السّفاسف والمهاترات التي يشتغل بها السّفهاء، وهذا الخلق من الوداعة والالتزام بالآداب العالية لا تطيقه إلا النّفوس العظيمة التي تقيم حياتها على أسس المبادئ والقيم الرّفيعة.

وقولهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ هو في معنى قوله تعالى في صفات الرّحمن: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣)، فقولهم: سلام، هو للمتاركة لا للتّحيّة، وحسب ذي النّفس العظيمة أن يقول ذلك في نفسه تصبّرا واحتمالا كما قال الشّاعر الحكيم:

ولقد أمرّ على اللّئيم يسبّني فمضيت ثمّت قلت لا يعني

الرّدّ على شبهات المشركين

أ)- النّص:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦)
وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ
ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ
فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا
وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾: الهداية تكون إمّا بالفعل إذا توفّرت أسباب التوفيق إليها، وتأتي بمعنى الإرشاد إلى الخير، ومفعول: ﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ محذوف تقديره: من أحببت هدايته. ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾: ﴿قَالُوا﴾: أي كفّار قريش، والخطف انتزاع الشيء بسرعة. و﴿نُتَخَطَّفْ﴾: المبالغة في الخطف، ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾: أي من بلدنا مكّة. ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾: الاستفهام للإنكار التوبيخي، والتمكين: الجعل في المكان للاستقرار والتصرّف فيه، والجبي: هو الجمع والجلب عدّي بـ"إلى" لتضمينه معنى: يساق إليه. ﴿مِن لَّدُنَّا﴾: أي من عندنا، كناية للتكريم والمنّة. ﴿رِّزْقًا﴾: مفعول لأجله. ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: البطر: الغلوّ في المرح والزهو، والمعيشة اسم مصدر بمعنى العيش، فهو إمّا على حذف المضاف، والتقدير: بطرت حالة معيشتها، أو على حذف الخافض: بطرت في معيشتها. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾: إرث الله لتلك المساكن كناية عن الحرمان من سكن أصحابها فيها. ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾: القرى هي منازل جماعات من الناس ذوات البيوت المبنية، وأمّ القرى هي القرية العظيمة منها مثل مكّة. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾: "ثمّ" للتراخي الرتبي. ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾: أي لتوفية جزائه يوم القيامة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُجْبَىٰ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر ورويس عن يعقوب: ﴿تُجْبَىٰ﴾ بالمثناة الفوقية، وقرأ الباقون بالياء التحتية مراعاة للمضاف إليه، وهو ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ فاكتسب المضاف تأنيثا. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: قرأ الجمهور بتاء الخطاب، وقرأ أبو عمرو ويعقوب: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ بياء الغيبة على الالتفات عن خطابهم لتعجّب المؤمنين من حالهم.

د)- البيان والتفسير:

بعد بيان الله لإعراض المشركين وأنّهم ضالّون باتباع أهوائهم، ثمّ إثنائه على إيمان طوائف من أهل الكتاب وامتداح خصالهم الحميدة أعقب ذلك هنا بذكر شبهات للمشركين في امتناعهم عن الإيمان، ثم بالرّدّ عنها، وقد افتتحه موجّها الخطاب إلى رسول الله ليسلّيه ويخفّف من حزنه على إعراض قومه بأنّ الهدى بيده تعالى يهدي به من يشاء فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

والتوكيد في خطاب رسول الله هو أدعى للتركيز والاهتمام بما سيُلقى عليه، وتذكر الرّوايات في أسباب النزول أن الآية نزلت في شأن أبي طالب -عمّ رسول الله- إذ كان النبي شديد الرغبة في إسلامه، وكان أبو طالب يعلم صدق ابن أخيه، ويدافع عليه في دعوته، ولكن تمسّكه بدين الآباء والأجداد وانسياقه مع توجّه كبار قريش جعله يأبى الإقرار بالشهادتين أمام رسول الله فمات على كفره، وقد روي عنه أنه قال:

ولقد علمت بأنّ دين محمد ... من خير أديان البريّة دينا

لولا الملامة أو حذار مسبّة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

غير أن الآية الكريمة بعموم لفظها وبديع نسجها ومناسبة موقعها، وبما أن الهداية تجيء بمعنيين فلابدّ من تحديد للمعنى المقصود من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

أ)- المعنى الأول: الذي يندرج في وظيفة الرّسل والمرشدين العلماء، هو إبانة الطّريق والإرشاد إلى الدّين بإقامة الحجج وكلّ الوسائل الإقناعية.

ب) - والمعنى الثاني: وهو الخاصّ بمشيئة الله وإرادته هو سلوك الطّريق الإيماني بالفعل؛ لأنّ ذلك من أفعال القلوب، وهي كلّها بيد الله. فليس بوسع رسول الله، بله من يخلفه في الإرشاد والتبليغ، ليس في وسعهم أن يجبروا أحدا على أن يختار طريق الإيمان أو طريق الكفر، فذلك من خصوصية الله القائل في شأن الإنسان:

أ) - ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان:٣).

ب) - ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٧٢).

ج) - ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد:١٠).

ومن حكمته تعالى أن جعل ذلك الاختيار للإنسان في انتهاج السّبيل الذي دفعته إليه إرادته من بعد أن ميّزه بالعقل وأقام عليه الحجّة بإرسال الرّسل وإنزال الكتب، ثم جعله رهين اختياره في يوم الجزاء، ولو شاء الله لهدى النّاس جميعا، ولكن الله يفعل ما يشاء.

فإذا فهمنا معنى الهداية المنفية عن رسول الله وجدنا أن لا تناقض بين هذه الآية وبين قوله لرسوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٥٢).

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾: أي العلم الحقيقي التامّ الذي لا يمكن لغيره أن يعلمه؛ لأنّه من خفايا القلوب التي لا يعلمها إلا هو: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤)، واختيار فعل التفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾ للدلالة على أن علم غيره بذلك يكون ظاهريا لا يسكنه الأسباب الفطرية في الشّخص السّوي.

ثم أورد الحق تبارك وتعالى شبهة اتّخذها بعض المشركين مبرّرا لبقائه على الكفر فهو يعتذر بها لرسول الله فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

القائلون بصفة عامّة هم كفّار قريش، وروي أنّ القائل هو الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف، قال للرّسول: "نحن نعلم أنك على الحقّ، ولكنّا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب -وإنّما نحن أكلة رأس- أن يتخطّفونا من أرضنا". فنزلت الآية.

إذن، هو اعتذار في البقاء على الكفر ليس له من مبرّر في واقع حياتهم الآمنة الناعمة، فهم إذ اعترفوا ضمنيا بأنّ ما يدعوهم إليه الرّسول هو الحقّ والهدى، ولكنّهم مشفقون على أمنهم وسلامتهم بما يتوهّمون من تألّب الأعداء عليهم؛ فجاء الرّدّ الإلهي بما تفضّل عليهم من الأمن ومن وفرة الأرزاق في البلد الحرام، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾.

صدّرت الإجابة بالاستفهام الإنكاريّ الذي يتضمّن التوبيخ على كذبهم الموهومة، إذ مكّن الله لهم في أرضهم -حرمه الآمن- على ما هم عليه من الكفر والضّلال، والتمكين فيه معنى التثبيت في المكان، فهم في ظلال حرم الله لا يعتريهم خوف، إذ جعله الله مثابة للنّاس وأمنا، منذ جدّهم إبراهيم الطَّيْلا، فكيف يرفع عنهم تلك الحرمة إذا اتبعوا الهدى مع رسول الله؟.

ومن بركات الحرم أنّه تعالى يسوق إليه مختلف الثّمرات من مختلف بلدان العالم استجابة لدعاء إبراهيم: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم:٣٧)، فقوله تعالى: ﴿رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فيه معنى الخصوصية لحرم الله تفضّلا منه تعالى وتكريما لساكنيه، ولكن أكثرهم لا يقدّرون تلك النّعمة لعدم إدراكهم لأبعادها ومقاصدها، ظنّا منهم أنّ القبائل العربية كانت تقدّس الحرم بدافع العرف والعادة في حميّة جاهلية.

وبما أنّ الإنكار للموقف والتوبيخ عليه يقتضي التحذير من مغبّة الإصرار عليه فقد عطف الله على ما سبق هذا التخويف والتحذير فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن

قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾

إنّه بيان لمصير أقوام كانوا على مثل أحوال قريش من رغد العيش أمنا ووفرة أرزاق، ولكنّهم فرحوا بما عندهم حتّى أخذهم البطر بعدم تقديرهم لتلك النّعمة فأهلكهم الله، وبقيت مساكنهم خاوية بما ظلموا، وكان الله هو الوارث لها، وهو كناية عن خلوّها من السّكن، وبقيت أثرا للمارّين، ولا يفعل الله ذلك ظلما بعباده، إذ أنه تعالى لا يعذّب حتى ينذر فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

جاء هذا العطف بيانا لعدل الله ورحمته بعباده، فليس من شأنه تعالى أن يهلك أقواما دون إقامة الحجّة عليهم بإرسال رسول يرشدهم إلى طريق الهدى، وتخصيص مبعث الرّسول في أمّ القرى -وهي القرية العظيمة- لأنّها تكون ملتقى لما حاورها من الحالات السّكنية الصّغرى، إذ غالبا ما تكون القرية الكبرى مربعا لعلية القوم، فهم قدوة لغيرهم كما كان أصحاب مكّة، فالرّسول هو بمثابة الرّائد الذي لا يكذب أهله، فهو ينذر ويبشّر ويرسم للنّاس طريق النّجاة، حتى إذا كذّبه قومه يكون الله قد أعذرهم قبل الهلاك، فيصبحون ظالمين لأنفسهم، مستحقين لعذاب الله، وتلك سنّة الله في خلقه كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء:١٥).

وعلى ذكر النّعم التي أفاضها الله على أهل الحرم المكّي حتى أخذهم البطر وبيان شروط إهلاكه القرى أعقب ذلك بهذا التّذكير فقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

الالتفات من ضمير الغيبة إلى المخاطب هو مما تقتضيه قوّة الإبلاغ في توجيه

التوبيخ واللّوم على موقف المشركين؛ لأنّ الاغترار بتلك المزايا التي خصّها الله ببيته الحرام -وهم أبناؤه وسدنته- الاغترار بتلك يجعل تلك النّعم في نظرهم هي منتهى أملهم ومبتغاهم في الزّينة والمتاع، فبيّن الله أنّ ذلك مهما بدا لهم عظيما وجميلا فما هو إلاّ متاع زائل وزينة فانية لا قيمة لها أمام ما عند الله من الثّواب والجزاء في جنات النّعيم؛ وهو خير وأبقى لأنه خالد باق، وبما أنّهم لا يبلغون مستوى الإدراك لتلك المفاهيم القيّمة فقد قرّع الله على إخبارهم بها هذا الاستفهام التّوبيخي فقال: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾، فهم قد انطمست بصائرهم بغلبة الأهواء والشّهوات، فكيف يفرقون بين الفاني والباقي وبين الزّائف والخالص.

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾، الاستفهام لإنكار المشابهة والمماثلة بين فريقين على وضعية متخالفة:

أ)- فريق: ﴿وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاَقِيهِ﴾، وهو الفريق المؤمن والمصدّق بوعد الله بما ادّخره في جنّات النّعيم للموقنين بدينه المصدّقين بوعده؛ لأنّه الكريم الودود، والموفّي بالوعود، فهل يستوي هؤلاء بمن كذّب بوعد الله وفتنته الدّنيا بمتاعها الزّائف فاطمأنّ لها واغترّ بها حتى مات على كفره، فإذا هو من المحضرين للجزاء الأخروي الذي تكون نهايته جهنم وبئس المهاد؟.

وهذه المقارنة توحي بما كان عليه المشركون من التّفاخر والتّعالي على المسلمين بما هم عليه من الترف والتّنعم مما تدلّ عليه النّصوص الأخرى من القرآن، إذ صوّر الله كيف كان أولئك السّادة الأغنياء يعاملون به فقراء المسلمين، من مثل قوله تعالى:

أ)- ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ، أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ (القلم: ١٠-١٤).

ب)- ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ (المزمل: ١١).

ج)- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ، وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَاكِهِينَ﴾ (المطففين: ٢٩-٣١).

واختيار صفة "الإحضار" للفريق الهالك فيه معنى القهر والإذلال في ذلك الموقف الرّهيب، فهؤلاء قد توعّدهم الله بالعذاب والشقاء، أعاذنا الله من وعيده وجعل لنا حظا من وعده الحسن، آمين، والله أعلم.

تقريع المشركين يوم القيامة،

والله هو صاحب الحقّ المطلق في الاختيار

أ)- النص:

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ
رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَيَوْمَ
يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦)
فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ (٧٠)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾: المنادي هو الله تعالى، على الكيفية التي يعلمها هو،

وضمير "هم" في محل نصب عائد إلى المتحدّث عنهم وهم المشركون، ﴿وَيَوْمَ﴾: إمّا معطوف على قوله في الآية السّابقة: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أو هو منصوب بفعل مقدّر تقديره: اذكر، وقد تكرّرت هذه الجملة في النّصّ مرّتين: في توبيخهم الأول على الإشراك بالله، وفي التوبيخ الثّاني على تكذيبهم لرسل الله، والموعظة تقتضي الإطناب. ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾: ﴿أَيْنَ﴾: استفهام مستعمل في انتفاء وجود الشّركاء في معرض التوبيخ، ومفعولا: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ محذوفان دلّ عليها ما قبلهما، وذلك لإفادة العموم. ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾: ﴿الْ﴾ في القول عهدية، من قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣). أي هم كلّ من عبد من دون الله ما عدا المسيح وعزير والملائكة. ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾: في مبنى الجملة احتمالان:

أ)- أن تكون الجملة: ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ خبر لاسم الإشارة: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ وتكون الجملة: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ استئناف بياني لجملة: ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾.

ب)- أن تكون جملة: ﴿الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ صفة للمبتدأ، وتكون الجملة: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ خبر للمبتدأ، والغواية هي الضّلال، والتّشبيه في قوله: ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾، أي لا فرق بين غيّنا وغيّهم.

﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾: التبرّأ: معالجة إثبات البراءة وتحقيقها، وهو يتعدّى بـ"إلى" لمن تنتهي إليه، فيقال: تبرّأت إلى الله من كذا. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾: ﴿لَوْ﴾: حرف شرط، وجوابها محذوف، والتقدير: لو أنّهم كانوا يهتدون في الدّنيا لتخلّصوا من العذاب في الآخرة. ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾: أصله: فعموا عن الأنباء، أي فقدوا الحجج التي يدافعون بها عن أنفسهم، فوقع القلب للمبالغة، فجعلت الأنباء هي التي لا تهتدي إليهم. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾: "مَا" الأولى اسم موصول في محل نصب مفعول به لـ"يخلق"، و"مَا"

الثانية نافية، لنفي الاختيار عن الخلق. ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ﴿تُكِنُّ﴾: تخفي، وبينه وبين ﴿يُعْلِنُونَ﴾ طباق، كما بين الأولى والآخرة.

ج) – البيان والتفسير:

على ذكر الإحضار المهين للمشركين المفتونين بزينة الحياة الدنيا للحساب يوم القيامة أعقب الله ذلك بمشهد المساءلة والتقريع لأولئك المجرمين على رؤوس الأشهاد، وكيف يحارون في الإجابة عن الأسئلة الموجهة إليهم، فيشترون القتالة حين يرون العذاب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

إنها المساءلة الأولى التي يقرّ فيها المسؤولون المشركون بإبطال الشركاء لله، يوم ينادي الله المشركين المتحدث عنهم من قبل في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾، ومضمون النداء هو قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، والمقصود بهذا السؤال هو التقريع لإفادة انتفاء وجود أولئك الشركاء المزعومين، وحذف مفعولا: ﴿تَزْعُمُونَ﴾ لإفادة العموم، فيشمل كل الشركاء المعبودة من دون الله على تفاوت المعتقد في أولئك العابدين، سواء في الشرك الجليّ كعبادة الأصنام، أو في الشرك الخفيّ كتقديس الأضرحة والقبور والتوسل إلى الله بالشفعاء والأولياء، ولكن الذين تصدّوا للإجابة هم بعض المشركين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي القول المعهود للمسلمين في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣) والمقصود هم الرؤساء الموعود من الجن والإنس، ويستثنى

من ذلك العموم من عبد من الجن والإنس ولم يحقّ عليهم القول كالملائكة وعيسى وعزير ومريم.

وقد سارع الرؤساء المتبوعون إلى الإجابة لأنهم علموا أنّ السؤال موجّه إليهم، ولأنهم المحرّضون على الكفر والشرك، ومقصود الإجابة هو قولهم: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، واختيارهم لصفة "الرّبّ" في ذلك الموقف الرّهيب واعترافهم بربوبية الخالق هو للاستعطاف والتنصّل، إذ أرادوا التنصّل من تهمة إغواء متبوعيهم على الشرك، وعلى الاحتمالين المذكورين في تركيب مبنى الجملة، فإنّ المعنى كما يلاحظ فيه التوكيد اللّفظي لفعل: ﴿أَغْوَيْنَا﴾، ذلك بأنهم اعترفوا بإغوائهم لغيرهم، فأشاروا إليهم ليتميّزوا عن غيرهم للتقليل من جرمهم، ثم أضافوا قولهم: ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾، والتشبيه يفيد التسوية بين غواية التابعين وغواية المتبوعين، أي كلّ فريق منّا هيّأت له أسباب الغواية فغوى من تلقاء نفسه دونما إجبار ولا إكراه، فكلّ منّا يتحمل مسؤوليته، وهكذا يلتمسون المبرّرات لجرائمهم عساهم يخففون من التبعة، ولذلك أضافوا قولهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾، والتبرؤ هو التنصّل من الذنب، فهم يتبرؤون من متبوعيهم، وبذلك يتنصّلون من دعوى كونهم شركاء من دون الله بدليل قولهم: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، أي ما عبدنا هؤلاء ولكن عبدوا أهواءهم، ولهذه الآية نظائر في القرآن الكريم:

أ- ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم:٨١–٨٢).

ب- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٦).

وينتهي مشهد المحاورة بين المتبوعين والتابعين من المشركين، وقد عرف كلّ فريق مسؤوليته، فيوجّه إليهم الأمر مرّة أخرى ليتبيّنهم من أيّ نصرة أو مخالة.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾: أي ادعوا شركاءكم دعوة استغاثة لينقذوكم مما أنتم فيه، كما كنتم تدعونهم في الدّنيا لجلب نفع أو دفع ضرّ، والله يأمرهم بذلك فيمتثلون مقهورين وهم يتيقنون في ذلك الموقف أن لا جدوى من تلك الاستغاثة، ولكنّه الإمعان في الامتهان والذلّة أمام الخلائق، وإذ لا إجابة ولا مغيث، وقد عاينوا العذاب الذي ينتظرهم، وإذ هم في غمرة الحسرة والنّدامة، يخامرهم التمنّي لو أنهم كانوا من المهتدين في الدّنيا ومن المصدّقين لما دعا إليه رسل الله، ولكن لات ساعة مندم.

ثم يتكرر سؤالهم لمزيد من الإعنات والتقريع عن موقفهم من دعوة رسل الله -والله يعلم به- إذ أنه التكذيب والإعراض: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ، فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

يتأزّم الموقف وتبلغ الحيرة ذروتها، وقد خشعت الأصوات للرّحمن فلا تسمع إلا همسا، حتّى من الرّسل والأبرار، فكيف بأولئك الكفار، وهم يستنطقون في تلك المحكمة الرّهيبة، وقد سئلوا عن أعظم حجّة للخالق تتجلّى فيها رحمته على خلقه، والمتمثّلة في رسله إليهم لدعوتهم إلى توحيد الله ونبذ الشّركاء، فهاهم واجمون لا يحيرون جوابا.

ولتجسيد ذلك الصّمت الرّهيب فقد أثبت الله صفة العمى للأنباء نفسها فهي لا تصل إليهم بله أن يعرفوها للدّفاع عن أنفسهم، وبالتالي فلا مساءلة بين بعضهم بعض لالتماس أي جواب، وبذلك حقّت عليهم كلمة العذاب.

وفي مقابل ذلك يرسم الله الصّورة الوضيئة للناجين الفائزين: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾، إنها الصّفات المتكاملة التي لابد من توفّرها لدى العبد المؤمن:

أ)- التوبة من كل ذنب، وأعظمه الشرك بالله.

ب)- الإيمان الصّحيح الشامل بكل المبادئ الأساسية في العقيدة الإسلامية.

ج)- العمل الصّالح بمقتضى ذلك الإيمان.

والترجّي من الله هو على سبيل التحقق، والفلاح هو الحصول على رضوان الله ونعيم الجنة.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾: التعقيب ببيان هذه الحقيقة الإيمانية التي يغفل عنها الناس اقتضاه ما تقدم من ذكر شبهات المشركين ومبرّراتهم في رفض دعوة رسول الله، ثم استعراض موقف الحساب وما يكون فيه من مساءلة ثم تقرير مصير كل فريق، فإن الإنسان من طبعه يحاول التّعليل ويقترح الحلول، وقد يشتط -أحيانا- فينازع الله في حكمه بناء على نظرته العجلى وإدراكه القاصر، وإذا خلا قلبه من الإيمان الصّحيح كما كان عليه حال المشركين فإنه لا يستسلم لأمر الله، وقد حكى القرآن عن المشركين كثيرا من المقترحات التي كانوا يتحدّون بها رسول الله، فيجيء الرّدّ القاطع كما في هذه الآية الكريمة، بأنّ الخلق مهما تكن منزلته عند الله لا يملك أن ينازع الله في أمره، إذ هو المتفرّد بالخلق والإيجاد، وهو المتفرّد بالاصطفاء والاختيار، وهو الصّاحب المطلق في ذلك الحقّ، لا يشركه في ذلك أحد من الخلق، وقد تنزّه عن الشريك وتقدّست ذاته العليّة عن صفات النقص.

وليس نفي الخيرة عن الخلق هو بالمفهوم الكلامي من الجبر والاختيار لأفعال الإنسان، ولكنّه بمعنى التّفويض الكامل لإرادة الله ومشيئته في الرّضى بحكمه والقبول لما يقضي به في شؤون خلقه، لأن الإنسان له كسب واختيار في ما يقوم به في بذل مجهوده البدني والعقلي، وبعد ذلك يفوّض الأمر إلى مولاه في نتائج سعيه.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ومرجع الضمير إلى المتحدث عنهم، وهم المشركون، وبعد سلبهم الاختيار في خلقتهم وفي تركيب طباعهم في الاستعداد لقبول الخير والشرّ، فإنّه تعالى محيط بدخائل نفوسهم وبما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم، فيجازيهم بمقتضاها إن خيرا فخير وإن شرا فشرّ.

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: أي المذكور بصفة الرّبوبية في الآيتين السّابقتين هو الله، لفظ الجلالة الجامع لكلّ الكمالات، والذي تقرّون له بالخالقية والرّازقية، ولتوكيد انتفاء الشّركاء له أضيف الخبر الثّاني عن ضمير الجلالة: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لتقرير الوحدانية، ونفي الإلهية عن المعبودات الباطلة؛ لأنّه المنفرد بالحمد كلّه في الدّنيا والآخرة على كلّ ما يقضيه في شؤون خلقه، و"اللاّم" في الجملتين للملك، وتقديم الجار والمجرور للدّلالة على الاختصاص، ومن عموم حكمه بما يشاء مرجع الخلائق كلّها إليه ليوم الجزاء ليقضي بحكمه العادل بينهم، والله أعلم.

أدلّة عظمة الله ببديع صنعه، وتأكيد تقريع المشركين

أ)- النصّ:

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم
بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ
مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ
وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ
أَيْنَ شُرَكَآءِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ
فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: ﴿أَرَأَيْتُم﴾: الرّؤية قلبية، والاستفهام تقريريّ وهو بمعنى: أخبروني. ﴿اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾: مفعولان لفعل: ﴿جَعَلَ﴾، والسّرمد على وزن "فعمل"، والميم زائدة في الوسط. وهو من السّرد، أي التّابعة، وسرمد: معناه دائم لا ينقطع. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾: الاستفهام إنكاريّ، والإتيان بالضّياء، أي النّهار، مستعار للإيجاد. ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: في الآية لفّ ونشر مرتّب، اللّف في اللّيل والنّهار، والنّشر في قوله: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أي في اللّيل، ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: أي تسترزقون في النّهار. ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾: النّزع جذب شيء من بين ما هو مختلط، واستعير هنا لإخراج بعض الأفراد من جماعة، وهم الأنبياء، يأتي كلّ واحد منهم على رأس أمّته ليشهد عليها بما عملت. ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾: أي تيقنوا يومئذ أنّ الحقّ لله وحده في الألوهية. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: غابت عنهم تلك الشّركاء التي اتّخذوها من دون الله، إذ فقدوا أيّة حجّة على ذلك.

ج)- أوجه القراءة:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم﴾: قرأ الجمهور بألف بعد الرّاء، تخفيفا لهمزة "رأى"، وقرأ الكسائي بحذف الهمزة زيادة في التخفيف، وهما لغتان. ﴿بِضِيَاءٍ﴾: قرأ قنبل بهمزة بدل الياء، وقرأ الجمهور بالياء، وهما وجهان في النّطق جائزان، وقراءة الجمهور أليق في النّطق.

د)- البيان والتّفسير:

على ذكر تخصّصه تعالى بالحمد في الأولى والآخرة، وأنّه الخالق المختار

الذي لا ينازع في ما يفعل، أعقبه هنا بتوجيه أفكار المخاطبين إلى التأمّل في بعض آيات قدرته في الآفاق باختلاف اللّيل والنهار، وهما ظاهرتان طبيعيتان يعيشون فيهما، وأكثرهم عنهما غافلون عمّا في ذلك من بديع صنع الله وحكمته في جعل الظّروف الملائمة لحياة خلقه، وما في اختيار ذلك من اللّطائف والأسرار، فقال جلّ من قائل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

لفت أنظار المخاطبين إلى ظاهرة تعاقب اللّيل والنهار وما ينتج عنها في دورة الحياة، مما تكرر ذكره في القرآن الكريم، غير أنّ طريقة عرضهما في هذا النصّ الكريم جاءت على صورة بديعة في مبناها ومعناها.

فقد أمر الله رسوله أن يلفت نظر المخاطبين إلى تعاقب الضدّين: اللّيل والنهار، مع طرح فرضيّة استمرار أحدهما دون انقطاع، ماذا كان سيحدث للمخلوقات سيما للبشر المخاطبين، والملل الذي ينغّص حياتهم هو أولى المخاطر التي لا يستطيعون دفعها، أضف إلى ذلك ما لكلّ من اللّيل والنهار من منافع يدركها كلّ عاقل مميز.

بدأ الله بفرضيّة استمرار اللّيل إلى يوم القيامة، وفي ضدّه ذكر الله الإتيان بالضّياء عوضا عن النهار؛ لأنّ منافع الضّياء أعمّ وأشمل في مكوّنات الحياة، من طاقة الشمس بكلّ أنواع أشعّتها النافعة والضّارة مما اكتشفه العلماء وما سيكتشفونه، والضّياء هو اللّفظ الذي خصّ الله به منافع الشّمس في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ (يونس:٥). ولو حاولنا استقصاء المنافع التي يحملها هذا اللّفظ لما وسعتها المجلّدات الضّخمة، مما بيّنه علماء الأحياء وعلماء الضّوء وعلماء البيئة وغيرهم في مختلف الاختصاصات العلمية.

وفي لفت الأنظار إلى تعاقب الضدّين تعداد لأوجه الاستدلال على قدرة

الله، لتكون في متناول كلّ واحد مهما يكن في مستواه العلمي، فمن خفيت عنه منفعة أحدهما أدركها في الآخر، ولا يستقيم الاعتراض هنا بوضعية القطبين: الشّمالي والجنوبي، حيث يستمرّ النّهار ستة أشهر ويخلفه اللّيل بمثل تلك المدّة، لأنّ الظّاهرة هي في التّعاقب وإن طالت المدة، كما أنّ نسبة الزّيادة والنّقصان بين اللّيل والنّهار ليست بدرجة واحدة في مختلف بقاع الأرض دون خطّ الاستواء حيث يتساويان في المدة، ثم إنّ العمران البشري أغلبه في المناطق المعتدلة.

ب)- نبّه الله في امتنانه بظاهرة النّهار مع فرضية استمراره إلى يوم القيامة، وفي ضدّه جاء قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، فيلاحظ أنه تعالى عبّر في الضّدّ بلفظ اللّيل، عوضا عن مقابلة الضّياء بالظّلام كما يقتضي تقابل الأضداد، ثم خصّص بالذّكر لمنافع اللّيل "السّكون" وبضمير العقلاء: ﴿تَسْكُنُونَ﴾، وذلك لأنّ هناك حيوانات لا تتحرّك إلاّ باللّيل كالخفّاش والبوم وغيرهما كثير، فنعمة السّكون في اللّيل لراحة أجسامنا لا تقدّر بقيمة، ولا تتحقّق بأيّ نوم آخر في صحيح الحركة بالنّهار، واختيار لفظ اللّيل هو أنسب بالظّاهرة الكونية التي هي من تقدير الله وصنعه؛ لأنّ الإتيان بلفظ "الظّلام" هنا لا تتمّ به منّة الله على خلقه لأنّه تعالى يعلم أنّ نور القمر والنّجوم تخترق ظلمة اللّيل وأنّ الخلق سوف يحوّلون ظلمة اللّيل إلى نهار اصطناعيّ في حواضرهم بما يكتشفونه من المصابيح الكهربائية.

وفي التّفريع على كلّ استدلال جاء بما يناسب من حاسّتي السّمع والبصر، فناسب لليل حاسة السّمع فقال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وناسب للنّهار حاسّة البصر فقال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

ثم لخّص الله منّته العظمى فجمع الظّاهرتين وما لكلّ منهما من النّفع على طريقة اللّفّ والنّشر المرتّب فقال جلّ من قائل: **﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**.

﴿مِن﴾: تبعيضية، إذ أنّ تعاقب اللّيل والنّهار على النّاس هو إحدى النّعم الكثيرة التي لا تحصى عدّا، والتي هي أدعى للتدبّر الواعي الذي يبعث على الشكر للمنعم وأنّه المستحقّ للعبادة وحده، وتقديم الجار والمجرور على عاملهما هو لمزيد الاهتمام على منّة الله ورحمته.

ثم تكرّر نداء الله للمرّة الثانية استكمالا لمشهد يوم القيامة، تكرّر بالاستفهام التّقريعيّ للمشركين في اتّخاذ الشّركاء لله ليرتّب عليه نزع شهيد من كلّ أمة ليكون حجة عليها، قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ، وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**.

تكرّر نفس النّداء السّابق لمزيد من إقامة الحجّة على المشركين، فهو نداء واحد يقوم بالإجابة عنه عليه القوم -كما تقدم-، ثم قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، ومع إفلاس المشركين عن الحجّة، يقوم الشّهداء على كلّ أمّة وهم رسلها، ومن يقوم مقامهم من العلماء والمرشدين، وشهيد الأمة الإسلامية هو رسول الله محمد ﷺ ومن قام بالدّعوة إلى الله بعده من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾(الزمر:٦٩).

والشّهداء -كما ذهب إليه أكثر المفسرين- هم خلفاء الرّسول في التذكير والدّعوة إلى الله وليسوا شهداء الجهاد، ولا شكّ أنّ رسول الله في ذلك الموقف يكون هو شهيد الشّهداء كما قال عنه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ (النحل:٨٩).

هؤلاء الشّهداء يكونون حجّة الله على أممهم بأنّهم قد بلّغوا لها رسالة الله، وبالتّالي فإنّه تعالى يطلب من المشركين أن يأتوا بأيّ برهان على ما ارتكبوه من ظلم الشّرك والكفر، والأمر في: ﴿هَاتُوا﴾ للتعجيز، وعندئذ يتيقّنون أنّهم مفلسون

من الحجة، وأنّ الحقّ كلّه لله تعالى، وأنه المستحق وحده للعبادة.

وهكذا يضلّ المشركون ويتيهون في ذلك الموقف، يضلّون عن الإتيان بأية حجّة يستظهرون بها وتغيب عنهم آلهتهم التي عبدوها من دون الله، وليس وراءهم إلاّ العذاب المقيم في دركات الجحيم، والتعبير بصيغة الماضي في هذا المشهد للدلالة على التحقق، والله أعلم.

تعاظم قارون بأمواله، وسوء عاقبته

أ) – النص:

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ
لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾
وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
عِندِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ
جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ
الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ
الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾: ﴿آتَيْنَاهُ﴾ بنون العظمة، أي المؤتي هو الله تعالى، يتعدّى إلى مفعولين، المفعول الأول ضمير الهاء، والمفعول الثّاني "مَا" الموصولة، وصلتها "إنّ" وما عملت فيه. و﴿الْكُنُوزِ﴾: مفرده: كنز، المال المدّخر. مفاتح: مفرده مِفْتَح، بكسر الميم وفتح التاء. ويقال: مفتاح، ويجمع على: مفاتيح، وهي آلة الفتح. ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾: أي تثقل بجماعة قوية من النّاس، فالباء للملابسة. ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾: ابتغاء الدّار الآخرة بمعنى طلب نعيمها وثوابها. ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾: النسيان كناية عن الترك. و﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾: بمعنى التوسعة على نفسه في المأكل والمشرب مع توخّي الحلال في ذلك. ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾: يكون الإفساد في الأرض بالظّلم والبغي وارتكاب المعاصي، والمراد بالأرض حيث يحلّون منها، إذ هو جزء من الكرة الأرضية. ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾: الضمير في ﴿أُوتِيتُهُ﴾ يرجع إلى "ما" الموصولة السّابقة أي المال، ﴿عَلَىٰ﴾: للاستعلاء المجازي بمعنى التمكن والقدرة، ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: في موضع الحال من الضّمير المرفوع، والمقصود بـ"العلم" علم اكتساب المال بمختلف الوسائل. ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: نفي السّؤال عن ذنوبهم كناية عن علم الله بها وأنّه سيعاقبهم عليها. ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾: أي أن قارون رفض الموعظة، وتعدية "خرج" بـ"على" لإفادة معنى التّعالي والتّعاظم، والزّينة: كلّ ما يباهى به من ثياب ومراكب وأتباع...إلخ. ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: أي تمنى ضعاف النّاس ممن لا يقين لهم ولا علم بأمور الدّين، والحظ: هو النّصيب الذي يقسم لأحد عند العطاء. ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾: أي بقارون، والخسف: هو انقلاب بعض أجزاء الأرض إلى باطنها، والباء للمصاحبة. ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾: مركبة من ثلاث كلمات "وي"

وهي اسم فعل بمعنى أتعجّب، وكاف الخطاب، "وأن" مفتوحة الهمزة أحسب "إنّ" المكسورة، وقد تستعمل الكلمات الثّلاث بدون الأخرى كما تستعمل بدون "أن" كما قال عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتر أقـدم

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾: بمعنى يوسّع فيه لأحد من خلقه، ويقدر: بمعنى يضيق فيه، وبينهما طباق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿عِندِي﴾: قرأه نافع وقنبل وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم، وقرأه الباقون بالإسكان. ﴿مِن فِئَةٍ﴾: قرأها أبو جعفر بالياء بدل الهمزة، وقرأها الباقون بالهمزة. ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾: قرأ الجمهور على البناء للمجهول للعلم بالفاعل من قولهم: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾، وقرأه يعقوب بفتح الخاء والسّين، أي خسف الله الأرض بنا.

د)- بين يدي النصّ:

هذه هي القصة الثّانية الواردة في سورة القصص بعد القصة الأولى من قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه، وكلتا القصتين وما بينهما من التعقيبات الإلهية والمواعظ والإرشادات، كانتا تحذيرا لمشركي مكّة وأئمة الكفر وإنذار لهم من الله أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك الجبابرة الطّغاة.

فالقصّة الأولى تمثل طغيان السّلطة والجاه والمال، وتمثل القصّة الثانية طغيان العلم والمال، والمشركون كانوا يتعاظمون على رسول الله وعلى أتباعه من المؤمنين المستضعفين، كانوا يتعاظمون بأموالهم وجاههم بمثل قولهم:

أ)- ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥).

ب)- ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١).

وفي مشاهد القصّتين وأبطالهما ما عساه يكون رادعا لأولئك الطّغاة فيزدجرون ويتعظون.

و"قارون" هو بن يصهر بن قاهت بن لاوى بن يعقوب عليه السلام، فهو ابن عمّ موسى، ويقول ابن عباس هو أيضا ابن خالته. قال عنه الإمام ابن عاشور نقلا عن الإصحاح السّادس عشر من سفر العدد قال: "تألب "قورَح" أي قارون مع بعض زعماء بني إسرائيل مائتين وخمسين رجلا على موسى وهارون عليهما السّلام حين جعل الله الكهانة في بني هارون من سبط "لاوى" فحسدهم "قورح" إذ كان ابن عمهم وقال لموسى وهارون: ما بالكما ترتفعان على جماعة الرّبّ، إن الجماعة مقدسة والرّبّ معها، فغضب الله على "قورح" وأتباعه وخسف بهم الأرض وذهبت أموال "قورح" كلها".[1]

هـ)- البيان والتّفسير:

بعد تقريع المشركين على إعراضهم وكفرهم بآيات الله ضرب الله لهم مثلا على أحوالهم من الأمم السّالفة في عاقبة التعاظم بالعلم والمال، فذكر في آخر السّورة الكريمة قصة قارون مع موسى فقال عز من قائل: **﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾**.

إن قصّة "قارون" في عرض مشاهدها وما يكشف ذلك من حسن التقدم

- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٠/١٧٥.

والاختتام، تمثل بحقّ النموذج البليغ لقنّيات القصة القصيرة، حسبما ضبطها الأدباء والبلغاء، لا يكاد القارئ يجد فيها ثغرة ناقصة في البناء القصصي الفني، فالتمهيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وكونه من قوم موسى أنّه كان إسرائيليا مثلهم قد آمن بموسى وحفظ التوراة -كما تقدم-، وأنّ له بموسى قرابة، ولكنّه تجبّر وتكبّر بحظوة الجاه والمال، ففي الجاه قيل: إنّ فرعون قد ولّاه عليهم فأخذ يظلمهم ويتعاظم بماله وجاهه، ويكون للظّلم وقعه الأليم في النّفوس إذا أتى من قبل الأقرباء كما قال طرفة بن العبد:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهنّد

واختيار نسبته إلى قوم موسى عوضا عن بني إسرائيل، هو للتنظير بين ما حدث لموسى من قومه، وما حدث لرسول الله من قومه مشركي مكة لتثبيت قلبه الشريف.

وللبغي أوجه عدّة في الاعتداء على الغير، بدافع التجبّر والاستعلاء، فقد أبطرته نعمة المال فأراد أن يكون قومه تحت سلطانه حسدا لموسى وهارون، وقد صوّر الله قوّة ثرائه بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾، فالكنوز جمع كنز، وهو المال المدّخر في الصّناديق أو الخزائن، والله هو مؤتيه ذلك ليختبره أيشكر أم يكفر؟، والمفاتح جمع مفتح آلة الفتح، وقد تفنّن القصّاص في وصف تلك المفاتح مما لا يستقيم تحت النقد، لأنّه تعالى قال: إن حمل تلك المفاتح ينوء بالعصبة أولي القوة، وعلى اختلاف اللّغويين في تحديد عدد العصبة من الثّلاثة إلى الأربعين، بمعنى يثقل عليهم حملها مما جعل ابن عباس يقول: "إن المفاتح هي الخزائن وأنه يحملها أربعون رجلا". يقول قطب الأئمة -رحمه الله: "ولا يتصوّر أن يوجد من آلات الفتح ما يثقل عليهم، كما كذبوا بأنّه وقر سبعين

رحلا، وأنها من جلود، وأنّ كل مفتاح كالأصبع وأنها تجمع وتحمل"..."[1]

فنصحه الوعاظ بما ينبغي عليه أزاء فتنة المال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾:

إنها خمس نصائح تضع منهج سياسة الأموال في الإسلام:

أ)- ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾: والناصحون هم جماعة من بني إسرائيل الصّلحاء، ويمكن أن يكون الناصح هو موسى عليه السلام، على اعتبار أنه رسول قدوة في النصح والإرشاد، والفرح المنهيّ عنه هو الذي يكون دافعه البطر والازدهاء بالحظوظ الدّنيوية المختلفة، حتى تصبح شغله الشاغل تصرفه عن الأعمال الصّالحة، وعلّل النّهي عن ذلك بأنّ الله لا يحبّ الفرحين، ونفي محبة الله يعني السّخط والغضب من تلك الصّفة الذّميمة، وعبّر عنها بالصّفة المشبّهة "فرح" للدّلالة على المبالغة والإفراط في ذلك بحيث تصبح سجية عند المتصف بها، وللخصال الحميدة حدودها المعتدلة بين الإفراط والتفريط كما يقول علماء الأخلاق: "الفضيلة وسط بين رذيلتين".

ب)- ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾: وابتغاء الدّار الآخرة طلب أجرها وثوابها، وذلك باستعمال ذلك المال في ما يرضي الله بأنواع القربات، و"في" للظرفية المجازية، أو تكون بمعنى "الباء"، أي بمعنى التقرب بتلك الأموال بما يكون سببا لحصول الثّواب عليها، على اعتبار الإسلام أنّ المال مال الله، وما الإنسان إلاّ وسيلة لتداوله بما ينتفع به خلق الله.

ج)- ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾: لأنّ الله يريد أن يرى أثر نعمته على

---

[1] - امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ٢٥/١١.

مبدء. والنصيب هو القسط الشخصي من تلك الأموال، والنهي عن نسيانه هي بمعنى الإباحة في التمتع بنصيب من تلك الأموال في ما أحلّه الله من الأكل والشرب واللّباس والسّكن، بل وحقّ من الزّينة المباحة، لأنّ لنفسك عليك حقّا، وإنما الشّرط في ذلك أن لا يطغى لديك نصيب الدّنيا على نصيب الآخرة، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الأعراف:٣٢).

د)- ﴿**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ**﴾: أمروه بالإحسان مطلقا ليشمل كلّ أنواعه، وهو داخل في عموم ابتغاء الدّار الآخرة، وتشبيهه بإحسان الله إلى خلقه لجعل نموذجه كاملا، حتى يكون الشكر على كلّ نعمة بما تستحقّها وبما يناسبها، وقد جاء في الحديث: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**»[1]، فيتناول الإحسان المادّي بأنواع المساعدات المادية، والإحسان الأدبي بلين القول، وطلاقة الوجه وحسن الاستقبال.

هـ)- ﴿**وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾: للفساد في الأرض أوجه عدّة، أغلبها يتسبّب فيها الإنسان تحت عوامل مختلفة، والله تعالى ينهى عن الفساد في الأرض ويبيّن عواقب المفسدين، كيف تنتهي بهم إلى الخراب والدّمار، والبغي من أقوى الدّوافع للإفساد في الأرض بالظّلم والطغيان، ولا شيء يكدّر الإحسان كالظّلم والإفساد، فربّ إحسان اقترن به بغي وفساد، فيزيل بركته ويكون وبالا على صاحبه كما قال المتنبي في شأن الدّهر:

ربما تحسن الصّنيع لياليه، ولكن تكدّر الإحسانا

فكيف تعامل قارون مع تلك النّصائح؟.

١- تقدّم تخريجه: ص ١١٨.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾، أظهر قارون رفضه لتلك النصائح، وإنما بأسلوب فيه دهاء ومكر واستعلاء، بأن ذلك المال الذي عنده قد توفّر لديه بما يملكه من مؤهّلات اقتنائه، وقد توسّع المفسّرون في بيان تلك المؤهّلات، وتنكير لفظ: ﴿عِلْمٍ﴾ مع وصفه بالعندية يفيد تمكنه من ذلك العلم وشهرته به، حتى لكأنه شيء خصّه الله به، شأن المغرورين بحظوظهم الدّنيوية حين يكونون في سعة من أمرهم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ (الزمر:٤٩).

وإذا ضلّت العقول على علم، فماذا تقوله النصحاء

وقد تضمّنت الإجابة الإلهية تذكيرا للمسلمين بالاتعاظ والاعتبار بمن سبقوهم، فالهمزة للاستفهام الإنكاريّ للتعجب من حال قارون، كيف لم يهده علمه إلى معرفة ما حاق بالذين كانوا من قبله من الهلاك والمحق، وهم كانوا أشدّ منه قوّة وأكثر أتباعا، فلم تغن عنهم قوتهم ولا جموعهم من الله شيئا، إذ أنه تعالى عليم بما يسرّون وما يعلنون، فلا حاجة إلى الاستفسار عمّا كانوا يعملون، حتى تسلط عليهم ذلك العقاب الدّنيويّ، لأنه تعالى قد بيّن للناس على ألسنة الرّسل مسالك الشرّ والخير، ونفي السّؤال الدّنيويّ لا ينافي مع السّؤال الأخرويّ في موقف الحساب كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر:٩٢-٩٣).

لم تقتصر عجرفة "قارون" على أولئك النصّاح له، بل أراد أن يظهر عظمته وأبهته لبقية قومه بعد أن رفض تلك النصيحة: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾،

الرّبط بـ"الفاء" لا يدلّ على الترتيب الفوري، بل هو لبيان تعنته في رفض تلك النصائح، تأصيلا لطبيعته الاستعلائية، وتأكيدا لمنزلته الاجتماعية، والخروج في الزينة تعمّ كلّ ما عنده من وسائل تلك الزّينة ثيابا ومراكب وخدما بما تشتهر به المواكب الفخمة الرّسمية اليوم، إذ تحتفي بها الجماهير على قدر ما يكون لذلك الموكب من الإجلال والتقدير عندها، والنّاس يختلفون في النظرة إليها اعتزازا وفخرا، أو اشمئزازا ونكرا.

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: فالسّذّج الجهلة من النّاس تغريهم تلك المظاهر البرّاقة من فتنة الدّنيا، ويدفعهم الطّمع إلى تمنّي ذلك لنفوسهم، معتبرين من حصل عليها أنّه ذو حظّ عظيم، والإنسان بطبعه ميّال لحب المال، كما قال تعالى:

أ)- ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات:٨).

ب)- ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ (الفجر:١٩-٢٠).

غير أنّ القليل من أولي العلم والحكمة يدركون بنور بصائرهم تفاهة زخارف الدّنيا أزاء ثواب الله ونعيم الآخرة فينهون الغافلين ويحرّضونهم على التماس ذلك بالإيمان والعمل الصّالح، إذ قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾**.

فقولهم لمخاطبيهم: ﴿وَيْلَكُمْ﴾، هو للزّجر والتوبيخ، لأنّه يدلّ على الهلاك وسوء العاقبة، وإسناد الخيرية لاسم الموصول عوضا عن الضّمير، هو لبيان أنّ الإيمان والعمل الصّالح هما الوسيلة المطلوبة للحصول على ثواب الله، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بالصّبر على مشاقّ التكاليف، ويحتمل أن تكون الجملة الأخيرة من كلام الله تحرّض المؤمنين بها على الصّبر، إذ لا يعني الحرمان من المال أيّة علاقة بحبّ الله أو

بعضه لعبده.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾: "الفاء" للترتيب مع التعقيب، والخسف هو انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، و"الباء" في "به" للمصاحبة، وقد انخسفت معه داره الحاوية لكنوزه، وترتيب الخسف على خروجه في زينته بطرا وخيلاء ربما يعتبره أحدنا غلطة في العقاب، إذ هو مؤمن في الأصل، ولذلك أطال المفسّرون في بيان أسباب الخسف، يقول عنها الإمام الرازي: "والأولى طرحها والاكتفاء بما دلّ عليه نصّ القرآن وتفويض سائر التفاصيل إلى عالم الغيب"[1]، بينما يعتبر الإمام ابن عاشور أنّ هذا الخسف خارق للعادة؛ لأنه لم يتناول غير قارون ومن ظاهره[2]، فهو معجزة لموسى ﷺ وهكذا عاقبة الباغين، فهم لا يجدون من غيرهم ولا من أنفسهم ناصرا في وقت الشدّة.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

فقد استفاد أولئك السّذّج البسطاء درسا واقعيا مما شاهدوه، فصاروا يقولون في عجب، ويقرّون بحكمة الله في تقسيم الأرزاق، إذ يوسّع فيها لمن يشاء من عباده ويضيّق فيها على من يشاء بحكمة بالغة، وليس ذلك متعلقا بحبّ الله أو عدمه.

وقد اعتبروا حرمانهم من المال مع بقائهم في مأمن من الخسف، اعتبروا ذلك منّة من الله ولطفا بهم، ثم كرّروا تعجّبهم مما حدث معترفين أنّ سبب ذلك العقاب الإلهي هو الكفر به، وهو مجلبة للشرّ والخسران، والله أعلم.

١- الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: ٣٥١٣/١.

٢- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢٠/١٨٥.

تثبيت فؤاد الرسول، ووعده بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة

أ)- النص:

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا
السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ
قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ
يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ
عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: الإشارة بالبعيد للدلالة على علوّ منزلتها، و"الكاف" خطاب للرسول، أو هي لغير معيّن من كلّ من يتلو القرآن، و﴿الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: أي القائمة والتي لا دار بعدها. ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: ﴿الْعَاقِبَةُ﴾: هي الحالة الأخيرة بعد حالة سابقة، وغلب إطلاقها على عاقبة الخير، والمتقون: هم هنا من خشي الله ولم يتصف بالعلوّ والفساد في الأرض. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾: "جاء" بمعنى حضر، و"الباء" للمصاحبة، و﴿خَيْرٌ﴾: للتفضيل، بمعنى: له خير مما في حسنته من الخير. ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾: ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾: بمعنى اختاره لك لتلاوته وتبليغه والعمل به، والمعاد: اسم مكان العود،

(1) [illegible] يحرض المؤمنين بها على الصبر، إذ لا يعني الحرمان من

والتنكير فيه للتعظيم، فيجوز أن يراد به: معاده المشهود القريب، وهو بلده مكة، يعود إليها ظافرا منتصرا، ويجوز أن يراد به دار المعاد وهو الآخرة، وقيل: هو المقام المشهود الذي وعده به ربه. ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: ﴿مَن جَاءَ﴾: "مَن" في محلّ نصب بفعل مقدر يفسّره قوله: ﴿أَعْلَمُ﴾، والجملة جواب لسؤال يثيره المشركون حول دعوة الرّسول، أهو على هدى أم في ضلال؟، فالله هو العالم بذلك ويوم الرّجوع إليه يبيّن ذلك. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾: المظاهرة المعاونة، والظّهير: المعاون والنصير، والمقصود من تلك النّواهي في الآيات الخواتم هم أتباع الرّسول على اعتبار أنه القدوة لهم. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: علة للنهي السّابق، والوجه مستعمل في معنى الذّات كلها، فالله وحده منفرد بالإلهية في ذاته العلية، له الحكم وحده في كلّ ما يقدّره ويقضي به.

ج)– البيان والتّفسير:

انتهت قصّة قارون، وقد صوّرت الدّار الدّنيا وما فيها من إغراء وزينة بالمتاع العاجل والفناء الزّائل ليقابل الله بها الدّار الآخرة بنعيمها الدّائم الذي يكون خالصا للمتقين الأبرار فقال جلّ من قائل: **﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾**.

صدّرت الآية باسم الإشارة الذي يستعمل للبعيد للدّلالة على علوّ منزلة المشار إليه: ﴿الدَّارُ﴾، وهي محلّ السّكنى، ووصفها بالآخرة يضفي عليها معنى الدّوام والبقاء، كما قال رسول الله ﷺ في إحدى خطبه المشهورة: «**والله ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد هذه الدّنيا من دار، غير الجنة أو النّار**»[1]. ومعنى

١– رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسن البصري، وهو مقطوع إلى رسول الله ﷺ، رقم ١٠٠٩٧.

جعلها من الله الذي تدلّ عليه نون العظمة هو تحضيرها وتهيئتها للمتقين من عباده بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ثم نفى عنهم إرادة العلوّ والفساد في الأرض، وهما الصّفتان الذميمتان اللّتين اتّصف بهما كلّ من فرعون وقارون مما أدّى بهما إلى ذلك المصير المشؤوم، ونفي الإرادة هو بمعنى نفي الميل القلبي، وذلك أبلغ في الطّهارة النّفسية، وأدلّ على التّواضع والحلم.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: أي المصير المحمود في جنة الخلد يكون لمن يتقي غضب الله وسخطه بامتثاله لأوامر الله واجتناب نواهيه.

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، بيّن الله في هذه الآية كيف تتمّ عملية الحساب على الأعمال خيرها وشرّها، وقد تقدّم نظير هذه الآية في سورة النّمل، ولكن اقتصر هنا بذكر الخيرية للحسنة، وتفسّرها آية سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾(١٦٠). وفي ذلك بيان لفضل الله وكرمه بالمحسن، وفي مقابل الحسنة أظهر ولم يضمر إذ قال: ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، حتى يندّد ويشدّد النّكير على عمل السّيئات بإسناده إليهم فيكون جزاؤهم وفاقا لما كانوا يعملون في الدّنيا لا غير، نفيًا لكلّ ظلم.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، روي أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله بالجحفة بين مكّة والمدينة في طريق هجرته، وقد اشتاقت نفسه الشّريفة إلى بلده، فنزل بها جبريل عليه السلام يسلّيه بها ويعده ربه بالعودة إليها ظافرا ومنتصرا.

تصدّرت هذه الآية عبارات التنويه بشأن رسول الله في خاتمة السّورة الكريمة، توالت فيها الآيات بصيغة الخطاب بين أوامر ونواه ليسلّيه ربّه ويعده بحسن العاقبة في الدّارين فجاءت مقدمة تلك الآيات بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ

الْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أكدت الجملة بـ"إن" و"اللام"، وجيء بالموصول الدالّ على اسمه تعالى للاهتمام بما في الصّلة من البشارة بالخبر من إنزال القرآن على رسوله وفرض إبلاغه للناس والعمل بمقتضاه، بشّره الله بعودته إلى بلده الذي طرد منه، يعود إليه ظافرا منتصرا، كما عاد موسى إلى مصر بعد غياب طويل وقد أورثه الله أرضها ومكّنه من خيراتها، وهذا التفسير للكلمة: ﴿مَعَادٍ﴾ هو الأنسب لجوّ السّورة من تفسير "المعاد" بالجنة. فتكون هذه الآية الكريمة من دلائل صدق نبوءته ﷺ: لأنها إنباء بالغيب، وفي ردّه على وصف المشركين له ولأتباعه بالضّلال كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ (٣٢).

ولتوبيخهم على ذلك أمر الله رسوله أن يقول: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، فالإخبار باسم التّفضيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ إنما هو لمسايرة الخصم في ما يعتقده، ثم الرّدّ عليه بما يلزمه الحجّة لتعويض ادعائه، فإسناد العلم إلى الله في معرفة أحوال النفوس لا يكابر فيه أحد، إلاّ أن يكون من المكابرين المعاندين، وتفريع ذلك عن الوعد الصّادق يفيد أنّ الله بنصره لرسوله سيظهر المهتدي من الضّال وسيعلم الذين كفروا أنهم هم الضّالون، وأن المهتدي هو رسول الله.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ الْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، ودفعا لشبهات المشركين من أن الرّسول تقوّل القرآن من عنده أو أنه أساطير كانت تملى عليه فيكتبها، بيّن الله هنا بأن الرّسول ما كان ينتظر أن ينزل عليه هذا القرآن في إعجاز بيانه وما اشتمل عليه من أخبار الماضين، وأنباء ما سيحدث من بعده وما فيه من الأحكام والمواعظ تحدّى الكفار أن يأتوا بمثله، وما كان الرّسول يطمع في نفوذ ولا سلطة وهو يبلغه للناس، ولكنها رحمة الله به وفضله العظيم عليه إذ اختاره لتلك المهمة النبيلة، مما يستوجب عليه الشكر على تلك النعم إذ نهاه ربّه أن يكون عونا لمن كفر به –وحاشاه أن يفعل ذلك–

وإنما المقصود هي أمته على اعتباره قدوة لها.

ثم أثبت الله عزمه وقوّى إرادته حتى لا يأبه بمخالفة قومه فقال: ﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءايَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ انزِلَتِ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

الصّدّ عن آيات الله هو من عمل المشركين في كلّ زمان ومكان، ولهم في ذلك وسائل شيطانية، سيما في هذا العصر الذي نعيشه بالتشكيك في قدسية نصوص الكتاب وكونها من عند الله كما يفعله المستشرقون وأذنابهم من إمّعات المسلمين، وما كان لرسول الله أن تؤثر فيه تلك الدّعايات على إلحاحها وتكرارها، وإنما ذلك هو هي لأمّته من خلال شخصه الكريم، مما يقتضيه الأسلوب الحكيم في النّصح والإرشاد.

وفي آخر آية من السّورة الكريمة يأتي هذا الوصف الجامع للذات العلية في الإنفراد بالألوهية والحكم، فلا إله سواه وبالتالي فلا نتوجه بالعبادة لغيره: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا ءاخَرَ لآ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ومن خصوصية الألوهية الدّيمومة والبقاء والتصرّف المطلق في ملكوته، فلا ينازعه في ذلك أي مخلوق في الأرض ولا في السّماء، إذ الكلّ إلى زوال وفناء ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

وهكذا تكون روعة الاختتام في هذه السّورة الكريمة بتركيز الرّكيزة الأولى في العقيدة الإسلامية، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرّسول فاكتبنا مع الشاهدين، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١- رواه البيهقي في شعب الإيمان من حديث الحسن البصري، وهو منقطع إلى رسول الله ﷺ، رقم ١٠٠٩٧.

سورة العنكبوت، مكية، وآياتها ٦٩

– بين يدي السّورة الكريمة:

سمّيت بالعنكبوت لما ورد فيها من ضرب المثل بالعنكبوت في وهن بيتها، شبّهت به الأصنام وغيرها ممّا عبد من دون الله، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

وهي مكّية في قول الجمهور، وقيل: بعضها مكّي وبعضها مدني، غير أنّ موضوعها العامّ في تقرير أصول العقيدة الإسلامية كسائر السّور المكّية يرجّح كونها مكّية كلّها كما ذهب إليه الجمهور.

وهي السّورة التاسعة والثّمانون في ترتيب نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة الرّوم وقبل سورة المطفّفين التي قيل أنّها آخر السّور نزولا في مكّة، وهي التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف.

وعلى غير الشّائع المعروف في افتتاحية بعض السّور بالحروف المقطّعة أن يقع بعدها ذكر القرآن أو الكتاب جاء في هذه السّورة ذكر افتتان النّاس وتعرّضهم للابتلاء في الصّراع بين الحقّ والباطل، ليتميّز الصّادقون في إيمانهم من الكاذبين والمنافقين، ويشارك سورة العنكبوت في تلك الخاصية بعد افتتاحها بالحروف المقطعة التي لم يرد بعدها ذكر القرآن أو الكتاب، يشاركها كلّ من سورة الرّوم وسورة مريم.

أمّا بيان بعض المحاور التي اشتملت عليها السّورة فهي تتلخص في ما يلي:

على تلك النّعم إذ نهاه ربّه أن يكون عونا لمن كفر به –وحاشاه أن يفعل ذلك–

ومعناه.

ب)- تثبيت المؤمنين الذين فتنهم المشركون لصدّهم عن دينهم أو منعهم من الهجرة.

ج)- وكنموذج في الابتلاء والصبر ترد قصص لبعض الأنبياء مختصرة، نوح، إبراهيم، لوط، شعيب، هود، صالح ثم موسى وهارون، ثم بعدها يلخص الله عواقب الطغاة من أقوامهم في قوله تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ...﴾ (٤٠).

د)- الأمر بمجافاة المشركين ولو كانوا أولي قربى، ومجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ما عدا الظالمين منهم.

هـ)- إثبات نبوة محمد ﷺ بنزول القرآن وهو أميّ، وأمره بالثبات على إبلاغ القرآن والتأسّي بمن سبقه من الرّسل، ووعده تعالى بنصر المؤمنين وخذلان المشركين.

و)- الأدلة والبراهين على القدرة الإلهية بالنظر إلى الكون الفسيح، والاستدلال على البعث بالنظر إلى بدء الخلق وإعادته، وإلزام المشركين بإثبات الوحدانية لله لاعترافهم بأنّه هو الخالق الرّازق.

ز)- ضرب المثل في الوهن والعجز للآلهة الباطلة بوهي بيت العنكبوت.

ح)- الامتنان على المشركين بجعلهم سدنة للحرم الآمن وتوفير الأمن والرّزق لهم، ومقابلة ذلك بالجحود والكفران.

ط)- جزاء المؤمنين في ثباتهم وصبرهم على الشدائد ومعيّة الله للمحسنين، وتوفيقه للمجاهدين.

على تلك النعم إذ دعاه ربّه أن يكون عونا لمن كفر به -وحاشاه أن يفعل ذلك-

اختبار الناس بالفتن، وجزاؤهم

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ
أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ
الَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا
سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾
وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ
لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾: الاستفهام للتوبيخ والإنكار، وحسب: بمعنى ظن، من أفعال القلوب، تنصب مفعولين. ﴿أَنْ يُتْرَكُوا﴾: جملة تقوم مقام المفعول الأول. ﴿أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا﴾: مجرور بحرف مقدّر تقوم مقام للمفعول الثاني، والتقدير: لأجل قولهم: ﴿آمَنَّا﴾. ﴿وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾: في محلّ نصب حال، والفتنة والفتون: فساد حال النّاس بالعدوان والأذى. ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: ﴿سَاءَ﴾: فعل للذّم. و﴿مَا﴾: في موضع رفع فاعل "ساء"، أو في موضع نصب تمييز. ﴿يَحْكُمُونَ﴾: مستعمل في معنى الظّن تحكّما لهم. ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾: فسّر بعضهم لقاء الله بالحشر للجزاء، وقيل: هو الطّمع في جزائه بالجنة، و﴿أَجَلَ اللَّهِ﴾: هو الوقت المحدّد في علم الله ليوم البعث والحساب، والتوكيد في جواب الشّرط هو للتحريض على الاستعداد له. ﴿وَمَن [illegible]

في المعنى المطلق، ويجوز أن يراد به المعنى المصطلح عليه في الشريعة، أي قتال الكفّار لنصرة الإسلام، وعلى كلا الاحتمالين فإنّ جواب الشرط يفيد بأنّ منفعة جهاده تعود عليه. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: النصب: ﴿أَحْسَنَ﴾ على أنّه وصف لمصدر محذوف هو مفعول مطلق، والتقدير: ولنجزينهم جزاء أحسن.

ج)- البيان والتّفسير:

وردت في أسباب النزول أحاديث كثيرة تتّفق كلّها على ذكر ما لقيه المسلمون الأوائل في مكّة من مكر المشركين وأذاهم حتّى شكا بعضهم ذلك إلى رسول الله يطلب منه أن يستنصر الله لهم فكان الرّسول يدعوهم إلى الصّبر والثّبات، وقد روى البخاري عن خبّاب بن الأرتّ قال: «**شكونا إلى رسول الله ﷺ، وقد لقينا من المشركين شدّة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟، ألا تدعو لنا؟، فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرّجل فيُحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يُؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه وما يصدّه ذلك عن دينه**».[1]

قال تبارك وتعالى: ﴿**الٓمٓ، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾.

القول في الحروف المقطّعة في أوائل السّورة هو كما تقدّم نظيره في السّور السّابقة من معنى التّحدّي للمشركين بإعجاز القرآن، وهو مؤلف من تلك الحروف أن يأتوا بمثله.

حتى ملك حلمهم بعد [illegible] أن يتحوّل عونًا من ... وحاشاه أن يفعل ذلك-

فهذه الحروف المقطّعة، وإن لم يرد بعدها ذكر القرآن أو الكتاب كشأن أغلب السّور المبدوءة بتلك الحروف، فإنّ ما ذكر بعدها هنا هو في إطار ما يسبّبه الإيمان بالكتاب والالتزام بتكاليفه من المعاناة والصّبر على أنواع الابتلاء التي يتعرّض إليها المؤمن ليستعدّ لذلك.

فقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾، الاستفهام لإنكار حسبان تركهم في مأمن من إفتان المشركين لهم بعد أن خالفوهم في الإيمان وانحازوا عنهم في شؤونهم وأحوالهم؛ وذلك لأنّ الإيمان يقتضي من أولئك المؤمنين أن يمتحنوا بأنواع من المشاقّ والمتاعب دفاعا عن عقيدتهم بالجهاد وما يتطلّبه من التّضحية بالأموال والأنفس وتحمّلا لأنواع التّكاليف في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، ثم التّعرّض لأنواع البلايا والمصائب التي هي من سنّة الحياة كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (آل عمران:١٨٦)، وما أبلغ التّعبير القرآني في اختيار لفظ: ﴿النَّاسُ﴾ عوضا عن "الذين آمنوا"، ليكون الحكم عامّا لأمّة الدّعوة إعدادا لها لتكاليف الاستجابة لدعوة الإسلام؛ لأنّ الابتلاء يتناسب مع حجم الإيمان كما بيّن ذلك رسول الله في قوله: «**أشد النّاس بلاء الأنبياء، ثم الصّالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرّجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء**».[1]

ونظير هذه الآية قوله تعالى:

[illegible]

أ)- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ (آل عمران:١٤٢).

ب)- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة:٢١٤).

وفي معنى هذه الآية الثّانية من بيان سنة الله في خلقه بالفتون لأجل الإيمان يقول الحق هنا: **﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾**، أخبر الله مؤكّدا الجملة بلام القسم وحرف التّحقيق تسلية للمؤمنين الذين فتنوا بأنهم ليسوا بدعا ممن سبقوهم في الإيمان، وفي مقدمتهم الأنبياء والرّسل، امتحنهم الله بأنواع من الشّدائد والبلايا.

وإسناد الإفتان إلى نون العظمة هو إسناد مجازي، على اعتبار أنّ الله هو خالق الأسباب ومقدّرها في حالتيّ الابتلاء بالفتنة أو العصمة منها، وهذه الجملة حالية من الجملة السّابقة لتكون محلّ الاعتبار والتّأسّي، وبما أنّ لكلّ موقف جزاءه عند الله -وهو أعلم به من قبل أن ينكشف للناس صدقه أو كذبه-، فهو الذي يجازي كلّ أحد على نوعية إيمانه، أي إنّ علمه تعالى بذلك متقرّر في الأزل قبل نزول الفتون، ويقول الإمام ابن عاشور في مبنى هذه الآية: "وتعريف المتّصفين بصدق الإيمان بالموصول والصّلة الماضية لإفادة أنهم اشتهروا بحدثان صدق الإيمان وأنّ صدقهم محقّق، وأمّا تعريف المتصفين بالكذب بطريق التّعريف باللاّم وبصيغة اسم الفاعل فلإفادة أنهم عهدوا بهذا الوصف وتميّزوا به، مع ما في ذلك من التّفنّن والرّعاية على الفاصلة".[1]

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير: ٢٠٦/٢٠.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، على ذكر إفادة معنى الجزاء على الصّدق والكذب في الآية السّابقة، جيء بـ"أَمْ" التي تفيد الإضراب الانتقالي، ويقدّر بعدها استفهام إنكاريّ، والتّقدير: أظَنَّ الذين يرتكبون المعاصي أن ينفلتوا عنا فلا نجازيهم؟. وذلك وعيد شديد لكلّ من يقترفون السّيئات و لم يتوبوا، فهو يشمل المشركين بصفة عامّة ممن يفتنون المؤمنين في كلّ زمان ومكان، ولو كان سبب النّزول لأشخاص معيّنين من مشركي مكة، وقد جعلها البعض للشرك فما دونه من مختلف المعاصي إذا تمادى عليها الفاسق، وجملة: ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ هي بمعنى أن ينفلتوا من عقابنا، وهذا حكم خاطئ يجافي منطق العقل والشّرع كقوله تعالى في الذين كفروا: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾ (الأنفال:٥٩).

قلت: إن المؤمن المتمادي على الإتيان بالسّيئات –سيما الكبائر منها– تهاونا أو استخفافا بوعيد الله، فهو بمنزلة أولئك الكفار الذين فتنوا المؤمنين عن دينهم، وكم في واقعنا المعيش اليوم من مظاهر ذلك التّهاون، سيما من أولئك الذين يكتفون بمجرّد النّطق بالشّهادتين في إيمانهم ولا يكلّفون أنفسهم أيّ عناء أو التزام بالتّطبيق العملي لمقتضى تلك الشّهادة في سلوكهم ومعاملاتهم، فبئس حكمهم، ولذلك أعقب الله ذلك الوعيد بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَأَتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وعلى أسلوب القرآن في المزاوجة بين الوعد والوعيد وبين التّرغيب والتّرهيب، فقد جاءت هذه الجملة الشّرطية تثبيتا للمؤمنين، وهم يفتنون في دينهم، فهم في كلّ الأحوال إلى خير بين إتيان أجل الله القريب بالنّصر والتّمكين في الدّنيا، أو أجله الموعود به في اليوم الآخر من الثّواب والأجر والفوز برضوانه الكبير.

وفي تأكيد جملة الجزاء بـ"إن" و"اللاّم" تحريض على العمل والاستعداد لحسن لقاء الله، حتى لا يكون طول الانتظار لذلك مثبطا لعزائم المؤمنين مهما فُتنوا

في دينهم. والتذييل بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ جاء على مقتضى الإيمان بمراقبة الله لتصرفات عباده، حتى لا يشكّ المؤمنون في وعد الله فيستبطئون النصر في الدّنيا أو يشكون في توفية الجزاء عند الحساب.

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾، والمجاهدة تتمثل في تحمّل مشاق التّكليف، وجاءت هنا مطلقة لتتناول الجهاد الأكبر في مدافعة شهوات النّفس الأمّارة بالسّوء ووساوس الشّيطان، والجهاد الأصغر في قتال الكفار لنصرة الإسلام، وفي كلتا الحالتين فإن ثمرة ذلك الجهاد تعود على نفس المجاهد هناء وسعادة وحياة طيّبة في الدّنيا، ونعيما ورضوانا في الأخرى، لأنّه تعالى غنيّ عن خلقه، لا تنفعه طاعتهم ولا تضرّه معصيتهم.

ولكن للمطيعين جزاؤهم الأوفى عند الله إذ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وجه العطف هذه الجملة على ما سبق من قوله: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾، هو لبيان فضل الله زيادة على عدله في المجازاة، ولما كان مجلى المجاهدة هو الإيمان وعمل الصّالحات، وعلى رجوع نفع ذلك إلى المجاهد نفسه، فإنّ فضل الله يقتضي أن يجازيهم على الحسنات بأحسن منها مع التكفير لما قدّموه من السّيئات، والله يضاعف أجر الحسنات بحسب تقديره لبواعثها في النّفس من النّية والإخلاص لوجهه الكريم، وفي ذلك تشجيع لبواعث الخير في نفس المؤمن، وهذه البشارة تشمل كلّ أصناف المؤمنين، أي حتّى أولئك المشركين الذين تركوا الشّرك وانضموا لركب الإيمان، وهم أحرياء بهذا الوعد.

والله أعلم.

والحساب، والتوكيد في جواب الشّرط هو للتحريض على الاستعداد له. ﴿وَمَن

أحوال علائق المسلمين بالمشركين، وموقف المنافقين

أ]- النص:

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ
إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

ب]- التحقيق اللغوي:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾: إخبار هو بمعنى الأمر، والتوصية كالإيصاء يتعدّى بالباء. و﴿حُسْنًا﴾: اسم مصدر، والتقدير: أن يفعل معهم حسناً، أو هو الحسن نفسه للمبالغة. ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: المجاهدة: الإفراط في بذل الجهد. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: أي دليل من العقل أو الشرع على استحقاقه لوصف الألوهية. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: أي لنلحقنهم في الصّالحين من عباد الله، ويفسّر الصّالحين قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾

[illegible]

أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾: الأذى إلحاق الضّرر بالغير. ﴿فِي اللَّهِ﴾: أي لأجل اتباع دين الله، والتشبيه في قوله: ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ يفيد التسوية بين الأمرين: فتنة الناس، وعذاب الله. ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾: أي في إظهار الدّين وإظهار نصرته، فنحن نستحقّ الإشراك في الغنائم. ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾: الاستفهام إنكاري لقولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، ويحتمل أن يكون الاستفهام تقريريا توجّه الله به إلى رسوله ليخبره بأحوال المنافقين. ﴿بِأَعْلَمَ﴾: يحتمل للمفاضلة وعدمها. ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾: المراد بإتباع السّبيل أن يرتدّ المسلمون عن دينهم، وحمل الخطايا هو تعبير، تمثيل لحال الملتزم بمشقة غيره. ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ الأولى للبيان و﴿مِن﴾ الثانية زائدة لتأكيد العموم، ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾: بدل اشتمال من جملة: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ﴾. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾: هم يجمعون بين أثقال خطاياهم بالضّلال في ذوات أنفسهم وأثقالا بالإضلال لغيرهم.

ج)- البيان والتّفسير:

كانت وضعية المسلمين في مكّة بالغة الحساسية في علاقاتهم بالمشركين، وبينهم وشائج القربى والنّسب، ممّا يستدعي الإحسان وطيب العشرة سيما مع الوالدين؛ فقد يهدي الله الولد إلى الإسلام بينما يبقى والداه أو أحدهما على الشّرك، فيبذلان جهدهما لصرف ولدهما عن الإيمان، حتى بإلحاق الأذى به أحيانا. وقد حدث من ذلك ما دعا إلى إنزال حكم الله لصيانة الدّعوة وهي في مهدها الأول، تواجه المكر والأذى من المشركين، وينقل الرّواة في أسباب النّزول ما حدث لسعد بن أبي وقاص مع أمّه حمنة بنت أبي سفيان، حين امتنعت عن الطّعام والشّراب لمدة ثلاثة أيام حتى يرجع ولدها سعد عن دينه ويكفر بمحمّد ﷺ، ولكنّه تحدّاها أن لا يفعل ذلك، فأمره رسول الله أن يداريها ويترضّاها بالإحسان، وفي شتّى [illegible]

فعلت أمّه معه مثل ذلك. ولكن الوصية عامّة تسند مثيلاتها في القرآن سيما نظيرها في سورة لقمان.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾.

مهّد الله لمعالجة قضية ضغط الوالدين المشركين على ولدهما المؤمن بالارتداد، مهّد الله بالتوصية بالإحسان إليهما في كلّ حالة، إلاّ في حالة دفع ولدهما إلى ارتكاب أعظم الكبائر سوءاً، وهي الإشراك بالله، فقد نهى الله عن طاعتهما في تلك الحالة، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وحقّ الله مقدّم على كلّ الحقوق الأخرى، ولكن الأمر بالإحسان إليهما لا يناقضه النهي عن طاعتهما في حالة خاصّة، وهي تلك التي تتعلّق بإفساد العقيدة، لأنّ الإحسان أعمّ وأشمل في المعاملة، ولذلك نجد رسول الله يأمر سعداً بمداراة أمّه وترضيتها حتى في ذلك الموقف المحادّ لله، ونجد في آية سورة لقمان النّظيرة لهذه الآية، نجد زيادة قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾(١٥).

ويرى بعض المحقّقين أنّ آية سورة لقمان نزلت في مكّة، حيث ما يزال المسلمون مستضعفين لم ينفصلوا عن المجتمع، ممّا يضطرّهم إلى تلك المصاحبة بالمعروف لألصق النّاس بالمؤمن، أمّا في المدينة المنوّرة وقد أصبح للمجتمع المسلم كيانه المستقل، وقد اتّبع الرّسول مع المشركين سياسة المفاصلة والمتاركة، فإنّ آية سورة العنكبوت، -وهؤلاء المحقّقون يرونها مدنية رتّبت في سورة مكية- فإنّ هذه الآية تخلو من تلك الزّيادة، ضرورة اتّباع حكم الله في بلد الشرك وأهله، ولو كانوا أولي قربى من مثل قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ [illegible] وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
الشّرع على استحقاقه لوصف الألوهية. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: لنلحقنهم في الصّالحين من عباد الله، ويفسّر الصّالحين قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

والتذييل هنا بقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كان مناسبا لإتمام ذلك الإرشاد الإلهي في فظاعة أمر الشرك، وأنّه تعالى لا يحابي فيه أحدا من عظم حقّه عندنا، فهو الذي يجاري كلاًّ بما يستحقّ.

ولزيادة الاهتمام بجانب المؤمنين الأوفياء أعقب ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾. ذلك لأنّ للإيمان تبعاته الشّاقة في امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، ومنها تلك المضاضة التي يجدها الإنسان في مجافاة أحبّ النّاس وأقربهم إليه طلبا لرضى الله ومحبته في اتّباع هديه، كان وعده تعالى بمثل هذا البديل الكامل في الجزاء الوافي للصالحين من عباده أنسا ونعيما في الرّفيق الأعلى من النّبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾.

كثيرا ما يصنّف القرآن أمّة الدّعوة إلى أصناف ثلاثة: مؤمنون أوفياء، وكفار جاحدون، وبين الصّنفين فئة المنافقين، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وهم المشار إليهم في هذه الآية الكريمة، وهم الفئة الخطيرة على المجتمع المسلم، تعدّدت مواصفاتهم في القرآن والسنّة، وهذه الآية الكريمة ركّزت على بيان موقفهم في علاقاتهم بالمشركين، وكما ثبت من أسباب النزول أنّ هذه الفئة كانت مندسّة بين صفوف المؤمنين، يقولون آمنا بألسنتهم، ولكنّهم يضمرون الكفر ويتملّقون المشركين ضمانا لمنافعهم المادّية، وعندما يقعون على محكّ التّمحيص بما قد يصيبهم من أذى المشركين فإنّهم لا يصبرون كما يقتضيه الإيمان الرّاسخ بل سرعان ما يرتدّون عن الإسلام، لأنّهم لضعف إيمانهم بيوم البعث والجزاء يسوّون

الشّرع على استحقاقه لوصف الألوهية. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: لنلحقنهم في الصّالحين من عباد الله، ويفسّر الصّالحين قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

بالإيمان، بل هم ممن قال الله فيهم: ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ١٠٦).

ثم إنّ هؤلاء يتّصفون بما نسمّيه اليوم بالانتهازية، وذلك من خلال موقفهم في أيّ نصر يحقّقه المسلمون فيقولون لهم: إنّا كنّا معكم بالنصر والتأييد فلنا معكم نصيبًا من الغنائم. فإذا كانت مثل هذه المواقف النافعة قد تخفى على الناس فهي عند الله مكشوفة وواضحة، فكان الردّ الحاسم بهذا الاستفهام الإنكاري: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾، فالخطاب موجّه لرسول الله ليسمع أولئك المنافقين حكم الله عليهم بالنفاق والمراوغة، وأنّه تعالى يمحّص خلقه بأنواع تلك الفتن، سيما تلك التي تأتي من قبلهم ضدّ بعضهم بعضًا، حتى تنكشف بذلك طبائع الناس، فيعلم من هو صادق في إيمانه ومن هو منافق كذّاب.

وجاء ذلك بصيغة التأكيد بلام القسم ونون التوكيد، لبيان شمول علم الله بأصناف خلقه وأنّه تعالى يجازي كلّ صنف بما يستحقّ، ولا يخفى ما في ذلك من ترغيب وترهيب.

ولا أخسّ من صفة النفاق، فهي دليل على ضعف الشخصية وضعف الإرادة، سيما عند انطلاقة الدعوات الصالحة التي تحتاج في تركيز دعائمها إلى أصحاب الإرادة والمبادئ الثابتة. يقول الشاعر الحكيم:

إذا رُمتَ أن تلقى من الناس حرمة ... فكن سيّدًا للعفو أو سيّد الشرّ

بينما يقول آخر في معنى النفاق:

إذا اضطرمت فتنة في البلاد ... ورمت النجاة فكن إمّعة
أحبّ الحسين ولكنّما ... لساني عليه وقلبي معه

قالها في فتنة بني أمية مع العلويين.

وكان من الفتن الشّديدة على المسلمين تعرضهم لمحاولات المشركين في أن يرتدّوا عن دينهم بأنواع من الأذى والمغالطات فقال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**.

إنها تفنّن في أساليب المكر من المشركين، فمع استعمال البطش والأذى لمن تمكّنوا منهم من المستضعفين، فإنّهم قد لجأوا إلى الإغراء والمغالطة لفريق آخر من المسلمين، يغرونهم للارتداد عن دينهم بأسلوب اللّين والخداع، فيقولون بصيغة الأمر: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾، والواو بين الجملتين لإفادة المعية التي تدلّ على الالتزام بحمل مشقّة تلك الخطايا إن هم اتبعوا سبيل المشركين، وفي ذلك تهكم بمعتقد المسلمين في يوم الجزاء، ولذلك جاء الرّدّ الإلهي بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، جاء الرّدّ تكذيبا لزعمهم، جاء مؤكّدا لإفادة نفي العموم على قاعدة: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (الأنعام:١٦٤)، والتذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ لأنّ ذلك الادّعاء مخالف تماما لما هو واقع منهم في الدّنيا ولمعتقدهم في الأخرى.

ثم أعقبه تعالى ببيان عاقبة أمثالهم من الضّالين والمضلين فقال: **﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾**.

فقد شبّه الله تبعات الذّنوب المتراكمة بالأثقال المحمولة تنوء بالكواهل المثقلة، فهؤلاء المشركون أضافوا إلى أثقالهم الذّاتية أثقال غيرهم ممن كانوا يضلّونهم، فهي زيادة لهم في العذاب والشّقاء يوم القيامة عندما يحاسبون على ما اقترفوه، فيسألون عليه سؤال توبيخ وتقريع لما كانوا يختلقونه من أنواع الإفك والتّضليل لأتباعهم، ومن الإغراء والمغالطة للمسلمين. وقد جاء في الحديث: «**من سنّ سنة حسنة فله**

الشّرع على استحقاقه لوصف الألوهية. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: لنلحقنهم في الصّالحين من عباد الله، ويفسّر الصّالحين قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

من عمل بها إلى يوم القيامة».[1]

مختصر قصّة نوح عليه السلام مع قومه

أ)- النصّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: ﴿لَبِثَ فِيهِم﴾: أي مكث فيهم يدعوهم إلى الله بعد أن اصطفاه الله رسولا، وقد اختلف المؤرخون والمفسّرون في سنة بعثه، وفي المدّة التي عاشها بعد الطّوفان، فـ"ألف" منصوب على الظّرفية، و﴿عَامًا﴾ منصوب على التمييز. ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾: الأخذ يدلّ على القوة والشدّة، و﴿الطُّوفَانُ﴾: اسم لما طاف بكثرة كالماء والظّلام، ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾: حال. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾: أي نوحا ومن كان معه من أولاده المؤمنين ومن أتباعه، قيل: إنّهم ثمانون نفرا. ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: الضّمير في: ﴿جَعَلْنَاهَا﴾ عائد إلى السّفينة على الأرجح، وقيل: عائد إلى الخبر المذكور في القصة.

ج)- البيان والتّفسير:

جاءت هذه القصص المتتالية لرسل عانوا مع أقوامهم مكابد الإعراض

الشّرع على استحقاقه لوصف الألوهية. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: لنلحقنهم في الصّالحين من عباد الله، ويفسّر الصّالحين قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

والتكذيب لبيان عاقبة المكذبين تثبيتا لرسول الله وتسلية له مما يكابده مع قومه، وإنذارا لهم مما قد يصيبهم إن هم تمادوا على كفرهم، وفي هذه القصص تأكيد لسنة الله في الابتلاء.

وقد بدأ الله بقصة أطول الأنبياء عمرا سيدنا نوح عليه السلام، وقد حددت الآية مدة دعوته الطويلة لبيان مصابرته ومعاناته التي انتهت بالطوفان. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

افتتحت القصة المختصرة بلام القسم "وقد" لتأكيد مضمونها؛ لأنها عريقة في القدم، ولم تكن ذرية آدم من الكثرة المقدّرة في علم الله لعمارة الأرض قد استوفت مداها، ولعلّ ذلك يفسّر الحكمة من إطالة العمر لأولئك الأقوام الأوائل وامتيازهم بفراهة الأجسام حتى يتمكنوا من تسخير الأرض وتمهيدها لمن يأتي بعدهم من الأجيال، ومع كثرتها وانتشارها عبر مختلف القارات، ومع التقدم الحضاري ووفرة الوسائل المادية في عمارة الأرض تتقلص مدة الأعمار حتى أصبحت في تقرير رسول الله لأعمار أمته كما قال: «**عمر أمتي من ستين سنة إلى سبعين سنة**»[١]

وها هو سيدنا نوح عليه السلام يصابر ويرابط في إبلاغ دعوته لمدة تسعمائة وخمسين سنة، وفي اختيار هذا التعبير للعدد المذكور نورد ملاحظتين لكلّ من الإمامين القطب اطفيش والإمام بيوض إبراهيم.

أ)- يقول الإمام بيوض -رحمه الله-: "اختار الله تعالى التعبير بقوله: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ليصدم الناس بالألف ثم يستثني، على أنّ الناس قد اعتادوا التعبير بالعقد على العدد القريب منه كالمائة والألف فيذكر العقد (أي العشرة) ثم

١- رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، كتاب (٣٧) الزهد، باب (٢٣) ما جاء في فناء أعمار هذه الأمة ما بين الستين إلى السبعين، رقم ٢٣٣١.

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

يطرح منه القليل، ثم إن الاستثناء تدقيق في المدّة يعني إنها حقًا تسعمائة وخمسون عامًا، ذلك لأنّ النّاس اعتادوا ذكر العدد بالتقريب بأن يزيد أو ينقص قليلا، أما إذا ذكر عدد ثم أنقص منه فإنّه يدلّ على أن ما بقي هو العدد الحقيقي".(١)

ب)- وللقطب -رحمه الله- ملاحظة في تنويع اللّفظين: "سنة" و"عام"، إذ قال: "اختار لولا لفظة "السّنة" لشهرتها في الشّدة بالجدب المناسبة لما لقي من قومه وقت دعائه لهم، والعام أعمّ".(٢)

قلت: والتّعبير بالسّنة هو أنسب -أيضا- بافتتاحية السّورة في بيان منّة الله في الاختبار بالفتن وصنوف الخلق أزاء ذلك، أمّا مدّة عمره بزيادة فترة نشأته إلى وقت اصطفائه والمدّة التي عاشها بعد الطّوفان فلم يضبطها المفسّرون بخبر قطعيّ يعوّل عليه، وإنما الفائدة والعبرة هي في ذكر مدّة صبره وجهاده في دعوته لما في ذلك من التّسلية لرسول الله، ومن الإنذار لقومه أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح من أخذهم بالطّوفان جرّاء طغيانهم وكفرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وتفاصيل ذلك الإنجاء مذكورة في سورة هود ﷺ، وقد اختلف المفسّرون أيضا في تحديد عدد النّاجين على ظهر السّفينة، وإن ذكر القرآن أنّهم كانوا قليلا، فقيل: إنّ الحملة ثمانون، وقيل: ثمانية وسبعون، نصفهم ذكور ونصف إناث، وقيل غير ذلك، والله أعلم بعددهم، وإنما العبرة في بقاء حطام السّفينة على الجودي، يقول الإمام ابن عاشور: "الجودي جُبيل قرب قرية تسمى (باقِرْدَى) من جزيرة ابن عمر قرب المَوْصل شرقيّ دجلة".(٣)

١- إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن: ٧٢/٩-٧٣.

الشّرع على استحقاقه لوصف الألوهية. ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾: لنلحقنهم في الصّالحين من عباد الله، ويفسّر الصّالحين قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِ

وكونها آية للعالمين أي لجميع سكان الأرض؛ لأنه تعالى قد ألهم نوحا صنعها على الشكل الذي أصبح نموذجا يحتذى به في صناعة السفن التي أصبحت هي الأخرى آية لقدرة الله وفضله على خلقه، لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٢-٣٣)، والله أعلم.

من قصة إبراهيم عليه السلام

أ)- النص:

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا
عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ
يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾: ﴿إبراهيم﴾ معطوف على ﴿نوحا﴾، والتقدير: ولقد ...جعلهم في الصالحين من عباد الله، ويفسر الصالحين قوله تعالى: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

أرسلنا إبراهيم. ﴿إذ قال﴾: أي في وقت قوله لقومه. ﴿اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾: العبادة: هي الطّاعة المطلقة لله في حبّ وإجلال وتذلّل لعظمته، ولا يكون ذلك إلا لله، وإنما الشّعراء يبالغون في التّعبير عن فرط الحبّ للمحبوب كما قال أمير الشّعراء:

فيقول تكاد تجنّ به فأقول وأوشك أعبده

والتقوى: هي اتقاء عذاب الله بترك المعاصي فهي داخلة في العبادة. ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: "إنما" تفيد القصر الحقيقي؛ لأن القوم كانوا لا يعبدون الله، بل يعبدون الأوثان، وهي الأصنام من حجر أو خشب مجسمة. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: أي تختلقون الأكاذيب. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: الاستفهام إنكاريّ، والرّؤية يجوز أن تكون بصرية أو علمية، وبدء الخلق: إيجاده بعد أن لم يكن، وإعادته أي للحياة الأخرى، على الكيفية التي يريدها الله، وبين ﴿يُبْدِئُ﴾ و﴿يُعِيدُهُ﴾ طباق. ﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾: أي بعد النشأة الأولى للحياة الدّنيا التي قال تعالى في شأنها: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الواقعة:٦٢). وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾، هو بيان لما تضمّنه الاستنكار لعدم الرّؤية المؤدية للعلم بقدرة الله. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾: جاء نظير هذه الآية في سورة الشّورى بدون ذكر: ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، والمقصود به هنا تأييسهم من الانفلات بأنفسهم في جميع الأمكنة، ولعل في إضافة "السّماء" هنا إشارة إلى عبادة الملائكة وما إليها من الأجرام السّماوية كالشّمس والقمر.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: قرأ الجمهور بياء الغائب، والضّمير عائد إلى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

الذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين

في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، أو إلى معلوم من سياق الكلام، وعلى وجه أن يكون قوله: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ خارجا عن مقالة إبراهيم يكون ضمير الغائب في: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ التفاتا. وقرأ الكسائي وحمزة وأبو بكر عن عاصم وخلف: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾ بالفوقية، على طريقة: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ على الوجهين المذكورين.

د)- البيان والتفسير:

لإيراد قصّة إبراهيم بعد قصة نوح -وبينهما عدد من الرّسل وفترة طويلة من الزّمن في موكب الحضارة البشرية- لإيراد ذلك تناسب بليغ في بيان قدرة الله تعالى في إنجاء رسله؛ لأنّ كلاًّ من الماء والنار له قوّة مادّية هي فوق طاقة الإنسان في ضبطها والتحكّم فيها، ففي مصابرة هذين الرّسولين لمكايد قومهما نموذج حيّ لرسول الله للتأسّي والاقتداء، إذ قال تعالى:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، ﴿إبراهيم﴾ معطوف على ﴿نوح﴾، والتقدير: ولقد أرسلنا إبراهيم، ويجوز أن يكون منصوبا بفعل محذوف، أي: واذكر -أيها الرّسول- حين دعا إبراهيم قومه لعبادة الله واتقاء غضبه. مما يدلّ أنّ أولئك القوم كانوا لا يعبدون الله، والعبادة هي الخضوع لله في محبة وإجلال لعظمته، وهي في قمة المشاعر الإنسانية التي لا تدانيها محبّة لأي مخلوق مهما عظم شأنه، كما بيّن رسول الله ذلك في قوله: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما**»[1]، ومن تمام العبادة أن يتّقي المؤمن غضب المعبود، وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

١- رواه أحمد في المسند من حديث أنس بن مالك، رقم ١٣٦٧٤: ٣/٢٠٧.

الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِ

ثم علّل إبراهيم دعوته بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وكلمة: ﴿خَيْرٌ﴾ تحتمل التفضيل وعدمه، وإدراك الخيرية تتفاوت فيها عقول الناس، فلا بدّ من الاسترشاد بهدي الله لإدراك معاييرها، وفي قمّة تلك المعايير إدراك أدلّة اختصاص الله بالألوهية، ولذلك أقام إبراهيم تلك الأدلّة لقومه حتى يدركوا ما هم عليه من فساد المعتقد فقال:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾: والأوثان جمع وثن، وهو صورة مجسّمة لإنسان أو حيوان، مصنوعة من حجر أو خشب أو غيرهما، وكونهم يخلقون لها إفكا -وهو الكذب الصّراح-، لأنّهم يصنعونها ويشكّلونها بأيديهم، ويضعون لها أسماء ترمز إلى بعض أوليائهم وزعمائهم، ويعتقدون فيها النّفع والضّرّ، كما كان يزعم كفار قريش، والتّعبير بالإفك المختلق جاء لتسفيه تلك العبادة الباطلة.

وبما أن مطلب الرّزق يأتي في أولَيات مطالب الإنسان بمختلف الوسائل المادية والمعنوية، فإنّ إبراهيم قد أضاف لدعوته دليلا آخر لفساد معتقد قومه في تلك الآلهة، بأنّها لا تملك لهم أيّ رزق تجلبه لهم قليلا أو كثيرا، صغيرا أو كبيرا، وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، يدلّ على أنّهم يعتقدون جلب الرّزق من أصنامهم، ولذلك ذكّرهم بأنّ الرّازق هو الله وحده، وهو المستحقّ للعبادة والشكر، وبما أنّ أغلب المشركين لا ينكرون أن الخلق والإيجاد من الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (الزخرف:٨٧)، ولا ينكرون أنّهم سيموتون حتما، وبين الحياة والموت ضرورات الرّزق وتكاليف المعاش فمن غير الله كافلها لخلقه؟، فكان التّذكير بذلك من إبراهيم لقومه تذكيرا بما لا يمكن أن ينكروه، ويبقى الرجوع إلى الله محلّ شكّ عندهم، فجاء التّعبير بما يفيد القصر: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه وحده لا إلى غيره ليجازيكم على ما تدّعمونه، وهكذا يكون إبراهيم قد ربط البعث بقضية الألوهية.

وثالثة الأثافي في العقيدة هي الإيمان بالرّسل، فقال: **﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾**.

يرد احتمالان في موقع هذه الآية خلال القصة:

أ)- أنّها من جملة مقولة إبراهيم لقومه.

ب)- أنّها من كلام الله موجّه إلى مشركي مكّة.

وفي كلا الاحتمالين أجمع القراء على: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ بتاء الخطاب لا غير، وعلى الاحتمال الثّاني تكون معترضة بين مقولة إبراهيم وجواب قومه، فإن كانت الجملة من كلام إبراهيم فهي تدلّ على موقف قومه من دعوته بأن كذّبوه، وهم يظنّون بذلك أنّهم يتشفّون منه ويمكرون به فكان ردّه عليهم بأنّهم لا يضرّونه بذلك، فقد كذّبت أمم من قبله رسلها فلقهم ما حاق بهم من الهلاك، وما على الرّسول إلاّ أن يبلّغ ما كلّفه الله به، وعلى الله هدايتهم أو ضلالهم، وإن كانت الجملة من كلام الله فهي موجّهة إلى كفّار قريش فيكون المراد من الرّسول هو محمد ﷺ وهو يتأسّى بمن سبقه من رسل الله في تحمّل الإعراض والتكذيب من قومه، وهم أحفاد لإبراهيم.

وبما أن الرّكيزة الثّانية في العقيدة هي الإيمان بالبعث -وقد تقدّمت الإشارة إليه- دون تفصيل، جاءت هذه الآيات الاعتراضية لبيان ذلك فقال جلّ من قائل: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ، قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الأَخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

أغلب المفسّرين على أن هذه الآيات اعتراضية بين مقالة إبراهيم وجواب قومه جاءت على أسلوب القرآن في التوجيه والتّذكير، فهي من الله إلى أولئك المشركين في مكّة تنظيرا لهم بحال قوم إبراهيم، والاستفهام في أوّلها إنكاري للتوبيخ

والتفريع، كيف لم يستدلّوا على قدرة الله في البعث بما يشاهدونه من الخلق الأول لحياتهم العاجلة، والرّؤية المطلوبة تكون بالمشاهد المحسوس بمظاهر الحياة في ذواتهم وفي صنوف الحيوان والنبات. وجيء بصيغة المضارع: ﴿يُبْدِئُ﴾ للدّلالة على التجدّد والاستمرار.

وإيجاد الخلق الأول مشاهد في ظواهره المادية وإن كان لغز الحياة ما يزال مجهولا، وإمعان النّظر في ذلك يؤدّي -لا محالة- إلى معرفة قدرة الله والتسليم ببديع صنعه، غير أنّ إعادة الخلق للبعث التي عطفت بـ"ثم" للتراخي هي موعود لها من قبل الخالق على ألسنة رسله، والخلق يجهلون كيفيتها، فإن التنظير بينهما وبين الخلقة الأولى هي الأنسب لإقامة الدّليل عليها، فإن التّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هو الأنسب -أيضا- في المقام، وإنما يأتي ذكر اليسير والعسير على منطق إلفنا وعادتنا -نحن البشر-، ولله المثل الأعلى، فلا يسر ولا عسر في كمال قدرته كما قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان:٢٨).

وبعد الصّيغة الاستفهامية لاستخدام الرّؤية البصرية المشاهدة جاء الأمر بالسّير في الأرض لاستخدام الرّؤية العلمية فقال: **﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**.

لقد سلك الإنسان في استكناهه لحقائق الأشياء كثيرا من المناهج، واستعمل كثيرا من الأساليب، فإذا كان البحث التجريبي الذي وضع أسسه العلماء المسلمون وطوّره الأوروبيون في أبحاثهم المختلفة لعلوم المادة، إذا كان ذلك النوع من البحث قد أتى أكله في ذلك المجال المادّي، وما يزال ينمو ويتطوّر، فإنّ المنطق العقلي والفلسفي -أو ما يسمّيه المسلمون بعلم الكلام- في إدراك الحقائق المجرّدة ممّا وراء المادّة في ما يتّصل بالمعتقدات، فإنّ مثل ذلك العلم لم يُغن العقل البشريّ فتيلا في ترسيخ المعتقد الصّحيح، ولذلك نجد مثل ذلك الزّخم من الأوامر الإلهية لتوجيه العقل البشري إلى التأمّل الواعي في ما خلق الله:

أ)- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف:١٨٥).

ب)- ﴿وَفِي الأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات: ٢٠-٢٢).

وفي هذه الآية الكريمة من سورة العنكبوت يأمر الله رسوله أن يوجّه القوم المعاندين إلى السّير في الأرض للنظر في آيات الله، سيما تلك التي تتعلق بالخلق بما بثّ الله على ظهرها من دابّة، وما يكسوها من أنواع النباتات التي تعتورها الحياة والموت ما بين الفصول، وبما أنّ تلك الظّاهرة لا تبدو لنا في ذواتنا -نحن البشر- لأنّها تتمّ على مستوى الخلايا في دواخل أجسادنا، فإنّه تعالى ذكر لنا النّشأة الآخرة بصيغة المضارع المعطوف بـ"ثمّ" للتراخي، ويعني تلك النشأة الآخرة البعث للحياة الأبدية، وبما أنها حياة أخرى غير الحياة الأولى المألوفة لدينا، والتي قال عنها في آية أخرى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الواقعة:٦١)، فقد جعلها الله تعالى دليلا على قدرته فقال: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، إذ أنّنا لم تكن تشكّ في قدرته على الخلقة الأولى، وفي تقديرنا ومألوفنا أنّ إعادة الخلق تكون أهون من بدئها كما جاء التّعبير على ذلك في قوله بسورة الرّوم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢٧). فيتلخص من هذه الآية وأمثالها أنّ الطّريق لمعرفة الله والتّيقن بقدرته هي إمعان النّظر في ما خلق، ولله درّ أبي العتاهية إذ قال:

وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنه واحد
ولله في كلّ تحركة ... وتسكنة أبدا شاهد

وعلى ذكر آية الله في بدء الخلق وإعادته يأتي ذكر الحساب والجزاء موكولا إلى مشيئة الله فيقول: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ، وَمَا أَنتُم

بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

قدّم العذاب على الرّحمة ليناسب ذلك جوّ السّورة من التهديد والوعيد للكافرين الذين أنكروا البعث، ولذلك اختير قول: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ عوضا عن: ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لما في لفظ الانقلاب من الشّدة والقهر، عندما يُسلب عن المرء الاختيار، فينكشف له الغطاء عن حقائق الآخرة، حيث لا يكون الملك والأمر إلا لله يقضي بحكمه العادل عذابا أو رحمة، فلا ينازع في حكمه، ولا يفلت أحد من حسابه.

وبما أنّ المنكرين للبعث يعتقدون النّصرة والشّفاعة من أوليائهم الذين عبدوهم من دون الله، وقد تعدّدت آلهتهم ممّا اتخذوه من الأرض رمزا لزعمائهم، أو اتّخذوه رمزا لمخلوقات السّماء كالملائكة والجنّ والأجرام الضّخمة..إلخ، فقد نفى الله إعجازهم له بذلك في الانفلات من قبضته حسابا أو مجازاة، كما تحدّاهم الله على ذلك في ندائه للثّقلين فقال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ (الرحمن٣٣).

ومع تطويقهم في جميع الأمكنة أضاف الله تأييسهم من رحمته بسبب كفرهم بآيات الله، وإنكارهم للرجوع إليه في يوم البعث فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُوْلَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقد جعل الله سبب ما لحقهم من اليأس وما نالهم من العذاب هو كفرهم بآيات الله من القرآن المنزّل على رسوله، ومن كذّب بالقرآن فقد كفر بالله ولقائه، فلا مطمع له في رحمة الله التي سبقت غضبه.

وجاء التعبير بصيغة الماضي لما هو آت لتحقق وقوعه -لا محالة-؛ لأنّ المرء يُبعث على ما مات عليه مؤمنا أو كافرا، وتكرّر اسم الإشارة: ﴿أُولَئِكَ﴾ لتأكيد استحقاقهم لذلك.

وقد جاءت هذه الآيات المعترضة خلال قصّة إبراهيم، لتذكير أولئك الذين يدّعون أنّهم على ملّته، بأنّ الإدّعاء والأماني ليس لهما عند الله وزن ولا قيمة، وإنّما يقوم الحساب والجزاء على ما يقدّمه الإنسان من خالص الأعمال، والله أعلم.

إنجاء إبراهيم من النار، وإنعام الله عليه بذرية صالحة

أ)- النصّ:

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ
أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾: ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾: خبر كان منصوب، واسمها: ﴿أَن قَالُوا﴾: أن المصدرية وصلته. ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾: تردّدوا بين قتله بالسّيف أو إحراقه بالنّار. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: والآيات تبدو في تعطيل الله لسنة الإحراق في النّار بقوله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى

إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٩). وفي هذا التعليق تعريض بقوم إبراهيم بأنهم لم يؤمنوا بتلك المعجزة. ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾: ﴿مَّوَدَّةَ﴾: مفعول لأجله وهي المحبة والإلف، فهم يتوادون في عبادتها، ويدل فعل: ﴿اتَّخَذْتُم﴾ على الدوام والاستمرار. ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾: ﴿لُوطٌ﴾: هو ابن أخي إبراهيم، كان أول من آمن به. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾: الضمير يرجع إلى إبراهيم، هاجر من بلاد العراق إلى الشام في فلسطين، وكونها هجرة إلى ربّه فيها معنى التعليل لأجل عبادة الله. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: وذكر هذه الهبة له من الله لزيادة التنويه بشأنه، فإسحاق هو ولده من زوجه سارة، وهو بعد إسماعيل من هاجر، ويعقوب هو حفيده. ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾: الأجر الدّنيوي يتمثل في انتصاره على أعدائه وفي صلاح أولاده وأزواجه، وأما الأجر الأخروي فكونه من زمرة الصّالحين.

ج) – أوجه القراءة:

﴿مَوَدَّةَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر وخلف: ﴿مَوَدَّةً﴾ منصوبا منوّنا بدون إضافة، و﴿بَيْنَكُمْ﴾ منصوبا على الظّرفية، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم وروح عن يعقوب: ﴿مَوَدَّةَ﴾ منصوبا غير منوّن، بل مضافا إلى: ﴿بَيْنِكُمْ﴾، و"بينكم" مجرور، أو هو من إضافة المظروف إلى الظّرف. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورويس عن يعقوب: ﴿مَوَدَّةُ﴾ مرفوعا مضافا، على أن تكون: ﴿مَا﴾ في ﴿إِنَّمَا﴾ موصولة، وحقها أن تكتب مفصولة، و﴿مَوَدَّةُ﴾ خبر "إنّ". وتكون كتابة: ﴿إِنَّمَا﴾ متصلة من قبيل الرّسم غير القياسي، فيكون الإخبار عنها بأنها مودّة إخبارا مجازيا عقليا، باعتبار أنّ الاتخاذ سبب للمودّة.

د) – البيان والتّفسير:

بعد تلك الآيات المعترضة تأتي تتمّة القصّة إجابة من قوم إبراهيم لدعوته، إذ

لم يجدوا لأدلّته وبراهينه على وحدانية الله وبيان قدرته، لم يجدوا إلاّ الالتجاء إلى العنف والقوة شأن الطّغاة المتجبّرين إذا أعوزتهم الحجّة، فهؤلاء القوم لم يجيبوا إبراهيم إلاّ بتهديدهم له بالقتل أو الحرق بالنّار، والقائلون هم الكبراء والسّادة، وفي طليعتهم النمروذ الملك الطّاغية، إذ وقع اختيارهم على إحراقه بالنّار، فقد أخذوا يجمعون لذلك حطبا عظيما في مكان أحاطوه بجدران لإضرام سعيره، وتقول الرّواية أنهم رموا فيه إبراهيم بالمنجنيق، وقد اختصرت القصّة هنا بإنجاء الله له من تلك النّار المسعورة بتعطيل سنّة الإحراق، فكانت كما قال تعالى: ﴿بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، وكان ذلك معجزة لهذا الرّسول الكريم الذي رفع لواء التّوحيد في قوم وثنيين يقدّسون آلهتهم الباطلة، ويريدون الانتصار لها بعد أن حطّمها إبراهيم، ويدلّ على تمكّن الكفر منهم أنّهم تمادوا عليه حتّى بعد مشاهدتهم لتلك المعجزة التي أثبتت صدق إبراهيم في دعوته، ذلك لأنّ الإيمان هو الباعث التّأثّر والانتفاع بتلك المعجزات، بينما هؤلاء يصرّون على كفرهم، فأراد إبراهيم أن يبيّن لهم سبب ذلك الإصرار فقال:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾

كان من المنتظر أن تتأثّر قلوبهم إلى برهان المعجزة فيكفّون عن إصرارهم، وبما أنّهم تمادوا على موقفهم الجاحد فقد يئس إبراهيم من إيمانهم، فبيّن لهم الباعث على ذلك الإصرار والعناد أنّه تلك المودّة والألفة التي يتّخذها النّاس رابطة بينهم في المنافع العاجلة، وتتعدّد فروع تلك المودّة فتكون بين المعبودات وعابديها بحكم التّقليد والمحاكاة، كما تسري بين الأجيال بحكم الإرث والعرق، وبين الجيل الواحد بحكم الصّحبة والجوار... إلخ. كلّ ذلك هو من مظاهر الحياة العاجلة وبتنبيهه، فإذا

1 جاءت الآجلة فلا أنساب بينهم يومئذ وهم لا يتساءلون، بل هي القطيعة التّامّة

والتلاعن بين الأخلاء كما تصفه مشاهد القيامة في أكثر من آيات القرآن يلخصه قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٦٧).

ثم هددهم إبراهيم بما ينتظرهم من عذاب النار التي لا يجدي معها... ولا يجدون لهم نصيرا ينقذهم منها.

ثم قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

لوط هو ابن أخي إبراهيم، كان معه في محنته، فكان أول من آمن به، أي تبع ملته إيمانا وعملا. ولما يئس إبراهيم من إيمان قومه أعلن عن هجرته إلى ربه، أي لأجل عبادة ربه، وهي أول هجرة لأجل دين الله على أرجح ما يقول المفسرون، يقول الخطيب -رحمه الله-: "كما روي أنه هاجر من "كوثى" مع لوط وامرأته "سارة" ابنة عمه إلى "حران" ثم منها إلى الشام، نزل فلسطين، ونزل لوط "سدوم"، وهي المؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وهاجر إبراهيم حينئذ خمس وسبعون سنة، وهو أول من هاجر في الله تعالى"(١).

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: صفتان للذات العلية تناسبان الموضوع، لأن الله هو القوي القاهر، وهو المدبر الحكيم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾.

وتبدو حكمة الله وتدبيره: حماية إبراهيم في بقائه عقيما وهو بأرض الكفر، وعلى تقدمه في السن هو وزوجته "سارة"، فإن قدرة الله اقتضت أن تمنحه الولد بعدما هاجر فرارا بدينه، فقد وهبه الله إسماعيل من "هاجر" وإسحاق من "سارة" التي

(١) الخطيب بن يوسف الشربيني، تفسير السراج المنير (١٠٩/٣).

عبّرت عن تعجّبها من أمر الله عندما بشرها الملائكة بذلك، كما تقدم التفصيل في سورة هود، فمن هذين الأصلين الكريمين إسماعيل وإسحاق، امتدت فروع الحكمة والنبوة في ذرية إبراهيم، كما امتن الله عليه في هذه الآية الكريمة، وكان آخر الرسل من فرع إسحاق سيدنا عيسى عليه السلام، وآخرهم من فرع إسماعيل سيدنا محمد ﷺ، فأية مزيّة وأي أجر هو أجزل لإبراهيم من هذه الهبة الإلهية التي رفعت منزلته في العالمين، وخلّدت ذكره في الأولين والآخرين.

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وبذلك استجاب الله دعوته عندما دعا بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ (الشعراء ٨٣-٨٤). والله أعلم.

رسالة لوط إلى قومه، وإنجاؤه من عذاب الرّجز

أ) – النص:

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ
إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ
لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا
سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ
كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

﴿مُنَجُّوكَ﴾: قرأ ابن كثير وحمزة والك

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾: ﴿وَلُوطًا﴾: معطوف على "نوحا"، أو هو معطوف على "ها" أنجيناه، أو هو منصوب بفعل مقدّر بـ "اذكر". ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾: النادي المكان الذي يجتمع فيه الناس لتبادل الرأي والمشورة، وقد يراد به المجتمعون أنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق:١٧-١٨)، وهو من تسمية الحالّ باسم المحلّ. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا﴾: تقدم وجه إعرابه في ما سبق. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾: ﴿رُسُلُنَا﴾: هم الملائكة، هم مأمورية مزدوجة تقديم البشرى لإبراهيم بإسحاق وبعده يعقوب، وإهلاك قوم لوط. ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾: هي قرية "سدوم" حيث البحر الميّت اليوم. ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾: تذكير إبراهيم للملائكة بسنّة الله في إنجاء رسله من الهلاك. ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: أي من الباقين في العذاب، وصيغة الماضي في: ﴿كَانَتْ﴾ لما هو آت لإفادة تحقق وقوعه. ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾: الرجز العذاب الشديد المؤلم، وإنزاله من السّماء على اعتبار أنّ أوامر الله يعبّر عنها بالإنزال، علما بأن القوم قد رموا بحجارة من سجّيل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر قرأوا بهمزة واحدة على الإخبار المستعمل في التوبيخ، وقرأه أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ويعقوب وخلف قرأوا بهمزتين همزة الاستفهام وهمزة "إنّ". وقرأ الجميع: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بهمزتين، وجملة: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بدل اشتمال من جملة: ﴿لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾. ﴿مُنَجُّوكَ﴾: قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: ﴿مُنْجُوكَ﴾ بسكون النون، وقرأ

الباقون بفتح النّون وتشديد الجيم.

د)– البيان والتّفسير:

غالبا ما تأتي قصة لوط تابعة وأحيانا متداخلة مع إبراهيم كما في هذا النصّ الكريم، وذلك لما كان بينهما من الارتباط الشّديد في المنشأ ببلاد الرّافدين وفي النّسب، بل حتّى في مضمون الدّعوة إلى الله؛ لأنّ لوطا كان على ملّة إبراهيم –كما تقدم–، ودعوته إلى قومه في أغلب ما ورد من قصته في القرآن لم تكن على غرار ما دعا إليه الأنبياء من توحيد الله وتقاه، بل انصبّت مباشرة على نهيهم عن الفاحشة غير المسبوقة في أحد من العالمين.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾.

قوم لوط هم من الكنعانيين، وقد تقدّم التعريف به وبهم في ما سبق من سورة الأعراف وهود، وترد على اسم لوط في النّصب الاحتمالات المذكورة في التّحقيق اللّغوي، وإذ حمّلتهم دعوة إبراهيم إلى توحيد الله ونبذ الشّرك فقد توجّه إليهم مباشرة بالتّنديد والتّوبيخ مما كانوا يرتكبونه من الأفعال الشّنيعة في القبح، وقد عدّد أنواعها، وهي تندرج كلّها في مفهوم "الفاحشة"، وهو يعني بلوغ الغاية في القبح، وبعد أن أجمل القول بإتيانهم الفاحشة، أكّد على اختصاصهم بها دون سائر العالمين.

ثم وضّحها بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾، صغارا وكبارا، لقضاء شهوتهم الجنسية مما يسمّى اليوم بالشّذوذ الجنسي، وقوم لوط هم أوّل من مارسها بدون حياء، وهي منافية للفطرة وللذّوق السّليم، فلهم وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم [illegible]

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ بدل اشتما
﴿مُنَجُّوكَ﴾: قرأ ابن كثير وحمزة والك

القيامة، إذ أصبحت اليوم متفشية لدى كثير من الأوساط الراقية، ولدى كثير من الشخصيات المرموقة.

وقوله: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ يدلّ على أنّ هؤلاء يتعرّضون للسابلة بأنواع من الأذى حتى ينالوا منهم ما يريدون.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾: والنادي هو مجمع الناس، لا لما يحقق النفع ونشر الخير، ولكن لما نسمّيه اليوم بالنوادي الليلية للفسق والمجون بأنواع من الإغراءات، وكلمة ﴿الْمُنكَرَ﴾ تشمل كلّ الأنواع المتعارف عليها من السكر والعري وأنواع التعرية والإغراء دونما حياء ولا خجل، ولا نهي ولا زجر.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

يبدو من إجابتهم الأخرى المذكورة في السّور المتقدمة بأنّهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف: ٨٢)، يبدو من ذلك جمعا بين الإجابتين: أنّ لوطا توخّى معهم في أوّل الأمر أسلوب التدرّج في الدّعوة بمحاولة إقناعهم بسوء ما يفعلون، وأنّهم يعلمون بأنّ عملهم ذلك رجس وإثم كبير، ولذلك لجأوا إلى إبعاده عنهم بدعوى أنّه امرؤ يريد التطهّر، ومع طول الدّعوة وتكرار النّهي اضطرّ إلى تهديدهم بعذاب الله، ولكنّهم واجهوا التّهديد بالسّخرية والاستهزاء وتحدّوا لوطا بإتيانه وهم يشكّون في صدق إخباره بذلك، فلمّا يئس من إيمانهم وإذعانهم للحقّ، طلب من الله أن ينصره عليهم، ووصفهم بالإفساد في الأرض، لأنّ ذلك يقتضي غضب الله عليهم وإنفاذ سنته في الانتقام بالمفسدين، ولا يلجأ الرّسول لمثل ذلك الدّعاء إلاّ بعد أن يستنفد جهده في دعوته، وييأس من إمكانية الاستجابة لها، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ

الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ (يوسف: ١١٠). فكيف كانت إجابة الله لطلب لوط؟.

كانت بإرسال ملائكة العذاب لخسف قرى قوم لوط، ولكنهم عرّجوا على إبراهيم يحملون إليه البشرى، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ. قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾.

جاءت الملائكة في صورة شباب مُرْدٍ جميلين، فظنّهم إبراهيم آدميين، ولم يتوان في إكرامهم بعجل سمين، ولما امتنعوا عن الأكل وتوجّس منهم خيفة أفصحوا له عن حقيقتهم وعن مهمّتهم، وكانت مهمّة مزدوجة لتقديم بشرى المولود لإبراهيم وهو ولده إسحاق من امرأته "سارة" وكلاهما كبير السّن، ثم أخبروه بهلاك قوم لوط.

ولكون إبراهيم يغلب عليه الحلم كما وصفه الله بذلك إذ قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤)، بادرهم بقوله إشفاقا على ابن أخيه: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، وهو يريد بذلك الإخبار التذكير بسنّة الله في إنجاء رسله مع من آمن بهم، فكان جواب الملائكة: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾، فمجيء الأخبار بصيغة التفضيل: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ﴾ يوحي بأنّ إبراهيم لم يخبره الله بشيء من ذلك من قبل، ولذلك ينحصر التفضيل في هذه الحادثة بالذّات. ويبقى علم إبراهيم في غيرها أشمل وأوسع مما آتاه الله من الحكمة والنبوءة، ولطمأنته أخبره الملائكة بما كلّفهم الله به من إهلاك قوم لوط، باستثناء امرأته إذ كانت من الهالكين.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

تُرى، ما سرّ زيادة "أن" في هذا المشهد؟، ويكاد المشهدان يتشابهان من حيث الزّيارة وبيان الغرض منها؟.

يقول الإمام ابن عاشور في بيان موقع "أن" هنا دون ما تقدم يقول: "و"أن" حرف مزيد للتوكيد، وأكثر ما يزاد بعد "لَمَّا"، وهو يفيد تحقيق الرّبط بين مضمون الجملتين اللّتين بعد "لَمَّا"، فهي هنا لتحقيق الرّبط بين مجيء الرّسل ومساءة لوط بهم، ومعنى تحقيقه هنا سرعة الاقتران والتوقيت بين الشّرط والجزاء تنبيها أنّ الإساءة عقبت مجيئهم وفاجأته من غير ريث...، وذلك قبل أن يعلم أنّهم ملائكة".(١)

قلت: مع إفصاح الملائكة عن مهمّتهم لطمأنة لوط، طوى النّصّ هنا ذكر تلك الإرشادات التي قدّموها له لتحقيق نجاته، مما هو مفصّل في غير هذه السّورة، واكتفوا بذكر إنزال عذاب المحق بهم بسبب فسقهم وفجورهم، ومن ثم أخذ الفقهاء الحكم بالقتل على الفاعل والمفعول، ولكن اختلفوا في وسيلة تنفيذ ذلك الحكم.

وفي التّعقيب على القصة، قال تعالى: ﴿**وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾، هكذا بلام القسم و"قد"، لإقامة الحجة على من يتشبّه بأولئك القوم، ويقال أنّ آثار تلك القرى المدمّرة باقية حتّى اليوم شاهدة على سنة الله في تربية خلقه، وأنّه تعالى لا يغفل عمّا يعمل الظّالمون، كما قال منبّها على ذلك في أعقاب نفس القصة في سورة هود: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(٨٣). ولكن أكثر النّاس لا يعقلون.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التّحرير والتنوير: ٢٠/٢٤٤.

وحسب البشرية اليوم من نقمة الله وسخطه من شيوع الفواحش ما تعانيه من مرض "السّيدا" الوبيل، مما يتحرر عن مثل هذه الفاحشة الدّنيئة، عافانا الله من شرها وو بالها، والله أعلم.

قصص أنبياء آخرين مع أقوامهم:

(شعيب، وهود، وصالح، وموسى)

أ) – النص:

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ
عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ
فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

ب) – التحقيق اللغوي:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: ﴿أَخَاهُمْ﴾ معطوف على ﴿نُوحًا﴾ و﴿لُوطًا﴾، والتقدير: أرسلنا إلى مدين أخاهم، منصوب به، و﴿شُعَيْبًا﴾: بدل و﴿مَدْيَنَ﴾: هو من أبناء إبراهيم، وهو جدّ القبيلة. ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾: الرّجاء: هو الترقب لوقوع شيء في المستقبل، أي أن يقوموا بما يحصلون به على ثواب الآخرة، ويكون الرّجاء بمعنى الخوف من أحوال القيامة. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾: ﴿تَعْثَوْا﴾: من العثي وهو الإفساد، وقوله: ﴿مُفْسِدِينَ﴾:

منصوب على الحال، ومجيء به للتأكيد. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: ﴿الرَّجْفَةُ﴾: زلزلة الأرض، وفي التعبير بالصيحة في سور أخرى يكون المعنى صيحة الفناء من جبريل ترجف لها القلوب. ﴿جَاثِمِينَ﴾: بمعنى متكئين على الركب من شدة الأخذ. ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾: في نصب ﴿عَادًا﴾ و﴿ثَمُودَا﴾ احتمالات:

أ)- أن يكون بفعل مقدّر: اذكر.

ب)- أن يكون معطوفا على ضمير ﴿فأخذتهم الرجفة﴾، أي: وأخذت عادا وثمودا.

ج)- أو بفعل مقدّر يدلّ عليه السّياق والتقدير: وأهلكنا عادا وثمودا. ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾: أي كانوا أهل بصائر وعقول للنظر والتأمّل ولكنهم لم يفعلوا. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾: الاستكبار: شدة التكبّر. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: "أل" للعهد، أي الأرض التي هم منها. ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾: أي منفلتين من عقابنا. ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾: إجمال، وتقدم المفعول للاهتمام به، والأخذ هو الإهلاك والإتلاف. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾: والحاصب الرّيح الشّديدة، أرسلها الله على عاد في الأحقاف. ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: الاستدراك ناشئ عن نفي الظّلم عن الله لئلا يتوهم أن إهلاكهم كان بلا موجب.

ج)- البيان والتّفسير:

جاءت كلّ من قصّة إبراهيم ولوط هنا بشيء من التّفصيل دون غيرهما من القصص المسبوقة في السّورة؛ لأنّ كلاًّ من الرّسولين: إبراهيم ولوط، يمثلان روح المثابرة وتحمّل أذى المشركين مما يتناسب مع جوّ السّورة في بيان سنّة الله في الابتلاء كما تقدم في مفتتح السّورة، فإذا كان لوط يتصل بإبراهيم بأصرة النّسب،

فإنّ مدين أشدّ اتّصالا به بالبنوّة، إذ كان من أبناء إبراهيم. وشعيب الرّسول إلى مدين هو منهم بدليل قوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقد تقدّمت تفاصيل قصّتهم في سور الأعراف وهود والشّعراء، وأشير إليها باختصار هنا تكريسا للموعظة والاعتبار فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

خصّ شعيب بأخوّة مدين لانتمائه إليهم نسبا، ولم يذكر ذلك لنوح وإبراهيم ولوط، لكون أقوامهم ليس لهم اسم يطلق عليهم، ومن عادة العرب أنّهم ينادون الرّجل بقولهم: "يا أخا العرب"، أو "يا أخت بني فلان"، وقد بيّنّا وجه العطف في هذه الآية. وفي مضمون دعوة شعيب لقومه نجد الأمر بعبادة الله، وذلك قدر مشترك في جميع دعوات الرّسل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء،٢٥).

وبعد ذلك الأمر قال: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، وهي الدّعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، ولكن جاء التّعبير بالرّجاء، وهو توقّع ما يكون فيه من ثواب أو عقاب، ذلك لأنّ واقع قوم شعيب كما جاء في السّور الأخرى أنّهم كانوا مفرطين في تأتي الأموال وحبّ الدّنيا بالكسب الحرام ومنها تطفيف الكيل والميزان، غير مصدّقين بما ينتظرهم من الحساب على ذلك بدليل قوله تعالى في شأنهم أمثالهم من المطفّفين: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ، يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤ - ٦). فالإيمان باليوم الآخر هو الرّادع القويّ في ترك تلك المنكرات الّتي تنشر الفساد في الأرض، إذا انعدمت الأمانة والثّقة في التّعامل بين النّاس.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾: الأخذ هو الإهلاك بقوّة وشدّة، وكان ذلك بسبب الرّجفة، وهي اضطراب الأرض، وما

يصحب ذلك من صيحات مزعجة تنخلع لها القلوب فتسكن الأجسام هامدة، جاثين على ركبهم جزاء تكذيبهم لرسولهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

وعلى الأوجه المحتملة لنصب "عاد" و"ثمود"، اختصرت قصتهما هنا بالإشارة إلى آثار مساكنهم المدمّرة في جنوب الجزيرة وشمالها، حتى يأخذ المخاطبون من العرب العبرة منها وهم يمرّون عليها في أسفارهم. وقد جعل الله دوافع كفرهم وعصيانهم تزيين الشّيطان لهم ذلك بأنّ وسوس لهم بتلك المعتقدات الفاسدة، وزيّن لهم ما هم عليه من المعاصي، ومن شأن ذلك أن يصدّهم عن السّبيل، أي عن صراط الله القويم الذي يتمثّل في إخلاص العبادة له كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦٠-٦١).

وأعقب الله ذلك الإخبار بجملة حالية فقال: ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾، أي أنه تعالى لم يتركهم حيارى، بل ميّزهم بعقول يفرّقون بها بين الحقّ والباطل، فيعرفون أنّ ما هم عليه هو كفر وضلال.

وعلى ذكر الأقوام الضّالين بصفة عامة خصّص الله بالذّكر أشخاصا معيّنين مثّلوا رؤساء الكفر وقمّة الطّغيان والجبروت، وذلك للتعريض بأئمة الكفر من قريش مثل أبي جهل وأميّة بن خلف، وأبي لهب وغيرهم، ليهدّدهم الله بما أصاب أمثالهم ممن كانوا أشدّ منهم وأكثر جمعا فقال تعالى: ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾.

هذه النماذج من البشر في الطّغيان والظّلم لا يخلو منهم زمان ولا مكان، فهم عمي إزاء البيّنات التي قد تأتي على أيدي رسل الله كما جاء بها موسى لهؤلاء

المذكورين، أو يدلي بها لأهل العلم من ذوي الحكمة كما فعلوا بقارون، ذلك لأنهم يتملكهم الغرور بما هم عليه من القوة والجاه فينسون بذلك أن الله تعالى قاهر فوق عباده، فجاء النفي لكونهم منفلتين عن حكم الله، إذ قال تعالى تعقيبا لاستكبارهم في الأرض: ﴿وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾، كلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (الأنفال: ٥٩).

وبعد هذا العرض الموجز لتلك الطوائف الطاغية من الأمم الخوالي يفصّل الله تعالى أنواع العقوبات التي سلّطها عليهم وما هي من الظالمين ببعيد، فقال تعالى: **﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**.

أجمل الله المؤاخذة على الذنب بقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾، أي أخذنا كلّ طائفة من المذكورين فانتقمنا منهم بسبب ذنوبهم؛ لأن الذنوب ما لم يتب منها أصحابها تقتضي العقاب عليها، لأنها تضييع لأمانة التكليف، وعلى الإجمال نفرّع التفصيل لتلك العقوبات:

أ)- **﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾**: وهم قوم عاد، والحاصب هو الريح التي تحمل الحصباء، كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ (الأحقاف: ٢٥). وقد ألحق بعض المفسّرين هؤلاء قوم لوط، على اعتبار حجارة السّجيل النازلة عليهم، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ (القمر: ٣٤).

ب)- **﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾**: وهم قوم ثمود، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ (القمر: ٣١).

ج)- ﴿ومنهم مَن خسفنا به الأرض﴾: وهم قارون وأتباعه كما تقدم في قصته.

د)- ﴿ومنهم مَن أغرقنا﴾: وهم فرعون وهامان وجنودهما.

﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: برّأ الله نفسه من الظّلم في إجراء تلك العقوبة على أولئك القوم، فالظّلم آتٍ من قبل أنفسهم بارتكابهم لموجبات ذلك العقاب، لأنه تعالى حرّم الظّلم على نفسه، بل لا يجازي خلقه دنيا وأخرى إلاّ بما يستحقّون ويعفو عن كثير، فهو تعالى عزيز ذو انتقام، ولكنّه عادل في حكمه لا يظلم مثقال ذرة، والله أعلم.

ضرب المثل لحال من اتّخذ الأولياء من دون الله، والتنويه بشأن المؤمنين

أ)- النص:

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ
أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (43) خَلَقَ
اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ
الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تَصْنَعُونَ (45)

ب)- التحقيق اللّغوي:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت﴾: ﴿مثل﴾: مبتدأ

خبره: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ﴾، فكاف التشبيه في موضع رفع خبر، وهو تمثيل تشبيهي مركب، واختار كلمة: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ ليشمل كلّ أنواع المعبودات الباطلة من الشرك الجليّ والخفيّ. و﴿الْعَنكَبُوتِ﴾: الحشرة المعروفة من الزّحويات، تنسج بيتها خيوط تفرزها من لعابها وتثبتها بين أطراف الأغصان، ولذلك شبّهت بالخيمة تشدّ بالأوتاد، ويضرب بها المثل في الوهن والضعف. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾: يكون ضرب المثل لتقريب فهم الأمور الدّقيقة فيضرب المثل بالمحسوس للمعقول، لإبراز خفيات المعاني، وتفاوت العقول في فهم ذلك. ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾: الباء للملابسة، أي لم يخلقهما باطلا. ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾: أي القرآن، حذف متعلق التلاوة ليعمّ بذلك كلّ الأحوال وجميع النّاس؛ لأنّ القرآن هو ملاك الدّعوة إلى الله. ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: يجوز أن يكون ذكر الله معطوفا على الصّلاة، باعتبار أن الصّلاة هي نفسها ذكر، ويجوز أن يكون معطوفا على جملة: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، فيكون التحريض على تذكر نعمة الله وأعظمها إنزال القرآن، فيكون ذلك في الصّلاة وغيرها.

ج)- أوجه القراءة:

﴿مَا تَدْعُونَ﴾: قرأ الجمهور بالفوقية على طريقة الالتفات، وقرأه أبو عمرو وعاصم ويعقوب بالتحتية.

د)- البيان والتّفسير:

بعد البيان الشّافي لمصير الأمم التي اتخذت لله أندادا لم تدفع عنهم ويلات العذاب لما نزل بهم، أعقب ذلك تشبيه حال تلك المعبودات الباطلة بحال العنكبوت، تتخذ لنفسها بيوتا واهية لا ترفع عنها الأذى ولا تحميها من حرّ ولا برد ثم لفت الأنظار إلى قدرته تعالى في خلق السّماوات والأرض، وأنه المستحق

للعبادة، وأعظمها منزلة عند الله الصلاة، لأنها تنهى المؤمن عن الفحشاء والمنكر وتحيي في قلبه ذكر الله.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

ضرب الأمثال في القرآن من الأساليب البليغة التي استعملها العرب في لغتهم، ولهم في ذلك رصيد معتبر جمعه العلماء وشرحوه، وتتعدد التشابيه المثالية في القرآن بحسب المعاني المطلوبة لتقريب المعاني الدّقيقة إلى الأفهام فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة:٢٦).

وقال أبو تمام يردّ على منتقديه في ضربه مثلا لممدوحه فقال على البداهة:

لا تنكروا ضربي له مثلا ... شرودا في الندى والبأس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

وقد مثّل الله هنا حال أولئك المتخذين الأولياء من دون الله يرجون منها النّفع والضّرّ، مثّلها بحال العنكبوت التي تنسج لنفسها بيتا بخيوط واهية لتعصمها من الأذى، ولكن ذلك البيت لا يصمد أمام أدنى ضرر يصيبها، والمقصود من هؤلاء بالدّرجة الأولى هم مشركو قريش، وإنّ اللّفظ للعموم فيمن يشابه حالهم، ثم ضمّن الله ذلك التشبيه بما يصلح في حدّ ذاته أن يكون مثلا فقال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، حكم على تلك البيوت العنكبوتية بالضّعف والوهن، بصيغة التفضيل للدّلالة على قوة ضعفها، والتعقيب بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يفيد غباوة أولئك النّاس لعدم انتباههم إلى انعدام النّفع والصّلاح في ما يفعلون، وإلا فإنّ وهن البيت العنكبوتي لا يخفى على أحد.

ويلاحظ في المشبه اختيار لفظ: ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ دون سواها من المعبودات

الباطلة، فإنّ لفظ الأولياء أعمّ وأشمل من كلمة الأوثان أو الأصنام والشركاء، فهو يتناول كلّ الوسائل التي يتوسّل بها النّاس إلى غير الله ممّا يندرج في الشرك الجليّ أو الخفيّ، حتّى في التوسّل إلى قباب وأضرحة الأولياء، أو إلى أعتاب السّادات والزّعماء، اللّهم إلا ما يكون من الاستعانة المشروعة في تسخير النّاس بعضهم بعض، فقد اعتبر الرّسول ذلك من الصّدقة بأن تعين الرّجل على دابته أو تحمله عليها، أو أن تلقى أخاك بوجه طلق.

﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: فكم هي أنواع المعتقدات البشرية قديما وحديثا، وكم تفنن النّاس في التّعبير عن معتقداتهم، حتى لا يكاد الباحث في أصول الأديان يجد تعليلا معقولا لها، ولم يستطع التقدم العلمي المادي حتى عند الأمم المتقدمة أن يكفكف من غلواء ذلك الزّخم من المعتقدات، ولكنه تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، لا تغيب عن علمه دقائق تلك الأحوال لدى العابدين والمعبودين على السّواء، وسيجلّي لخلائقه يوم الحساب ما كان لكلّ فريق من الدّوافع والنوايا في ذلك، ليجزي كلاّ بما كانوا يعملون.

وفي هذه الآية الكريمة تعريض بأولئك المنحرفين بقصور أفهامهم في إدراك حقائق الأشياء، ولذلك بيّن فائدة ضرب الأمثال وتفاوت النّاس في فهمها فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾

الإشارة إلى ما تقدّم، وإلى ما في القرآن من الأمثال الأخرى، توضح للناس ما عساه يلتبس عليهم من دقائق الأشياء، وحسب تلك الأمثال من الحقّ والمصداقية أن تكون من لدن حكيم خبير، غير أنّ فهمها وإدراكها لا يتمّ إلا للعلماء الكمّل في عقولهم وفهمهم، فهم المسؤولون على توضيح معانيها لمن قصرت عقولهم عن الفهم والإدراك.

وبما أنّ للإيمان دورا في استيعاب هدي الله والاستفادة من نوره نوّه الله

بشأن المؤمنين في ذلك وقال: ﴿خَلَقَ اللهُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾

يمتاز المؤمنون ببعد النظر والتأمل إلى ما هو أبعد من تلك الكائنات الأرضية الحقيرة، فهم في عقيدتهم بوحدانية الله وقدرته يتغلغلون بأفكارهم في تدبّر ملكوت السّماوات والأرض، كيف أبدع الله صنعهما، وأقامهما على الحقّ، وأن لا إله غير الله خالقها ومبدعها، فهداهم الله إلى نبذ عبادة الأصنام واتخاذ الأولياء من دون الله، على خلاف المشركين الباقين على جهلهم وضلالهم، والكون في أرضه وسماواته آيات صامتة ينتفع بها المؤمنون.

وكذلك أنزل الله القرآن آيات ناطقة تذكّر وترشد، أمر الله رسوله بتلاوته وتدبّره، وهو قدوة للمؤمنين فقال: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾.

ملاك الدّعوة إلى الله ومعقد الإيمان به هو القرآن الكريم، لما فيه من الهداية الرّبانية لخلقه، فقد أمر الله رسوله ومن خلاله سائر المؤمنين بتلاوته، ولم يذكر متعلّق تلك التلاوة ليشمل جميع الأحوال وجميع النّاس، وليس المقصود من تلاوته مجرّد التبرّك أو التلذّذ بسماعه، وإنّما المقصود هو إبلاغه للناس ونشر هدايته بينهم، فللقرآن تأثير على النفوس وسلطان قويّ على سامعيه، ولذلك كان الكفار يتحاشون سماعه، وأمر الله رسوله أن يجير أحد الكفّار إذا استجاره، وجعل العلّة لذلك أن يسمع كلام الله، وما كان رسول الله يتلو القرآن إلا ليبيّن للنّاس ما أنزل إليهم كما قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة:٦٧)، ذلك في المجال الدّعويّ لصيانة المجتمع وضمان صلاحه وطهره.

وأمّا في المجال الفردي وضمان استقامته على نهج الله فأمر الله بإقامة الصّلاة، وذلك يعني الإتيان بها كاملة الشّروط والأركان في جميع أوقاتها وبكلّ أنواعها من فرض أو سنّة أو نافلة، وللتنويه بشأنها علّل الأمر بأنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهذا التعليل يعني الأمة بالدّرجة الأولى؛ لأن الرّسول معصوم عن الفحشاء والمنكر، وفعل: ﴿تَنْهَى﴾ مستعمل في المعنى المجازي، حتى لكأن الصّلاة إنسان تأمر وتنهى، وللمفسّرين كلام طويل في بيان ذلك، لما للصلاة من الإصلاح الرّوحي والنّفساني للمؤمن؛ لأنها الصّلة الوثقى بينه وبين ربّه، ومن شأنها أن تردعه عن فعل المنكرات، سيما إذا حافظ عليها كما أمره الله، فهي تسهّل عليه ترك الفحشاء والمنكر.

ولما كان الدّافع القويّ لذلك هو ذكر الله فيها، جاء قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ليوضّح المقصود الشّرعيّ من إقامة الصّلاة، وهو ذكر الله كما قال تعالى لسيّدنا موسى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه:١٤)، وكان ذكر الله أكبر؛ لأنّه لا يقتصر على وقت الصّلاة وحدها، بل يصحب المؤمن في جميع أوقاته انتظارا للصلاة بعد الصّلاة، وهو ما سمّاه الرّسول بالرّباط.

وقد توسّع العلماء في تفسير هذا التعقيب، وكلّها تصبّ في بيان بركة الصّلاة وأنها عماد الدّين، ومن التفسيرات المنقولة عن ابن عباس: "لذكر الله إياكم برحمته، ومنها التوفيق للصلاة أكبر من ذكر الله بطاعته".

ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾، من طاعة أو معصية، فيجازيكم على ذلك، إن خيرا فخير وإن شرّا فشرّ، وفي ذلك من الوعد والوعيد ما فيه تحريض على مراقبة الله في جميع تصرّفاتنا ظاهرا وباطنا؛ لأنه كما ورد الأثر: "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا".

والله أعلم.

طريقة مجادلة أهل الكتاب

أ)- النص:

وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا
بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا
لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ
بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: المجادلة: مفاعلة، من الجدل، أي إقامة الدّليل على رأي مختلف فيه. ﴿أَحْسَنُ﴾: "إلاّ" للتفضيل، فيقدر المفضل: أحسن من مجادلتكم للمشركين، ويجوز أن يكون مفرّغا من التفضيل للمبالغة في الحسن، و﴿أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: هم اليهود والنّصارى. ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾: أي ممن كابروا وأظهروا العداء لرسول الله، وهم الكثرة منهم. ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾: وهو القرآن. ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: وهو التوراة والإنجيل، أي ما كان منهما في أصوله الصّحيحة غير محرّف، وتصلح هذه المقولة نموذجا للمطلوب من حسن المجادلة، حتى تنحصر في ما هو مختلف فيه. ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾: وهذا المبدأ من الإيمان بوحدانية الله مما يتفق عليه الطّرفان، ويراد بوصف ﴿مُسْلِمُونَ﴾ الإطلاق العام، أي إسلام الوجه لله. ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾: أي بالقرآن، كأمثال عبد الله بن سلام. ﴿وَمِنْ

﴿هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾: الإشارة إلى أهل مكة ممن آمن برسول الله، وصيغة المضارع: ﴿يُؤْمِنُ﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، فيزداد بذلك عدد المؤمنين. ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾: أي كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب، وجيء بقوله: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ جيء بلفظ: "إذًا" ليخرج مخرج قائل له: ولو كنت تقرأ أو تكتب لشك فيك المبطلون. ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾: "هو" أي القرآن المنزل عليك، والمقصود من ﴿صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ هم النبيّ وأصحابه وسائر حفّاظ القرآن وكاتبوه. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾: الجاحد هو الموقن بالشيء في داخل قلبه، ولكنه ينكره في الظاهر.

ج)- البيان والتفسير:

يذكر الرواة أنّ نزول أواخر هذه السّورة الكريمة كان في الفترة التي يهيأ فيها الرّسول للهجرة إلى المدينة حيث يعايش فيها طائفة من أهل الكتاب، مما يتطلب أسلوبا آخر في الدّعوة بعد أن كان ينتهج مع المشركين في مكّة أسلوب الكفّ عن مجادلتهم، وبعد أن يجتهد في تبليغ ما أنزل إليه، ذلك لأنّ أهل الكتاب يتفقون مع الدّعوة الإسلامية في الإيمان بالأصول العقدية العامّة من الإيمان بالله وبالوحي والبعث، وبذلك ينحصر الخلاف معهم في نقاط معيّنة، أمر الله بمجادلتهم فيها بالتي هي أحسن فقال: **﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾**.

المجادلة هي إحدى الطّرق الإقناعية في إقامة الدّليل على رأي مخالف فيه، وبما أنّ أهل الكتاب لا ينازعون المسلمين في أصول العقيدة، وإنما يخالفونهم في الإيمان برسالة محمد ﷺ فقد جاء النّهي بصيغة الجمع: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا﴾ ليعمّ الرّسول

والمؤمنين في تلك المهمة الدّعوية، فتكون المجادلة بالتي هي أحسن في كلّ الأحوال، وهي معتمدة على الإفصاح والبيان باللّسان، وتكون على درجات متفاوتة بين النّاس يراعى فيها مقتضى الحال في معرفة الخصم، ولا تعني مجال القتال بالسّنان كما ذهب إليه بعض المفسّرين من أن هذه الآية منسوخة بآية السّيف ولم يبق معهم مجادلة.

يقول الدكتور وهبة الزّحيلي: "والحقّ -كما قال مجاهد وآخرون- أنّ هذه الآية باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم -أي من أهل الكتاب- في الدين، فيجادل بالتي هي أحسن، ويدعو إلى الله عز وجلّ وحده لا شريك له، ويبيّن على حججه وآياته رجاء إجابته إلى الإيمان بغير إغلاظ ولا مخاشنة كما قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥)".(١)

قلت: وفي الشّطر الثّاني من الآية يستثني الله الذين ظلموا من أهل الكتاب وهم المصرّون ممّن عرفوا الحقّ وأنكروه، بل ناصبوا العداء للرّسول وأصحابه، ونقضوا العهود والمواثيق وظاهروا المشركين في مواقفهم، فهؤلاء لا يجدي فيهم أسلوب المجادلة والإقناع، بل الحزم يقتضي أن يعاملوا بالمثل أي بالقوة، حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

لأنه كما قال المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

ووضع النّدى في موضع السّيف بالعلا ... مضرٌ كوضع السّيف في موضع النّدى

ثم قال تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، عطف الله على النهي هذا الأمر، مما يصلح أن يكون مقدّمة لتلك المجادلة بالإقرار بما لا نزاع فيه من بعض أصول العقيدة في الإيمان بالوحي السّماوي، فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن، وفي الإقرار بوحدانية المعبود الحق.

ويلاحظ التعبير عن القرآن: ﴿بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وتخصيصه بالصّلة هو للتركيز على ما تجحده بعض أهل الكتاب من نبوة رسول الله، وهو ما يعلم بطريقة إلزام الخصم في المناظرة.

والتذييل بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يشمل الفريقين، والإسلام هو بمعنى إسلام الوجه لله تعالى وهو ما دعا إليه رسل الله جميعاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

الإشارة في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ هي إلى ما أنزله الله من الكتب السابقة، أي مثل ذلك التنزيل الكريم أنزلنا إليك هذا الكتاب، فهو بديع بليغ في مبناه ومعناه، وفرّع على ذلك قوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾، اختيرت الصّلة وفعل الإيتاء بنون العظمة عوضا عن "أهل الكتاب" للدلالة على الامتنان عليهم حتى يحافظوا على تلك الأمانة، وليس ذلك الإتيان على عمومه، بل هو مخصّص بالقلّة المؤمنة منهم برسالة الإسلام كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار وغيرهم.

وقد جعل بعض المفسرين المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أنهم الرّسل الذين أنزل الله عليهم الكتب السّابقة، يؤمنون بالقرآن كما قال ذلك رسول الله عن موسى ﷺ، وأمّا قوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، فالمراد بهم من يؤمن من كفّار قريش، كما تدل عليه صيغة المضارع.

وبناء على هذا الاحتمال الأخير يكون التنديد بأهل الكتاب لعدم إيمانهم برسول الله وبالقرآن المنزل عليه، ورسلهم جميعا كانوا يؤمنون به، ولذلك جاء التذييل بقوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾.

فاختيار صفة الكفر لذلك الجحود والإنكار هو الأنسب لما يدلّ عليه من التغطية والستر للأدلّة الناطقة كما قال تعالى في شأنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٨٩).

ولزيادة الاستدلال على أن القرآن وحي من عند الله ذكر الله صفة الأمية التي عرف بها رسول الله فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

الكتابة والقراءة هما الوسيلتان الكبيرتان في التعلم قديما وحديثا، فتأكيد نفيهما ﴿مِن﴾ ليشمل كلّ أنواع الكتابة والقراءة استحكاما لصفة الأميّة في شخص رسول الله، وذلك لردّ الشبهات التي لفقها المشركون من أنّ القرآن أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا.

وقوله: ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، والتقدير: لو كنت من قبله تقرأ أو تكتب كتابا لارتاب المبطلون، على أنّه لو فرض من رسول الله أنه كان يقرأ ويكتب قبل أن ينزّل عليه القرآن فإنّ بلاغته وفصاحته وما اشتمل عليه من العلم والحكمة لهو كاف لمنع التكذيب به، ولذلك اختير في جواب الشّرط مجرّد الشكّ والرّيب من طرف المبطلين، ثم أبطل ذلك بقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، إضراب لارتياب المبطلين في حقيّة القرآن بأنّه وحي من الله لا ريب فيه، كان يتلقى رسول الله بصدره الشريف تلقّ عن موسى عليه السلام، وأمّا قوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾، فالمراد بهم من يؤمن من كفّار قريش، كما تدل عليه صيغة المضارع.

والإيمان حفظا لكتاب الله تدوينا وحفظا في الصحائف والصدور، وتدبّرا لمعانيه وتجاوبا مع إرشاداته وتوجيهاته في واقع حياتهم تطبيقا وعملا.

﴿وما يجحد بآياتنا إلاّ الظّالمون﴾: عدّد الله الأوصاف الدّنيئة للجاحدين بالكفر والظّلم والخسران، وقد تقدّم معنى الجحود بأنّه هو الإنكار لما هو متيقّن من صدقه كما هو حال المشركين والكفّار من أهل الكتاب، والله أعلم.

بعض المطالب التّعجيزية من المشركين

أ)– النص:

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ
بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (53)
يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

ب)– التّحقيق اللّغوي:

﴿وقالوا لولاَ أُنزل عليه آياتٌ مّن رّبّه﴾: ﴿لولاَ﴾: للتحضيض بمعنى: هلاّ. الآيات: أي المعجزات الحسية كعصا موسى وناقة صالح. ﴿قل إنّما الآياتُ عند الله﴾: بمعنى: من قدرة الله ينزلها كيف يشاء، فالعندية لها معنى الحفظ عند [illegible]
من كفّار قريش، كما تدل عليه صيغة المضارع.

الذيوع والانتشار مع استمرار تلاوته. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾: أمر الرّسول بأن يجعلوا الله حكماً بينه وبينهم لإظهار الحق، وذلك على اعتبار أنهم يؤمنون بوجود الله. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: بين "آمنوا" و"كفروا" طباق، والتعريف في جزئي الجملة: ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾: لإفادة القصر والإشارة. ﴿أُولَٰئِكَ﴾: لإفادة أن المشار إليه هو جدير بتلك الصفة من الخسران العظيم. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾: الاستعجال: طلب التعجيل بالعذاب الذي أوعدوا به، استخفافاً بذلك. ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾: أي أن مجيء العذاب له أجل محدود في علم الله، وليس أمره بيد الرّسول. ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: أنذرهم الله بعذابين: عاجل مما يصيبهم في الدّنيا، وآجل مما يأتيهم يوم القيامة. ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: الغشيان: التغطية والحجب، وقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾: تصوير للإحاطة الشاملة من كل الجهات.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْآيَاتُ﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب قرأوا: ﴿الْآيَاتُ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف ﴿آيَةٌ﴾ على قصد الجنس. ﴿وَيَقُولُ﴾: قرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿وَيَقُولُ﴾ بالياء التّحتية، والضّمير عائد إلى معلوم من المقام، فالتّقدير: ويقول الله، أو يقول الملك الموكل بجهنم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: ﴿وَنَقُولُ﴾ بنون العظمة.

د)- البيان والتّفسير:

على وصف الله الجاحدين للقرآن بأوصاف: الكافرين، والظّالمين، والمبطلين، أعقب ذلك بذكر طلبهم التّعجيزي أن يأتي النبي بآية محسوسة خارقة تدلّ على

صدقه، ثم الرّد الإلهي على ذلك بأنّ في إنزال القرآن كفاية عن المعجزات المطلوبة، وذلك له خمس مزايا تجعله يمتاز على غيره من الكتب فقال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

الضّمير يرجع إلى المشركين: ﴿وَقَالُوا﴾ لبيان تعنّتهم وعنادهم الناشئين عن جحودهم لحقّية القرآن إذ طلبوا على وجه التّعجيز آية خارقة للعادة يستظهر بها الرّسول تصديقا لرسالته مثل ما أوتي موسى وعيسى والأنبياء المتقدّمين، وقد علموا أن رسول الله لا يملك أن يأتي بذلك من عنده، وإنما ليتّخذوا ذلك وسيلة للتّهريج والتندّر به في نواديهم، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

"إنّما" تفيد القصر، والعندية تعني القدرة الإلهية التي تهيمن على شؤون الكون، وتجري وفق حكمته وإرادته بما يناسب كلّ الظّروف والأحوال، وحصرّ هنا مهمة الرّسول بالنّذارة الواضحة، تعريضا بالمشركين وتهديدا لهم بتوقع الشرّ.

ثم بيّن الله تعالى ما للقرآن وحده من دلائل على صدقه تكفي وحدها للإثبات على أنّه ليس من كلام البشر حتى يتقوّله الرّسول عليهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الاستفهام للتعجيب والإنكار، فوجه الإعجاب هو إنزال مثل ذلك الكتاب العظيم بما يشتمل عليه من الإعجاز البياني والعلمي على رجل أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يخالط العلماء من أهل الكتاب وغيرهم، وينصبّ الإنكار على جدلهم وبلادة عقولهم بأن عرفوا الحقّ وأنكروه، لأنّهم عجزوا عن الإتيان بمثله لما تحدّاهم، وللتنويه بشأن القرآن أضفى الله عليه بعض المزايا فقال:

أ)- ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: صيغة المضارع تدلّ على الاستمرار وشمولية الزّمان والمكان، بحيث لا تنتهي آثار معجزته ما دامت السّماوات والأرض، ولا يحتكرها جيل واحد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكونه مما يتلى تعني أنه معجزة فكرية لا تتقيد بالمشاهد المحسوس الذي ينحصر تأثيره في وقت معيّن.

ب)- ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: الإشارة إلى: ﴿الْكِتَابَ﴾ المتحدّث عنه للدّلالة على التعظيم، وتتمثل رحمته في كونه يشرّع للخلق ما فيه صلاح معاشهم وفلاح معادهم من مختلف الأحكام والآداب والمواعظ، وبيان سنن الله في خلقه، فهذه هي المعجزة الخالدة لرسول الله لا تنقضي آثارها بحياة الرّسول كالمعجزات المحسوسة، وبذلك امتاز هذا القرآن، وفيه كفاية عن كلّ المعجزات الأخرى، وإن كان لرسول الله كرامات أخرى مادّية خارقة للعادة بسطتها كتب السّيرة مما لا شكّ فيه، وتعليق الرّحمة والذّكرى بـ﴿قوم مؤمنين﴾؛ لأنّ الإيمان هو وحده هو الباعث للعمل والتطبيق، وهم الذين ينتفعون بهدي القرآن بما فيهم من الاستعداد للتلقّي والإذعان.

وبإزاء ذلك التحدّي والعناد من المشركين وبعد أن ألزمهم الحجّة أمر الله رسوله أن يركن إلى ربّه ويجعله حكما بينه وبينهم فقال: **﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾**.

الباء في: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة للتوكيد، وكفاية الله هي البيّنة الوثقى للشّهادة على الحقّ؛ لأنّه تعالى يعلم حقائق الأشياء كلّها، وبالتّالي فهو يعلم الصّادق من الكاذب في القضية الإيمانية وهي منوطة بما في الصّدور، وفي ميزان الرّبح والخسارة جعل متعلّق الإيمان بكلّ ما هو باطل ممّا سوى الله تعالى، جعل ذلك مناط الخسارة المحقّقة يوم تجزى كلّ نفس بما كسبت، وجاء التّعبير بصيغة القصر بتعريف جزئي

الجملة، وضمير الفصل: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ذلك لأنّ الإيمان هو المحور الأساسي للاستثمار الذي يطلب من ورائه الرّبح، فإذا فني رأس المال فقد وقع صاحبه في الخسران المبين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الزمر:١٥)، فهو خسران من نوع خاصّ انفردوا به، فبلغ بهم النّهاية في الخذلان والحرمان.

ولما كان رسول الله في دعوتهم إلى الإيمان ينذرهم بالعذاب إن هم تمادوا على كفرهم، وكان الطّغاة منهم يستعجلونه به، جاء الرّدّ الإلهي ببيان حكمته تعالى في إمهالهم فقال: **﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ، يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**.

لقد بلغ مكر المشركين وإذايتهم لرسول الله ذروته بمثل هذا التحدّي السافر في استعجالهم للعذاب الموعود به، تعبير عن استخفافهم بوعيد الله، وهم بجهالتهم وحمقهم حيـــو الواقع، مفتونين بمتاعهم الدّنيوي، ولا يدركون حكمة الله في ذلك الإمهال إذ قال: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

إنّما حكمة الله في الاستدراج، إذ حدّد لأقداره آجالا معيّنة، لا تخضع لهوى النّاس، وليس أمرها بيد رسول الله، ولولا ذلك لحلّ بهم العذاب عاجلا وفي غفلة منهم، ومن مجالي تلك الحكمة الإلهية في تأجيل العذاب تمحيص جماعة المؤمنين وابتلاؤهم بفتنة المشركين، كما تقدم في أول السّورة حتى يتبيّن الصّادق من الكاذب في إيمانه، ثم ما قدّره الله في استبقاء أولئك الطّغاة ليخرج من أصلابهم من يصبحون أنصارا وقادة لنشر الإسلام في أصقاع الأرض كما شهد بذلك الواقع التاريخي، وقد جاءهم العذاب العاجل في غزوة بدر وغيرها فقضى فيها الكثير من

١– محمد قطب.

طغاهم، وإذ أعدّ الله عذابا أعظم يكون آجلا يوم القيامة وهو أعظم وأنكى فقد أكّد ذلك بقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ، يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

صوّر الله العذاب المعدّ للكافرين يوم القيامة كأنّه حاضر مشهود، تحيط بهم جهنّم من كلّ جانب، ثم يرسم لهم صورة مروّعة وهم في أتون جهنّم يلفّهم جحيمها ولا يجدون عنها مهربا، ثم يقال لهم نكاية وتهكما: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي ذلك جزاء أعمالكم، وتلك عاقبة سخريتكم، وقد جمع الله لهم العذاب المادّي والمعنوي، أعاذنا الله من الخذلان، ومن الذّلة والهوان، والله أعلم.

الأمر بالهجرة فرارا من الفتنة

أ)- النص:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ
غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ۝٦٠﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: ﴿عِبَادِيَ﴾: الإضافة تشريفية، أكّدت بصفة الإيمان، لأنّ كلمة: ﴿عِبَادِيَ﴾ تناول كلّ أصناف الخلائق. ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾: فرّع الله عن كون أرضه واسعة الأمر بعبادته وحده، وهو كناية عن الإذن بالهجرة، و"الفاء" في قوله: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ مؤذنة بمحذوف في

جواب الشرط، والتقدير: إن لم تخلصوا بعبادتي في أرض فانتقلوا لغيرها. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾: نبوّئ: يتعدى إلى مفعولين، الضمير: ﴿هُم﴾ هو المفعول الأول و﴿غُرَفًا﴾: هو المفعول الثاني. والتبوئة: هي الإنزال والإسكان، والغرف جمع غرفة: البيت العالي. ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: ﴿كَأَيِّن﴾: بمعنى: كم، وهي في موضع رفع مبتدأ. ﴿مِن دَابَّةٍ﴾: تمييز لها. ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾: في موضع جرّ صفة لـ"كأين"، والحمل بمعناه الحقيقي: أي تسير غير حاملة لرزقها، أو بمعناه المجازي: أي لا تتكفل به، والجملة: الله يرزقها وإياكم، في موضع رفع: خبر ﴿كَأَيِّن﴾.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَا عِبَادِيَ﴾، ﴿أَرْضِي﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها. قرأ ابن عامر: ﴿إِنَّ أَرْضِيَ﴾ بفتح ياء المتكلم وقرأ الباقون بإسكانها. ﴿فَاعْبُدُونِ﴾: قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلم، وقرأ الباقون بإسكانها، ﴿تُرْجَعُونَ﴾: قرأ شعبة بياء الغائبين مع البناء للمجهول، وقرأ يعقوب: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بياء المخاطبين المفتوحة، وقرأ باقي القراء بتاء المخاطبين المفتوحة. ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف من فعل: أبوّئ، وقرأها أبو جعفر: ﴿لَنُبَوِّيَنَّهُم﴾ بقلب الهمزة "ياء"، وقرأه الباقون من فعل بوّأ: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾.

د)- البيان والتفسير:

لقد كان التهديد والإنذار للمشركين كفاء لهم على شرّهم وفسادهم، سيما في إيذائهم للمستضعفين من المؤمنين في مكة، وقد بلغ المكر بهم منتهاه، فكان من رحمة الله بهم أن أمرهم بالهجرة إلى حيث يعبدون ربهم في أمن وحرية، وأن لا يثنيهم عن ذلك خوف الموت، لأنه مكتوب على كلّ نفس كما أنه تعالى سوف

بتكفّل برزقهم، فلا يخشون جوعا ولا ضياعا، وسندهم في تحقيق ذلك هو الصّبر والتوكّل على الله، ولهم بذلك عند الله نعم الأجر والثواب، جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب.

قال تعالى: **﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾**، ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إنّه النّداء الحبيب للمؤمنين لما فيه من التّشريف والتكريم لهم وهم أحرياء بذلك لصدق إيمانهم بالله وبرسوله، وغالبا ما يتمحّض هذا النداء في القرآن لفريق المؤمنين، إذ قليلا ما يأتي لمطلق الخلق من مثل قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ (الفرقان:١٧)، وقد كان رسول الله يتشرّف بصفة العبودية لله كما روى الإمام البخاري عن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا: عبد الله ورسوله»**.[1]

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ إشارة إلى الهجرة، حيث يجد المؤمنون مقاما آمنا للقيام بواجباتهم الدّينية، لأنّ شرف المكان وقدسيّته كالحرم المكّي لا يمنع الخروج منه إذا كان ذلك لأجل عبادة الله وحده لا شريك له، لأنّ من مقوّمات الدّين الصّحيح أن لا يقبل المؤمن الضّيم ولا الدّنيّة في دينه، بل ذلك من شيم النّفس الحرّة الأبيّة، كما قال الشّاعر:

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلّان عير الحيّ والوتد

وقوله تعالى: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾، تفريع على قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ بالأمر بعبادة الله وحده كما يفيده القصر، فهو تعليل للأمر بالهجرة، أي لإقامة الدّين وإخلاص العبادة لله، لا لأمر آخر من منافع الدّنيا كما يرشد إليه الحديث

١- رواه البخاري بلفظ قريب من حديث عمر، كتاب (٦٤) الأنبياء باب (٤٩) ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها...﴾، رقم ٣٢٦١.

الشريف: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».[1]

وأما حكمها الشرعي فيقول القطب -رحمه الله-: "وبعد فتح مكة يجوز لمن أسلم في بلده وهو بلد شرك أن يقيم فيه إن توصّل إلى دينه ولو سرًّا، وقيل: إن جهرا، وزعم قوم أنه لا بد من الهجرة ولو توصّل إليه جهرا، إلاّ إن قوي المسلمون فيه بحيث يسمّى بلد إسلام".[2]

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾: تأتي هذه الآية لتأكيد ما تقدم من الوعد والوعيد بالنسبة للفريقين: الكافرين والمؤمنين، ثم للتهوين من شأن ما يلاقيه المهاجرون من المشاق والمتاعب ولو كان الموت؛ لأنّ الهجرة خروج من البلد المألوف، وانقطاع عن الأهل والأحباب، ومواجهة للمخاطر وآلام الغربة، جاءت الآية مطلقة لسنّة الحياة والموت، وشأن الدّنيا في متاعبها وآلامها، والموت لا يتقيّد بأي مكان، ولا تعالجه وسائل الإنسان: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨).

وفي الآية: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾: تهيئة نفسية للمؤمنين المهاجرين لما يستقبلهم من تبعات جهاد أعدائهم بعد أن يأذن الله لهم بقتالهم، ولزيادة تثبيت المؤمنين بيّن الله ما ينتظرهم من جزاء إن هم صبروا وتوكلوا عليه: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾.

التبوئة: هو الإنزال والإسكان في مقام كريم، وفي التعبير عنه بالغرف تطمين

١- رواه البخاري من حديث عمر، كتاب (١) بدء الوحي، باب (١) كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم ١.

٢- أحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١١/ ٨٥.

للمؤمنين المهاجرين، بأنه تعالى يعوّضهم عن البيوت التي فارقوها بيوتا من الجنة هي أجمل وأروع لهم بما يكتنفها من الجمال الطبيعي المتمثل في جريان الأنهار التي تمنح الحياة بهاء، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وفي الصفات التي أهلتهم لذلك الأجر العظيم يركز الله على صفتين عظيمتين هما معقد الإيمان في نفوسهم فقال:

أ- ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾: والصبر نصف الإيمان، وإنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

ب)- ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: وتقدم المجرور على متعلقه هو للاهتمام، وقد تقدم معنى التوكل على الله بأنّه لا يناقض اتّخاذ الأسباب المعقولة والمشروعة في كلّ مسعى يقصده الإنسان، وبعد ذلك يتوسّل إلى الله ليرعاه ويلطف به في ما لا يقدر عليه من خفايا الأسباب.

ولما كان الفقر والضياع من المخاوف التي تنتاب المهاجرين، وقد كان أكثرهم فقيرا حتى قبل الهجرة أراد الله أن يطمئنهم كذلك من هذه الجهة فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وما أروع أن يجري الله لكفالة الرّزق هذا المثل العامّ برزق القوت عامّة، وقد يكون فيها عجز أو مرض فلا تحمل رزقها، فيرزقها الله من حيث لا تحتسب.

والخوف من الفقر والجوع ما يزال هو قاصمة الظّهر في المسيرات البشرية المختلفة للإصلاح والتغيير يواجهها من يتنادون أنفسهم في طلائع المقاومات والجهاد، ولا شك أن السابقين الأولين من المهاجرين قد تعرّضوا لتلك الضّوائق النفسية، فتأتي مثل هذه الآيات بلسما يشفي ما في نفوسهم فيزدادون سكينة وطمأنينة بوعد الله، وقد عرفنا من السّيرة النّبوية كيف عالج رسول الله ذلك المشكل الاجتماعيّ بمؤاخاته بين المهاجرين والأنصار في المدينة المنوّرة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ مناسب لما في الآية الكريمة من التعرّض لهواجس النفس البشرية التي قد تجرّ إلى الضلال وسوء الظنّ بالله، فهو السّميع لخلجات تلك النفوس ولما يصحبها من الدّعاء والتضرع إلى الله، وهو العليم بما يصلح بكم دنيا وأخرى، والله أعلم.

اعتراف المشركين بأنّ الله هو الخالق الرّازق، وهو المحيي والمميت

أ)- النصّ:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: الضّمير يرجع إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ﴾: أي كفار مكة. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾: التسخير للشيء: إلجاؤه لعمل شاق، وتخصيص الشّمس والقمر بالذّكر لما في حركتهما من دلائل القدرة ولما فيهما من المنافع على حياة الكائنات. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: الاستفهام للإنكار والتعجب أي كيف يصرفون عن توحيد الله وهم يعترفون به. ﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿يَقْدِرُ﴾: بينهما طباق، وبسط الرّزق هو التوسعة فيه، ضدّه: ﴿يَقْدِرُ﴾، هو التضييق فيه وفق مشيئة الله في ذلك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾: إذ هم متناقضون في ما يقرون به في جانب الله وما هم عليه من الشّرك والضّلال.

ج) – البيان والتفسير:

بعد أن تمت طمأنة المؤمنين مما في هجرتهم إلى الله من الأجر والثواب، وبعد أن بيّن الله لهم ما يجب عليهم من الصّبر ومن التوكل عليه، وأنه تعالى كافل لأرزاقهم، وأنّ الموت لا مفرّ منه لكلّ حيّ، انتقل النصّ لبيان تناقض المشركين، بين ما يقرّون به في جانب الله وبين ما هم عليه من الكفر به، ولا شكّ أنّ هذا البيان يزداد به المؤمنون إيمانا ويقينا بما هم عليه من الحقّ، وهم يرون خصومهم في متاهات الكفر والضّلال.

قال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾.

الخطاب لرسول الله، جاء تأكيد القسم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ أي المشركين الذين يعارضون دعوتك إلى وحدانية الله، لئن سألتهم من هو الخالق للسماوات والأرض وهما الحيّز المكاني لحياتهم، كما أن تسخير الشّمس والقمر في سيرهما الدّائب المطرد هما الحيّز الزّماني، وقد خصّصهما الله بالذّكر دون الأجرام الأخرى لما لهما من العلاقة المباشرة بحياة الخلق في اختلاف الفصول واختلاف اللّيل والنّهار، فهم يجيبون بأنّ الله هو الخالق لذلك، إذ لا يعتقد أحدهم بأنّ لآلهتهم الباطلة أي تصرّف في ذلك، فكيف يصرفهم كفرهم إلى الضّلال والكفر حتى وقعوا في ذلك التناقض المشين؟.

و على انفراده تعالى بالخلق فإنّ قضية الرّزق لا تنفكّ عنه أيضا في معتقدهم، وأنّه تعالى يدبّره ويوزّعه على خلقه بحكمة بالغة وفق ما تقتضيه مشيئته وعلمه بما يصلح لكلّ واحد منهم توسيعا أو تضييقا، فقال تعالى: ﴿**اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾.

وإذ جعل الله لذلك الرّزق أسبابا وكان إنزال الماء من السّماء أعظمها وأكثرها توفيرا للأرزاق تكرر هنا ذلك التّساؤل المؤكّد بلام القسم فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

وكثيرا ما يجعل الله إحياء الأرض الموات بإنزال المطر من السّماء، مثلا حيّا ملموسا يشهد على قدرته في إحياء الموتى في يوم البعث مثل قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الروم: ٥٠).

وبعد إلزامهم الحجة بمثل تلك الأدلّة التي يقرّون أنّها من خصوصية الله في الخلق والرّزق والإحياء والإماتة، مما يسند رسول الله في صدق دعوته، بعد ذلك أمر الله رسوله أن يحمده حقّ حمده؛ لأنّ حمد النعمة من مقتضيات الإيمان.

فقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضراب، للانتقال من حمد الله على نصاعة الحقّ بوضوح حججه، انتقال إلى ذمّ المشركين لعدم وعيهم وتأمّلهم لتلك الحجج، حتّى كأن لا عقول لهم يفقهون بها، وقد أسند ذلك الذّمّ إلى أكثرهم دون جميعهم احتراسا من بعض عقلائهم الذين اهتدوا إلى الحقّ وأذعنوا له، والله أعلم.

بيان أنّ الحياة الدّنيا كالخيال،
وأنّ الآخرة هي الحياة الحقّ الباقية.

أ)- النص:

وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا

هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ
وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ
لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾: الإشارة تدلّ على تحقير شأن الدّنيا، واللّهو: ما يلهو به النّاس ممّا يشغل عمّا عملوه، واللّعب: ما يقصد به الهزل والانبساط. ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾: على وزن "فعلان" مما يبنى عن التحرّك، أي الحياة الكاملة التي لا فناء بعدها. ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: ﴿الْفُلْكِ﴾: السّفينة السّائرة في البحر. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: أي أفردوه وخصّوا له الدّين. ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾: اللام للتعليل بمعنى: كي، وعلى قراءة: ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ تكون للأمر الاستنكاري، على معنى: كلوا وتمتّعوا إنكم مجرمون. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾: الاستفهام إنكاريّ، الحرم الآمن هو الحرم المكيّ، يحرم فيه ما يحلّ في غيره وكونه: ﴿آمِنًا﴾ مجاز عقليّ، والمعنى آمن أهله.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾: المثوى: مكان الثّواء، أي الإقامة الطّويلة، والاستفهام للتقرير، وهو هنا لإنكار النّفي. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: والمراد بالجهاد الصّبر على مواجهة الفتن والأذى، ومن تطبيقاته الهجرة في سبيل الله. وسبل الله: هي الأعمال الموصلة إلى رضاه وثوابه، والهداية: الإرشاد والتوفيق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِهِي﴾: قرأها قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء، وقرأها الباقون بكسر الهاء. ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾: قرأ قالون وابن كثير وحمزة والكسائي وخلف بإسكان اللاّم، على أنها للأمر. وقرأها الباقون بكسر اللاّم على أنها للتعليل. ﴿سُبُلَنَا﴾: قرأها أبو عمرو بإسكان الباء، وقرأها الباقون بضم الباء.

د)- البيان والتّفسير:

بعد توضيح تلك الدّلائل المبيّنة لقدرة الله والتي يقرّون بها، وهم على كفرهم وشركهم متناقضون، والقليل منهم من يدرك ذلك، إذ أن الجميع قد آثر الحياة الدّنيا وزينتها، أراد الله أن يبيّن لهم سوء تقديرهم في ذلك، بأن صوّر الحياة الدّنيا كخيال زائف لا قيمة له بإزاء الحياة الأخرى الباقية فقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

الإشارة للتحقير من شأن الدّنيا، فعلى ذكر الخلق والرّزق وبيان قدرة الله في الإحياء والإماتة وإقرار المشركين بذلك وكون أكثرهم لا يعقلون التناقضات التي هم عليها اغترارا بما هم فيه من زينة الدّنيا، يضع الله ميزانا للقيم لبيان حقيقة الحياة الدّنيا بإزاء حقيقة الآخرة، فإذا الدّنيا في واقعها ضرب من اللّهو واللّعب، حين يتخذها الإنسان غايته، فلا يجعلها مطيّة للآخرة؛ لأنّ كلاّ من اللّهو واللّعب عاريان عن الفائدة لما فيهما من إقبال على الباطل وإعراض عن الحقّ، وكثير من الناس يغفل عن تلك الحقيقة، فيكونون كمن يتمسّك بالسّراب، وقد اختار الله وصف "الحيوان" للدّار الآخرة، وهو مشتقّ من الحياة، مع مراعاة صفة التّحرّك، كما هي صفة الحيوان، تفيد المبالغة، وهي بمعنى الحياة الكاملة الباقية.

والإسلام حين يضع ذلك الميزان الدقيق للقيم الخالدة الباقية لا يدعو إلى نبذ الدّنيا والزّهد فيها، وإنما يدعو إلى مراعاة حدود الله في الأخذ بأسباب الدّنيا كيما يعيش المؤمن متوازنا بين الحياتين، ويبقى المشركون على تناقضهم واضطرابهم حين تدفعهم الشدّة إلى سماع نداء الفطرة فيدعون الله مخلصين له الدّين، وذلك حين يركبون أهوال البحر ويحيط بهم الموج من كلّ مكان، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ، لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾.

"الفاء" لتفريع ما بعدها على ما قبلها، والمفرّع عنه هو ما ذكر من جميع أحوال المشركين من تناقضاتهم وغفلتهم عن دلائل وحدانية الله إلا في وقت الشّدة، وقد خصّص الله له حالة ركوبهم البحر، وقد ضاقت بهم سبل النّجاة في خضم أهواله، فيتوجهون حينئذ بخالص دعائهم إلى الله وحده طلبا للنّجاة ولا يشركون أصنامهم في ذلك، ولكنهم بمجرّد بلوغهم برّ الأمان يعودون إلى كفرهم، والتعبير بـ"إذا" الفجائية: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ للدّلالة على الإسراع في النكوص إلى الكفر بعد ذلك مباشرة.

ثم علّل الله ذلك بميولهم النّفسية إلى الكفر والتّمتع بزينة الدّنيا إذ قال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وإذا اعتبرنا اللاّم الثّانية للأمر كما قرئ بها، فيكون الأمر للتهديد والوعيد، يؤكده قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ**﴾، تذكير يخصّ أهل مكّة من بين مشركي العرب، لأنّهم قالوا للرسول ﷺ من قبل كما تقدم في سورة القصص: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾(٥٧)، فعلى ذكر الخوف في هول البحر ذكّرهم الله بنعمة الأمن التي حباهم بها في بلدهم مكّة، بوجود الحرم الآمن ينعمون

بركاته، رفعاً لشأنهم بين العرب، وأمناً ولهو في كنفه، بينما القبائل الأخرى من حولهم تتناحر وتتصارع وتنهب وتسلب.

وذلك ما يدعو إلى العجب والاستنكار فقال تعالى: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، فكان من جحودهم لتلك النعمة أن اتخذوا في الحرم زهاء ثلاثمائة وستين صنماً تعبد من دون الله، وأيّ كفر هو أعظم من هذا؟، وهم يعلمون أنّ الله تعالى هو ربّ ذلك البيت، حماه وباركه، وما قصّة الفيل عنهم ببعيدة، وقد قال عبد المطلب لأبرهة الحبشي: "إن للبيت ربّاً يحميه".

وإذ كان ما أقاموا عليه من الكفر ظلماً وافتراء على الله فقد شدّد الله عليهم النكير في أواخر هذه السّورة بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

بلى، إنّ الشرك لظلم عظيم، ويتضاعف جرمه إذا كان مقترفه قد قامت عليه الحجّة ووضح الحقّ أمام عينيه، فماذا بعد ذلك إلاّ جهنّم مثوى للكافرين، وهي الجزاء الوفاق الذي ينتظرهم، جيء هذا الوعيد الشديد في صيغة الاستفهام التعويلي حيث يقرّ به كلّ من يسمعه.

وفي مقابل ذلك يأتي في ختام التنويه بشأن المؤمنين الذين صبروا على الابتلاء بالفتن والأذى في سبيل دينهم، وأنّه تعالى يوفّقهم بعنّته ويهديهم السبل إلى نيل مرضاته: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

جيء بالصّلة لبيان سبب الخبر المترتب عنها، والجهاد المذكور هو الصّبر والاحتمال لما تعرّض إليه المؤمنون من أنواع الابتلاء قبل هجرتهم إلى المدينة كما تقدم في أوّل السّورة. هؤلاء الأخيار من السّابقين الأولين من المهاجرين والأنصار

ومن يكون من بعدهم على شاكلتهم في الاحتمال والاصطبار يعدهم الله بما يضمن لهم السّعادة الأبدية وذلك:

أ)- ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾: والهداية هي الإرشاد من الله وتوفيقهم إلى مناهج الخير التي تكسبهم رضى الله وثوابه.

ب)- ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾: فهم في عداد المحسنين من أصفياء الله الذين بلغوا درجة الإحسان، وهي ذروة الإيمان وفاء وإخلاصا لله ربّ العالمين، ومعيّة الله تعني الرّضى عنهم والعناية بهم دنيا وأخرى، والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله

تمت

سورة الرّوم، مكيّة، وآياتها ٦٠

أ)– بين يديّ السّورة الكريمة:

تسمّى سورة "الرّوم" من عهد رسول الله وأصحابه، وذلك لورود ذكر الرّوم في أولها، والإخبار عن انتصارهم على الفرس في بضع سنين، بعد أن غلبهم الفرس ففرح المشركون بذلك، ولكن القرآن تحدّاهم إذ أخبر بهزيمة الرّوم لهم بعد حين، وقد صدق الخبر وتمّت معجزة القرآن العظيم بالإخبار عن المغيبات.

ولا يختلف موضوع السّورة عن موضوع سائر السّور المكية في التركيز على أسس العقيدة الإسلامية من الإيمان بوحدانية الله، والإيمان بالنّبوة والرّسالة وباليوم الآخر.

آياتها ستون، وهي السّورة الرّابعة والثّمانون في ترتيب نزول السّور، نزلت بعد سورة الانشقاق وبعد سورة العنكبوت، وهي تشبهها في مفتتحها بالحروف المقطعة: ﴿الٓمٓ﴾ دونما ذكر للكتاب المنزل بعدها، وهي السّورة الثّلاثون في ترتيب السّور بالمصحف الشّريف.

بعد التّمهيد الشّيق الذي يتضمّن صدق الأنباء الرّبانية في حدث تاريخي سيقع بعد بضع سنين، وهو انتصار الرّوم على الفرس مع ما في ذلك من إيماء إلى انتصار المسلمين على المشركين، وقد روي عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه أنّ نزول سورة الرّوم توافق مع غزوة بدر الكبرى، أي في وعد الله لرسوله بالنّصر وهو ما يزال في مكة.

وتضمّ السّورة الكريمة محاور ثلاثة:

أ)– بيان قانون الجزاء الرّباني في العاجل والآجل، وأنّ الذي بدأ الخلق قادر

على أن يعيده لفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ب)- ذكر أدلّة الوحدانية وعظمة القدرة الإلهية بالتأمل في صفحة الكون، والاعتبار بمأساة المكذبين.

ج)- التصريح بأنّ الإسلام هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ومناقشة المشركين في ما هم عليه من الضلال، بالتنظير بين الفضائل التي يدعو إليها الإسلام وبين أحوال المشركين الدّنية.

وتتفرّع عن هذه المحاور أنواع من الإرشادات والتنبيهات.

ب)- نبذة عن الرّوم:

الرّوم: اسم غلب في كلام العرب على أمة هي مزيج من اليونان والصقالبة ومن الرّومان، تقوّمت هذه الأمّة المسمّاة "الرّوم" على هذا المزيج، فجاءت منها مملكة تحتلّ قطعة من أوروبا وقطعة من آسيا الصّغرى وهي بلاد الأناضول، وتسمّى العرب -أيضا- الرّوم بني الأصفر.

اتسعت مملكة الرّومان تدريجيا بسبب الفتوحات، وتسرّبت سلطتهم إلى إفريقيا وأداني آسيا الصّغرى بفتوحات "يوليوس قيصر" لمصر وشمال إفريقيا وبلاد اليونان، وبتوالي الفتوحات للقياصرة من بعده فصارت تبلغ من رومة إلى أرمينيا والعراق.

وعندما صار "قسطنطين" قيصرا لروما، وانفرد بالسّلطة في حدود ٣٢٢م وجمع شتات المملكة فجعل لها عاصمتين: غربية هي روما، وشرقية اختطها مدينة عظيمة على بقايا مدينة بيزنطة وسمّاها: قسطنطينية، وهي اليوم مدينة اسطنبول في تركيا على البوسفور.

جرت بينهم وبين الفرس سنة ٦١٥م وذلك أن "خسرو بن هرمز" هو ملك الفرس غزا الرّوم في بلاد الشام وفلسطين وهي من البلاد الواقعة تحت حكم "هرقل" قيصر الرّوم، فنازل أنطاكية ثم دمشق وكانت الهزيمة العظيمة على الرّوم في أطراف بلاد الشام الحاذية بلاد العرب بين بُصرى وأذرعات، وذلك هو المراد في هذه الآية: ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ أي أدنى بلاد الرّوم إلى بلاد العرب".[1]

الأيام دُول بين النّاس، يوم لك ويوم عليك

أ)- النصّ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾
فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ
وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ
﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ
ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿الٓمٓ، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾: ﴿الٓمٓ﴾: لقد سبق التعريف بالحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور وعددها في القرآن تسع وعشرون سورة، ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾: "ال" في الأرض للعهد، و﴿أَدْنَى﴾: بمعنى أقرب، أي الأرض القريبة إلى جزيرة العرب من جهة الشام. ﴿سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾: البضع يكون من الثّلاثة إلى العشرة، وتقول الرّواية بأنه تمّ لقاء الجيشين بعد سبع

---

[1]- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢١/٤٣.

سنوات من اللقاء الأول. ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾: أي من قبل غلبة الرّوم ومن بعده، و"قبل" و"بعد" ظرفان مبنيان على الضمّ؛ لأنهما مقطوعان عن الإضافة، فالمضاف والمضاف إليه بمنزلة كلمة واحدة. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ﴾: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾: التنوين في "إذ" عوض عن الجملة المحذوفة، والتقدير: يوم إذ يغلبون يفرح المؤمنون. وإضافة النّصر إلى لفظ الجلالة: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ هو للتنويه والتعظيم، والمقصود به هو نصر الرّوم على الفرس. ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾: منصوب على المصدر المؤكّد له. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: أي قصارى تفكيرهم أنه منحصر في ظواهر الحياة من المحسوسات التي لا تحتاج إلى النظر العقلي.

ج)- البيان والتّفسير:

من السّنن الوجودية تدافع النّاس في صراعات لا تنتهي، ولكنها تكشف عن غالب ومغلوب، وغالبا ما تتصادم في دنيا النّاس قوّتان تستقطبان بعض التّابعين لها، كما كان شأن الفرس والرّوم وهما متجاوران في أطراف الجزيرة العربية، ففي شرق الجزيرة كانت دولة الفرس التي تدين بالمجوسية عبدة النّار والشّمس والقمر ويتبعهم المناذرة من العرب، وأمّا الرّوم فهم أهل كتاب، يدينون بالمسيحية ويغطّي حكمهم الشّمال الغربي من الجزيرة ويتبعهم الغساسنة من العرب، كما أنّ جنوب الجزيرة كانت تحت حكم الأحباش النّصارى، ويبقى العرب مستقلين في جزيرتهم، غير أنهم يتأثرون بالأحداث الجارية على أطرافها إن خيرا أو شرّا.

والأيّام دول بين الرّوم والفرس في حروبهما، وقد شاءت قدرة الله أن يسلّط القوّتين على بعضهما البعض ليخضد من شوكتهما في عهد التّنزيل، وما يزال رسول الله في مكّة يغالب قوى الكفر بعزمة وثبات. وكان من الطّبيعيّ أن يفرح المشركون بانتصار الفرس على الرّوم لأنهم على شاكلتهم في الكفر، حتى صاروا يتطاولون بذلك على المسلمين، مما جعل أبا بكر الصّدّيق يراهن أُبيّ بن خلف بعد

أن نزلت الآيات الأولى من سورة الرّوم، وخلاصتها في ما رواه الإمام الطبري: أنّ المشركين كانوا يحبّون أن يظهر أهل فارس على الرّوم؛ لأنّهم وإيّاهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبّون أن يظهر الرّوم على فارس؛ لأنّهم أهل كتاب مثلهم، فلمّا نزلت هذه الآية: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ، فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ خرج أبو بكر إلى المشركين فقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟ فلا تفرحوا ولا يقرّن الله أعينكم، فو الله لتظهرنّ الرّوم على فارس كما أخبرنا بذلك نبيّنا ﷺ، فقام إليه أبيّ بن خلف فقال: كذبت، فقال: أنت أكذب يا عدوّ الله، اجعل بيننا أجلاً أناحبُك عشر قلائص منّي وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الرّوم على فارس غرمت، وإن ظهرت فارس غرمت إلى ثلاث سنين، فناحبه، ثم جاء إلى النّبي فقال له النّبي: زايده في الخطر وماده في الأجل، فجاء أبو بكر إلى أبيّ وقال له: أخطها معه قلوص إلى تسع سنين، قال: قد فعلت. وتقول الرّواية: فلمّا أعلن وعد الله بنصر الرّوم بعد سبع سنين وهاجر أبو بكر إلى المدينة، وكانت وقعة أحد حيث خرج أبيّ بن خلف في المعركة فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبيّ وجاء به إلى النّبي فقال له: تصدّق به، وكان هذا قبل تحريم القمار. وقيل: أسلم كثير من النّاس لما صدق وعد رسول الله، وذلك من دلائله[1].

قال تعالى: ﴿الٓمٓ، غُلِبَتِ ٱلرُّومُ، فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ، فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾، ﴿الٓمٓ﴾: حروف مقطعة، تقدم القول في تأويلها بالسّور المبدوءة بها من قبل، وتختصّ سورة الرّوم بأنّها من السّور الثّلاثة التي لم يرد بعد حروفها ذكر للكتاب الحكيم، وهي: العنكبوت، والرّوم، والقلم، فهي مستثناة من السّور التّسع والعشرين المفتتحة بتلك الأحرف.

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ، فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: لله ما أعظم حنكة الإسلام وما أشدّ وفاءه لعقيدته، فحينما كان الكفر والإلحاد فهو لا يهادن ولا يساوم، في

(١) رواه ابن جرير الطبري من حديث عكرمة ٢٠/٩١.

يواجه خصومه بصرامة وشدة، وحيثما كان إيمان واعتراف بوجود الله وبالوحي والرّسالة والإيمان باليوم الآخر، ولو كان ذلك على الصّورة التّقليدية المتحرفة كشأن أهل الكتاب، فإنّنا نجد الإسلام ورسوله يلاطف ويلاين ويوظّف ما نسمّيه اليوم بالحنكة السّياسية، فقد تدبّرنا إرشادات الله في مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن في سورة العنكبوت، وها هو وعد الله يبشر المؤمنين بنصرة الرّوم على أعدائهم بعد بضع سنين، وبعد أن شمت بهم أعداؤهم بنصرة الفرس على الرّوم، حتى ظنّ النّاس أن أيامهم قد ولّت، وكان القرآن هو الصّوت الوحيد الذي عارض تلك النّتائج إذ أعلن في صدق ويقين أن تلك الهزيمة عارضة وأنّ النّصر آت بعد قريب.

﴿لله الأمْرُ من قبْلُ ومن بعْدُ ويومئذٍ يفْرحُ المؤمنون. بنصْرِ الله ينصُرُ من يشاءُ وهو العزيزُ الرّحيمُ﴾.

يتمثّل هذا الإخبار الإلهي الصّادق قاعدتان إيمانيتان لهما إيحاءات عميقة في قلوب المؤمنين:

أ)- ﴿لله الأمْرُ من قبْلُ ومن بعْدُ﴾: المسارعة بردّ الأمر كلّه إلى الله في جريان الأحداث مهما كانت نتائجها؛ لأنّ في تقرير ذلك إذعانا لمشيئة الله في تصريف شؤون الخلق، فالنّصر والهزيمة، وقيام الدّول وزوالها، وتدافع النّاس في صراعاتهم المختلفة، كل ذلك متجاوب ومسائر مع ما يقدّره تعالى من أحداث في أرجاء كونه الواسع، يصرفها كيف يشاء وفق إرادته وحكمته: ﴿وكُلُّ شيْءٍ عندهُ بمقْدارٍ﴾(الرّعد:٨).

وما الأسباب الظّاهرية التي يتخذها الإنسان إلاّ أدوات لابدّ منها لتحقيق الأهداف المطلوبة متى أراد الله ذلك، ولكنّها قد تتعطّل دون الهدف المنشود، فلا تنفع ولا تفيد.

ب)- ﴿يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾: فالنّصر والهزيمة مظهران لتلك الإرادة الإلهية الكلّية قد لا نهتدي -نحن البشر- لأسبابهما كما لا نستطيع تحديد مستحقّهما في دنيا النّاس، لأنّ المعايير الحقيقية لا يعرفها إلاّ الله العزيز ذو القوة المتين، كما أنّنا لا ندرك مقتضيات رحمته في ما يقدّره من ذلك لعباده نصرا أو هزيمة؛ لأنه تعالى يقول: ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩).

ولا يعني ذلك أن نكبت عواطفنا في الحبّ والكره للأشياء، ولا أن نعطّل الأسباب في مساعينا بدعوى التوكل على الله، ولكن بأن نربط تحقّق النتائج بإرادة الله ومشيئته؛ لأنه خالق الأسباب والمسبّبات.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾

وعد الله شامل مطلق، يغطّي عالم الغيب والشّهادة، ويطال أبعاد الزّمان الثّلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل. فمن وعوده تعالى ما يقع في واقع الحياة حاضرا أو مستقبلا، وإن كان الإنسان لا يؤمن إلاّ بالواقع المحسوس إذا أخطأه الإيمان، وبما أنّ وعد الله هو قرين علمه ومشيئته في تدبير شؤون الكون الأعظم، فهو صادر عن قدرته المطلقة وإرادته الحكيمة، فلا يكون إلاّ ما يريد.

فقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، هذا الاستدراك ناشئ عن قصور أكثر النّاس عن إدراك تلك الصّفة الإلهية الصّادقة في إنجاز الوعود كشأن المشركين في قضية هزيمة الرّوم، ذلك لأنّ الإنسان إذا أخطأه الإيمان تعلّق بظاهر الحياة وحدها فتكون نظرته سطحية للأشياء، وإن بدا له أنه يعلم الكثير من الحقائق؛ لأنّ ظاهر الحياة الدّنيا محدود قصير، وما هو إلاّ مشهد صغير من مسرحية الوجود الكبرى.

وقد وصف الله الدار الآخرة بأنها هي الحيوان -كما تقدم- والمؤمن ينور الله يبصر، كما ورد في الأثر، فهو لا يكتفي بظواهر الأشياء التي وصفها الله بأنها لهو ولعب، وإنما يتعمق لبواطنها مستنيرا بهدي الله ليتجاوب مع روح الوجود كله.

فلا تعجب -إذن- مما حققه اليوم العلم المادي في جميع مجالاته، فهو عار عن تلك الحقيقة الوجودية الكبرى في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾؛ لأنّ الإيمان هو وحده الضوء الكاشف الذي يسبر أغوار الوجود، ومنها معرفة أسرار النفس البشرية التي عجز العلم الحديث عن فهم دقائقها واستكناه أسرارها.

وشتان بين الإنسان الملحد المادي الذي لا تتعدى نظرته أفق الزمان والمكان في هذه الأرض الضيّقة المحصورة، وبين الإنسان الذي يؤمن بالغيب وتمتدّ نظرته إلى العلم الأبدي اللامحدود والذي يقول عنه رسول الله: «**فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».[١]

وصدق مولانا العظيم حين قال في شأن الجاحدين لليوم الآخر: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (الشورى:١٨)، والله أعلم.

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٦٣) بدء الخلق، باب (٨) ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٧٢، ورواه مسلم من حديثه أيضا، كتاب (٥٤) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب (١)، رقم ٧٣١٠.

التّحريض على التّفكّر في الأدلّة الدّالّة على وجود الله ووحدانيّة

أ)- النص:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾: "في" إمّا للظّرفية الحقيقية، أي تفكّرا مستقرًا في أنفسهم، ويجوز أن يكون للظّرفية المجازية، أي يتأمّلوا في ذوات أنفسهم، وعلى الاحتمالين تعلّق فعل: ﴿يَتَفَكَّرُوا﴾ عن العمل في مفعولين، لوجود النّفي بعده، والاستفهام تعجّبي من غفلتهم، أي الغافلين عن الآخرة. ﴿فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ... أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: يراد بالنّظر هنا نظر العين لمشاهدة آثار الأمم الخوالي. ﴿السُّوأَىٰ﴾: مؤنث الأسوأ، أو هو مصدر كبشرى. ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ﴾: ﴿عَاقِبَةُ﴾: اسم "كان"، وذكرت لأنّ تأنيثها غير حقيقي. ﴿السُّوأَىٰ﴾: خبر "كان"، ومن نصب: ﴿عَاقِبَةَ﴾ في قراءته جعل: ﴿السُّوأَىٰ﴾: اسم كان. ﴿أَن كَذَّبُوا﴾: في موضع نصب، والمعنى: لأن كذبوا.

﴿وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾: الإثارة: رفع الشيء المستقر وقلبه بعد استقراره، أي قلبوا الأرض للحرث والزرع أو لغير ذلك، وعمارة الأرض تكون بالبناء والزراعة والصناعة، ومعرفة الضميرين يكون بالقرينة في قوله: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾، فمرجع الأول يكون لما رجع إليه ضمير: ﴿وَأَثَارُوا﴾، ومرجع الثاني يكون إلى ما رجع إليه ضمير: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾، والمقصود بهم هم قريش، فإن عمارتهم لبلدهم تتضاءل أمام عمارة من سبقهم، وفي ذلك تهكم بهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿كَانَ عَاقِبَةُ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب: ﴿عَاقِبَةُ﴾ بالرفع على أصل الترتيب بين اسم "كَانَ" وخبرها، وقرأه الباقون بالنصب على أنه خبر "كَانَ" مقدما على اسمها، والفصل بين "كَانَ" ومرفوعها بالخبر سوّغ حذف تاء التأنيث من فعل "كَانَ".

د)- البيان والتّفسير:

بعد أن ندّد الله عن المشركين بغفلتهم عن الآخرة، وذلك بإنكارهم للبعث، وقد بيّن تحقق وعده بالنّصر وربط ذلك بالحقّ الذي يقوم عليه الوجود ويدلّ على وحدانيته وعظمته وقدرته، لفت هنا أنظار المشركين الغافلين إلى التأمل في أرجاء هذا الكون الفسيح، علّهم يدركون من خلاله ما هم عليه من عمى وغفلة فقال جلّ من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

إنه السّؤال التعجبي من غفلة أولئك القوم وتحجّر أفكارهم حول

المألوف مما حولهم من المشاهدات حتى تبلّدَ حسّهم وأدّى بهم ذلك إلى إنكار ما وراء المشاهد المحسوس، وبالتالي دلّوا على تكذيب رسول الله في خبر السّماء.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَنفُسِهِم﴾ يأخذ معنى قوله في سورة الذاريات: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١)، والمقصود به هو النظر التدبّري لمعرفة أغوار النّفس البشرية كيف سوّاها الله وبرأها ونفخ فيها من روحه لتكون الطّاقة المحرّكة لذات الإنسان، والقرآن الكريم كثيرا ما يوجّه الأنظار إلى التأمّل في خلقة الإنسان، وكثيرا ما يعرّفها بخلقة السّماوات والأرض لإدراك عظمته وقدرته، ولا يزال البحث العلمي قاصرا في إدراك أسرار النفس البشرية، وقديما قال الشاعر العربي:

دواؤك فيك وما تشعر   وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

وفي تحديد الأجل لنهاية الفلك الموّار في السّماوات والأرض إيماء إلى قيام السّاعة والرّجوع إلى الله ليوم البعث الذي ينكره الكفار، وكون خلق السّماوات والأرض وما بينهما ملابسا للحقّ يوحي بأنّ هذا الوجود لا يسير عبثا ولا بمحض الصّدفة كما يدّعي الملحدون، بل هو قائم على الحقّ وعلى الميزان الثّابت المركّز على قدرة الخالق والثّابت على النواميس الوجودية التي قدّرها، وأنّ من مقتضيات ذلك الحق الإلهي وعدله القويم أن تكون هناك نشأة أخرى، يتمّ فيها الجزاء على الخير والشّر، ويفصل فيه بين الحقّ والباطل، وقد حدّد الله لذلك موعدا لا يتقدّم ولا يتأخّر، وأخفاه عن الخلق فلا يعلمه إلاّ هو، وذلك ما جعل الجاحدين يغفلون عن ذلك اللّقاء المحتوم، ومن ثمّ فهم لا يتهيّئون له.

وإذ قصرت أنظارهم عن التدبر الواعي في ملكوت السّماوات والأرض فهلاً نظروا في أبعاد التّاريخ ومصير الأمم كيف جرت عليهم سنة الله بعد أن قامت عليهم حجّته بإرسال الرّسل وإنزال الكتب: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

القرآن واقعيّ في دعوته، ملمّ بجوانب النّفس البشرية، مترفّق في السّير معها على طريق الإرشاد والنّصح، فبعد تلك الجولة في الآفاق الرّحبة من الكون الفسيح، ها هو ذا يضيّق مطلوبه لدى المدعوّين ليسيروا في أرجاء الأرض، وذلك في متناول الجميع، وهم جزء من الخلق المبثّ في أرجائها، ينتظمهم جميعا ماض تاريخيّ واحد، كما يستميلهم ويستهويهم مستقبل واحد، وسنّة الله في مراحل الموكب البشري واحدة، وهي منبثقة عن الحقّ الذي قام عليه الوجود كلّه، وما حدث للأمم الخوالي يكشف عن عواقب الأمم الآتية، إن هي سلكت نفس الطّريق واختارت لحياتها نفس القيم والإيديولوجيات، وسنّة الله لا تحابي أحدا، فما مقدار قوّة مشركي مكّة وغيرهم وما مدى حضارتهم إلى جانب الأمم العظيمة في التّاريخ مثل عاد وثمود ومثل الفرس والرّومان، أين هي تلك الحضارات، وكيف كان مصيرها؟، عندما اقتصر علمهم على ظاهر من الحياة الدّنيا، وغفلوا عن الآخرة تكذيبا بما جاء به الرّسل وفرحا بما عندهم من العلم حتى مضت فيهم سنّة الله في المكذّبين دمارا لحضارتهم وخرابا لعمرانهم كما قال أمير الشّعراء:

وليس بعامر بنيان قوم ... إذا أخلاقهم كانت خرابا

وقال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإذ كانوا يستحقّون تلك العقوبة بما كسبت أيديهم فإنّه تعالى ينفي عنه الظّلم لأنّه قد أقام الحجّة عليهم قبل أن يأخذهم على ظلمهم.

وقوله بصيغة الاستدراك: ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ للدّلالة على السّبب الباعث على معاملتهم بذلك، وأنّه ظلم أنفسهم بالكفر والضّلال، وجيء بصيغة المضارع للدّلالة على الدّوام والاستمرار على ذلك.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

عاقبة السّوأى هي ما يلحقهم من عذاب يوم القيامة، ولذلك جاء العطف بـ"ثم" للتراخي، وفي ذلك تمهيد للمشركين من العرب وإنذار بعد التذكير والموعظة، وعلّل تلك العاقبة السّيئة بتكذيب الرّسل والاستهزاء بآيات الله.

والله أعلم

انفراد الله بالتّصرّف في إيجاد الخلق وإفنائهم، وما يكون عند رجوعهم إليه

أ)- النصّ:

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ
١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ
١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ١٦

ب)– التحقيق اللغوي:

﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: بين "يبدأ" و"يعيد" طباق. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة. ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾: الإبلاس: سكون في حيرة. ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: وصف للمشركين، أظهر في مقام الإضمار لنعتهم بصفة الإجرام. ﴿وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾: التعبير بالماضي للإشارة إلى تحقق حصول المعنى. ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾: الروضة تجمع على روضات ورياض، كلّ أرض ذات أشجار ومياه وأزهار. ﴿يُحْبَرُونَ﴾: من الحبور، وهو السّرور الشديد. ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾: من الإحضار، جعل الشيء حاضرا، ويلاحظ فيه معنى القهر والعقاب.

ج)– أوجه القراءة:

﴿تُرْجَعُونَ﴾: قرأه الجمهور بتاء الخطاب، قرأه أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وروح عن يعقوب بياء الغيبة على طريقة ما قبله.

د)– البيان والتفسير:

للإمام ابن عاشور ملحظ دقيق في أسلوب السّورة كيف بسط الله فيها دلائل انفراده تعالى بالتصرف في شؤون خلقه في معاشهم ومعادهم لا يطال أن يكون للآلهة الباطلة شيء من التصرف في ذلك فقال: "فصّلت هذه الدّلائل على أربعة استئنافات متماثلة الأسلوب، وابتدئ كلّ واحد منها باسم الجلالة مجرى عليه أخبار من حقائق لا قبل لهم بدحضها؛ لأنهم لا يسعهم إلا الإقرار ببعضها أو العجز عن نقض دليلها. فالاستئناف الأول مبدوء بقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، والثاني مبدوء بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ

رزقكم﴾ (الرّوم: ٤٠)، والثّالث مبدوء بقوله: ﴿الله الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ (الرّوم: ٤٨)، والرّابع مبدوء بقوله: ﴿الله الذي خلقكم من ضَعْفٍ﴾ (الرّوم: ٥٤)".[١]

قلت: نحن بصدد الاستئناف الأوّل الذي يقول فيه تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، وإذ كان افتتاح السّورة الكريمة ردًّا على ابتهاج المشركين بانتصار الفرس على الرّوم وتطاولهم بذلك على المسلمين، وكيف أخبر الله بأنّ عاقبة النّصر تكون للرّوم وعدًا منه حقًّا لا يتخلّف، واقتضى ذكر ذلك الحدث التّاريخي أن يفيض الله في الاستدلال على إبطال مزاعم الشّرك بتلك الاستدلالات المتعاقبة؛ مبدأً بقدرته على بدء الخليقة ممّا يقرّون به ليدمج فيه قدرته على إعادة الخلق ليوم الجزاء عند الرّجوع إلى الله، ويا ما أبلغ أسلوب الالتفات من ضمير الغيبة إلى خطاب المشركين ليكون ذلك أوقع في نفوسهم بطريق الإلزام؛ لأنّ الإعادة كالبدء، بل هي أهون منه في عرفنا، فالقدرة الإلهية لا تتخلّف في إحداهما؛ لأنّهما متلازمتان.

وإذ لا شكّ في الرّجوع إلى الله للحساب والجزاء فكيف يكون حال المشركين يومئذ؟ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ، وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

وقيام السّاعة يقصد به في القرآن نهاية العالم وفساد نظامه، وقد رسم القرآن لذلك مشاهد مهولة فقال عنها إنّها شيء عظيم، ولذلك وصف المجرمين بحالة الإبلاس، وهي السّكون في حيرة واضطراب، وهم يائسون من شفاعة الشّفعاء، بل هم يتبرّؤون من أولئك الشّركاء الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢١/٦١.

﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة:١٦٦)، وذلك هو اليأس المميت الذي عبرت عنه الآية بالإبلاس، وذلك حين يفقد المرء كلّ أمل في الخلاص والنجاة، حين تتمزّق تلك الخيوط العنكبوتية التي كان يتمسّك بها من النصراء والشفعاء، وقد صوّر القرآن ذلك الانفصام الذي يكون بين المشركين بعضهم ببعض وبينهم وبين معبوداتهم الباطلة. وها هو ذا يفصّل أحوال الناس في ذلك الموقف المهول فيقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

كرّر الله ذكر قيام السّاعة لاسترعاء الاهتمام، وهو مفرق الطّريق بين فريقين لا لقاء بينهما، بعد الفراغ من الحساب.

بدأ الله بالفريق الفائز النّاجي، وجعل سبب فوزه الإيمان والعمل الصّالح، وأنّ جزاءهم الرّوضات الجنّات لهم فيها ما يشاؤون من المباهج والمسرّات. وفي المقابل يذكر الفريق الخاسر الهالك بسبب كفره وتكذيبه بآيات الله ولقاء الآخرة، والسّورة تركّز على هذا العنصر الإيماني الأخير بناء على ما له من التأثير في السّلوك، وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ اسم الإشارة لإثبات أنّهم جديرون بتلك العقوبة لما ذكر من الأسباب، واختيار الجملة الاسمية لتفيد الدّوام والاستمرار، والله أعلم.

من دلائل قدرته تعالى في الأنفس والآفاق

أ)– النصّ:

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ

وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ
ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ
آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ
تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾. "الفاء" للإفصاح والتفريع: ﴿سُبْحَانَ﴾ اسم مصدر قام مقام الفعل، يفيد التنزيه. ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: بدأ بالتسبيح قبل الحمد على قاعدة التخلية قبل التحلية؛ ولأنّ تنزيه الله عن الأنداد والشركاء هو أوّل ما يدعى إليه الكافر. ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: الآية جامعة لأوقات الصلوات الخمس: الصّبح، الظّهر، العصر، المغرب، العشاء، وجاء العشي بصيغة المصدر إذ لم يسمع عن العرب استعمال الفعل "تعشون". ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: تشمل القدرة الإلهية في ذلك الإخراج

الجانب المادّي والمعنويّ كإخراج البيضة من الطّائر وإخراج الطّائر من البيضة وكإخراج المؤمن من الكافر، وإخراج الكافر من المؤمن. ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: أي كما إحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء يكون إخراجكم من القبور عند البعث للحياة الثّانية. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾: أي آيات الله الدّالة على قدرته. ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾: في موضع رفع على الابتداء، والجار والمجرور خبر مقدم. ﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾: صدرت الجملة بحرف المفاجأة: "إذا"، على اعتبار ظهور النّاس بوضع الأجنّة، والعطف بـ"ثم" تقتضيه الأطوار الخفية لتطوّر الأجنة في الأرحام، والانتشار: الظّهور على الأرض، والتباعد بين النّاس في الأعمال. ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾: أي لتأنسوا بها وتطمئنوا إليها، عدّي بـ"إلى" ليأخذ معنى: تميلوا.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾: وجه المقارنة بين خلق السّماوات والأرض وبين اختلاف ألسن البشر وألوانهم، أن ذلك الاختلاف من آثار خلق السّماوات والأرض وذلك بسبب الاستقرار في الأوطان المتعددة واختلاف المناخات. ﴿مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ﴾: المنام مصدر ميمي للنّوم، والابتغاء من فضل الله هو طلب الرّزق بالعمل. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾: منصوبان على المفعولية لأجله، ويكون الخوف من الصّواعق والعواصف المدمّرة والطّمع مما يكون من الأمطار النّافعة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾: هي النّفخة الثّانية في الصّور للبعث وكونها دعوة من الأرض على اعتبار أنّا منا فيها ونخرج منها. ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾: بمعنى خاضعون متعاونون لأمر الله، واللاّم للتقوية. ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾: ﴿الْمَثَلُ﴾: الوصف والشّأن العجيب من القدرة والحكمة وسائر صفات الكمال، والأعلى الذي لا يساوى ولا يقاس بشؤون النّاس.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الْمَيِّتِ﴾: قرأ نافع وحمزة وحفص بتشديد الياء، وقرأه الباقون بالتخفيف. ﴿تَخْرُجُونَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بخلف عنه: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بالبناء للمعلوم، وقرأه الباقون: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ بالبناء للمجهول. ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾: قرأ الجمهور بفتح اللاّم، وقرأه حفص بكسر اللاّم، أي لأولي العلم. ﴿يُنَزِّلُ﴾: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿يُنْزِلُ﴾ من: أنزل، وقرأه الباقون ﴿يُنَزِّلُ﴾، من: نزّل.

د)- البيان والتّفسير:

لما كان أكثر النّاس لا يعلمون إلاّ ظاهرا من الحياة الدّنيا، فأنكروا ما وعد الله به من الحياة الأخرى، وبعد عرض مشاهد مروّعة من يوم القيامة اقتضى التّذكير والإرشاد الرّبّاني أن ينتقل بالأنظار الإنسانية إلى رحاب الكون الفسيح في صحائف صنعه وبدائع أسراره، فمهّد الله إلى ذلك بالدعوة إلى تسبيح الخالق والحمد له في كلّ الأوقات وفي كل الظّروف والأحوال؛ لأنّ ذلك أدعى إلى التّأمل الواعي والتدبّر الحكيم فقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

تفريع التنزيه للذّات العليّة ناشئ عمّا نسبه إليه الجاحدون للبعث من العجز عن إحياء الموتى ليوم النّشور، وحكمه تعالى في هذا الحال بأنّ أكثر النّاس لا يعلمون، وقد ذكر الله الحال الزّمني للتّسبيح ما بين اللّيل والنّهار فانتظم الأوقات للصلوات الخمس المفروضة: ففي الإصباح صلاة الفجر، وعند الظّهيرة والعشيّ صلاتا الظّهر والعصر، وعند الإمساء المغرب والعشاء. ذكر الله تلك الأوقات على الإجمال، والمقصود هو التّسبيح لله في جميع الأوقات، وإنّما ربط ذلك بحركة الشّمس في شروقها وزوالها وغروبها؛ لأنّ

ذلك أدعى إلى تدبّر صنع الله وقدرته في تسخير ذلك، وقد سئل ابن عباس: هل تجد الصّلوات الخمس في القرآن؟، قال نعم، وتلا قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

قلت: وشبيه في دلالة هذه الآية قوله تعالى:

أ)- ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (الإسراء:٧٨).

ب)- ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (طه:١٣٠).

ذلك في المجال الزّماني، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، إشارة إلى المجال المكاني، وإذ أثبت الحمد لذاته العليّة في السّماوات والأرض، ولم يأمر به عباده، فقد دلّ ذلك أنّ الله محمود في كلّ الكون، فإذا أمر عباده بتسبيحه وتعظيمه فذلك لمنفعة أنفسهم، ثم إنّ تقديم التسبيح على الحمد، لأنّ الأوّل تخلية إذ هو تنزيه عن كلّ نقص، والحمد تحلية، وهو ثناء على صفاته العظمى الكاملة.

وفي فضل التسبيح وردت عن النبيّ عدّة أحاديث أشهرها ما رواه الشّيخان، قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللّسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرّحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**».[1]

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾: في إطار بدء الخلق وإعادته الدّال على قدرة

١- رواه البخاري من حديث أبي هريرة، كتاب (٨٣) الدعوات، باب (٦٥) فضل التسبيح، رقم ٦٠٤٣، ورواه مسلم من حديثه أيضاً، كتاب (٤٨) الذكر والدعاء والتوبة، باب (١٠) فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٢٦٩٤.

الله تأتي هذه الآية لتفصيل تلك القدرة الإلهية الجديرة بالتسبيح والحمد، تأتي للتنبيه إلى دورة الحياة التي لا تتوقّف من حولنا ونحن لا نكاد نشعر بها، سواء في ما حولنا أو في ما يتمّ بعيدا عنّا في أصقاع الأرض وأغوار بحارها وأجواز فضائها، وكيف أن القدرة الإلهية تفعل الضّدّين في إخراج الحيّ من الميّت كخلقة الإنسان من تراب، والطّائر من البيضة، والنّبتة من الحبة والنواة...إلخ. وفي العكس يخرج الميّت من الحيّ، كالبيضة من الطّائر، ويتم ذلك حتى في المجال المعنويّ فيخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، على قاعدة قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ (الأنعام:١٢٢).

وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾، لقد تقدّم مثل هذا التمثيل لقدرة الله في إعادة الحياة للنشأة الأخرى، بإحياء الأرض الميتة اليابسة بعد إنزال الأمطار عليها، وهي عملية دائبة تثير التأمّل للقلب الواعي نلمس من خلالها القدرة الإلهية الخلاّقة فنزداد إيمانا ويقينا بوعد الله، فساق لذلك أدلّة ستّة متعاقبة، تدلّ على قدرته ووحدانيته.

أ- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾: ابتدأت تلك الأدلة بقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ لاتّحاد دلالتها، والآية هي العلامة الدّالة على الشّيء، وهي آيات صامتة بثّها الله في الأنفس والآفاق ولفت أنظارنا إليها لندرك من خلالها عظمة الخالق وبديع صنعه، وأنّ ذلك لا يتمّ بمحض الصّدفة والعفوية كما يدّعيه الملحدون، ولا يعبّر بالآية إلاّ للشيء العظيم، سواء كان مادّيا أو معنويّا، ومن أعظمها في المجال الإرشادي والبياني آيات كتاب الله الحكيم، ومنها المعجزات الخارقة للعادة التي تجري على ألسنة الرّسل، بدأ الله في الاستدلال بما هو أقرب إلى طبيعة الإنسان، مذكّرا إيّاه ببديع صنع الله في خلقه، فأشار إلى أصل تلك الخلقة الأولية في خلق أبينا آدم

أنها من تراب، هكذا على قاعدة قدرته تعالى في إخراج الحيّ من الميت، وجاء العطف بـ"ثمّ" لبيان البون الشاسع بين طور التراب الميّت، وبين البشر السّويّ يدبّ وينتشر على وجه الأرض، فقدرة الله هي التي تطوي تلك المسافة بينهما، ويبقى العلم عاجزا حتى اليوم في تحديد تلك المراحل، ومعرفة كيفية تطوّرها، ذلك في أصل الخلقة الأولى لآدم وحواء، ولكن عند الإشارة إلى التناسل البشري جيء بـ"إذا" الفجائية، للدّلالة على أنّ فترة التكوين في الأرحام قصيرة نسبيا إذ لا تتعدّى تسعة أشهر.

ب)- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: من بديع الترتيب الاستدلالي هذا التدرّج من أصل الخلقة الأولى إلى ذكر التناسل الزّوجيّ بين الذّكر والأنثى، مما جعله الله تعالى سنة وجودية في التكوين فقال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات:٤٩)، الخطاب لجميع الناس، وفي الآية ألفاظ هي في حاجة إلى مزيد من البيان.

- يفتتح كلّ استدلال بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ بصيغة الجمع مع "من" التبعيضية للدّلالة على أنّ الآيات الدّالة على عظمة الله هي أكثر من أن تحصى، ثم بنفس الصّيغة يختم الاستدلال بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾، حتى يستوعب السّامع كلّ الجوانب الاستدلالية في ما خصّ بالتذكير.

- ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: يعني من جنسكم وصنفكم؛ لأنّ ذلك أدعى للانسجام والتّجانس، ولا يمكن أن يراد به: من ذواتكم، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين إشارة إلى أصل خلقة حواء من ضلع آدم كما ورد في الحديث الشريف.

- ﴿أَزْوَاجًا﴾: مفرده زوج، وهو يطلق على الرّجل والمرأة، ولم يستعمل القرآن كلمة "الزّوجة" بتاء التّأنيث، ولهذا اللّفظ معناه اللّغوي الذي لا يعوّضه لفظ آخر من مثل الصّاحب والقرين والشّريك...إلخ. لأنّ الزّوجين يلاحظ فيهما معنى التّكامل، بحيث لا يتمّ أحدهما إلا بوجود الآخر.

- ﴿مَوَدَّةً﴾: هل هي مرادف لمعنى المحبة، أم هما لفظان يشتركان في جزء من المعنى ويزيد أحدهما على الآخر فيه؟، فالمودّة ليست هي مجرّد الميل القلبي الذي لا يملك الإنسان التحكّم فيه، فالمودّة لا تحصل اضطراريا كالمحبة، بل لا بدّ فيها من الكسب بأن يتودّد أحد الزّوجين إلى الآخر بمختلف الوسائل، وهذا المعنى ملحوظ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (مريم:٩٦).

وفي ذكر هذه النّعمة -أي نعمة الأزواج- امتنان من الله علينا لما أودع فيها من المنافع لخّصها بقوله: ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾، والتّعبير بالسّكينة غاية في الاعتبار إذ هي أغلى ما يطلبه الإنسان في حياته من الهدوء وراحة البال لا يجدهما إلا في كنف زوجة صالحة وفي رواق بيت سعيد.

- ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾: وهما من أفعال القلوب، لا يهبها الله إلاّ لمن يشاء من عباده -وهو أعلم بمن خلق-، فلم يقصر بناء البيوت على المودّة وحدها، بل جعل الرّحمة والإحسان عندما يغيض معين الحبّ بسبب أو بآخر، ولمّا كان التّفكّر الواعي هو الوسيلة النّاجعة لإدراك تلك الحقائق فقد جاء التّذييل بها مناسبا لحساسية الموضوع وتعداد منافعه.

ج)- ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾:

إنها الآية الثالثة، وفيها إدماج لذكر بعض مواصفات الإنسان على ظهر الأرض، بخلق السّماوات والأرض وما بينهما من الأحوال المتكاملة المتلازمة، فخلق السّماوات والأرض آية عظيمة لا يكاد العلم يعرف عنها إلا النزر اليسير، والقرآن حافل بذكر عظمتهما، وكونهما لا تنفكان عن تدبير الله الحكيم، وأنهما تسبّحان بحمده، والإنسان هو أشرف مخلوق على ظهر الأرض نبت من ترابها وتميز بالنّفخة القدسية، فتوزّعت أجياله في أصقاع الأرض، فينشأ عن ذلك اختلاف في الألسن والألوان باختلاف البيئات والحاجات، بينما الأصل واحد في لونه ولسانه، فوجه المقارنة بين خلق السّماوات والأرض وبين اختلاف ألسنة البشر وألوانهم مع اتحادهم في الأصل واضح جليّ في بيان قدرة الله تعالى بما أودع في غريزة البشر من الطّبائع وحباهم به من أنواع التّصرف والتّفكير، فكانت لهم تلك الأحوال المختلفة في اللّون والنّطق.

يقول الإمام ابن عاشور: "واعلم أنّ من مجموع اختلاف اللّغات واختلاف الألوان تمايزت الأجذام البشرية واتحدت مختلطات أنسابها، وقد قسّموا أجذام البشر الآن إلى ثلاثة أقسام أصلية وهي: الجذام القوقاسي الأبيض، والجذام المغولي الأصفر، والجذام الحبشي الأسود، وفرّعوها إلى ثمانية وهي: الأبيض، والأسود، والحبشي، والأحمر، والأصفر، والسّامي، والهندي، والملايي (نسبة إلى بلاد الملايو)".(1)

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾: والعالمون هم البشر وغيرهم من العقلاء ممن يتدبّرون تلك الظّاهرة الدّالة على عظيم قدرة الله وعلى رحمته بهم في تيسير أسباب التّواصل والتّفاهم بوسائل النّطق الطّبيعية التي سخّرها لهم.

١- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير: ٢١/٧٥.

د)- **﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾**: تكرّرت هذه المنة الرّبّانية من خلودنا إلى الرّاحة والنّوم في اللّيل ونشاطنا الحيويّ بالنّهار، تكررت بأساليب مختلفة، وقد ارتبطت كلّ منهما بظاهرتي اللّيل والنّهار في الحركة الدّائبة للكون الأعظم، ولذلك الرّبط دلالته الموحية في مجال التّأمّل والاعتبار.

وللآية هنا احتمالات من حيث التّفسير:

آ)- فقوله تعالى: ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ متعلق: بـ﴿مَنَامُكُم﴾، معناه أنّ النّاس ينامون باللّيل، كما ينام البعض منهم بالنّهار، كأصحاب الأعمال في المداومة وغيرها، وكالقائلين في منتصف النّهار لشدة الحرّ، ولنا أن نرجع نفس القيد لمصدر: ﴿ابْتِغَآؤُكُم﴾، فيكون ذلك أيضا باللّيل والنّهار كما هو واقع اليوم في الحواضر الكبرى.

ب)- أما إذا جعلنا الكلام من قبيل اللّفّ والنّشر، فإنّنا نرجع كلّ عمل إلى ظرفه الزّمني، فيكون النّوم باللّيل، والسّعي بالنّهار، ولاختيار الابتغاء من فضل الله في مقام السّعي للرّزق إيحاءاته الإيمانية في ذكر فضل الله علينا في ما يبسطه من أرزاق لا يد لنا في توفيرها وتسخيرها لنا، إذ كثيرا ما يطغى الإنسان في بحبوحة غناه فينسى فضل الله عليه.

وأما التّعقيب بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، فلأنّ السّمع هو الوسيلة الكبرى التي نطّلع بها على أحوال النوم من غيرنا؛ لأنّنا في حالة نومنا نحن شبه أموات، لا نشعر بما يعترينا خلاله إلا بما نعرفه بواسطة غيرنا، إذ قد يعترينا كابوس أو نشاهد أحلاما فتصدر منّا أصوات وحركات لا شعورية، وما تزال ظاهرة النّوم محيّرة للعلماء في فهم أسرارها، فهي آية من آيات الله حقا.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾:

هذه الظّاهرة الكونية لا تتعلّق بذات الإنسان كسوابقها، ولكنّها من جملة الظّواهر العظيمة، والتي لا نشاهد أغلبها، وقد جعل الله محلّ منّته هنا أنّه يرينا ظاهرة البرق لكونها شديدة العلاقة بحياتنا على وجه الأرض، ولها في نفوسنا انفعالان متضادّان: نخافها لما نتوقّع بسببها من صواعق وحرائق وعواصف مدمّرة، ونطمع في ما يعقبها من نزول الأمطار النّافعة التي تكون سببا لإحياء الأرض بعد موتها.

وفي الآية إيحاء بقدرة الله العجيبة في الإحياء والإماتة، وإضفاء ذلك على الأرض التي هي منبت الإنسان يعرّض بالذين ينكرون تلك القدرة، ولذلك جاء التذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

وها هو العلم الحديث يبيّن ويكشف بعض جوانب تلك الآية الإلهية القادرة، وتبقى الكثير من الأسرار الكونية ما تزال تتطلّب التفكير الواعي والتأمّل الحصيف والعقل النيّر.

﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾:

هذه هي الآية العظيمة الثّامنة الدّالة على عجائب صنع الله وعظيم قدرته في الفضاء الكوني الواسع، ومعنى قيام السّماوات والأرض هو بقاؤهما متماسكة متناسقة لا ترى فيها من فطور ولا يصطدم بعضها ببعض، فالقيّومية على خلقه هي من الصّفات الحسنى لله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة:٢٥٥)، و"الباء" في قوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ لسببيته، والأمر هو الأمر التكويني في مجموع النظام الكلّي البديع للكون.

وقوله: ﴿مِنَ الأَرْضِ﴾ في تحديد متعلق الجارّ والمجرور احتمالات عند المفسّرين:

أ)- أنه متعلق: بـ﴿دَعَاكُمْ﴾، فيتوجه أن يكون المعنى أنه يدعوننا من الأرض التي متنا فيها حتى نخرج منها، كما تقول: دعوت فلانا من أعلى الجبل فنزل إلي.

ب)- أو يكون المجرور متعلقا: ﴿تَخْرُجُونَ﴾، أي تخرجون من الأرض، قدّم للاهتمام به، و﴿دعوة﴾ مصدر يدلّ على المرة، لأنّها دعوة واحدة بالنفخ في الصّور للصعق أو للبعث، و"إذا" الفجائية تدلّ على سرعة التنفيذ، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس:٥٣).

وفي هذه الآية جيء بصيغة المضارع: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ لاستحضار تلك الحالة من الخروج المفاجئ.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾: "لَهُ" اللام للملك و"مَن" للعقلاء، والجملة مكملة لمعنى قيام السماوات والأرض بأمر الله؛ لأنه من تمام تلك القيّومية أنّ له تعالى مطلق التصرف في ملكه لا ينازعه في ذلك أحد من خلقه، فالقنوت في الآية هو بمعنى الطّاعة والانقياد والخضوع الطّبيعي لا بمعنى العبادة والإخلاص لله؛ لأنّ من مخلوقات الأرض العاقلة من يكفر بالله ويعصيه، ولكنّهم مطيعون لأوامره التكوينية كغيرهم من المخلوقات، وهذا على معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ (الرّعد:١٥).

وفي خاتمة تلك الدّلائل القاطعة على وحدانية الله وقدرته يقرّر هنا ما تقدّم نظره في صدر السّورة من بدء الخلق وإعادته ليضيف إليه قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾، جريا على مألوف النّاس من قياس قدرة الخالق على قدرة

للمخلوق فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لقد اعترف المشركون ببدء الخلق لله، ولكنّهم أنكروا إعادة خلقهم للبعث والحساب لاستحالة ذلك في معتقدهم، وذلك بالقياس إلى مألوفهم، وبأسلوب التّسليم الجدليّ للخصم، على فرضية المساواة بين البدء والإعادة في قدرة الله فتكون الإعادة للمصنوع أسهل وأهون من بداية خلقه من العدم، وهذا مجاراة لأفهامهم القاصرة.

ولذلك أعقبه تعالى بقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي له الشّأن الكامل العظيم الذي لا يقاس عليه شأن النّاس مهما تعاظموا واستكبروا.

وقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قيد للجملة السّابقة: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾، أي له تلك الصّفة وذلك الشّأن العظيم على ألسنة خلقه في السّماوات والأرض، إذ له العزّة والقوّة والغلبة، فلا يعجزه شيء، وله الحكمة البالغة في جميع تصرّفاته، فلا خلل ولا زيغ في أحكامه، والله أعلم.

أدلّة الوحدانيّة من واقع النّاس، وأنّ الإسلام دين الفطرة.

أ)- النّص:

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ
فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم

﴿مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٩ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٣٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: ضرب المثل: إيقاعه ووضعه، والمثل: ضرب المثل: تعني ذكر الشّبيه المماثل له، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي منتزعا من أنفسكم لتقيسوا عليه. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ﴾: الاستفهام للإنكار بمعنى النّفي و"من" الأولى تبعيضية، "ومن" الثّانية زائدة للتوكيد، ﴿مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾: هم العبيد والإماء، والشّركاء جمع شريك، أي المشارك في المال. ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: الجملة في موضع الحال من ضمير الفاعل في: ﴿سَوَاءٌ﴾، والمعنى: تخافون من تصرّفاتهم في أموالكم كما تخافون شركاء أحرار مثل أنفسكم، أي ليس مواليكم شركاء لكم في أموالكم. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾: إقامة الوجه: تقويمه وتعديله قبالة تطيره غير ملتفت يمينا أو شمالا، والدّين: "الْ" فيه للعهد، أي الإسلام. ﴿حَنِيفًا﴾: أي مائلا إليه معرضا عن غيره. ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: ﴿فِطْرَتَ﴾: بدل اشتمال من: ﴿حَنِيفًا﴾، أو هي منصوبة على الإغراء، و﴿فطر النّاس عليها﴾: أي ركب فيهم القابلية لتقبل أحكام هذا الدّين وإدراك ما فيه من الحقّ. ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾: أي هو الدّين المستقيم المرتضى من الله لخلقه. ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾: ﴿مُنِيبِينَ﴾: منصوب على الحال، الإنابة: الرّجوع إلى الله بالتوبة النّصوح. ﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾: أي فرقا تشايع كل فرقة إمامها ولو على الباطل.

ج)- أوجه القراءة:

﴿فَرَّقُوا﴾: قرأ الجمهور بتشديد الرّاي وقرأه حمزة والكسائي: ﴿فَارَقُوا﴾ بألف بعد الفاء. ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾: قرأه الجمهور بكسر الهاء وقرأه حمزة ويعقوب بضمّ الميم.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ضرب المثل لقدرة الله في إعادة الخلق للبعث، أعقبه بضرب مثل آخر لإبطال الشّرك، وهو منتزع من أنفس المشركين ممّن يملك عبيدا وإماء، فهل يرضى أن يكون أحد مملوكيه شريكا في ما يملكه؟، فكيف يرضون بالشّريك لله الخالق مما يعبدون من دونه، ومثل قولهم في طوافهم بالكعبة: "لبيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلا شريكا تملكه وما ملك".

ولإبطال مثل تلك العادات الفاسدة قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

ضرب المثل من الأساليب البليغة التي اعتمدها القرآن في إرشاده، وكلّما كان المثل مستوحى من البيئة التي يعيش فيها المخاطبون كان أقرب إلى الفهم والتّأثير في السّامعين، ولّما كان العرب كغيرهم من الأمم يملكون العبيد والإماء ويعاملونهم بأشبه ممّا تعامل به الحيوانات والمتاع المملوك، فإنّه تعالى انتزع هذا المثل من مألوف واقعهم في أنفسهم ليقيسوا عليه فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾، والاستفهام للإنكار أن يرضى أحد المشركين أن يكون مملوكه شريكا له في أمواله يتصرّف فيه سواء بسواء، ثم هو يخاف أن ينازعه ويحاسبه فيه كما يحاسبه أحد

شركائه الأحرار، فنحن بأزاء تشبيه مركّب بين هيئة وهيئة، والمعنى المستخلص من المثل، أنّه إذا كان أحدكم لا يرضى أن يساويه عبده في التّصرف في أمواله كما يتصرّف هو فيها، ولا يرضى أن ينازعه فيها أحد، فكيف يرضى أن يجعل لله شريكا في عبادته، وهو الخالق الرّازق لكل شيء؟.

وهكذا يصوّر المثل ذلك الزّعم الاعتقادي الباطل بهذه الصّورة المحسوسة المنكرة، وذلك بعد إقامة تلك الأدلّة القاطعة للاعتقاد الصّحيح في وحدانية الله وقدرته، ولمّا كان مثل هذا البيان والتّفصيل يحتاج إلى التّفكير والتّدبّر أعقبه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، إذ العقل وحده هو المنة العظمى من الله لهذا الإنسان يستبين به الحقائق على طريق الهدى والرّشاد.

ثم قال تعالى: **﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾**.

كان المفروض من تلك الجولة في تفصيل آيات الله وفي ضرب ذلك المثل البليغ، كان المفروض أن ينتفع به السّامعون فيتبيّن لهم الرّشد من الغيّ، ولكن واقع الذين ظلموا أنفسهم بالشّرك كان على خلاف ذلك إعراضا وتماديا في الكفر، وذلك ما تفيده أداة الإضراب "بل"، فأراد الله أن يبيّن مكمن الدّاء في نفوسهم حتى عموا عن تلك الآيات و لم ينتفعوا بها، فبيّن الله أن ذلك كان بسبب اتّباع هواهم بغير علم، ومع غلبة الهوى على الإنسان ينطمس نور العقل فلا يكون له تأثير على سلوكه، وزيادة في التّشنيع قيّد الله اتّباع الهوى بغير علم، حتى لكأن الذي يتّبع هواه وهو عليم بما يقوم به يكون أهون ممن يفعل ذلك عن جهالة، ولكننا عند تقييم المسؤولية نؤاخذ العالم بأكثر مما نؤاخذ الجاهل، وكذلك حكم الله إذ قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (الجاثية:٢٣).

فجهل هؤلاء الظّلمة يكون متعدد الجوانب فهم من جهة لا يدركون ما في عملهم من تيه وضلال، إذ أنّ أغلبهم يفعل ذلك عن تقليد أعمى لما وجدوا عليه آباءهم، أو عن عنصرية وحميّة جاهلية، ومن جهة أخرى يجهلون ما يحمله الدّين الجديد من المنافع لهم، ولو أنّهم تأملوا ذلك بنظر العقل لاهتدى الكثير منهم.

وإذ بلغ بهم اتّباع الهوى إلى الحدّ الأقصى فقد نفى الله عنهم أسباب الهدى فقال: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، فقد طبع الله على قلوبهم وقدّر لهم الضّلال في علمه الأزليّ، فما لهم من هاد وما لهم من ناصر.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

الرّبط بالفاء الفصيحة والتّفريع بها يفيد التّلاحم بين ما قبلها وما بعدها، والتّقدير هنا أنه بعد بيان أحوال المعرضين الظّالمين وعدم تجاوبهم مع آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ولا مع المثل المنتزع من أحوال أنفسهم، فكأن سائلا يسأل: فما هو المسلك بعد معرفة كل ذلك؟، فيأتي الجواب بقوله تعالى لرسوله ومن خلاله لجميع أمته: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾، والإقامة للشّيء هي بمعنى الدّوام والاستقرار، وإقامة الوجه للشيء يعني التّوجّه قبالته لا يحيد يمنة ولا يسرة، والوجه هو اللافتة الدّالة على الإنسان، والمراد بالدّين هو ما يدعو إليه رسول الله من الإسلام، وهو المرتضى من الله لخلقه، فـ"أل" فيه للعهد، وأكّد الله ذلك الاتجاه الصّحيح بقوله: ﴿حَنِيفًا﴾، بمعنى الميل إليه مجانفا الباطل، ثم قال في شأن هذا الدّين: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، والفطرة في معناها اللّغوي هي من الفطر بمعنى الخلق والإبداع، وقد تعدّدت تفاسير العلماء لقوله

تعالى: ﴿فطر النّاس عليها﴾، يعجبني منها تفسير ابن كثير بأنّها قابلية الحق والتهيّؤ لإدراكه، وفسّروا لزومها بالجريان على مقتضاها.

قلت: وهذا يدلّ على أنّ الأصل في قابلية الإنسان الفطرية هو الميل إلى الخير، ثم تتحكّم البيئة والتّربية في الثّبات على ذلك أو الميل عنه، ويؤيّده قوله ﷺ في حديث قدسي، يقول الله: «**إني خلقت عبادي حنفاء فأجالتهم الشّياطين عن دينهم**».[1]

مثل هذا الرّبط الوثيق بين طبيعة النّفس البشرية وطبيعة هذا الدين بأنّهما متناسقان ومتلائمان يدلّ على ما لهذا الدّين من مزايا على المسيرة البشرية، وهو يضع في غاية رحلتها معالم الطّريق إلى الحقّ وإلى الرّشد حتّى لا تضلّ ولا تشقى، ثمّ هو يدعوها بإخلاص ووفاء أن تتبعه ولا تحيد عنه، فيقول بعد تلك الأوصاف النّديّة لتلك الدّين: **﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾**.

فلهذا الدّين الحنيف استقرار وثبات مثل ما استقرّت عليه قوانين الكون الأعظم، فهو المقوّم لكلّ اعوجاج يعتري المسيرة البشرية، وهو المصوّب لكلّ انحراف تزيغ به النّفوس عن طريق ربّها، لأنّه قائم بقيام السّماوات والأرض، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون؛ لأنّ العلّة في أبصارهم لا في ضوء الشّمس.

قد تنكر العين ضوء الشّمس من رمد   وينكر الفم طعم الماء من سقم

الجهل لا تحيا عليه جماعة   كيف الحياة على يدي عزريلا؟

١- رواه مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي، كتاب (٥١) الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب (١٧) الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥: ١٥٨/٨.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾:

﴿مُنِيبِينَ﴾: حال من ضمير "أقم"، وهو من أناب بمعنى رجع رجوعا متكررا، وفسّر أيضا بالتوبة إلى الله، من الإنابة، ولمّا كانت التقوى هي الدّافع القويّ إلى الرّجوع إلى الله أمر المؤمنين بها على وجه الدّوام والاستمرار، وخصّ من مقتضيات التقوى إقامة الصّلاة؛ لأنها الرّادع القويّ عن ارتكاب المعاصي.

وبعد أن رسم الله الصّورة الجلية للدّين الصّحيح بأنها الإنابة إلى الله واستشعار عظمته بالمداومة على الصّلاة حذّر المؤمنين من الوقوع في ما عليه المشركون من التفرق والخلاف في أمر الدّين بتنازع أهوائهم وتصادم مصالحهم، إذ صاروا شيعا متناحرة وأحزابا متباينة، كلّ منها تفرح بما عندها وتسفّه غيرها، وذلك ما وقع فيه أهل الكتاب، كما وقع فيه المسلمون، فكان سبب ضعفهم وانحسارهم. ولهذا التحذير الإلهي مكانه المناسب في إكمال صورة الدّين القيّم الذي يريده الله لعباده المؤمنين بحيث يكون لهم عامل قوة وتمكين بالاعتصام بحبل الله، والسّعي في محبته ورضاه، كما كان عليه رسول الله وصحابته في خير القرون، والله أعلم.

التّذبذب بين الكفر والإيمان

أ)- النصّ:

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا

ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾
أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾

ب)- التَّحقيقُ اللُّغوي:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾: المسّ: مستعار للإصابة، وحقيقته: وضع اليد على الشّيء لمعرفة وجوده، ﴿النَّاسَ﴾: للعموم والاستغراق، الضّرّ: سوء الحال في البدن أو المال أو العيش بصفة عامة. ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾: الإذاقة مستعار للإصابة -أيضا- وحقيقتها إصابة الطعوم بطرف اللّسان. ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا﴾: اللام للصيرورة والعاقبة، وقيل: هي للتعليل، وقيل: هي للأمر بمعنى التهديد كقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾، والضمير عائد إلى "قريش". ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى الإضراب، والسّلطان: الحجة الواضحة، والمراد بها كتاب الله بقرينة: ﴿أَنزَلْنَا﴾. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: الباء سببية، أي بسبب سوء أعمالهم. ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾: ﴿إِذَا﴾ فجائية، والقنوط: اليأس والتذمّر. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: الاستفهام إنكاري، والرّؤية بصرية، وبين ﴿يَقْدِرُ﴾ و﴿يَبْسُطُ﴾ طباق.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يَقْنَطُونَ﴾: قرأ الجمهور بفتح النون، على أنه مضارع "قنط"، من باب "حسب"، وقرأه أبو عمرو والكسائي بكسر النون، من باب "ضرب"، وهما لغتان.

د)- البيان والتّفسير:

بعد بيان دلائل التّوحيد والإشادة بدين الفطرة وما يعين المؤمن على الالتزام بنهجه، وبعد التحذير من التفرق، أعقب الله ذلك فتنة السّرّاء والضّرّاء

وتقلّب النفس البشرية إزاءهما، وهي تتأرجح بين الانفعالات، وتتدافعها التصوّرات الخاطئة، فتقبل إلى الله وتدبر، وتلوذ بركنه ثم تتنكر.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

يلاحظ أنّ العطف لبيان هذه الظّاهرة النكرة جاء بعد تنديده تعالى بالذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون، مّما يدلّ على أنّ هذا الفريق من الناس المتقلّبين في أحوالهم النفسية في الإقبال على الله والتضرّع إليه في وقت الشدّة، والنكوص إلى التمرّد والشرك في وقت الرّخاء، هؤلاء لا يستمدّون قيمهم من أصول ثابتة، ولا يركّزون خطواتهم على نهج قويم، فعند الضرّ يلجأ الناس إلى ربّهم ضارعين خاشعين يهيب بهم نداء الفطرة بالرّجوع إلى الله فتتلاشى مظاهر الكفر، وربّما استشفعوا وقتئذ ببعض الصالحين عسى الله يستجيب دعاءهم، كما فعل المشركون مع رسول الله في سنوات المجاعة حتى أكلوا الجيف، فدعا الرّسول ربّه فأمطروا وزالت عنهم الشدّة، وعندما رجعوا إلى نعيمهم وترفهم كفروا بالله وجحدوا تلك النعمة.

واستعمال "إذَا" الفجائية للدّلالة على الإسراع إلى الجحود والكفر، ولذلك عاجلهم الله بالتّهديد في قوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾. وللإمعان في التّوبيخ والتّنديد وقع الالتفات من ضمير الغيبة إلى الخطاب: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، إنّه تهديد يهزّ الكيان البشري؛ لأنّه من القويّ القاهر فوق عباده وهو يسائلهم في إنكار شديد عن مستندهم في ذلك الشرك الذي يزعمون إليه، ألهم لذلك حجّة من كتاب منزل يستندون إليها؟، فقال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾.

يلاحظ الالتفات إلى ضمير الغيبة، والمتحدَّث عنهم هو الفريق المشرك الضّالّ إعراضا عنهم لخطاب المؤمنين، ويراد بالسّلطان الحجّة المنزّلة من عند الله، إذ أنّ أحكام الدّين وأمور العقيدة لا تأتي إلاّ من عند الله، فهل ما يرجع إليه المشركون من أمور الكفر تلقّوا فيه كتابا من عند الله يشهد بما يقولون؟، وهذا سؤال تعجّبي تهكّمي يبطل مزاعمهم؛ لأنّها أوهام باطلة لا تستند إلى دليل تقويه، لقوله تعالى قبل ذلك: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وهناك حالة نفسية تعرض للناس حتى لو كانوا مؤمنين من الفرح بما يؤتون من النّعم عجبا واغترارا، أو من القنوط عند الشّدة واليأس فقال جلّ من قائل: ﴿**وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾.

هذه حالة تطرأ على النّفس البشرية، وهي أقلّ وطأة من الأولى، ولذلك قدّمت هنا الإصابة بالرّحمة على الإصابة بالسّيئة؛ لأنّ ذلك ينشأ عند الرّضى والفرح الذي قد يؤدّي إلى العجب والاغترار عند الفاقد للإيمان أو عند ضعفه من المنافقين والعصاة، إذ يدفع ذلك الفرح إلى الطّغيان والبطر كما دفع قارون، وكذا مشركي مكة عندما قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ (سبأ:٣٥). والذي لا يتزن بإيمانه في وقت النّعمة فيشكر ويحمد الله على ذلك، فإنّه ينحطّ وينهار في وقت الشّدّة حتى يركبه القنوط واليأس.

وللإشارة إلى فضل الله ومنّته على خلقه لم يجعل سببا لبسط رحمته عليهم، بينما ذكر السّبب في حال إصابتهم بالسّيئة أنّ ذلك بما كسبت أيديهم، ومع ذلك تراهم يسارعون إلى القنوط واليأس، وكلّ ذلك كان بفقدانهم الوازع الإيماني القويّ الذي يجعلهم متوازنين في كلّ حالة، كما قال

رسول الله: «عجبا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له».[1]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الاستفهام للإنكار، وهو في معنى النفي أي لا يعلم المشركون ممن تقدم وصفهم بعدم التوازن في مواجهة السّراء والضّراء إذ عميت أبصارهم عن حكمة الله وسننه في تصريف الأرزاق بين عباده بسطا لها وتوسيعا لمن أراد الله أن يختبرهم بذلك، أو تضييقا على من يعلم الله أنّ صلاحهم في ذلك، وتلك حالات تتعاور الناس وفق حكمة الله وإرادته، لا دخل فيها للإيمان ولا للكفر، ولا متعلّق فيها لمحبة الله ولا لكرهه، والمؤمن يردّ الأمر في ذلك كله إلى الله فلا يفرح ولا يقنط بل هو الرّاضي بحكمة الله وعدله، وذلك ما يفيده التعقيب بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، والله أعلم.

التّرغيب في الإحسان إلى ذوي الحاجات، والنّهي عن الكسب الحرام.

أ- النصّ:

﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو

(١) رواه مسلم من حديث صهيب، كتاب (٥٣) الزهد والرقائق، باب (١٣) المؤمن أمره كله خير، رقم ٧٦٩٢.

عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ
سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: "الفاء" للترسيم، الإيتاء: الإعطاء، ذو القربى: أي قرابة النسب والرّحم، والحق: بمعنى الصّدقة الواجبة. ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾: هو من له بعض المال ولا يكفيه، وقيل: هو الذي لا مال له إطلاقا. ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: المسافر المنقطع عن ماله وبلده. ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾: الإشارة إلى إيتاء الحق. ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ﴾: أي يتوجهون ثوابه ورضاه دونما منّ ولا رياء، وذكر الوجه تمثيل؛ لأن الوجه هو محل النظر. ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: الرّبا الزّيادة على رأس المال في الدّين أو القرض. ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾: أي تنالون أرباحا تحصل لكم من أموال الناس. ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾: أي لا يزكو ولا يبارك الله فيه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾: جواب لقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾، والأضعاف يكون في الثواب والأجر. ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾: الاستفهام إنكاريّ في معنى النفي، "من" الأولى بيانية، و"من" الثّانية في قوله: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ تبعيضية، في موضع الحال من ﴿شَيۡءٖ﴾، و"من" الثّالثة زائدة لاستغراق النفي.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ءَاتَيۡتُم﴾: قرأ الجمهور بهمزتين أي أعطيتم، وقرأه ابن كثير: ﴿أَتَيۡتُم﴾ بهمزة واحدة، أي قصدتم وفعلتم. ﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾: قرأ الجمهور بتحية مفتوحة

وفتحة إعراب على واو: ﴿لِّيَرْبُوَا﴾، وقد كتب في المصاحف بألف بعد واو، وليس واو جماعة باتفاق، وقرأ نافع: ﴿لِّتُرْبُوا﴾ بتاء الخطاب مضمومة وبواو ساكنة هي واو الجماعة. ﴿يُشْرِكُونَ﴾: قرأ الجمهور بفوقية على الخطاب تبعًا للخطاب في: ﴿ءَاتَيْتُم﴾. وقرأ حمزة والكسائي وخلف بتحتية، على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة.

د)- البيان والتّفسير:

على بيان خُلُقٍ من أخلاق النّاس إزاء بسط رحمة الله عليهم أو إصابتهم بسوء في ما يعتريهم من الفرح والسّرور، أو من القنوط واليأس، وذكّرهم بحكمته في بسط الرّزق وتقديره، فقد رتّب الله هنا بناء التفريع الأمر بإيتاء الضّعفاء والمساكين حقّهم من مال الله؛ لأن ذلك من مقتضيات الشّكر لتلك النّعمة فقال: ﴿فَـَٔاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الخطاب لرسول الله ومن تبعه من أمّته، أو هو لكلّ متلقّ للقرآن عامّة، وإيتاء الحق يُشعر بالواجب في مال الذي بسط الله عليه الرّزق، إذ الأمر للوجوب ما لم تدل القرينة على خلاف ذلك، وهو غير الزّكاة المفروضة في المدينة، إذ السّورة مكية؛ ولذلك ذكر الحقّ مجملًا، فهو على ما تعارف عليه النّاس من الإحسان والمواساة بالمال في صدر الإسلام بمكّة، ثم قصر اسم الزّكاة على الواجبة المفروضة، وأطلق على ما عداها اسم الصّدقة، وأمّا بالنّسبة لذوي القربى ففيه خلاف بين الفقهاء، يقول القطب -رحمه الله-: "وقدّم ذا القربى لعظم حقّ القرابة ولا سيما الفقير، وقد أوجب أبو حنيفة إنفاق القرابة مطلقًا بهذه الآية، وقيل عنه: القرابة بالمحارم. وزعمت الشّافعية أن لا نفقة بالقرابة إلا على الولد أو الوالدين. ومما يدلّ على زيادة حقّ القرابة أنّه أضاف إليه الحقّ،

ولم يضفه إلى المسكين وابن السبيل ولا جمع الثلاثة بالإضافة بأن يقول: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ حقهم، وقال: ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾، ولم يقل: ذا المسكنة؛ لأن القرابة لا تزول ولا تتجدد، بخلاف المسكنة، وكذا ابن السبيل في تجدده إضافته للسبيل"(1).

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: الإشارة إلى الإيتاء لزيادة التنويه بالمأمور به، و﴿خَيْرٌ﴾ يحتمل فيه التفضيل، والمفضل عليه هو ما ألفه الجاهليون من الإعطاء للأغنياء قصد السمعة، ويحتمل في: ﴿خَيْرٌ﴾ أن يكون في مقابلة الشر.

﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾: هم المؤمنون الأوفياء الذين يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله ليضاعف لهم الأجر والثواب، وجيء بصيغة القصر لبيان أنهم وحدهم الأحرياء بالفلاح.

وتزهيدا في ما كان عليه الجاهليون من كسب المال الحرام بطرق الربا قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾.

وبما أن هناك صورا لإيتاء المال ذميمة لا خير فيها مما كان متداولا بين الجاهليين، وقد أراد الله تهيئة المجتمع المسلم لتحريم الربا، فكان هذا التوجيه الإلهي إثر تحريضهم على المواساة والإحسان إلى ذوي الحاجات فقال: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾، والربا: هو الزيادة على رأس المال يؤديه المدين أو المقترض لصاحب المال، وتريدون بذلك الزيادة لأموالكم، فمثل هذا العمل لا يبارك الله فيه ولا يزكو عنده.

وبما أن لفظ "الربا" جاء على إطلاقه في الآية فيرى المفسرون أنه يشمل أيضا هدية الثواب التي تكون للراغب والمتلقي لرد مثلها لصاحبها، كما قال ابن

---

(1) امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير، ١٠/ ١٢٧.

عباس في معنى هذه الآية: "الرّبا نوعان: ربا لا يصحّ وهو ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرّجل يريد فضلها وإضعافها".

قلت: وإن أجاز الفقهاء هديّة الثّواب، فإنّ حكم الله بعدم النّماء عنده يجري عليها أيضا؛ لأنّها منفعة دنيوية محضة.

وأمّا المال الذي يزكو عند الله فهو المال الذي يُقدّم ابتغاء وجهه الكريم من قبيل الزّكاة المفروضة أو الصّدقة على مختلف أحكامها كما تقدّم، فإنّ الله يباركها وينمّيها وينوّه بأصحابها بأنّهم هم الذين تضاعف حسناتهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

هذا الاستئناف المصدر بلفظ الجلالة: ﴿اللَّهُ﴾ يندرج في الدّلائل التي أقيمت لإنفراد الله بالألوهية وإبطال مزاعم المشركين، بيّن الله فيه مراحل حياتنا ليدمج فيها قضية البعث من جهة، ويضمّنها قضيّة الرّزق المذكورة في الآية السّابقة.

والخطاب للمشركين بدليل قوله: ﴿هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾، فقد بدأ في أطوار الرّحلة بما يقرّونه بأنّه من خصوصية الله كالخلق والرّزق والإماتة، فما يزعم أحد منهم أنّ لآلهته الباطلة دخلا في ذلك، ولكنّ الذي يشكّون في وقوعه هو الإحياء الثّاني بعد الموت، وإدماج ذلك في القضايا المسلّمة هو الوسيلة المثلى لتحريك نداء فطرتهم علّهم يتنبهون، ولذلك تحدّاهم بتلك السّابقة لنفي مزاعمهم وتوبيخهم على الإنكار والعناد، ولمّا كان مثل ذلك السّؤال لا ينتظر فيه جواب أعقبه تعالى بتنزيه ذاته العلية من أوضار الشّرك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فتباركت ربنا وتعاليت، والله أعلم.

ما الفساد العالميّ إلاّ من اكتساب النّاس، وطوق النّجاة في الثّبات على الدّين الحقّ

أ)- النصّ:

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي
عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ
مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ
يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

ب)- التّحقيق اللغوي:

﴿ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي النّاس﴾: ﴿الفساد﴾: سوء أحوال النّاس في معاشهم، ضدّه الصّلاح، ﴿في البرّ والبحر﴾: أي في اليابسة والماء، والمراد بهما السّكان والرّكّاب البحّارة، وبين اللفظين طباق. ﴿بما كسبت أيدي النّاس﴾: أي من السّيئات والمعاصي، و"الباء" سببيّة، وإسناد الكسب إلى الأيدي جرى مجرى المثل للأعمال كلّها، أي سائر الجوارح. ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون﴾: الإذاقة مستعارة لإصابتهم بالآلام والمكاره. والرّجوع: يراد به إقلاعهم عن المعاصي والتّوبة إلى الله. ﴿فأقم وجهك للدّين القيّم﴾: تقدّم معنى إقامة الوجه في الآية السّابقة، و﴿القيّم﴾: الشّديد القيام، أي البالغ الاستقامة. ﴿يومئذ يصّدّعون﴾: أصله: يتصدّعون، قلبت التّاء صادا، أصله من الصّدع وهو الكسر والشّق، والمقصود هو تفرّق النّاس في موقف الحشر،

﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾: تقديم الجار والمجرور للاهتمام. و﴿يَمْهَدُونَ﴾: يتخذون مهادا لراحتهم، كما يفعل النائم بفراشه طلبا للراحة.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيُذِيقَهُم﴾: قرأ الجمهور بالياء التحتية، أي ليذيقهم الله، ومعاد الضمير هو قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، وقرأه قنبل عن ابن كثير وروح عن عاصم بنون العظمة: ﴿لِنُذِيقَهُم﴾.

د)- البيان والتفسير:

وإذ أمر الله الناس بالسير في الأرض للاعتبار بما لقي المشركون من نقمة الله وعذابه، فهو يبيّن لهم هنا مدى تأثر أحوال الحياة وتقلّبات أوضاعها بأعمال الناس وتصرّفاتهم، فحين يكثر فسادهم وتسوء طباعهم فإنّ ذلك ينعكس على أحوال الأرض شرّا وفسادا في برّها وبحرها، ومن ثمّ يأمر الله رسوله والمؤمنين معه بالثّبات على الدّين القويم من قبل مجيء يوم الحساب، وكيف يكون مصير المؤمنين والكافرين فيقول تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ﴾: إخبار ربّاني -بصيغة الماضي- لما سيحدث في المستقبل لتحقّق علم الله بذلك، والظّهور هو بمعنى الانتشار والاستفحال، وتعدّ هذه الآية من معجزات القرآن في استشراف المستقبل، كالتي في مفتتح السّورة، ولها اتصال مناسب لما تقدّمها من مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ (الروم:٩)، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ (الروم:٣٣).

الفساد هو سوء أحوال الناس في ما ينتفعون به في البرّ والبحر، والمقصود بهما جميع أماكن الأرض مما هو منتجع حيوي للبشر، و"أل" فيه للجنس على الأرجح، فهو يتناول كلّ ما يخلّ به التوازن البيئي من أنواع الآفات والأضرار مما يتسبّب فيها الإنسان برّا وبحرا وفي المناخ الجويّ، وهي أنواع من الفساد لا تقع تحت حصر، كلّها من عمل الإنسان قديما وحديثا، مما جعل علماء الحياة والبيئة يقرعون ناقوس الخطر ويحاولون الحدّ من ذلك الفساد بإبرام اتفاقات عالمية، كاتفاقية "كيوتو"، وكالحدّ من انتشار الأسلحة النووية...إلخ. وحبذا لو أنّ الكبراء يحترمونها، إذن لخففت على البشرية بعض الويلات.

وقد أجاز بعض المفسّرين أن يكون ظهور الفساد بمعنى الشرك واجترام المعاصي والفسوق، وهو فساد في المعتقد وفي السّلوك، يكون -أيضا- من كسب الناس، بل حتى ما يكون من الكوارث الطّبيعية قد يقدّرها المولى تبارك وتعالى تربية لخلقه تتسبّب عن مخالفاتهم ومعاصيهم، كما يفيد ذلك قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، بيان للحكمة الإلهية في تقدير تلك الأوضاع المتردّية لتكون عقوبة للعباد على بعض ما ارتكبوه من السّيئات رجاء رجوعهم بالتّوبة والإنابة إلى الله، فيكفّون عن السّوء، وهذا الذي يصيبهم في الدّنيا هو بعض الجزاء الذي يستحقّونه، وإلاّ فإنّ الجزاء الأوفى مدخور لليوم الآخر، وهو أشدّ وأنكى.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

إنذار بعقاب أعظم قد يحلّ بالمشركين إن لم يقلعوا عن شركهم، كما حلّ بأمثالهم في غابر الأزمان، والعاقبة هي نهاية الأمر لقوم أو غيرهم، وقد تقدم في السّورة نظير هذا التّهديد، أكّده هنا مناسبة قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ

الذي عَمِلُوا﴾، وسبب ما حلّ بأولئك الأقوام هو الشّرك، وحكمه بالشرك على الأكثرية يدلّ على أنّ الباقين أهلكوا أيضا بالفسوق والمعاصي، وتلك سنة الله العادلة في معاقبة المجرمين، وكان المخاطبون من أهل مكة يمرّون في أسفارهم على خرائب أولئك الأقوام الهلكى ولا يعتبرون.

ومع هذا الإنذار الشّديد لا يدع الله رسوله والمؤمنين في متاهات الخوف والحيرة فأرشدهم إلى طوق النّجاة في ثباتهم على الدّين القويم فقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

جاء هذا التفريع: ﴿فَأَقِمْ﴾ على جوّ الإنذار والتّحذير من أنواع الفساد وأنواع الفتن، ليبيّن الله به لرسوله وللمؤمنين المسلك الآمن والحرز المنيع الذي يحقّق للسّالكين فيه الأمن والسّلامة ويضمن لهم الهناء والسّعادة، فكرّر التعبير الذي ورد في الآية السّابقة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾، أي اجعل وجهك في توجّهه مستقيما على الدّين القيم، أي التّشديد القيام على الاستقامة والصّواب، وهو تصوير يعبّر عن الاستشراف والتّطلّع إلى المقامات السّامية في رحاب ذلك الدّين المرتضى من الله لعباده بحيث لا محيد عنه حتى آخر رحلة لكم في الحياة الدّنيا من قبل أن يأتي يوم عظيم من الله لا مردّ له، وهو يوم الحشر حيث تتفرق الخلائق، وجاء التّعبير بالتصدّع، وهو يعني الكسر والشّق، لتصوير شدّة الهول، فيتميّز المؤمنون من الكافرين.

ثم بيّن الله جزاء كل فريق بحسب عمله فقال: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ. لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

هذا بيان لقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾، بدأ الله بالفريق الهالك تحقيرا لشأنه لمزيد التثبيت لرسول الله، وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ بتقديم المسند إليه، لحصر مضرّة الكفر في ذات الكافر، فهو لا يضرّ إلاّ نفسه، وقابل الله الكفر بالعمل الصّالح، ولم يذكر الإيمان في مقابل الكفر للتنبيه على أن المعتبر في الإيمان هو العمل بمقتضاه، وهو العمل الصّالح، وهو ما تكرّر في ذكر الجزاء.

وقوله في الفريق النّاجي: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، من تهيئة المهاد، وهو الفراش الأثير للنّوم الهادئ، فالقيام بالعمل الصّالح من طرف المؤمن هو الإعداد للرّاحة الأبدية في دار الخلد، إذ تترتّب لهم من الله الجازاة العادلة على ما قدّموه من أعمال، فضلا منه ومنّة، ونفي محبّته للكافرين يعني حرمانهم من ذلك الفضل، فيكون ما يجازون به من العذاب عدلا، والله أعلم.

من آيات الله الدّالة على تفرّده بالإلهيّة

أ)- النصّ:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ
بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ
قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ
إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾
فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٠ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ٥١
فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ٥٢ وَمَا أَنتَ بِهَادِ
الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ٥٣

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾: لقد استقرأ العلماء أنّ ورود الرّياح بلفظ الجمع يأتي في موضع الخير والنّفع، بخلاف ما إذا ورد بالإفراد فهو للشّر والعذاب، كما جاء في الأثر: "اللّهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا"، أي رياحا للخير والرّحمة، ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾: حال، أي تبشر بنزول المطر. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: معطوفات على ﴿مبشرات﴾ في معنى التعليل. و﴿مِن رَّحْمَتِهِ﴾: ﴿مِنْ﴾: ابتدائية، والرّحمة هي المطر. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾: الآية معترضة مستطردة بين الأدلة لتسلية رسول الله ﷺ. ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾: الانتقام: العقوبة لمن يفعل المعاصي. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾: خبر "كان" مقدم، و﴿نَصْرُ﴾: اسمها، والتقدير: وكان الانتقام من المجرمين حقًّا علينا، وهي من صيغ الالتزام، ولا واجب على الله. ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾: جيء بصيغ المضارع لاستحضار تلك الصّور العجيبة الدّالة على قدرة الله. ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾: الخطاب لغير معيّن، و﴿الْوَدْقَ﴾: المطر، والخلال: جمع خلل أي الفرجة بين الشّيئين. ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾: ﴿إِن﴾: مخففة من الثقيلة، ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: تكرار لقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ لتوكيد معنى قبلية نزول المطر، لإفادة سرعة تقلب قلوب البشر، من الإبلاس -وهو اليأس مع الانكسار- إلى الاستبشار بنزول المطر. ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: أثر الشّيء: ما ينشأ عنه مما يدل

عليها، و﴿كَيْفَ﴾: في موضع النصب، مفعول لـ﴿أنظر﴾، أي بالبداية من ﴿أنظر﴾. ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: الضمير في: ﴿رَأَوْهُ﴾: عائد إلى قوله: ﴿إِلَى أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾: وهو النبات والزّرع المفهوم من السياق. ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾: شبّه الكفار في عدم تدبّرهم للقرآن بالموتى وبالصمّ والعمي.

ج)- أوجه القراءة:

﴿الرِّيَاحَ﴾: قرأ الجمهور بالجمع، وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد للجنس، والمؤدّى واحد. ﴿كِسَفًا﴾: قرأ الجمهور بكسر الكاف وفتح السّين، وقرأ هشام وأبو جعفر: ﴿كِسْفًا﴾ بإسكان السّين. ﴿إِلَى أَثَرِ﴾: قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم بالإفراد، وقرأ الباقون: ﴿إِلَى آثَارِ﴾ بالجمع. ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: قرأ الجمهور بتاء فوقية مضمومة وكسر الميم ونصب ﴿الصّمّ﴾ على أنّه خطاب للرّسول، وقرأه ابن كثير: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾ بتحتية مفتوحة وبفتح الميم ورفع ﴿الصمّ﴾ على الفاعلية. ﴿بِهَادِي﴾: قرأ الجمهور بموحدة وبألف بعد الهاء، وبإضافة: ﴿هَادِي﴾ إلى ﴿العمي﴾، وقرأه حمزة وحده: ﴿تَهْدِي﴾ بمثناة فوقية وبدون ألف بعد الهاء على الخطاب، وبنصب: ﴿الْعُمْيَ﴾ على المفعولية.

د)- البيان والتّفسير:

لقد تقدّم في صدر السّورة ذكر ستّ آيات متعاقبة للدّلالة على قدرة الله في الأنفس والآفاق، ويعود السّياق إلى ذكر آية سابعة متفردة، وقد تخلّل بين ذلك أفانين من الاستدلالات على وحدانية الله وعلى البعث، ومن المواعظ ما يشدّ انتباه السّامعين، فقال جلّ من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ

مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

آخر آية دالّة على قدرة الله في السّتّ المتعاقبة هي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾، وهنا يعود السّياق إلى ذكر هذه الآية التي هي من الاهتمامات الأولى للمخاطبين في وقت التّنزيل، وهي استبشارهم بالرّياح الماطرة، إذ كانوا يعرفونها ويضبطون مسارها؛ لأنّها تبشّرهم بالخير العميم الذي هو من فيوض رحمته تعالى، واختير لفظ الإذاقة باللّسان للتعبير عن الإحساس العامّ للنّاس بآثار تلك الرّحمة على حياتهم، وقد تكون الإذاقة بالمرّ الكريه، إن هم جحدوا تلك النّعمة، كما سبق التّعبير على ذلك في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الرّوم:٤١).

ومن منافع الرّياح سوقها للسّفن على أمواج البحار والأنهار، وما توفّره من تبادل المنافع، وضمان التّواصل بين النّاس، وأنّ ذلك لا يتمّ إلاّ بأمر الله وتدبيره، بوضع السّنن الطّبيعية لنظام الكون وإرشاد الخلق إليها، وكلّها نعم من الله تستدعي الشّكر فهو المتفضّل المنعم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قبل تناول الظّاهرة الطّبيعية لنزول الأمطار وتفرّده تعالى بالتّصرف في ذلك، وقبل بيان ذلك التّفصيل في الآية اللاحقة، تأتي هذه الآية معترضة بينهما، لتسلية رسول الله ووعده بالنّصر والتّمكين، ولا بدّ من البحث عن المناسبة لذلك، ومع اجتهاد المفسّرين في الاهتداء إلى ذلك تختلف الآراء، ولكنّها لا تتناقض في المعنى -والله أعلم-، ويعجبني في ذلك ما قرّره السّيد قطب في ظلاله إذ قال: "ومثل إرسال الرّياح مبشّرات إرسال الرّسل بالبيّنات،

ولكنّ النّاس لم يستقبلوا رحمة الله هذه -وهي أجلّ وأعظم- استقبالهم للرياح المبشّرات، ولا انتفعوا بها -وهي أنفع وأدوم- انتفاعهم بالمطر والماء".[١]

قلت: وعلى استحضار ذلك الواقع في مكّة من تصادم الإيمان والكفر، يتبيّن لنا موقع هذه الآية الكريمة في تسلية رسول الله والمؤمنين معه وهم يستجلون قدرة الله في بديع صنعه، فهو على جلال قدره وعظمته يوجب على نفسه النّصر للمؤمنين ويقرّره حقّا من حقوقهم كما فعل بالرّسل السّابقين، ويتوعّد المجرمين بالانتقام، وعبّر على ذلك بصيغة الماضي إخبارا عن الأمم السّابقة، بينما في وعد النّصر اختلفت الصّيغة لإدراج معنى الإلزام بنصر المؤمنين في كلّ زمان ومكان.

ثم فصّل كيفية تكوّن السّحاب ونزول المطر فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ، وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

إنّ التّصوير البسيط لهذا المقطع الكريم جاء مكررا في عدة سور، وغالبا ما يجيء في معرض التّذكير بعظمة الله وقدرته، وأنّه المتصرّف وحده في تدبير تلك الشّؤون الكونية، ومن ثمّ يربط بذلك قدرته على إحياء الموتى ليوم النّشور.

وصيغة الحصر ثم اختيار لفظ الجلالة في صدر الآية هو لتذكير المخاطبين بما يقرّون به لله من خصوصية الخلق والرّزق، وأنّه هو المتصرّف في ذلك دون غيره، وجاء التّعبير على أطوار المشهد الطّبيعيّ بصيغة المضارع لاستحضار الصّور، وهي تتلاحق من البداية إلى النّهاية، بدءا بعمل الرّياح في سوق

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٢١/ ١٧.

السّحب ثم تراكم قطعها على الكيفيّات المختلفة المعهودة كيفما شاءت قدرة الله، وكيف ينزل المطر من خلالها، ولم يهمل النصّ التعرّض للحالة النفسية التي يكون عليها الناس وقت نزول المطر، كيف كانوا على الإبلاس في حيرة وبأس قبل نزول المطر، وكيف تبدّلت أحوالهم بعد نزوله فرحا واستبشارا، وهكذا قلوب العباد متأرجحة بين الأحوال المتناقضة.

وتشبه هذه الآية قوله تعالى في سورة النّور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ. يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (٤٣-٤٤).

ولعلّ الكثير من المتطفّلين على مائدة القرآن يرون نوعا من التكرار في مثل هذه المواضيع سيما في القرآن المكّي، ولا ينتبهون للمقصد التربويّ من وراء ذلك، على أنّنا لو أخذنا هذين النصّين نموذجا لذلك لما وجدنا تماثلا كاملا بينهما لا في المبنى ولا في المعنى، إذ قليلا ما نجد ذلك التماثل في بعض الآيات وقد ضبطها المحقّقون وأبرزوا ما وراء ذلك من مقاصد تذكيرية لا مناص منها، ومن هؤلاء المحقّقين الأستاذ محمد قطب، إذ كتب فصلا فيما بعنوان: "ظاهرة التكرار في القرآن"، حلّل فيه نماذج لآيات تبدو أنّها كذلك، فلم يجد ذلك التماثل المزعوم للتكرار، وإنّما هو التشابه والتنويع، لمقصد التذكير والتأثير، فهو يقول في مقدمة بحثه: "وحين ننظر إلى القرآن على أنّه كتاب التربية لهذه الأمّة وللبشرية كلها التي ينبغي أن تدخل في دين الله، تزول عنا غرابة هذه الظّاهرة -أي التكرار-، وتصبح بعض حكمتها على الأقلّ مفهومة لدينا.

إن التربية ليست قولة تقال مرّة وتنتهي، وكلّ من مارس التربية مع صغير أو كبير يعلم إلى أيّ مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى التذكير الدائم حتّ يستقيم على الأمر المطلوب، ومن ثمّ يستطيع أن يقرّر الهدف التربويّ من عملية التّكرار في القرآن".[1]

ثم رتّب الله على تلك الظّاهرة الكونية العجيبة الأمر بالنّظر إلى أثر رحمة الله كيف أحيا الأرض بعد موتها ليستدلّ النّاظر إلى ذلك مدى قدرة الله على إحياء الموتى فقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾.

الأمر لغير معيّن، إذ هو موجّه لكلّ ذي نظر سليم ليدرك من خلال المشاهد المحسوس، فكون المطر النّازل من رحمة الله هو مما لا شكّ فيه، إذ يضمن لهم أرزاقهم مما تنبته الأرض من أنواع الزّروع والكلأ، واستعيرت الحياة والموت للأرض لإدماج دليل قدرة الله في الإحياء للبعث، وأكّد ذلك بمؤكّدين نظرا لإنكار ذلك من بعض المخاطبين، واسم الإشارة عائد إلى الله تعالى تعظيما لشأنه بأنه جدير بتلك القدرة من إيجاد الخلق بدءا وإعادة.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ تأكيد لتقلّب أفئدة المشركين، وهم مطبوعون على الكفر، إذ أنهم بمجرّد معاينتهم لريح مصفرّة يكون بها هلاك زروعهم وضروعهم يعودون إلى كفرهم وضلالهم مستمرين عليه.

١- محمد قطب، كتاب دراسات قرآنية: ص ٣٤٥

وفي معاد الضمير في: ﴿رَأَوْهُ﴾ احتمالات تفهم من السّياق، فقد يعود للريح تصفرّ وتنذر بعاصفة مهلكة، أو يعود للزرع والنبات المفهوم من قوله: ﴿انظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾، أو للسحاب المبشّر يصبح منذرا باصفراره.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ، وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

الفاء الفصيحة تدلّ على تقدير الحالة النّفسية لرسول الله، وقد استقصى جهده في التبليغ، ولكن هؤلاء القوم لا يزدادون إلاّ إعراضا وعنادا، فكانت له هذه التّسلية من الله أن لا يضيق بذلك؛ لأنه أزاء قوم شبّههم الله بصفات هي غاية في الضّلال والتيه، فاستعار لذلك ألفاظ: الموتى، والصّمّ، والعمي، وذلك بحسب تفاوت القوم في درجات الكفر والإعراض.

أ)- فمنهم الموتى، وهم في أسفل دركة من الضّلال والكفر، بحيث أنّهم فقدوا كلّ إحساس، وباتوا في حكم العدم.

ب)- ومنهم الصّمّ، جمع أصمّ، ممن فقدوا حاسّة السّمع، فلا يتأثرون بسماع القرآن، وهم الذين قالوا للرّسول: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت:٥).

وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ هو لتصوير شدة إعراضهم؛ لأن الأصمّ المقبل عليك قد تفهمه بالإشارة والحركة.

ج)- ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾: ويبدو أن هؤلاء هم الأتباع الذين فقدوا تحت تأثير الخوف والتقليد، فقدوا كلّ استعداد للاهتداء بدعوة الحقّ، مهما حاول الدّاعي الأخذ بأيديهم إلى طريق الله.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾: فالإيمان وحده هو مفتاح القلوب، وهي مستودع التّلقي لأنوار الهداية: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١). فالمؤمنون هم وحدهم المنصتون لدعوة الحق المتدبرون لآيات الله في خضوع وتذلّل، يلتفّون حول رسول الله ويوسعونه حبًا وطاعة، وأولئك عند الله هم الفائزون، والله أعلم.

أطوار حياة الإنسان الأولى، وأحواله في الحياة الثّانية

أ)- النص:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ٥٤ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾: لفظ الجلالة وما بعده مبتدأ وصفة، والخبر هو قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، والضّعف ما يقابل القوّة. ﴿مِن﴾: ابتدائية، أي جعل الضّعف أساس أمركم من طور الجنين إلى أن تبلغوا أشدّكم، وبين القوّة والضّعف طباق. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾: الشّيبة: اسم مصدر الشّيب، وهو بياض الشّعر. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾: السّاعة الأولى هي يوم القيامة صارت علما له بالغلبة. و﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾: أي المدّة الزّمنية المقدّرة مطلقا، وبين اللّفظين جناس تامّ، والمقسم عليه هو قوله:

﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾: في الدّنيا أو في القبر. ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾: أي يصرفون عن الحقّ بمثل تلك الترهات. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾: أي الذين جمعوا بين العلم والإيمان، وهم العارفون بالله وبما يرشد إلى العقائد الصّحيحة. ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾: أي لقد لبثتم ما تقرر في علم الله الأزلي، وقد اعتبر البعض "في" للتعليل أي: لبثتم إلى هذا اليوم ولم تعتدوا لأجل ما جاء في كتاب الله من تهديدكم. ﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾: أي إذا كنتم تنكرون يوم البعث فها هو ذا يفاجئكم. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: استعتب: سأل العتبى، وهي اسم للإعتاب، أي لا يطلب منهم إزالة غضب الله عنهم بالتوبة، يقال: استعتبني فلان فأعتبته، بمعنى استرضاني فأرضيته.

ج)- أوجه القراءة:

﴿ضَعْفٍ﴾: قرأ الجمهور ألفاظ: ﴿ضُعْفٍ﴾ الثلاثة بضم الضّاد في الثلاثة، وقرأها عاصم وحمزة بفتح الضّاد. ﴿تَنفَعُ﴾: قرأ الجمهور بالمثناة الفوقية، وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وخلف بالتحتية، وهو وجه جائز؛ لأنّ "معذرة" مجازيّ التأنيث، وللفصل بين الفعل وفاعله بالمفعول.

د)- البيان والتّفسير:

هذا هو الاستئناف الرّابع المصدّر بلفظ الجلالة في مجال الاستدلال على عظمة الله وقدرته في بديع صنعه لمختلف العوالم لتقرير إمكانية البعث، فبعد الجولة في مشاهد الكون يعود السّياق إلى بيان قدرة الله في خلق الأنفس ومرورها بمختلف الأطوار في الحياة الدّنيا حتى نهايتها إلى الحياة الأخرى وما يحدث هناك من المناقشات بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

التعبير بـ"من" الابتدائية مع المصدر النكرة يدلّ على تمكّن الوصف من الموصوف، وهو أبلغ من أن يقول: "خلقكم ضعافا"، حتى لكأنّ أصل الإنسان هو الضّعف نفسه، وله مظاهر شتى في كيانه حسّا ومعنى، فمن النّاحية المادّية فإنّ الضّعف يتمثّل في أصل خلقته من نطفة لزجة واهية تمرّ على أطوار خلقا من بعد خلق لا يفارقه الضّعف حتى وهو وليد فرضيع في حجر أمّه، وهي تتعهّده بالرّعاية لمدة طويلة حتى يبلغ أشدّه حيث يشعر بالقوّة والفتوّة، وإذا هو لم يحتضر في مقتبل العمر فإنّه يعود إلى الضّعف الأول، فيداهمه الشّيب والهرم ثم الفناء. إنّها أطوار لا ينفلت منها أحد، وهي من تقدير الله وتدبيره، وهي شاهدة على علمه وقدرته، فهو الذي ينشئكم بعد الموت، وهي النّهاية الأبدية المقدرة في علم الله، وليس ذلك بأصعب عليه من النّشأة الأولى.

وبما أنّ المشركين يكابرون في أمر السّاعة والبعث، فقد عطف على ذلك المشاهد المحسوس من قدرة الله في أطوار حياتهم الأولى، عطف بيان حالهم حين تقوم السّاعة فينكشف الغطاء، فإذا هم يحاولون إيجاد المبررات لما كانوا عليه من المكابرة في الدّنيا، وسرعان ما يفضح جهلهم أمام أهل العلم والإيمان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾.

فإذا كانت مراحل الحياة في نظر المؤمن لا تنتهي بأمد الدّنيا، وأنّ مدّة البرزخ إنّما هي معبر للحياة الباقية، فإن المجرم الكافر عند قيام ساعة البعث يفاجأ بوقوع ما كان ينكره، وقد عاد بدنه لسيرته الأولى، وعادت معه نفس المعتقدات الخاطئة. وبما أنّ الإحساس بالزّمن قد تعطّل بسبب الموت فإنّه يقسم

على أقل مقدار من الزّمن لبثه في القبر، وبالتّالي فهو يستمرّ على مكابرته في عدم قيام الحجّة عليه؛ لأنّه لم ينظر لمدّة طويلة حتى يعذر، والخلاصة أنّ هؤلاء المجرمين يبعثون، وهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الممات من المكابرة والعناد والانصراف عن الحقّ.

ولكن الذين وفّقهم الله إلى العلم والإيمان من المؤمنين الأوفياء بالله واليوم الآخر، يردّون أولئك المجرمين إلى التقدير الصّحيح، إلى الأجل المقدور في علم الله مهما كان طويلا أو قصيرا فقد تحقق كما وعد: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إنّ الجمع بين العلم والإيمان في مثل ذلك الموقف له دلالته الخاصّة في مجال التديّن الصّحيح، فهما يتكاملان في إعداد الشّخصية المتوازنة للمسلم، إذ يتجاوب العقل مع الوجدان، فلا يقف المتديّن عند حواجز المادة، بل يستشرف ما وراءها من أسرار هي من تصريف عالم الغيب والشّهادة، فهؤلاء يرجعون تقدير تلك المدة الزّمنية إلى علم الله، وهي تختلف بالنسبة للأشخاص أو المجموعات.

والتنصيص على ﴿يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ على لسان الذين أوتوا العلم والإيمان هو لترويع المجرمين بما يحصل لهم بعده من العذاب، وقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ استدراك للتقريع بأنّه قد بلغهم رسل الله ذلك، وكان المفروض أن يستعدّوا له، ولكن كان شأنكم الإعراض والتكذيب.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي في هذا اليوم لا ينفع اعتذار مجهل، ووصفهم بالذين ظلموا عوضا من الإضمار هو

لتسجيل الإشراك عليهم لأنه جامع لأنواع الظّلم، والمعذرة هي العلة أو الحجة التي يقدمها المذنب ليدافع بها عن نفسه.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: والاستعتاب هو طلب رفع الملام والعتب والمؤاخذة.

والخلاصة: أن يوم البعث لا ينفع فيه اعتذار، ولا يكون فيه إقرار بالذّنب لطلب العفو؛ لأن حياة الابتلاء قد انتهت مع الدّنيا، فهم في دار حساب وجزاء.

والله أعلم

إعراض المشركين عن القرآن، وأمر النبي بالصّبر والسّلوان

أ)- النص:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾: الضرب: توجيه شيء لشيء آخر بقوة حتى يصطدم به، منه ضرب الدّنانير والدّراهم، أي طبع معدنها على المثال المحفور في القالب، واستعير هنا للذّكر والتّبيين، ويطلق على الشيء الذي يضرب لشيء آخر يشبهه، وهو من وسائل الإقناع. ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الطّبع على القلوب حجبها عن فهم الحقائق

الدّينية، ويعبّر عنه أيضا بالختم فيقال: ختم الله على قلوبهم. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾: الفعل في موضع جزم بالنّهي، أكّد بالنّون الثّقيلة فبني على الفتح، والاستخفاف: المبالغة في جعل الشّيء خفيفا، والخفّة هنا مستعارة لحالة الجزع وظهور آثار الغضب، ويستعار الرّسوخ لضد ذلك.

ج)- البيان والتّفسير:

بعد تلك الجولة من بيان أدلّة التّوحيد والبعث وصدق النّبوءة يختتم السّورة الكريمة بالتّنويه بشأن القرآن العظيم، وأنّه بلغ الغاية في توجيهاته وإرشاداته، ومع اجتهاد الرّسول في تبليغه، فما يزال المشركون على تعنّتهم وعنادهم؛ لأنّ قلوبهم محجوبة عن الحقّ، فما على رسول الله إلاّ الصّبر والثّقة في الله بما وعده به من النّصر.

قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**.

يخبر الله بضمير العظمة مؤكدا بلام القسم و"قد"، ويوجّه خطابه لجميع النّاس تعظيما لشأن القرآن بما نوّع فيه من الأساليب الإقناعية، بما في ذلك ضرب الأمثال، بذكر مثل من المسلّمات ليقاس عليه شبيهه من غير المسلمات.

فقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾، يدلّ على تنوّع الأساليب في كتاب الله بكلّ ما يؤثر على القلوب، فلم يدع القرآن حجّة يمكن أن يتأثّر بها النّاس لمعرفة الله تعالى والانصياع إلى إرشاداته إلا وبيّنها، ومع ذلك فقد آثر المشركون الضّلالة والعمي.

وبالإلزام الموطئة للقسم خاطب الله رسوله بحصر الحجج تحقيقا لما فحكى مقولة الذين كفروا بصيغة القصر: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾؛ لأنّ هذه المقولة يردّدها الكفرة في كلّ زمان ومكان للدعاة إلى الله، وهل يُنتظر من المشركين غير ذلك، والسبب هو أنّه تعالى طبع على قلوبهم بالغفلة والضلال وفق ما اختاروه لأنفسهم تعمدا عن الحق، فهم لا يعلمون حقائق الدين ولا فوقها لما يشغلهم، وفي هذا الإخبار الإلهي تأييس للرسول من إيمان معارضيه، ولذلك فرّع عليه الأمر بالصبر، ووعده بالنصر حتى لا يعطه موقف المعاندين، إذ قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

إنّه الأمر الإلهي لرسوله بتحقيق الصبر على كلّ ما يواجهه من تعنّت معارضيه المصرّين على شركهم والجاهلين للحقائق اليقينية التي يدعوهم للتأمّل فيها، ولمّا كانت تبعة الصبر شديدة على النفس جاء التأييس الإلهي لرسوله بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، والحق هو الأمر الثابت الذي لا ريب فيه، ووعد الله على إطلاقه يشمل كلّ ما فيه من قانون الحكمة في عالمي الغيب والشهادة، غير أنّ التناسق الذي نلمسه بين مفتتح السورة وختامها في وعد الله بالنصر للمؤمنين يرجّح هنا متعلق الوعد بأنّه النصر لرسول الله وللمؤمنين والانتقام من المكذّبين.

ولابد من الثبات والسادة فلا الله عن القلق أو الغضب من ترّهات خصومه الذين يعوزهم اليقين لا شك عنه الأدلة القطعية، إذ هم يعمهون في متاهات الشك لما ختم الله على قلوبهم، وتلك هي صفة الحلم التي هي من صفات الله الحسنى، وهي المكتفية لعلوّ الخصوم الألدّاء في مسيرة الدعوات المتعاقبة؛ لأنّ اليقين بفكرة ما يجعل صاحبه كالطود الأشم، لا تزعزعه الأعاصير والأنواء، وكالبحر لا تكدّره الدلاء، والله أعلم.

ﷺ

سورة لقمان، مكيّة، وآياتها ٣٤

أ)- بين يدي السّورة الكريمة:

تسمّت باسم لقمان الحكيم لاشتمالها على وصاياه لابنه، ولا يُعرف لها اسم غير هذا بين القرّاء والمفسّرين، وهي مكّية في أشهر الأقوال عن ابن عباس، إذ تعالج قضايا العقيدة، وتناقش المشركين في موقفهم من الألوهية والنّبوءة والإقرار بالبعث واليوم الآخر، فهي -وإن تشابهت مع السّور المكّية في ذلك الموضوع الحسّاس- فلها جوّها الخاصّ كما هو الشّأن في كلّ سور القرآن.

أمّا عن سبب نزولها فقيل: إنّ قريشا سألوا رسول الله عن قصّة لقمان مع ابنه، سألوه سؤال تعنّت وتعجيز فنزلت مصدّرة بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ (٦)، وآياتها أربعة وثلاثون آية، وهي السّابعة والخمسون في تعداد نزول السّور، والحادية والثّلاثون في ترتيب سور المصحف الشّريف.

وقد تعدّدت أوجه التّناسب بينها وبين سورة الرّوم، مما اجتهد المفسّرون في بيانه، ونحن نحترز على بيان التّناسب بين أواخر الرّوم وأوائل لقمان، بقوله تعالى تنويها بشأن القرآن في كليهما، إذ قال في آخر الرّوم: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾(٥٨)، وقال في مفتتح سورة لقمان: ﴿الٓمٓ، تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ، هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (١-٣).

ومهما تكن اجتهادات المفسّرين في بيان تناسب الترتيب للسور، فإنّ ذلك قد تمّ توقيفا عن رسول الله، وبأمر من الله تعالى، فلا يجوز أن نغيّر شيئا من ذلك؛ لأنّ الله هو أعلم بترتيب كلامه، وإن كان للعلماء أن يجتهدوا في معرفة وجه التناسب في ذلك الترتيب.

والمحور الأساسي الذي يستقطب عناصر السّورة هو وصيّة لقمان وموعظته

لابنه، إذ هي مأخوذة من كلام النبوءات السّابقة، وكلّ ما أدمج فيها مما سبقها أو جاء بعدها إنّما هو إرشادات ربّانية مكمّلة تتعلق بعناصر اعتقادية وأفعال سلوكية تتخلّلها آيات كونيّة تدلّ على قدرة الله تذكيرا للمشركين، وتسلية لرسول الله وإعلاء من شأن الإسلام، واختتمت ببيان بطلان ادّعاء الكهّان للغيب.

التّنويه بشأن القرآن، وبيان أوصاف المؤمنين به

أ)- النص:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

ب)- التّحقيق اللّغوي:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾: ﴿تِلْكَ﴾: في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أي هذه. ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾: بدل من ﴿تِلْكَ﴾. أو ﴿تِلْكَ﴾: مبتدأ و﴿آيَاتُ﴾: خبره. ووصف الكتاب بـ"الحكيم" بمعنى ذي الحكمة، وهو تشبيه بليغ بالرّجل الحكيم، وفيه براعة استهلال لذكر حكمة لقمان. ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: منصوب على الحال من: ﴿آيَاتُ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة، وفي القراءة بالرّفع، فهو إمّا على إضمار مبتدأ، وإمّا أن يكون خبر: ﴿تِلْكَ﴾. المحسنون: الفاعلون للحسنات. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾: في موضع رفع على إضمار مبتدأ، أو في موضع نصب بمعنى: أعني، أو في موضع خفض نعت للمحسنين. ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: ﴿هُمُ﴾: تكرار الضمير واسم الإشارة لزيادة تعظيمهم.

ج)- أوجه القراءة:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: قرأ الجمهور بالنصب على الحال، وقرأه حمزة وحده بالرّفع على جعل: ﴿هُدًى﴾ خبرا ثانيا عن اسم الإشارة.

ج)- البيان والتّفسير:

﴿الٓمٓ﴾: افتتاحية بالحروف المقطّعة التي تقدّمت نظائرها في السّور السّابقة، وقد تقدّم القول فيها بما يراه أغلب المفسّرين، ويبقى المعنى الحقيقي لها لا يعلمه إلاّ الله، ولم يرد في ذلك بيان عن رسول الله لنعتمده، وكشأن أغلب السّور المفتتحة بتلك الأحرف يأتي التنويه بعدها بشأن القرآن، وهنا وصف الله كتابه بالحكمة فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ. هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

في الإشارة بـــ"تلك" -وهي للبعيد- رفع لقدر تلك الآيات المشار إليها مما سيذكر في هذه السّورة وما نزل قبلها، ووصف الكتاب بـــ"الحكيم" في تشبيه بليغ بالرّجل الحكيم، يجعل من القرآن كائنا حيّا ينبض حركة ونشاطا للتأثير على قلوب سامعيه، والحكمة كما يعرّفها العلماء هي وضع الأشياء في مواضعها بحسن التدبير، ويجوز أن يكون: ﴿الْحَكِيمِ﴾ بمعنى المحكم في مبناه ومعناه، ليس فيه باطل ولا لغو، واختيار وصف: ﴿الْحَكِيمِ﴾ لكتاب الله هو تمهيد مناسب لذكر حكمة لقمان، وأمّا كونه هدى ورحمة للمحسنين، فقد اختير وصفه بالمصدر لتمكّن تلك الصّفة ورسوخها، فهو يهدي إلى الطّريق الأقوم للوصل إلى الغاية من عبادة الله والاستقامة على نهجه، أمّا كونه رحمة فلأنّه ينجي المستجيبين لدعوته من عذاب الله، ويضمن لهم السّعادة والهناء في الدّارين، وإن كان القرآن يكفل ذلك لجميع النّاس، فإن المحسنين منهم هم الذين يتفيأون ظلاله، ويهتدون بأنواره؛ لأنّ الإحسان هو أعلى مرتبة للمتّقين الأبرار، إذ هم الذين يتجاوبون مع القرآن تلاوة وتدبّرا وتطبيقا عمليا لأحكامه وإرشاداته.

وزيادة الإشادة بهم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، واختيار هذه الأوصاف الثّلاثة للمحسنين تبيّن المعنى الحقيقي للإيمان بأنّه لا يتحقّق بمجرّد النطق باللّسان كلامًا باهتًا ليس له صلة بالوجدان، ولا تأثير عملي على الجوارح، وإنّما هو كما حدّده العلماء العارفون: اعتقاد بالجنان ونطق باللّسان وعمل بالأركان. وتخصيص الصّلاة والزّكاة بالذّكر هو لبيان أثرهما في السّلوك الفردي والجماعي من ربط الصّلة بالله في الصّلاة في خشوع وتذلّل حتّى تفيض خشيته على نفس المؤمن، وبما تحقّقه الزّكاة من التكافل والتّعاون في المجتمع المسلم، كما أنّ اليقين بالآخرة هو صمام الأمن من فتنة الدّنيا، وهو الدّرع الواقي من حبائل الشّيطان، ومن نوازع النّفس الأمّارة بالسّوء.

﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: الإشارة بالبعد: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ لعلوّ منزلتهم عند الله، وقد تكرّرت مرّتين للتّركيز على معنى الهداية والفلاح بصيغة الحصر، ومن سار على منهج الله واهتدى بهديه فقد حقّق لنفسه الفوز والفلاح في الدّنيا والآخرة، ويلاحظ الشّبه بين هذه الافتتاحية وافتتاحية سورة البقرة، مع بعض الزّيادة في هذه، مما يتناسب كلّ منهما مع جوّ السّورة. والله أعلم.

النّاس أزاء القرآن بين إقبال وإدبار

أ)– النص:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا
هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ٨ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٩

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: ﴿مِن﴾ تبعيضية، و﴿مَـــنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء أو بالصّفة، والاشتراء بمعنى الاختيار، والاستدلال عن القــرآن بطريق الاستعارة. ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾: ما يقصد به تشغيل البال وتقصير الوقت بمـا ليس فيه نفع. ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾: الـلاّم للتعليـل، و﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هو دين الإسلام، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: أي عن غير بصيرة بحال نفســه، والهزء: مصدر هزأ، أي يسخر، والضّمير في: ﴿يَتَّخِذَهَا﴾ يعود إلى السّبيل، فهو في محل نصب بالعطف على ﴿لِيُضِلَّ﴾، أو في محل رفع بالعطف على: ﴿يَشْــتَرِي﴾. ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: الوقر هو الثّقل، وشاع استعماله في الصّمم علــى وجــه التّشبيه. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ذكرت البشارة على وجه التّهكم، إذ البشــارة في الأصل اللّغويّ هو ما لامس البشرة فيستوي فيها الحسن والسيئ، ولكــن جــرى العرف باستخدام "البشرى" في ما هو طيّب. ﴿وَعْــدَ اللَّهِ حَقًّــا﴾: ﴿وَعْــدَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة. و﴿حَقًّا﴾: منصوب على الحال.

ج)- أوجه القراءة:

﴿لِيُضِلَّ﴾: قرأ الجمهور بضم الياء، من الإضلال للغير، وقرأه ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، أي ليزداد ضلالا على ضلاله. ﴿يَتَّخِذَهَا﴾: قرأ الجمهور بــالرّفع عطفا على: ﴿يَشْتَرِي﴾، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصــم ويعقــوب وخلف بالنّصب عطفا على: ﴿لِيُضِلَّ﴾. ﴿أُذُنَيْهِ﴾: قرأ نــافع بســكون الــدّال للتّخفيف، وقرأه الباقون بضم الدّال على الأصل.

د)- البيان والتّفسير:

في مقابل الصّورة الوضيئة التي رسمها الله للمحسنين، وهم في قمّة الأبرار

المتقين تجاوبا مع كتاب الله تدبّرا وسلوكا، تأتي هنا صورة مكفهرّة دنيئة لصنف من النّاس المستبدلين عن القرآن بأنواع من لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله، أعقبها بالعذاب المهين لهم، فقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ،وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.

جاءت الآيتان تصويرا عجيبا لنموذج من النّاس نجده في كلّ المجتمعات البشرية بمثل تلك العلل النّفسية التي تجعل منهم أسيادا للشرّ، وأبواقا للفساد في إضلال غيرهم، ابتغاء الشّهرة والمكانة عند النّاس، كما قال الشّاعر:

إذا رمت أن تلقى من النّاس حرمة فكن سيّدا للخير أو سيّدا للشرّ

وكما قال آخر:

إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما يراد الفتى كيما يضرّ وينفعا

قلت: إنّ هذا الصّنف من النّاس لا يخلو منهم مجتمع من المجتمعات، وإن كانت الحادثة وقعت في المجتمع الإسلاميّ الأول، وهي تتمثّل في النّضر بن الحارث الذي كان يحدّث أهل مكة بقصص أهل فارس من اللّهو بأخبار الملوك، ليشغلهم بها عن سماع القرآن، ويقول لهم: هذا خير لكم ممّا يدعو إليه محمد. غير أنّ العبرة بعموم اللّفظ في تصوير ذلك النّموذج من النّاس تصويرا بليغا يستفظع مجالستهم والاحتكاك بهم.

وقد قدّم المسند إليه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ للتشويق وجذب الانتباه، والاشتراء كناية عن العناية بالشيء والرّغبة فيه، فيدفع صاحبه لاقتنائه كلّ ما يملك من مال وجهد ووقت، وأحيانا يدفع حياته إذا تمكّن حبّ ذلك الشّيء من نفسه، فإذا كان هذا الذي يشتريه لهو الحديث، فقد اشترى بضاعة بخسة رخيصة بثمن غال بمقصد

خبيث، وهو إفتان الناس عن الوحي المنزّل من عند الله، فهو يقترف ذنبا مضاعفا باشترائه اللّهو الذي لا فائدة فيه، ثم ليفتن الناس عن دينهم الذي يربطهم بربهم، فهو ضالّ في نفيه مضلّ لغيره.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يراد به العلم المادّي الظّاهري لشؤون الدّنيا، بل هو العلم الذي يوصلك إلى الله ومعرفة القيم الإنسانية الحقيقيّة، فقد جعل الله الكفر -بأي سبب من الأسباب- هو بغير علم، وإن يكن صاحبه عالما في متعارف الناس، فيقول في هذا المعنى:

أ)- ﴿وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية:٢٤).

ب)- ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ (الأنعام:١٤٨).

ج)- ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الجاثية:٢٣).

ولا شكّ أنّ ما ابتدعه أعداء الإسلام من أنواع اللّهو واللّغو مما تبثّه وسائل الإعلام المختلفة أو شبكات "الانترنيت" لصدّ الناس عن طريق الله، كلّ ذلك يندرج في هذه الصّورة القاتمة، كما قال الشّاعر:

ضاقت فجاج الأرض منهم بالخنا فغزوا فضاء الكون بالإرسال

عبر الأثير إلى الخلائق كلّها يغزونها بالشّرّ والإضلال

ومما أنّ الرّواة ذكروا من أسباب النزول أنّها نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنّية، فشغل الناس بها عن سماع رسول الله، وعلى ذكر هذه الرّواية فقد بحث المفسّرون في قضية الغناء أهو حرام أم مباح، ومتى يكون كذلك؟، ولا نتوسّع في ذكر تفاصيل ذلك، فهي مبيّنة في الموسوعات الفقهية.

وقد رسم الشّيخ الإمام بيوض -رحمه الله- إطارا للهو الحديث متى يندرج

في هذا الوعيد الشديد، ننقله هنا بشيء من التصرف إكمالا للفائدة. قال: "فاللّهو أيًا كان نوعه، ولو لم يكن فيه أيّ مضرة أبدا، ولكن فيه ضياع للوقت فقط، إذا قصد به الصّدّ عن سبيل الله، فهو كفر بدون شكّ. هذا ما لا يختلف فيه اثنان، كصدّ كفرة قريش النّاس عن الإيمان بالنّبي ﷺ وعن الاستماع إلى القرآن، فهذا يبلغ درجة الكفر الصّريح. فاللّهو -وإن كان رياضة مهما كانت- مما لا يقول فيه العلماء إنّها حرام، وإنّما هو مباح -وما أكثر أنواع اللّهو المباحة-، ولكن إذا قصد بها الصّدّ عن الدّين وعن الإيمان فإنّها تبلغ درجة الكفر الأكبر، وإذا قصد بها الصّدّ عن بعض أعمال الخير فهي كبيرة دون ذلك، ولكن اللّهو درجات: منه ما هو محرّم قطعا، وهناك أنواع أخرى مباحة لا يستطيع أحد أن يقول أنّها معصية، كلعب الكرة لقصد تقوية العضلات أو السّباحة أو ركوب الخيل، وبعض الرّياضات الأخرى كالجيدو والكاراتي، يتعلّمها المرء ليدافع عن نفسه، خاصّة إذا أريد بها تكوين شباب قويّ قادر على الدّفاع عن وطنه".[1]

قلت: وقد نقل القطب -رحمه الله- في التيسير فقال: "وسأل رجل القاسم بن محمد -من سادات التّابعين- عن الغناء أهو حرام؟، فقال: أنظر يا أخي إذا ميّز الله تعالى الحقّ والباطل في أيّهما يكون".[2]

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، الضّمير يعود إلى: ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ومن ذلك هزؤهم بالدّعاة إلى الله وتزهيد النّاس فيهم كما كان يفعل النّضر بن الحارث.

﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾: الإتيان بصيغة الجمع في التهديد ليشمل كل الأطراف التي يتألف منها ذلك الحشد السّاخر من المتحدّثين أو السّامعين، ووصف العذاب بالمهين مناسب لحالة هؤلاء من الغطرسة والاستكبار، كما تجسّده الآية

١- إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن: ١١/٥٢-٥٣.

٢- امحمد بن يوسف اطفيش، تيسير التفسير: ١١/١٥٣.

اللاحقة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

هذه هي الصّلة الثّانية لاسم الموصول، تجسيد بليغ لهيئة الاستكبار والانتفاش أمام سماع القرآن، يتظاهر بعدم السّماع حتى لكأنّ في أذنيه يسدّهما، والمقصود هو عدم التأثر بما يسمعه، وجاء التّشبيه مضاعفا لتقوية النّفور والإعراض، ليعقبه التهديد بقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والبشرى في الاستعمال العرفي تكون لما هو طيّب، ولكن استعمالها هنا في العذاب الأليم هو للاحتقار والتهكّم، ولكنها في حقّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات بشرى طيّبة تعدهم بالنّعيم المقيم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ، خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

إنّها تأكيد لجزاء المحسنين الذين تقدّمت أوصافهم في مفتتح السّورة، إنّه النّعيم الخالد يتنعّمون فيه، وقد حبسوا أنفسهم لطاعة الله، معرضين عن لهو الحديث.

فما هي تلك اللّذة العاجلة التي يطلبها أولئك الكبراء المتعجرفون بوسائل اللّهو بإزاء هذه اللّذة الباقية الخالدة في دار الخلد للذين آمنوا وعملوا الصّالحات وعد حقّ من لدن العزيز الحكيم، الذي لا يعجزه الوفاء بوعده؟، بل كان من تمام فضله أن يوجب ذلك الوفاء على نفسه، وهو القويّ القاهر والحكيم الذي يقضي بالعدل والفضل في شؤون عباده.

والله أعلم.

الاستدلال على وحدانية الله تعالى

أ)- النص:

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ⑩ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ⑪

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾: جملة مستأنفة، وفاعل ﴿خلق﴾ يعود إلى العزيز الحكيم، والعمد: جمع عماد، الاسطوانة التي يستند بها، ﴿بغير عمد﴾: في موضع نصب على الحال، ﴿تَرَوْنَهَا﴾: في موضع جرّ صفة لعمد. ﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: الرّواسي: جمع راسية، الجبال الثّابتة، ﴿أن تميد﴾: تقديره: خشية أن تضطرب وتحرّ، أو لئلا تميد بكم. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾: بثّ: نشر ووزّع، والضّمير يرجع إلى الأرض. ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾: الزّوج: الصّنف الكريم النّفيس الكثير النافع، وهناك من تأوّله بني آدم. ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾: ﴿أروني﴾: معلّق عن العمل بالاستفهام. ﴿ماذا﴾: "ما" مبتدأ، و"ذا" خبر، ويجوز أن يكون "ما" مفعول لـ"خلق"، و"ذا" زائدة.

ج)- البيان والتّفسير:

على إثبات حقّية وعد الله بجنّات النعيم للذين آمنوا وعملوا الصّالحات، وأنّه عزيز حكيم، أعقب الله على ذلك ببيان الأدلّة على عزّته وقدرته بخلق السّماوات

والأرض وما بينهما لتقرير الوحدانية وإبطال الشرك، فقال جلّ من قائل: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

يرد لفظ "السماء" في القرآن تارة بالإفراد وتارة بالجمع "السماوات"، وقد يذكر عددها بأنها سبع سماوات كقوله: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ (النبأ:١٢)، وقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧).

والسّماء في المشاهد المنظور للإنسان هي هذه القبة الزّرقاء الممتدّة فوق رؤوسنا، والتي يحاول اليوم علماء الفلك من خلال أبحاث الفضاء أن يستكشفوا بعض أسرارها سيما في مجرّتنا التي تنتظم المجموعة الشّمسية، وعلى استعارة فعل البناء للسماء، يبيّن الله تعالى بطريقة التّمثيل المألوف عند النّاس بإقامة البناء على الأعمدة السّميكة لمدّ طبقاته، غير أنّ للمخاطبين في نظرهم البدائية إلى تلك المشاهد الطّبيعية لا يمكن معهم تجاوز المظهر الحسّي الذي يشاهدونه، ومن ثمّ يقيسون عليه الأشياء الأخرى؛ لأنّ رفع مثل ذلك البناء الضّخم المتماسك بغير عمد تراها بأعيننا هو المثل العجيب لصنع قدرته، وفي سورة الرّعد ترد مثل هذه اللّقطة، وأرى أنّه من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم زيادة جملة: ﴿تَرَوْنَهَا﴾، ممّا يدلّ أنّ هناك ما يمسك تلك المخلوقات الضّخمة، ولكنّنا لا نراه، فهل نقول: إنّه ما نسمّيه اليوم بالجاذبية، وهي قوّة لا نراها، والله أعلم بمكوناتها، تلك هي قدرة الله في الفضاء الكوني، وهو أعظم من أن يحيط به علم الإنسان.

ولذلك يعود النصّ إلى الاستدلال بما في الأرض فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾، وهي أدلّة طبيعية مشاهدة تدلّ على قدرة الله وحكمته ورحمته بخلقه، وإضافة قوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ هو في متناول كلّ المخاطبين في ضمان توازن الأرض في مفهومه البسيط، كما عبّر على ذلك في سورة النبأ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾

(النبأ:٦-٧)، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ (المرسلات:٢٧).

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾: إشارة إلى أصناف المخلوقات من كلّ ما هو كائن حيّ قد ألهمه الخالق إلى تدبير شؤونه ورزقه.

ثم انتقل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب، للاهتمام أكثر بنعمة إنزال الماء وما تخرجه الأرض من أصناف النبات، سيما تلك الأنواع الطيّبة التي وصفها بأنها "كريمة"، وهو وصف يوحي بما لتلك الأنواع من المنافع والفوائد في حياة الإنسان، وأنها من ربٍّ كريم رحيم بعباده، أفلا يكون هذا الرّبّ المنعم الكريم جديرا بالعبادة والشكر؟.

﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

الإشارة إلى كلّ ما تقدم من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، إلى قوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، ويلاحظ في مبنى الآية الانتقال من التكلم إلى الغيبة لمزيد من الإيحاء والتأثير، وفي اختيار المصدر: ﴿خَلْقُ﴾ عوضا عن المفعول "مخلوقات الله"، وإضافته إلى اسم الجلالة له وقع كبير يفاجئ المخاطبين، وهم لا يدّعون لآلهتهم الباطلة صفة الخالقية، ولكن تبلّد أحاسيسهم بالتقاليد المألوفة توقظها هذه الإشارة، فإذا لهم يفاجؤون بهذا الأمر التعجيزي الذي لا يمكن لهم الإجابة عنه في الواقع، إذ لا يمكن لهم أن يقدّموا شيئا يدّعون بأنّ آلهتهم خلقته، وبالتالي فهو توبيخ، ويتضمّن التهكّم برؤيتهم الفاسدة لحقائق الأشياء، ولذلك أعقبه إضراب لإقرار حكم الظّلم لهم وكونهم في ضلال مبين، فلا يمكن لطموس البصيرة ومتحجّر القلب إلاّ أن يعيش في ضلال مبين.

والله أعلم.

وصايا لقمان الحكيم لابنه

أ)- النص:

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا
تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ
جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا
مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾
يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ
أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ
وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ
فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾: ﴿آتَيْنَا﴾: بنون العظمة، أي المؤتي هو الله تعالى، وهو يتعدّى إلى مفعولين، و﴿لُقْمَانَ﴾: ممنوع من الصّرف للعلمية وزيادة الألف والنون. و﴿الْحِكْمَةَ﴾: كلّ ما من شأنه أن يقوّم سلوك الإنسان ويسدّد

تفكيره لمعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه لقصد العمل بمقتضى ذلك العلم.
﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾: التقدير: بأن أشكر لله، والشكر في المصطلح القرآني يعني الوفاء بحق الله في الطاعة والعبادة في سلوك عملي، وليس هو مجرد النطق بالحمد لله.
﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾: أقام العلة مقام جواب الشرط. ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾: "إذ" ظرف للزمان الماضي، متعلق بمحذوف تقديره: اذكر.
﴿وَهُوَ يَعِظُهُ﴾: جملة حالية، والوعظ هو تقديم النصح والإرشاد لغيرك.
﴿يَا بُنَيَّ﴾: تصغير لكلمة "ابن"، والتصغير يستعمل للدلالة على الحب، ويستعمل للتحقير والتقليل. ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: الشرك: اتخاذ الشريك لله -حاشاه-، وكونه ظلما عظيما لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه كتسوية الخالق بالمخلوق. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾: الوهن: الضعف وفقدان الطاقة، مصدر وهن يهن، وهو منصوب على الحال. و﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: صفة لـ﴿وَهْنًا﴾، أي يتضاعف عليها الضعف كلما تقدم بها الحمل. ﴿وَفِصَالُهُ﴾: بمعنى إرضاع الأم لولدها لمدة عامين. ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾: جملة تفسيرية لفعل: ﴿وَصَّيْنَا﴾. ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي﴾: المجاهدة تكون بالإلزام والجبر. ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: وقد تقدم أن الله جعل الكفر به لأي سبب من الأسباب هو بغير علم. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾: قوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ يفيد مدة حياتهما، والمصاحبة هي المعاشرة، والمعروف ما تعارف عليه الناس وهو غير منكور، وقد انتصب وصفا لمصدر مقدر مفعول مطلق، والتقدير: صحابا معروفا.
﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾: أي سبيل المؤمنين الصالحين. ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: بمعنى بمقدار حبة من خردل، ويضرب بها المثل في الصغر. ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: يقال صاعر وصعّر خده، إذا أمال عنقه إلى جانبه، وهو مشتق من الصَّعَر -بالتحريك- وهو داء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، وهو تمثيل لاحتقار الغير. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾: المرح هو فرط النشاط والزهو.
﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: القصد: هو الوسطية والاعتدال،

وغضّ الصّوت هو خفضه، و"من" للتبعيض.

ج)- أوجه القراءة:

﴿أَنُ اشْكُرْ﴾: قرأها الجمهور بضم النّون في الآيتين، وقرأها أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النّون في الآيتين. ﴿يَا بُنَيَّ﴾: قرأه الجمهور بكسر ياء "بنيّ" مشدّدة، وأصله: يا بنيي، بثلاث ياءات، وقرأه حفص عن عاصم في المواضع الثّلاثة في السّورة ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بفتح الياء مشدّدة على تقدير: يا بنيّا، بالألف. ﴿إِن تَكُ مِثْقَالُ﴾: قرأ نافع وأبو جعفر برفع مثقال على أنه فاعل: ﴿تَكُ﴾، من "كان" التامة، وقرأه الباقون: ﴿مِثْقَالَ﴾ بالنصب على الخبر لـ ﴿تَكُ﴾ الناقصة وتقدير اسم لها يدلّ عليه المقام. ﴿وَلاَ تُصَاعِرْ﴾: قرأ الجمهور: ﴿لاَ تُصَاعِرْ﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ﴾ بالتضعيف، إذ يقال: صاعر، وصعّر، إذا أمال عنقه إلى جانب معرضا عن الجانب الآخر.

د)- من هو لقمان الحكيم؟.

ليس هناك ما يُعتمد من الرّوايات الصّحيحة في التّعريف بهذا الرّجل الحكيم، فنحن نجتزئ هنا بما أورده سيد قطب في مقدّمة تفسير وصاياه لابنه إذ قال: "لقمان الذي اختاره القرآن ليعرض بلسانه قضيّة التّوحيد وقضية الآخرة تختلف في حقيقته الرّوايات، فمن قائل: إنّه كان نبيا، ومن قائل: إنه كان عبدا صالحا من غير نبوءة، -والأكثرون على هذا القول الثّاني-، ثم يقال: إنه كان عبدا حبشيا، ويقال: إنه كان نوبيا، كما قيل: إنه كان من بني إسرائيل قاضيا من قضاتهم. وأيّا من كان لقمان فقد قرّر القرآن أنّه رجل آتاه الله الحكمة، الحكمة التي مضمونها الشكر لله".[1]

١- سيد قطب، في ظلال القرآن: ٦٧/٢١.

وكان لقمان معروفا عند العرب، وقد سألوا عنه رسول الله، وهناك رواية ترجّح أنّه لم يكن نبيًا، فقد روى ابن عطية أنّ ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لم يكن لقمان نبيًا، ولكن كان عبدا كثير التفكر، حسن اليقين، أحبّ الله تعالى فأحبّه، فمنّ عليه بالحكمة**».[1]

قلت: لعلّ ما يرجّح هذه الرّواية، أنّه تعالى أورد قصّة هذا الرّجل الصّالح ليقابل بها ذلك النموذج الخبيث ممن يشتري لهو الحديث ليضلّ عن سبيل الله، وبين هذا الذي يشتري الهدى والصّلاح ليربّي عليهما ولده.

وهذا هو وجه التناسب بين النّصّين، وإذ هو توجيه غير مباشر جاء عن الله على لسان رجل حكيم لم يتّصل بوحي السّماء كما هو الرّاجح، فإنّه يجدر بنا قبل الشّروع في البيان والتفسير للنّصّ، يجدر بنا أن نذكر الملاحظات الآتية:

أ)- لم تعد وصية لقمان كلاما عاديا بعد ما نزّل بها قرآن يُتلى، والرّاوي له هو ربّ العزّة، فأصبحت لهذه الوصية قدسية القرآن وحقّيته وصدقه.

ب)- يشهد الله بإيتاء الحكمة للقمان، وهو القائل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة:٢٦٩). وليس ذلك مخوّل لكلّ النّاس، بل هو منّة من الله يهبها لمن يشاء من عباده، وهو القائل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ (البقرة:٢٦٩).

ج)- إذا لم يرْقَ لقمان إلى درجة الأنبياء -كما هو الرّاجح- فهو في عمله التّربويّ لولده يقوم بمهمة الأنبياء والرّسل في التبليغ والإرشاد، أو لم يقل

١- أخرجه البرهان فوري في كنز العمال، من حديث نوفل بن سليمان الهنائي عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، رقم ٣٧٨٦٥: ١٤/٣٤. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

الله في شأن رسوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢).

وقال أمير الشعراء في شأن المعلم:

قم للمعلم وفّه التبجيلا	كاد المعلم أن يكون رسولا
أرأيت أشرف أو أجلّ من الذي	يبني وينشئ أنفسا وعقولا

ولا غضاضة -إذن- للمؤمن أن ينتفع بكلّ كلام صادق مفيد، والحكمة ضالّة المؤمن يلتقطها أنّى وجدها. ولنشرع في البيان والتفسير.

هـ)- البيان والتفسير:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

الآية معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، لمقابلة ذلك النموذج الخبيث المتمثّل في النضر بن الحارث بهذا النموذج الطيّب المتمثّل في لقمان الحكيم، وافتتحت قصّته باللاّم المشعرة بالقسم وبـ"قد" لمزيد من الاهتمام بها، ويزيدها تشريفا التعبير بنون العظمة: ﴿آتَيْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تفسير وتلخيص لمضمون الحكمة التي ألهمها لقمان، وليست هي بأقوال فلسفية مجرّدة، بل هي ذلك الوازع الإيماني القويّ الذي هداه إلى نور الله، وهيأه لعبادة ربّه وطلب رضاه، فكان بذلك جديرا أن يعظ ولده، بعد أن جعل له من نفسه القدوة الصالحة والأب المثالي الشفوق امتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (التحريم:٦).

والشكر بمعناه الاصطلاحي في القرآن يأتي بمعنى الإيمان الخالص لله والعبادة له، معتقدا صحيحا وسلوكا عمليا يرجو به ما عند الله، وضدّه الكفر بنعم الله، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم:٧).

وكلّ ما يقوم به العبد من الشكر لنعمة الله عليه، فإنّ نتيجة ذلك من الخير والنفع والصّلاح لا تعود إلاّ إليه بالدّرجة الأولى؛ لأنه تعالى غنيّ عن عباده، فلا تنفعه طاعتهم كما لا تضرّه معصيتهم، كما قال تعالى:

أ)- ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء:٧).

ب)- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥).

فالغنى والحمد صفتان ذاتيتان لله تعالى، لا تحتاج إلى شكر الشاكرين ولا حمد الحامدين، بل له المنّة والفضل علينا بنعمة الإيجاد والخلق قبل أن يكون لنا شأن في هذه الحياة حتى نشكر أو نكفر، ولا شكّ أنّ لقمان كان بشهادة الله من الشاكرين لنعمة الله، فبوّأه تلك المنزلة بين الحكماء ممن يُرجى نصحهم، فتجيء قضية التوحيد لله في أوّل نصحه لولده: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

قضية التوحيد تأتي في قمّة الحكمة، فبعد أن عرفنا لقمان مهتديا حكيما في ذاته، فها هو ذا ينتصب هاديا مرشدا لغيره بدءا من أهليهم وذويهم تأسّيا بمنهجية رسول الله إذ قال له ربّه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤)، فهو بنصحه لولده يقدّم نموذجا رائعا لما يجب أن تقوم عليه الأسرة المسلمة من المودّة والتكافل في أداء الحقوق المتبادلة بين جميع أفرادها، والأولاد هم زينة الحياة الدّنيا، وهم الركن الأساسي في مسؤولية الوالدين برّا وصلاحا، أو عقوقا وفسادا.

وبما أن الوسيلة التعليمية تعتمد على النطق باللّسان لتقديم النصائح

والإرشادات، فإنّ لقمان إذ يمارس هذه المهمّة مع ولده يجده مداوما لها حتى تتمكّن وتستقرّ في النفس، وذلك ما تفيده صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾، كما نلمس منه ذلك العطف الندىّ والترقّق في النصح وهو ينادي ولده ﴿يَا بُنَيَّ﴾ مستثيرا في نفسه مشاعر البنوّة اللّطيفة ليكون ذلك أدعى إلى الطّاعة والامتثال، وبما أنّ بناء النفس المؤمنة بكلّ ما يتطلّبه من الأخلاق والسّجايا إنّما ترتكز على أساس المعتقد الصّحيح في المعبود الحقّ -وهو الله تعالى-، فقد بدأ لقمان بتركيز ذلك الأساس، فنهى ولده عن الشّرك بالله، وذلك هو منطلق الدّعوات لجميع رسل الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥).

ولم يقتصر لقمان على النّهي المجرّد، بل أعقبه بالتّعليل ليكون لكلامه كالدّليل فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فاستعمل المؤكدات "إنّ" و"اللام" ووصف الظّلم بـ"عظيم"، وذلك لتهويل فظاعة الشّرك، إذ هو ظلم مزدوج: ظلم في حق الخالق، وهو أغنى الشّركاء عن الشّرك، وهو ظلم للنفس المخلوقة، إذ تهوي بذلك إلى الحضيض، وليس في ذلك التّأكيد ما يدلّ على أن الابن كان مشركا -كما يرى بعض المفسّرين-؛ لأنّ التذكير مأمور به لكلّ أحد، وفي جميع الأحوال، لأن الإنسان كثير الغفلة والإنسان.

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ الجملة التّعليلية هي من كلام الله، ومرداها بأنّها هي الحقيقة التي يعرضها رسول الله على قومه، فيشكّون في غرضه من وراء عرضها، بأنّه يريد أن يتفضّل عليهم وينتزع منهم سلطانهم، فها هو لقمان يعرضها على ولده، وهي بعيدة عن تلك الشّبهة التي لا يمكن أن تكون بين الوالد وولده، والله أعلم.

وفي ظلّ تلك العلاقة الحميمة بين الوالد وولده، وقبل متابعة وصايا لقمان، أتى هذه الوصية العامة في حق الوالدين إبلاغا من الله لخلقه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ

بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ، وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فالموصي هو الله -بنون العظمة-، وجاء الفعل "وصّى" مضاعفا، والوصيّة هي أمر أحد بما يصلح له، ونهيه مما يضرّه، والله لا يوصي عباده إلاّ بما يصلح شؤونهم في المعاش والمعاد، وبما أنّ الوصية تعني الاعتناء بشخص الموصى له فقد استغنى عن قوله هنا: ﴿حُسْنًا﴾.

وقبل التنصيص على تلك الوصية يقول تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، تجيء هذه الجملة المعترضة بقوله: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، تجيء لتقرّر مضاعفة حقّ الأمّ على الولد، لما عانته في حمله ثم في إرضاعه حتى الفطام، فبعد شمول الوصية بالشكر لهما معا ذكر الله اسم الأمّ وبيّن سبب استحقاقها لذلك الشكر من الولد، إذ فصّل الله موجباته بما تتعرّض له الأمّ من الوهن المتراكب على بعضه البعض منذ أن يتخلّق جنينا في بطن أمّه حتى يولد، ثم يستمرّ ذلك التعب في إرضاع الولد حتى فطامه بعد عامين.

ويبدأ نصّ الوصية بالشكر لله أولا، ويثني بالشكر للوالدين؛ لأنّ حقّ الله له الأولوية والأسبقية على كلّ حقّ؛ إذ هو الخالق للوالدين والولد، وهو المنعم عليهم جميعا، فكان من مقتضيات الإيمان، ومن أخلاقيات المسلم أن تصل كلّ أعمال البرّ بالآخرين عن طريق الله وفاء بالميثاق الذي يصل العبد بربّه، ولذلك جاء هذا التذييل المناسب بقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

فما دامت نهايتنا إليه كما كانت بدايتنا منه، فينبغي أن تمرّ مراحل حياتنا في الطريق الذي رسمه هو لنا امتثالا لقوله لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢).

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

مهما تكرّر في القرآن الأمر بالإحسان إلى الوالدين، فقد تتعارض طاعتهما مع طاعة الله باختيارهما للكفر والشرك، أو بقاء أحدهما عليه كما حدث لبعض الصّحابة -رضوان الله عليهم- في مكّة، ففي هذه الحالة تؤكّد هذه الآية ما أوصت به الآية السابقة من أنّ حقّ الله تعالى مقدّم على كلّ حقّ، فعلى الولد المؤمن ألا يعصي والديه إذا أمراه بمعصية الله أو استفصيا جهدهما في حمل ولدهما على الشرك بالله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، غير أنّ الظّروف المكّية القاسية التي كان يعيشها المسلمون اقتضت هذا الإرشاد الإلهي بمصاحبة الولد المؤمن لوالديه الكافرين بالمعروف، أي يعاشرهما بالحسنى وبالإنفاق عليهما.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ لتغطية المدّة التي تستمرّ عليها تلك الحالة حتى تتغيّر في يوم من الأيام، ولم يقتصر الإرشاد الإلهي للولد على الأمر السّلبيّ بالنهي عن طاعة الوالدين الآمرين له بالشرك، بل أكمل إرشاده بأمره أن يتبع سبيل المنيبين إلى الله، وهم الرّسول وأصحابه وكلّ الصّلحاء والأتقياء، إذ الكلّ راجع إلى الله ليجازيه بما عمل، وفي الرّجعى إلى الله تثبيت على الطّريق السّوي، وتطمين لأولئك الصّابرين على نهج الله بالنّصر والتّأييد.

ثم تأتي الوصية الثّانية للقمان بقوله لولده: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

إنباء الله لكلّ مخلوق بما عمل في حساب يوم القيامة يطرح في النّفس ذلك التّساؤل عن سعة علم الله وإحاطته الكاملة، كيف تغطّي كلّ ما في الوجود حتّ

تستوعب كلّ أعمالنا صغيرها وكبيرها.

فنجد هذه الوصية الثّانية ضمن تركيز المعتقد الصّحيح في الله وعلمه وقدرته، تجيء في تصوير عجيب يلامس شغاف القلوب ويهزّ مشاعر الوجدان، وهو يعرض تلك الرّقعة الهائلة من الكون الفسيح في الأرض وفي السّماوات، ثمّ في أصله مادّة من الأرض المتمثّلة في الصّخرة الصّمّاء، ومع تعمّقنا وذهولنا أمام سعة ذلك الظّرف الزّماني والمكاني وضخامته وقد ارتدّ بصرنا أمامه خاسئا وهو حسير، فإنّ عجبنا يكون أعظم في تقدير ذلك المظروف الدّقيق المتمثّل في مثقال حبّة من خردل، يختبئ في أطباق الصّخرة الصّمّاء أو في حبات الأرض المتعدد، أو هو يحلق في فضاء السّماوات على تعدّد أطباقها، فإن ذلك الجزء الضّئيل لا يندّ عن علم الله ليأتي به في يوم الحساب، فهل هناك في خيالنا المحدود وفي تصوّرنا الباحث أروع من هذا التصوير؟.

فلو كان النّاس في وقت التنزيل يعرفون شيئا أدقّ من حبّة الخردل لضرب الله به مثلا لواسع علمه وشمول قدرته، ولله المثل الأعلى في إعجاز كتابه حين ضرب مثلا لذلك بما هو أصغر من الذّرة، وهو يعلم أنّ الكشوفات العلمية سوف تصل إلى معرفة الذّرة وتمحوها بتفتيت جزيئاتها التّركيبية فقال جلّ من قائل: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (يونس:٦١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾: إنه التّذييل المناسب في مثل هذا المقام، وهو نفس التّذييل الذي نجده في سورة الملك لبيان إحاطة علم الله بكلّ ما نعمله أو نقوله في السّرّ والعلانية، فقال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٣-١٤)، فالله لطيف لا ندركه بأبصارنا، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، وهذه الرّوح في أجسامنا، وهو النّفخة العلوية منه تعالى لا نعرف كنهها، يصوّر الله تعالى خروجها من الجسم عند

الاحتضار فيقول في سورة الواقعة: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ، وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ (٨٣-٨٥). وهو ما يفسّر هنا معنى اللّطيف الخبير.

وإذا ما تركّزت في نفوسنا دلائل هذا المعتقد الصّحيح في ربّنا تبارك وتعالى، فلا شكّ أنّنا سوف نراقبه في تصرّفاتنا ونلتزم بالأحكام التي شرعها لنا، فنتوجه إليه بإقامة الصّلاة، وندعو غيرنا إلى صراطه المستقيم، صابرين على تكاليف الدّعوة، وذلك ما وعظ به لقمان ولده وهو يتدرج معه برفق ويقول: **﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾**.

إن الصّلاة هي التّحسيد العملي والتّعبير الخالص لما وقر في قلب المؤمن من إشراقات "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"؛ لأنّ القلب في المصطلح القرآني هو مستودع الأنوار الرّبانية، وهو جهاز التّلقي الذي يصل العبد بربّه كما ورد في الحديث: «**أقرب ما يكون العبد إلى ربّه وهو ساجد**»[1]، والقلب المهتدي يمدّ الجوارح بطاقة الهداية فتنشط للعبادة كما أمر الله، يقول الإمام البوصيري:

وإذا حلّت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء

والصّلاة وهي أولى الأركان العملية في البناء الإسلاميّ، قد خصّص القرآن لها حشدا كبيرا من الآيات لتأمر المؤمنين بها بمختلف الصّيغ التي تعرفها اللّغة العربية، ولا تأتي إلا مقرونة بلفظ "الإقامة" حتى يؤدّيها المؤمنون على الصّورة

١- رواه مسلم من حديث أبي هريرة، كتاب (٥) الصلاة، باب (٤٢) ما يقال في الركوع والسجود، رقم ١١١١.

الكاملة التي بيّنها رسول الله حين قال لأصحابه: «**صلّوا كما رأيتموني أصلّي**».[1]

ولقمان الحكيم أراد لولده أن ينشأ على طاعة الله حتى يوفّقه إلى القيام بأداء واجباته الأخرى، وهو في ذلك ينهج في تربيته نهج رسول الله في قيامه بهذه الفريضة وتحريض أهله عليها إذ قال له ربّه: ﴿وَامُرَ اَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طـه:١٣٢).

﴿وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر سياجان لحفظ المجتمع المسلم من الشرّ والفساد، وهما كما جاء في الأثر: "جندان من جنود الله، من نصرهما نصره الله، ومن خذلهما فعليه لعنة الله".

وهل أضرّ للمجتمعات وأشدّ فتكا لقيمها ومقوّمات حضارتها من فتنة الشّياطين ودعاة الفسق والفجور؟، فإذا نامت أعين الأبرار، وانخذل العلماء الأحرار، وسكنت أفواه النّصّاح والمرشدين، فلا رادّ للمجرمين أن يجوسوا خلال الدّيار.

والمسلم الوفيّ هو الذي لا يكتفي بسيرته الذّاتية والعيش في برجه العاجي، بل يهتمّ بالمحيط الذي يعيش فيه، يتعهّده بالرّعاية والمراقبة، ويمدّه بكلّ ما يحفظ عليه طهره ونقاءه.

و لم يضف لقمان على ولده –وهو يعظه– إلا صفة النّبوّة: ﴿يَا بُنَيَّ﴾، إذ لم يخصّه بأيّ صفة أخرى من العلم أو الجاه أو غيرهما، وهذا يدلّ أن هذا الواجب الدّينيّ مطالب به كلّ مسلم كفرض عيني كلّما دعت الضّرورة إلى ذلك، وبالوسائل الشّرعية المتاحة لكلّ شخص، وفق ما بيّنه رسول الله في قوله: «**من**

١- تقدم تخريجه: ص ٩٩.

رأى منكم منكرا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».[1]

ومهمّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر مدعاة للسّخط والإنكار، بل للأذى والإضرار، كما هي طبيعة الصّراع بين الحقّ والباطل، فليس للآمر النّاهي إلا التذرّع بالصّبر، ولذلك جاءت وصية لقمان عامة شاملة. ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، أي في سبيل امتثالك لأمر الله واجتنابك لنهيه، وكلّ ذلك يحتاج إلى عزيمة وإرادة لا يقوى عليها إلاّ من وفّقه الله وأمدّه بالعون والتّوفيق. فقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ تذييل مناسب في تركيز تلك القيم الرّفيعة من التّضحية والصّبر والتّحمّل، وليس هو بالصّبر الذي يورث الخنوع والتّذلل.

﴿وَلاَ تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

ما أحوج الدّاعي إلى الخير إلى مثل هذا التّذكير، إنّها الأخلاقيات الإسلامية في التّواضع ولين الجانب في معاملة النّاس، فلا يشعرنّ الدّاعي في أمره ونهيه أنّه فوق منزلة النّاس الذين يتوجّه إليهم بنصحه، بل يعتبر نفسه واحدا من أفراد ذلك المجتمع، يستوي معهم في نعمة الإيمان والإسلام، وليجعل من رسول الله ﷺ أسوته الحسنة في خفض الجناح ولين الجانب، وفي الرّأفة والرّحمة.

والنّهي عن مصاعرة الخدّ هو كناية عن الاحتقار أيّا كان شكله، بالفعل الرّزيء أو القول البذيء، وفي معناه النّهي عن التّكبّر والتّفاخر؛ لأنّ المتكبّر

١- رواه مسلم من حديث طارق بن شهاب، كتاب (٢) الإيمان، باب (٢٢) بيان كون النهى عن المنكر من الإيمان، رقم ١٨٦.

من صفات الله الحسنى، كما ورد في الحديث: «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما أدخلته ناري**»[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجاثية:٣٧).

وغالبا ما يكون الكِبْر عند صاحبه دليلا على ضعف شخصيته، يجعل منه ستارا لذلك النّقص حتى لا ينكشف أمام أصدقائه ومعارفه، ولكن محكّ التّجربة سوف يكشف حقيقته، كما قال الشّاعر الحكيم:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على النّاس تُعلم

وعلى العكس من ذلك نجد التّواضع ولين الجانب مما يمتاز به ذوو النّفوس العظيمة كما كان عليه رسولنا الكريم بشهادة من الله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، ومع آداب المعاملة مع النّاس، هناك آداب خاصّة مع ذواتنا نحن، يجب أن نتدرّب عليها، ويظهر ذلك في هيئة المشي، وفي وظيفة النّطق.

ولقمان الحكيم إذ توخّى كمال الشّخصية في ولده فقد نصحه بقوله: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾.

والقصد في المشي هو الاعتدال فيه، بحيث يكون وسطا بين الدّبيب والخبيب، وخير الأمور أوسطها، والسّرعة في المشي لغير ضرورة تحطّ بقدر الإنسان، وتدلّ على السّفاهة والطّيش، كما أنّ مشية المتماوت إن كانت لإظهار الزّهد والتّصوّف فهي رياء ونفاق، وإن كانت لغير ذلك فهي عجز ووهن، والمؤمن القويّ أحبّ إلى الله من المؤمن الضّعيف. ولما كان المشي والصّوت وسيلتين للإنسان في طلب مقصوده، فقد جاء الرّبط بينهما في وصيّة

١- رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، رقم ٤٠٩٢.

لقمان مناسبًا لما جُبل عليه الإنسان، ويشاركه في ذلك الحيوان.

فالعاقل من الناس هو ذلك الذي ينطق بالرزانة ويمشي باعتدال، مما يدلّ على حسن تربيته وثقته بنفسه ويزداد المتحدث الجهور رعونة وطيشًا إذا نطق بالسّوء والفحشاء، كما يزداد المتناجيان إثمًا وعدوانًا إذا تناجيا بالعداوة والبغضاء، كما ورد ذلك في كتاب الله.

وتشبيه الصّارخ بصوته بصوت الحمير، هو للاستقباح وشدة التكره، ومن منّا لا يستعيذ بالله من الشّيطان الرّجيم إذا سمع نهيق الحمير، وهكذا يتوخّى المؤمن في حديثه الكلام الطّيب، ويمشي مشية العقلاء، فيستبقي بذلك مودّة الأصدقاء ويدفع عنه تحرّشات الأعداء، نفعني الله وإياكم بهذه الوصايا الغالية، والله أعلم.

تعداد دلائل الوحدانية ومنن الله،

مع بيان أصناف النّاس أزاء ذلك

أ) – النصّ:

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً
وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ
إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ
فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ
غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾.

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾: الاستفهام إمّا للتقرير، وإمّا للتلويم والإنكار، والتسخير: التذليل لعمل ما، وجعل الشيء مطاوعا لما يراد منه. ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾: الإسباغ جعل ما يلبس سابغا، أي كاملا في الستر، وإسباغ النعم: الإكثار منها والتوسعة فيها. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾: "مِن" الأولى تبعيضية. و"مَنْ" مبتدأ، خبره: ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾، والمجادلة: الكلام على طريق المغالبة. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾: بيان لمراتب اكتساب العلم، الاجتهاد في اكتسابه، التلقي من المعلم، مطالعة الكتب المفيدة. ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾: الاستفهام تعجبي، والضمير: ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ يعود إلى الآباء. و﴿السَّعِيرِ﴾: هو نار جهنم -والعياذ بالله-. ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾: إسلام الوجه إلى الله تمثيل لإفراده بالعبادة، وهو من قبيل إطلاق الجزء وإرادة الكل، وتعديته بـ"إلى" عوضا عن اللام فيه تمثيل -أيضا- لنفس الإنسان، كأنها متاع يدفعه صاحبه إلى آخر. ﴿يُسْلِمْ﴾: مجزوم بـ"من" الشرطية، وجواب الشرط هو قوله: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾، هي الحبل المتين، شبّه الإقبال على الله بالكلية والإحسان في العمل بالترقي إلى عال والتمسك في ترقيه بحبل متين يحفظه من الاختلال. ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾: أي الحالة الخاتمة والنهاية، و﴿الْأُمُورِ﴾: أي كل الشؤون المختلفة، وتقديم المسند إليه للاهتمام والتنبيه إلى توفية الجزاء. ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ﴾: الخطاب لرسول الله تسليته. ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: الضمير في ﴿نُمَتِّعُهُمْ﴾ و﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ عائد للكفار، والمتاع القليل هو المتاع الدنيوي؛ لأنه زائل، و﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: أي سندفعهم إلى العذاب مقهورين، والغليظ: القوي الخشن.

ج)- أوجه القراءة:

﴿نِعْمَةً﴾: قرأ نافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وأبو جعفر قرأوا بصيغة: ﴿نِعَمَهُ﴾ جمعا مضافا إلى ضمير الجلالة، تنويها بتلك النعم، وقرأ الباقون بصيغة المفرد، والمراد به الجنس، والتنكير فيه للتعظيم. ﴿يُحْزِنكَ﴾: قرأ نافع بضمّ التحتية وكسر الزاي، مضارع: أحزنه، وقرأ الباقون: ﴿يَحْزُنكَ﴾ بفتح التحتية وضمّ الزاي، مضارع: حزنه، بذلك المعنى، الأولى لغة تميم، والثّانية لغة قريش، وكلاهما فصحى.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ما تقدّم في أوّل السّورة من عرض دلائل التّوحيد وبيان قدرة الله في رفع السّماوات بغير عمد وإنزال الأمطار على الأرض وما بثّ فيها من دابّة، وبعد عرض مواعظ لقمان لابنه، يعود السّياق إلى ذكر مشاهد الكون والامتنان بما سخّره الله للإنسان من مختلف النعم في معرض توبيخ المشركين على الإصرار على الكفر بدون أي دليل عقلي أو شرعي، فقال عزّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

فالخطاب لكافّة النّاس مؤمنيهم وكافريهم، للفت أنظارهم مرّة أخرى إلى دلائل التّوحيد مقرونة بالامتنان الرّبّاني بما أسبغ على خلقه من النّعم الظّاهرة والباطنة. وفي اختيار فعل: ﴿أَسْبَغَ﴾ للدّلالة على الإكثار والتّغطية الشّاملة، كأنّها ثوب شامل يغطّي الإنسان من رأسه إلى أخمص قدميه، وكون تلك النّعم ظاهرة وباطنة لتشمل كلّ الجوانب المادية والمعنوية للإنسان في بدنه وفي نفسه وفي قلبه، فما تزال جوانب كبرى في خلقة الإنسان لم يعرفها العلم، سيما ما يتعلّق بباطنه، وصدق الذي قال مخاطبا ذلك الإنسان العجيب:

دواءك منك وما تشعر وداؤك منك وما تبصر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وفي ربط الدّليل الكوني بمنافع النّاس ومنّة الله عليهم ما يؤكّد ارتباط هذا الإنسان بمصير الوجود في تناسق عجيب من ورائه قدرة الله تحكم التدبير، ومع تلك الأدلّة الواضحة جاء ذلك الاستفهام الإنكاري في أوّل الآية على فريق من النّاس انطمست بصائرهم وعميت أبصارهم عن رؤية ذلك الدّليل الواضح فأخذوا يجادلون في حقيقة الله ولا يقرّون له بالتوحيد، وهم في ذلك لا يستندون لوسائل العلم، لا بالاجتهاد الذّاتي، ولا بالتلقي من عالم، ولا بقراءة الكتب، بل هو التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

والجدال بغير علم مستنكر فظيع، ويزيده نكرا وفظاعة أن يكون في الإيمان بالله، والعلم الصّحيح هو الذي يؤدّي إلى الإيمان واتّباع ما أنزل الله، والمجادل الكافر الضّالّ يكون منحرفا في فطرته، ويعتمد على المغالطات والأكاذيب ومختلف الأساليب الإغوائية ليضلّوا عن سبيل الله، وسندهم الوحيد هو التقليد الأعمى والتحجّر على المألوف ولو كان فاسدا، وهم أعداء لكلّ انطلاق أو تفتّح على الجديد المفيد، ولذلك يرفضون اتّباع ما أنزل الله من حقائق الإيمان، ويتمسّكون بما وجدوا عليه آباءهم.

وفي استفهام تهكّمي وتعجّبي من ضلال هؤلاء تبرز صورة الشّيطان في دعوته لهم إلى عذاب السّعير، واستجابتهم لتلك الدّعوة المشؤومة، وحسبهم من الضّلال والتيه أن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى النّار ويرفضوا من يدعوهم إلى الجنّة.

والله الرّؤوف بعباده لا يتركهم حيارى أمام ذلك الواقع البغيض من بعض

الناس، بل بيّن لهم طريق النجاة ويرسم الخطوات التي عليهم أن يخطوها في ذلك الطريق حتى لا يستزلهم الشيطان فقال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

ففي مقابل ذلك الصنف الضال ممن يجادل في الله بغير علم يأتي الصنف الطيب الصالح ممن انقادوا لله وأسلموا وجوههم إليه واستمسكوا بالحق الذي أنزله على رسله.

فإسلام الوجه لله تمثيل رائع لإفراد الله بالعبادة، بحيث لا يقبلون بوجوههم لغير الله، والإنسان يسير منتصب القامة في الاتجاه الذي يوجه له وجهه، وهو تمثيل لإخلاص العبادة لله في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن فعل ذلك تكون كمن تعلق بحبل متين بحيث يأمن صاحبه من السقوط في المهاوي والتردي في المهلكات، لأن الرحلة إلى الله طويلة وشاقة، وزاد المؤمن فيها هو تلك السكينة والطمأنينة التي تتولد عن تلك الصلة الوثقى بين قلب المؤمن وربه تعظيما لجلاله، وطاعة وعبادة خالصة له، ورضى بقضائه وقدره.

وفي زيادة الجملة الحالية: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إيماء إلى ما ورد في أول السورة في مواصفات المحسنين.

ويأتي التذييل المناسب بقوله تعالى: ﴿وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، يأتي وعدا من الله لهؤلاء بحسن الجزاء، ولغيرهم سوء المصير.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

الرسول الكريم بما يتصف به من الرأفة والرحمة، وأزاء ما يبذله من الجهد في التبليغ، يجد نفسه أمام ذلك الصنف الضال المستهتر، ويتصوره يتقلب في لظى جهنم، ولا يملك له شفاعة ولا عدلا، فيحزنه ذلك ويغتم، شأن الأب الشفوق

على أولاده وإن تمردوا عنه، والله العليم بشئون عباده يُسلّي رسوله بمثل ما ورد في هذه الآية بأن لا يحزن لكفر هؤلاء، فإنّ مصيرهم إلى الله فينبّئهم بما عملوا. والإنباء بالأعمال كناية عن الجزاء، فالله لا تخفى عليه خافية، فهو العليم بما في حنايا صدورهم، فليسوا بمفلتين من قبضته، وكان من حكمته تعالى أن يملي لهم في الدنيا بعض متاعها ليفتنهم فيه، وإنّه لمتاع قليل ذلك الذي يتعاطون به ويتحيّرون، فهو -لا محالة- زائل عنهم بالموت أو بتغير أحوالهم. فما جدوى ذلك المتاع المحدود إذا كان بعده ذلك العذاب الغليظ الذي يساقون إليه قهرًا يوم يرجعون إلى الله فرادى مسلوبي الاختيار، وملائكة العذاب تدفعهم إلى النار؟، ويومئذ ينسون تلك اللذة العاجلة التي التذوا بها بعد أن وقعوا في العذاب الغليظ؛ لأنّ معاناة الإنسان في الآلام والأوجاع تنسيه كلّ لذة أو متاع، كما قال المعرّي:

إنّ حزنًا في ساعة الموت أضعاف سرورٍ في ساعة الميلاد

والله أعلم.

منطق الفطرة حين تواجه دلائل القدرة الإلهية

أ)- النص:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ

مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ
وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾: اللام مشعرة بالقسم، ومرجع الضمير في ﴿سَأَلْتَهُم﴾ إلى ما تقدم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا﴾، والمراد بالسماوات والأرض ما فيهما من المخلوقات. ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: حذف منه نون الرفع وواو الضمير لالتقاء الساكنين، فيه إقرارهم بحق الخلق لله، وذلك يتناقض مع الاعتقاد بإلهية غيره. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ﴾: ﴿أَنَّ﴾: في موضع رفع، والتقدير: ولو وقع هذا، و﴿أَقْلامٌ﴾: خبر ﴿أَنَّ﴾. ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ﴾: جملة حالية، وقيل ﴿أَنَّ﴾ في موضع رفع هو على تقدير المصدر المؤول لفعل محذوف بـ"أن" مقدر بـ"ثبت"، وهو مصدر من خارج، والتقدير: لو ثبت كون ما في الأرض أقلاما. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾: أي لا تنتهي، و﴿كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾: هي كل الأقدار التي يخلق بها الأشياء، والتي يقول بها للشيء كن فيكون، أي مشيئته الأزلية في اللوح المحفوظ فلا تنتهي ولا تنفد. ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: في الجملة مضاف محذوف تقديره: إلا كخلق وبعث نفس واحدة؛ لأنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾: الإيلاج هو الإدخال، وهو تعبير لتعاقب الليل والنهار بأخذ أحدهما من الآخر حسب الفصول. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: تنوين ﴿كُلٌّ﴾ هو تنوين العوض عن المضاف إليه، والجري: المشي السريع، والأجل المسمى: إنما تعني هذه الدورة الشمسية والدورة القمرية من النظام

الفلكي، وإنّما هو نهاية ذلك النّظام بفناء العالم، وهو معلوم عند الله. ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾: الغشيان مستعار للمجيء المفاجئ، وفيه معنى التغطية، والظّلل جمع ظلة، وهي ما أظلّ من السّحاب. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾: الختار: صيغة مبالغة من الختر، وهو الغدر الشّديد.

ج)- أوجه القراءة:

﴿وَالْبَحْرُ﴾: قرأه الجمهور بالرّفع، على أنّ الجملة الاسمية في موضع الحال من قوله: ﴿مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ﴾، أي تلك الأشجار كائنة في حال كون البحر مدادا لها، وقرأه أبو عمرو ويعقوب: ﴿وَالْبَحْرَ﴾ بالنّصب عطفا على اسم "أن". ﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ﴾: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر عن عاصم وشعبة بتاء المخاطبين، وقرأه الباقون بياء الغائبين.

د)- البيان والتّفسير:

بعد ما رفض المشركون أن يتّبعوا ما أنزل الله متمسّكين بالتّقاليد المأفونة لآبائهم وأجدادهم، يعود السّياق لمناقشة القضيّة ولكن في إطار عامّ يعني جميع النّاس، وينطلق النّقاش من منطق الفطرة، حين يعترفون ويقرّون بالخالقية لله وحده، ولكنّهم مع ذلك ينحرفون ويعودون إلى كفرهم، ممّا يدلّ على بلاهة عقولهم وجهلهم، ولكنّ الله أمر رسوله بإثبات الحمد لله بعد إقرارهم به، وفي معرض هذه القضية يقدّم الرّدود الحاسمة لكلّ مستمع في إطار عام، دونما أي التفات لأولئك المعاندين، حتى يقتنع من هداه الله للإيمان، وذلك من شأنه أن لا يثير حفيظة المعاندين فقال تعالى: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**.

ينطلق الجدال والحوار البنّاء عادة من قضية متفق عليها بين الطّرفين المتحاورين، ثم يتوسّع إلى القضايا الخلافية الأخرى، وعلى هذه القاعدة السويّة تبدأ هذه الجولة من هذه الآيات الكريمات مركّزة على منطق الفطرة في الإنسان حين تواجهه الكون الأعظم فتعترف لله العليّ العظيم بالخالقية وبالتصرّف والتدبير، إذ لا تملك الإنسان حين يتحرّر من إصار الأرض في تغطية ضروراته منها، لا تملك حين يتأمّل بتفكيره أبعاد الكون الفسيح إلاّ الاعتراف بتلك الحقيقة الوجودية في أنّ الله وحده هو خالق كلّ شيء، وهو المدبّر الحكيم في ملكوته، وما أروع موقع الأمر الإلهي لرسوله بإثبات الحمد له، وفي ذلك تربية إيمانية مؤثرة، ثم يعقب بالحكم على الأكثرية بالجهل والتبلّد الإيماني: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومع ذلك الإقرار بخلق الله للسماوات والأرض، فإنّ النتيجة المنطقية المتصلة بذلك أن تكون ملكية ما فيهما جميعاً لله، ومن جملة ذلك تلك الأصنام التي يعبدونها، تهويناً من شأنها، إذ لا تملك نفعاً ولا ضرّاً، وليس لها غنى ولا تستحقّ حمداً، فالحمد والغنى لله وحده، وهو ما يفيده ضمير الفصل في الجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، فهو الغني المحمود بذاته وصفاته الأزلية.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد تقدّم تفسير نظير هذه الآية في سورة الكهف تعقيباً على أخبار الماضين في كليهما، فقال تعالى هناك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف:١٠٩).

وهو تصوير بديع لإحاطة علم الله بكلّ ما في أرجاء ملكوته جليّه وخفيّه، ممّا علمناه وما لم نعلمه، وأنّه تعالى لا يُطلع أحداً إلا على ما شاء من علمه، ولو يشاء الله أن يظهر للناس ما في علمه لما أمكن لمخلوقاته أن تستوعب ذلك أو أن تعطيه

بوسيلة تسجيله بالكتابة، ولتقريب ذلك المعنى ضرب الله هذا المثل الافتراضيّ التمثيلي: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ (النحل:٦٠).

وقبل تحليل الصّورة التّمثيلية البديعة تثبت هنا مقارنة شيّقة للأستاذ الإمام بيوض رحمه الله وهو يفسّر هذه الآية، أثبتها هنا إكمالا للفائدة إذ لم أجدها في التّفاسير التي بين يديّ قال: "يبدو لي تقابل بين آية الكهف وآية لقمان، فالبحر ذكر في الآيتين، ولكن في آية الكهف ذكر المداد و لم يذكر الأقلام، وفي آية لقمان ذكر الأقلام و لم يذكر لفظ المداد، وإنما هو مفهوم من المقام، والمداد لا يكتب وحده كما أنّ القلم لا يكتب وحده، وبجمع الأقلام المذكورة في آية والمداد المذكور في آية أخرى تكتمل الصّورة التي يريدها الله تعالى".[1]

قلت: والصّورة البديعة مأخوذة من واقع النّاس ومألوفهم في تدوين ما يتحصّلون من معارفهم المحدودة، ولنا أن نتصوّر حجم الأوراق والكتب والمجلدات التي تحتوي عليها المكتبات الخاصة والعامّة في العالم بعد اختراع الورق وما كان بديله من رقّ الحيوانات وجلودها، كما نتصوّر ما كان قبل ذلك من وسائل بدائية استعملها الإنسان في كتاباته ورسومه منذ فجر التّاريخ إلى عصرنا الحاضر وإلى ما يزال من الحياة البشرية كما قدّرها الله، فكم من ملايين الأشجار برئت أقلاما وكم من بحار من المداد سخّرت لذلك، إنها -ولا شك- كمّ هائل يجلّ عن الحصر، ذلك في علم الإنسان المحدود، فكيف بعلم الله اللاّمحدود، وهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السّماء؟، فما هذا -إذن- إلاّ مثل يضربه الله للناس لتقريب المعنى لأذهانهم، وإلاّ فعلم الله أكثر منه وأوسع بما لا تصل إليه أفهامنا ومدركاتنا؟.

وإذا عرفنا أنّ سبب نزول هذه الآية هو أنّ اليهود قالوا لرسول الله حين نزل

١- إبراهيم بن عمر بيوض، في رحاب القرآن: ١١/٦٤- ٦٥.

عليه قوله تعالى إجابة عن سؤالهم عن الرّوح فقال بعدها: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥). فقالوا: كيف وأنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟. فقال الرّسول: «**هي في علم الله قليل**»، ثم أنزل الله هذه الآية.[1]

وكان المشركون في مكّة ينتظرون انتهاء نزول القرآن ليفحم الرّسول أمامهم.

قلت: إذا عرفنا أسباب النّزول -وإن كانت العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب-، أدركنا موقع قوله تعالى في أعقاب الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فليس لعزّته وغلبته حدّ، ولا لحكمته وعلمه نفاد.

وبعد إثبات ذلك الدّليل القاطع على القوّة والقدرة والسّلطان بنى عليه الرّدّ المفحم على من ينكر البعث فقال: **﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾**.

ولمخاطبة المخاطبين بالدّليل المفحم السّابق انتقل الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب؛ لأنّ ذلك هو النّتيجة الحتمية لثبات قدرة الله؛ إذ يستوي عنده خلق الواحد وبعثه وخلق الملايين من البشر وبعثهم من جديد ما دامت الإرادة الإلهية تفعل ذلك بمجرد توجّه مشيئتها بقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧). وإلاّ فما وزن وجودنا -نحن البشر- وما قيمتنا أمام خلق السّماوات والأرض كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (غافر:٥٧).

وفي التّعقيب بذكر الصّفتين: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إيماء إلى أولئك الذين يمترون

١- رواه الترمذي بلفظ قريب من حديث ابن عباس، كتاب (٤٨) تفسير القرآن، باب (١٨) سورة إسرائيل، رقم ٣١٤٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ٥/٣٠٤.

على إنكار البعث بعد إقرارهم على قدرة الله في الخلق والإيجاد، بأنّ الله تعالى مطّلع على ما يضمرونه في نفوسهم ويجازيهم على ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ظاهرة تعاقب اللّيل والنّهار وتسخير الشّمس والقمر تكرّرت في القرآن بأساليب مختلفة، ولكلٍّ منها مناسبتها في موقعها، وقد ذكرت هنا في معرض بيان قدرة الله على الخلق الثّاني ليوم البعث، وذلك يلفت الأنظار إلى قدرته تعالى إلى ما هو أعظم حالا من الإنسان، إذ سخّر الشّمس والقمر في دؤوب سيرهما وانتظامه مما يكون فيه النّفع لنا وضمان حياتنا، ثم ما يتمّ من التغيير على وجه الأرض من تداخل اللّيل والنّهار، والذي هو بمثابة طروء الحياة والموت المؤقّتين لأحوال الأرض كحالة النّوم للإنسان. وفي تحديد الأجل المسمّى لسير الشّمس والقمر إيماء إلى قيام السّاعة وتذكير بالبعث.

وهذه الظّاهرة الكونية العجيبة على ما فيها من دلالات على قدرة الله، فإن النّاس قد يتبلّد حسّ البعض منهم بحكم اعتيادهم على مشاهدتها، فلا يكادون يشعرون بالقدرة الغيبية التي من ورائها تسخر وتدبّر، ولذلك يكون للاستفهام الإنكاريّ في أوّل الآية موقعه المناسب، ومن ثَمّ يأتي التّنبيه لحقيقة أخرى يتناساها الشّاكون الغافلون وهي: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فصفة "خبير" من صفات الله الحسنى، وهي حقيقة غيبية لا يسلّم بها الكثير منهم، ففي الرّبط بينها وبين الحقائق الكونية المعترف بها إلزام للحجة على المنكرين المتعنتين.

ولتوكيد دلالات قدرته تعالى وحقيته في العبادة قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

في السّماوات والأرض﴾، وكان الخطاب لغير معيّن، وإن كان كفّار قريش يتوجّه إليهم بالأول لعنادهم وكفرهم، والباء في قوله: ﴿بأنّ الله﴾ للسببيّة، والحق هو الشيء الثابت المستقرّ، وزيادة ضمير الفصل ﴿هو﴾ لإفادة القصر الإضافي، أي ثبوت الإلهية الحقّة لله تعالى بالنسبة لتلك الآلهة الباطلة التي عبدها الناس من دونه، ذلك لأنّ كلّ ما في الوجود غير الله يتبدّل ويتحوّل، ويعتريه القوّة والضعف، ثم الفناء، إذ أوجده الله بعد أن لم يكن، وهو زائل بعد أن كان، والله وحده هو الدائم الباقي، وهذا ما عبّر عنه حقّ الشاعر لبيد إذ قال:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم -لا محالة- زائل

فالله هو العليّ الكبير، هو وحده المتّصف بالعلوّ والكبرياء، وكلّ من يدّعي هاتين الصفتين من خلقه فهو ينازع ربّه في ذلك، ويتوعّده ربّ العزّة بالنّار، إذ جاء في الحديث القدسيّ: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما أدخلته ناري**».[1]

﴿ألمْ ترَ أنّ الفُلكَ تجْري في البحْرِ بنعْمَتِ الله ليُرِيَكُم مّنْ آياته إنّ في ذلك لآياتٍ لّكُلّ صبّارٍ شكُورٍ، وإذا غشيَهُم مّوْجٌ كالظُّلَلِ دعَوُا الله مُخْلِصين لهُ الدّينَ فلمّا نجّاهُمْ إلى البرّ فمنْهُم مُّقْتصِدٌ وما يجْحدُ بآياتِنآ إلاّ كُلُّ ختّارٍ كفُورٍ﴾.

غالبا ما تجيء مثل آيات تسخير البحر في غير ما سورة من القرآن، تجيء في معرض بيان فضل الله على خلقه، بجعل البحر وسيلة للارتزاق بصيد الأسماك التي نأكلها لحما طريّا، أو استخراج الحليّ الثّمين، أو لتسخير البحر لسير السّفن، مع ما تتعرّض إليه أحيانا من العواصف المهلكة، التي لا تملك

١- تقدم تخريجه: ص ٤١٥.

الإنجاء منها إلا الله إذا شاء، وهنالك يأتي ذكر الله في معرض التذكير بآيات الله وعظمته، ليتناسق ذلك مع الآيات المذكورة سابقا.

وفي التعقيب على تسخير تلك النعمة يجيء قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وهو التعقيب نفسه الذي ورد في سورة الشورى للتذكير بنفس النعمة في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ. إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (الشورى ٣٢-٣٣).

وفي معنى الصّبر والشكر، الإيمان والعبادة لله، وهما صفتان للمؤمنين الأوفياء الذين يصبرون في الضّراء ويشكرون في السّراء فهم إذا تعرّضوا لضيق وشدّة كما يحدث للمسافر في هول البحر، إتجهوا إلى الله بدعائهم مخلصين، وإذا نجّاهم إلى البرّ شكروا الله على ذلك وازدادوا به إيمانا ويقينا، على عكس الجاحدين لنعمة الله، فهم سرعان ما يعودون إلى كفرهم وغدرهم، وأمثلهم طريقة من يكون مقتصدا في كفره، فلا يبلغ حدّ الصّدود والنكران ممن وصفه الله بأنه ختار كفور.

والله أعلم.

التّذكير بوعد الله الحقّ، واختصاصه تعالى بعلم الغيب.

أ) - النص:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ
عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ
﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

ب)- التحقيق اللغوي:

﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾: ﴿يومًا﴾ منصوب على المفعولية لا على الظرفية. ﴿لَا يَجْزِي﴾: أي لا يكفي ولا يغني، وعدّي بـ"عن" ليكون له معنى قضى عنه ودفع عنه، وخشية اليوم بمعنى الخوف من أهوال ما يقع فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾: ﴿مَوْلُودٌ﴾: مبتدأ خبره جملة ﴿هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾، منصوب مفعول به لـ"جاز"، والجملة معطوفة على الأولى. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: أي كلّ ما وعد الله به عباده هو حقّ لا ريب فيه، والمراد به هنا وعده بالبعث ليوم الحساب والجزاء. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾: الباء للسببية، والمعنى بحلمه وإمهاله، و﴿الْغَرُورُ﴾: كلّ ما غرّ الإنسان من المال والجاه أو الشّيطان والنّفس الأمّارة بالسّوء. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: قدّم لفظ الجلالة إجلالا وتعظيما لله، وتقديم: ﴿عِندَهُ﴾ لإفادة الحصر. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: أي يتفرد بعلم جميع أطواره وأحواله، وجيء بالمضارع لإفادة تكرّر ذلك العلم بتبدّل تلك الأطوار والأحوال. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: ﴿مَا تَدْرِي﴾: نفي للدّراية، والدراية: علم فيه معالجة للاطلاع على العلوم، فلا يعبّر بذلك عن علم الله.

ج)- أوجه القراءة:

﴿يُنَزِّلُ﴾: قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر بالتضعيف، من فعل: نزّل، وقرأه الباقون بضم التحتية وسكون النون، من فعل: أنزل، المهموز، والقراءتان متكافئتان.

د)- البيان والتّفسير:

في ختام السّورة الكريمة، وبعد تلك الجولة في أرجاء ملكوت الله لنستشف من خلالها قدرة الله وعظيم سلطانه، وإذ تضاءلت قوّتنا أمام أهوال البحر المتلاطم الأمواج، وقد فزعنا إلى الله نلتمس منه النّجاة، وإذ أصغينا إلى نداء الفطرة ونحن مشدوهون بذلك الهول، تجيء ذلك النّداء الرّبّاني خلفه في ختام السّورة ليهزّ المشاعر ويوقظ الضّمائر إلى خشية الله وتقواه، أنّه تعالى يملك وحده مفاتح الغيب، وأنّ ما وعد به خلقه من البعث والنّشور هو حقّ لا ريب فيه، في تصوير مؤثّر رهيب فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

النّداء لكافّة الخلق في كلّ زمان ومكان، ويؤيّده اختيار كلمة "الرّبّ" مضافة إلى جميع المخاطبين، وهي تحمل معنى الرّعاية والإنعام، وهي ممّا جعله الله مستكنًّا في أصل فطرة الإنسان، بقطع النّظر عن إيمانه أو كفره. كما يفصح عنه قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ (١٧٢).

والأمر بالتّقوى مناسب لما تقدّم من أوّل السّورة في التّدليل على عظمة الله وقدرته، سيما في النّصّ السّابق، إذ لا مفرّ للإنسان من اللّجوء إلى الله في وقت الهول والشّدّة، وإذ لا هول أعظم من اليوم الآخر، الّذي وصفه الله بقوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل:١٧).

والخشية من هذا اليوم تقتضي من المؤمن الإعداد له بما يقدّمه من الأعمال الصّالحة المؤسّسة على الإيمان الصّحيح، ولا يكتفي بمجرّد الأماني الكاذبة، ممّا يعلّق
28 به أهل النّفاق من الشّفاعة أو الفدية أو النّسب مهما توثّقت أسبابها وتقاربت،

كعلاقة الوالدين بالولد، وهي أوثق علاقة تدعو إلى التضحية والفداء، ولكن لهول ذلك اليوم تتقطّع الأسباب، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون:١٠١).

والأمر بخشية ذلك اليوم هو لإثبات وقوعه تعريضا بالمشركين الذين ينكرونه، فإذا انتفى فداء الوالد لولده، -وهو أشد حنوّا وإشفاقا-، فكيف بمن دونه في ذلك؟، وقد أفصح الله على ذلك في قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ، يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنَ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس:٣٣-٣٧).

ثم أكّد الله ذلك بأنّ وعده حقّ بصفة عامّة، ولو أنّ الوعد هنا هو البعث والنّشور، كما يدلّ عليه السّياق، والحقّ هو الأمر الثّابت الذي لا يتغيّر مهما كان موقف النّاس منه إيمانا أو كفرا، ولذلك فرّع الله على ذلك التأكيد النّهي عن الاغترار بفتنة الحياة الدّنيا وبالغرور بصفة عامّة، والغَرور -بفتح الغين- هو كلّ ما غرّ الإنسان ليفتنه عن أمر دينه، وأشدّه فتنة له الشّيطان والنّفس الأمّارة بالسّوء، واغتراره بزينة الدّنيا ومتاعها، والاسم "الغرور" قابل للتعبير عن كلّ تلك المفاتن التي حذّر منها الله تعالى في كثير من آيات القرآن.

وبما أن المشركين لا ينفكّون عن شكوكهم في وقوع البعث ويتحدون الرّسل بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس:٤٨)، فقد ختم الله تلك الجولة التّذكيرية بذكر مفاتح الغيب الخمسة التي استأثر بعلمها وحده فقال: **﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**.

فهذه الآية الختامية جاءت على الاستئناف البياني للإجابة على ذلك السّؤال المقدّر المتقدّم، وما أروع التّناسق في بيان إحاطة علم الله بعالم الغيب

مما عبّر عنه لقمان لولده.

ولذكر تلك الأمور الغيبية التي روى الإمام البخاريّ ومسلم في ما روياه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله**». ثم قرأ: ﴿**إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾.[1]

والعندية تقتضي الخصوصية لله في علم ذلك. والعلم بالساعة تعني تحديد موعدها، كما قال تعالى: ﴿لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ﴾ (الأعراف:١٨٧). وقد قسّم العلماء الساعة إلى ثلاثة: كبرى، ووسطى، وصغرى. فهناك إلى موعد فناء العالم أجل كلّ فرد منّا لا يعلمه إلاّ الله، كما يعلم المكان الذي يموت فيه. ومن صفات الله الحسنى العليم الخبير، وهو ما يليق بجلاله في ما عبّر عنه في هذه الأمور الغيبية بقوله: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، ويعلم ما في الأرحام. وأمّا الدّراية -وهي العلم الذي فيه مبالغة وحيلة للاطلاع على العلوم- فهو ما يناسب الإنسان، فهو يحاول معرفة المستقبل، فيقع في ضروب من التخمين والأوهام.

أما قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ بصيغة المضارع، فلإفادة التجديد والاستمرار، مع ما يفيده فعل "التنزيل" من القدرة والإرادة الإلهية في تصريف ذلك كيف يشاء. وفيه إيماء إلى البعث، إذ ليس من الصّدفة أن يقترن علمه تعالى بما في الأرحام وإنزال الغيث لإحياء موات الأرض.

ولعلنا نتردّد في التحقّق من هاتين الظاهرتين الغيبيتين، أي علم ما في الأرحام وإنزال الغيث نظرا إلى ما وصلت إليه الكشوفات العلمية باستخدام الأشعة في معرفة نوعية الجنين في بطن أمّه أذكر هو أم أنثى؟، وكذلك التنبّؤات الجوّية لمعرفة

١- رواه البخاري من حديث ابن عمر، كتاب (٦٨) التفسير، باب (١٢٣) تفسير سورة الأنعام، رقم ٤٣٥١: ١٦٩٣/٤.

نزول الغيث، أو إزالة بتفجير بعض القنابل الخاصة...إلخ؟.

وللإجابة على ذلك التساؤل، يقول الشيخ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي: "والتنبؤات الجوية ليست علما بالغيب، بل هي استنتاجات مضمونة من بعض الظواهر الكونية القريبة والبعيدة، وكذلك الكشف بالأشعة على ما في البطن لمعرفة نوع الجنين، إن ذلك شيء غير الإحاطات التامة بمعرفة ما تحمل كلّ أنثى من البشر والدواب والطيور على امتداد الزمان والمكان".[1]

ويصدق في معرفة الإنسان الضيقة الناقصة ما قاله الشاعر:

قل للذي يدّعي في العلم معرفة   علمت شيئا وغابت عنك أشياء

ويبقى اللغز المحيّر في تحديد انتهاء الأجل متى، وأين يكون؟، أو معرفة أحداث المستقبل، وعلى قدر الاشتياق لمعرفة ذلك والمحاولات الكاذبة من الكهّان والسّحرة والمنجّمين فسيبقى ذلك غيبا مجهولا لا يعلمه إلا الله يلتجئ إليه عباده يطلبون منه حسن الخاتمة وجميل العاقبة، ويرجون منه اللّطف في القضاء؛ لأنه هو اللّطيف بعباده، الخبير بما يصلح لهم دنيا وأخرى.

وبهذه الخاتمة المؤثرة المتسقة مع جوّ السّورة تتأكّد عظمة الله لتنشر الرّهبة والإجلال في قلوب المؤمنين.

تمّت

تم بحمد الله الجزء العاشر،

ويليه بإذن الله تعالى الجزء الحادي عشر،

من بداية سورة السجدة.

١- محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي للقرآن الكريم: ص ٣١٨.

الفهارس

فهرس الآيات والعناوين الرّئيسيّة 436
فهرس الأحاديث 442
فهرس الآثار 444
فهرس الأبيات الشّعرية 445

فهرس الآيات والعناوين الرئيسيّة

تفسير سورة الشعراء

الآية	العنوان	الصفحة
-	بين يدي السورة	5
09-01		7
22-10	من قصّة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه	13
37-23	الجدال في إثبات وجود الله، وانبهار فرعون بمعجزة موسى	20
51-38	اللقاء الحاسم، وإيمان السحرة لله، وكيف انتقم منهم فرعون	26
68-52	نجاة موسى وقومه، وإغراق فرعون وجنده	32
89-69	قصة إبراهيم مع قومه، ودعاؤه لربّه	38
104-90	تصوير عاقبة التقوى والغواية	46
122-105	من قصة قوم نوح عليه السلام	51
140-123	قصة هود عليه السلام مع قومه عاد	56
159-141	قصة صالح عليه السلام مع ثمود	63
175-160	قصة لوط عليه السلام مع قومه	68
191-176	قصة شعيب عليه السلام مع قومه (أصحاب الأيكة)	72
212-192	القرآن أعظم آية لرسول الله ﷺ	79
227-213	آداب الداعية، وتنزيه القرآن عن الشياطين	86

تفسير سورة النمل

-	بين يدي السورة الكريمة	95
06-01	رسالة القرآن، ومصائر المؤمنين والكافرين	97
14-07	لقطات من قصّة موسى عليه السلام	101
19-15	من قصة داود وسليمان عليهما السلام (سليمان والنملة)	107
28-20	سليمان والهدهد	114
37-29	جواب بلقيس على كتاب سليمان، وردّة فعله	121
44-38	زيارة بلقيس لسليمان، وإسلامها لربّ العالمين	126
53-45	من قصّة صالح وثمود	133
58-54	من قصّة لوط عليه السلام	138
66-59	من آيات وحدانية الله تعالى وقدرته	142
75-67	إنكار المشركين للبعث	153
81-76	القرآن أعظم دليل على نبوة محمد ﷺ	159
90-82	من مقدمات القيامة وأماراتها	164
93-91	الرسول قدوة في دعوته، والناس موكلون على أنفسهم	172

تفسير سورة القصص

-	بين يدي السورة الكريمة	176
06-01	من عدل الله نصرة المستضعفين	178
13-07	نشأة موسى في قصر فرعون، وطمأنة أمه	183

21-14	من قصّة موسى: قتله للمصري وخروجه من مصر	190
28-22	من قصة موسى: توجهه إلى مدين وخروجه من مصر	196
32-29	من قصة موسى: عودته إلى مصر ونبوته	203
37-33	من قصة موسى: نبوة هارون وذهاب موسى إلى فرعون	208
43-38	ادعاء فرعون الألوهية، وعاقبة عناده	212
51-44	الإخبار بقصة موسى إثبات لنبوة محمد، إذ لا يمكن أن يعلمها إلا بطريق الوحي	217
55-52	إيمان طائفة من أهل الكتاب بالقرآن	223
61-56	الرّدّ على شبهات المشركين	227
70-62	تقريع المشركين يوم القيامة، والله هو صاحب الحق المطلق في الاختيار	234
75-71	أدلة عظمة الله ببديع صنعه، وتأكيد تقريع المشركين	240
82-76	تعاظم قارون بأمواله، وسوء عاقبته	245
88-83	تثبيت فؤاد الرسول، ووعده حسن العاقبة في الدنيا والآخرة	255

تفسير سورة العنكبوت

-	بين يدي السورة الكريمة	260
07-01	اختبار الناس بالفتن، وجزاؤهم	262
13-08	أحوال علائق المسلمين بالمشركين، ومواقف المنافقين	268
15-14	مختصر قصة نوح الطَّيْلا مع قومه	274
23-16	من قصة إبراهيم الطَّيْلا	277
27-24	إنجاء إبراهيم من النار، وإنعام الله عليه بذرية صالحة	285
35-28	رسالة لوط إلى قومه، وإنجاؤه من عذاب الرجز	289
40-36	قصص أنبياء آخرين مع أقوامهم (شعيب، وهود، وصالح، وموسى)	295
45-41	ضرب المثل لحال من اتخذ الأولياء من دون الله، والتنويه بشأن المؤمنين	300
49-46	طريقة مجادلة أهل الكتاب	306
55-50	بعض المطالب التعجيزية من المشركين	311
60-56	الأمر بالهجرة فرارا من الفتنة	316
63-61	اعتراف المشركين بأن الله هو الخالق الرازق، وهو المحيي والمميت	321
69-64	بيان أنّ الحياة الدنيا كالخيال، وأن الآخرة هي الحياة الباقية	323

تفسير سورة الروم

-	بين يدي السورة الكريمة	329
07-01	الأيام دول بين الناس، يوم لك ويوم عليك	331
10-08	التحريض على التفكّر في الأدلّة الدّالّة على وجود الله ووحدانيته	336
16-11	انفراد الله بالتصرّف في إيجاد الخلق وإفنائهم، وما يكون عند رجوعهم إليه	341
27-17	من دلائل قدرته تعالى في الأنفس والآفاق	344
32-28	أدلّة الوحدانية من واقع الناس، وأنّ الإسلام دين الفطرة	356
37-33	التذبذب بين الكفر والإيمان	362
40-38	الترغيب في الإحسان إلى ذوي الحاجات، والنهي عن الكسب الحرام	366
45-41	ما الفساد العالمي إلا من اكتساب الناس، وطوق النجاة في الثبات على الدين الحق	371
53-46	من آيات الله الدالة على تفرّده بالإلهية	375
57-54	أطوار حياة الإنسان الأولى، وأحواله في الحياة الثانية	383
60-58	إعراض المشركين عن القرآن، وأمر النبي بالصبر والسلوان	387

تفسير سورة لقمان

بين يدي السورة الكريمة 390

05-01 التنويه بشأن القرآن، وبيان أوصاف المؤمنين به 391

09-06 الناس إزاء القرآن بين إقبال وإدبار 393

11-10 الاستدلال على وحدانية الله تعالى 399

19-12 وصايا لقمان الحكيم لابنه 402

24-20 تعداد دلائل الوحدانية ومنن الله، مع بيان أصناف الناس إزاء ذلك 416

32-25 منطق الفطرة حين تواجه دلائل القدرة الإلهية 421

34-33 التذكير بوعد الله الحق، واختصاصه تعالى بعلم الغيب... 429

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الصفحة
أشد الناس بلاء	264
الله خير، والله حر	146
والله ما بعد الموت من مستعتب	256
إن روح القدس معك	92
إن الله كتب الإحسان	251-118
إن المؤمن يجاهد بسيفه	93
أنّ المشركين كانوا يجبّون	333
أن هؤلاء الثلاثة	92
إن اليهود قالوا لرسول الله	425
إني خلقت عبادي حنفاء	361
أقرب ما يكون العبد إلى ربه	412
ثلاث مهلكات	222
خالق الناس بخلق حسن	58
شكونا إلى رسول الله ﷺ	263
صلوا كما رأيتموني أصلي	413 ،99
عجبا للمؤمن	366
فمن كانت هجرته إلى الله	319
فيه ما لا عين رأت	336

كان خلقه القرآن 175
الكبرياء ردائي 428-415
كلمتان خفيفتان على اللسان 348
الكيس من دان نفسه 49
لا تدخلوا مساكن 65
لا تطروني كما أطرت 318
لا يؤمن أحدكم 279
لم يكن لقمان نبيا 405
لن يدخل الجنة أحداً عمله 45
ليسوا بشيء 91
ما المسؤول عنها 152
مفاتح الغيب خمس 433
من ابتلي بشيء 140
من رأى منكم منكراً 413
من سنّ في الإسلام سنّة حسنة 273
نحن معاشر الأنبياء 110-108
نزول سورة الرّوم توافق مع غزوة بدر 329
هم شهداء الله عز وجل 170
ويل لمن جعله للشر 216
يا معشر قريش 88

فهرس الآثار

طرف الأثر	الصفحة
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	413
إن قريشا سألوا رسول الله	390
إن المفاتح هي الخزائن (ابن عباس)	249
إنها نزلت في عياش بن ربيعة (ابن عباس)	269
الإيمان ما وقر في القلب (الحسن)	93
الآيات من قوله تعالى (ابن عباس)	5
الربا نوعان (ابن عباس)	370
الشهداء أحياء عند ربهم (ابن عباس)	170
اللهم اجعلها رياحا	376
فلما شكوا في أمرها (ابن عباس)	189
قضى أكثرهما وأطيبهما (ابن عباس)	201
لذكر الله إياكم برحمته (ابن عباس)	305
مدين والأيكة شيء واحد (ابن عباس)	73
نزلت متتالية (ابن عباس)	95
هل تجد الصلوات الخمس (ابن عباس)	348
هو ابن خالته (ابن عباس)	248

فهرس الأبيات الشعرية

صدر البيت	الصَّفحة
الجهل لا تحيا عليه جماعة	361
أحبُّ الحسين ولكنّما	272
أخاك أخاك إن من لا أخا له	210
إذا أنت لم تنفع فضرّ فإنما	395
إذا اضطرمت فتنة في البلاد	272
وإذا حلت الهداية قلبا	412
إذا رمت أن تلقى من الناس حرمة	395-272
وإذا الصاية لاحظتك عيونها	185
وإذا البينات لم تغن شيئا	222
وإذا ضلّت العقول على علم	252-222
أرأيت أشرف وأجلّ من الذي	406
أقبل على النفس واستكمل خصائصها	163
ألا كل شيء ما خلا الله باطل	428
فالله قد ضرب الأقل لنوره	302
وإن حزروا بالتحسس طيرا تمرّ بي	134
إن حزنا في ساعة الموت	421-84
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت	340
وتزعم أنك جرم صغير	419-339

لعب كتبها الحياة 84

دع المكارم لا ترحل لبغيتها 140

دواؤك فيك وما تشعر 419-339

ربما تحسن الصنيع لياليه 251

رعاية الله أغنت عن مضاعفة 185

ضاقت فجاج الأرض منهم بالخنا 396

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة 249-10

والظلم من شيم النفوس فإن تجد 182

عبر الأثير إلى الخلائق كلها 396

وفي كل شيء له آية 283

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد 361

قل للذي يدّعي في العلم معرفة 434-110

قم للمعلم وفّه التبجيلا 406

كالبحر يقذف للقريب جواهرا 148

كبحر تمطره السحاب وما له 148

كم منزل في الأرض يألفه الفتى 205

لا تنكروا ضربي له مثلا 302

ولا يقيم على ضيم يراد به 318

ولقد أمر على اللئيم يسبني 227

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها 247

ولقد علمت بأن دين محمد 229

وللهِ في كل تحركة	283
لولا الملامة أو حذار مسبة	229
وليس بعامر بنيان قوم	340
ليس من مات فاستراح بميت	163
وما أكثر الإخوان حين تعدّهم	50
ما شئت لا ما شاءت الأقدار	93
ومن البليّة عذل من لا يرعوي	156
من لم تنهه صلاته	305
ومهما تكن عند امرئ من خليقة	415
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا	308
فيقول تكاد تجن به	278

تعريف مختصر بالمؤلف

هو محمد بن ابراهيم سعيد المعروف بـ(كعباش)، من مواليد بلدية العطف ولاية غرداية، من الجمهورية الجزائرية، وآل سعيد فرع أصيل من عشيرة أولاد بكّة في بلدة العطف(تاجنينت).

أبصر نور الحياة خلال 1929م في حضن أبوين كريمين: سعيد ابراهيم بن باحمد، وهون شيخة بنت الحاج محمد. تركه والده فقيراً يتيماً لا يزيد عمره عن سنتين، وليس معه إلا أختان، توفّيت إحداهما فأصبح وحيد أمّه وقرّة عين لها، فاعتنت بتربيته على حبّ الله ورسوله وعلى حفظ كتاب الله في سنّ مبكّرة، وقد وهبه الله ذاكرة قويّة وذكاءً لامعاً، ولم يكن كتاب قريته ليُقنع طموحه في التعلم، فارتحل إلى معهد القرارة عند الإمام الشيخ بيّوض الحاج ابراهيم بن عمر، ثم إلى تونس الخضراء حيث درس العلوم العربية والشرعية في الجامع الزيتوني ودرس العلوم التطبيقية في المعهد الخلدوني.

بدأ العمل في مجال التربية والتعليم أستاذاً ومديراً في القطاع الدّيني الحرّ في فترة الإستعمار، ثم في القطاع العمومي بعد الإستقلال الوطني حتى تقاعده عن العمل سنة 1990م.

انتسب إلى الجامعة الجزائرية في أوائل السبعينيات فحصل على شهادة الليسانس في الأدب العربي، وانخرط عضوا رسميّاً في حلقة العزابة للمسجد الجامع بالعطف في سنة 1958م، ثم عيّنته الحلقة إماماً ومرشداً في سنة 1970م، وهو ما يزال يقوم بمهمّته النبيلة في الإصلاح الديني والاجتماعي نصحاً وإرشاداً وتجلية لمعاني كتاب الله وسنّة رسوله على منبر المسجد، بعد أن حدا بصفوف الأجيال على مقاعد الدّراسة لما يقرب من أربعين سنة في مسيرة

مهنية متواصلة لم تنقطع بفترة مرض أو انحراف عن الخط لوجهة أخرى، وذلك بفضل الله تعالى.

وقد أسهم المؤلف بقسط وافر من التضحية والجهد في صفوف جبهة التحرير الوطني ويتشرّف بعضوية منظمة المجاهدين دون منّ ولا غرور، وهو متزوّج وأب لتسعة أولاد، وفّقه الله تعالى إلى مواصلة مسيرته في نصرة دينه وخدمة كتابه، وجعل عمله خالصاً مخلصاً لوجهه الكريم. آمين.

محتوى أجزاء التفسير

- **الجزء الأول**: من بداية سورة الفاتحة إلى الآية 203 من سورة البقرة.
- **الجزء الثاني**: من الآية 204 من سورة البقرة إلى الآية 175 من سورة آل عمران.
- **الجزء الثالث**: من الآية 176 من سورة آل عمران إلى الآية 26 من سورة المائدة.
- **الجزء الرابع**: من الآية 27 من سورة المائدة، إلى آخر سورة الأنعام.
- **الجزء الخامس**: من بداية سورة الأعراف إلى الآية 33 من سورة التوبة.
- **الجزء السادس**: من الآية 34 من سورة التوبة، إلى آخر سورة هود عليه السلام.
- **الجزء السابع**: من بداية سورة يوسف عليه السلام إلى آخر سورة النحل.
- **الجزء الثامن**: من بداية سورة الإسراء إلى آخر سورة طه.
- **الجزء التاسع**: من بداية سورة الأنبياء إلى آخر سورة الفرقان.
- **الجزء العاشر**: من بداية سورة الشعراء إلى آخر سورة لقمان.

أيها الأخ المسلم :

لاشك أنك تتعرض لنفحات الرحمن وأنت تناجيه في صلاتك، أو تهيم في جلاله وأنت في خلواتك، أو تتلو كتابه في تدبر وإمعان، فتزيد إيمانــا على إيمــان . . .

لقد من الله علي بتلك النفحات، وأنا أرتـع في رياض كتابه، وأستجلي مكنونات أسراره وعجائبه تـحقيقا وتسجيلا على صفـحات الدفتر ووعظا وإرشادا عـلى خشبات الـمنبر، فها أنذا أهديـكها "أيها الأخ المسلم" خالصة نقية، وأنت الأخ الوفي، فتقبل مني هذه الهدية.

المؤلف

تصوراتهم، فهو يخبرهم بتنزّل الشّياطين، ولكن لا على محمد الرّسول الأمين، بل تنزّل على الكذوب الأفّاك من الكهنة الآثمين، فأولئك هم أولياء الشّياطين يلقون أسماعهم لما يوحون به إليهم، وأكثرهم كاذبون في ما يزعمون أنهم تلقوه من الشّياطين، والتّعبير بالأكثرية، لأنّه قد يصادف للشيطان مرة أن يسترق السّمع من الملإ الأعلى فيكون صادقا في ما يوصي به لوليّه، ولكن الكاهن يخلطه بألف كذبة، ولا يموّهون بذلك إلاّ على السّذّج البسطاء فقد سئل رسول الله عن الكهّان، فقال: «**ليسوا بشيء، قيل: يا رسول الله، فإنهم يحدّثون أحيانا بالشّيء يكون حقّا، فقال: تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنيّ فيقرّها في أذن وليّه قرّ الدّجاجة فيخلطون عليها مائة كذبة**».[1]

فأين هذا الإفك من هدي رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ثم يقول تعالى عن الشّعراء: **﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾**.

الشّعر هو الكلام الموزون المقفّى، ويسمّى من يقوله شاعرا، وكان العرب مولعين بسماع الشّعر، يقيمون له أسواقا أدبية للمفاخرة كذي المجاز وعكاظ، وتفتخر القبيلة إذا نبغ فيها شاعر، وللشعر تأثير بالغ في النّفس والوجدان، والشّعراء يعتمدون على الخيال، ولذلك هم يهيمون في فنون من القول يغرقون في أوهام هي من صنع خيالهم يهربون إليها من الواقع الذي لا يعجبهم، ولا يتبعهم في ذلك إلا الضّالون ممن لا يتقيدون بمبدأ ولا خلق؛ لأن هؤلاء يجدون رغبتهم في الفسق والمجون مما يروّجه الشّعراء، وقد وصفهم الله بأمرين متناقضين:

١- رواه البخاري من حديث عائشة، كتاب (٨١) الأدب، باب (١١٧) قول الرجل للشيء ليس بشيء وهو ينوي أنه ليس بحق، رقم ٥٨٥٩. ورواه مسلم من حديثها أيضا، كتاب (٤٠) السلام، باب (٣٥) تحريم الكهانة وإتيان الكهّان، رقم ٥٩٥٣.